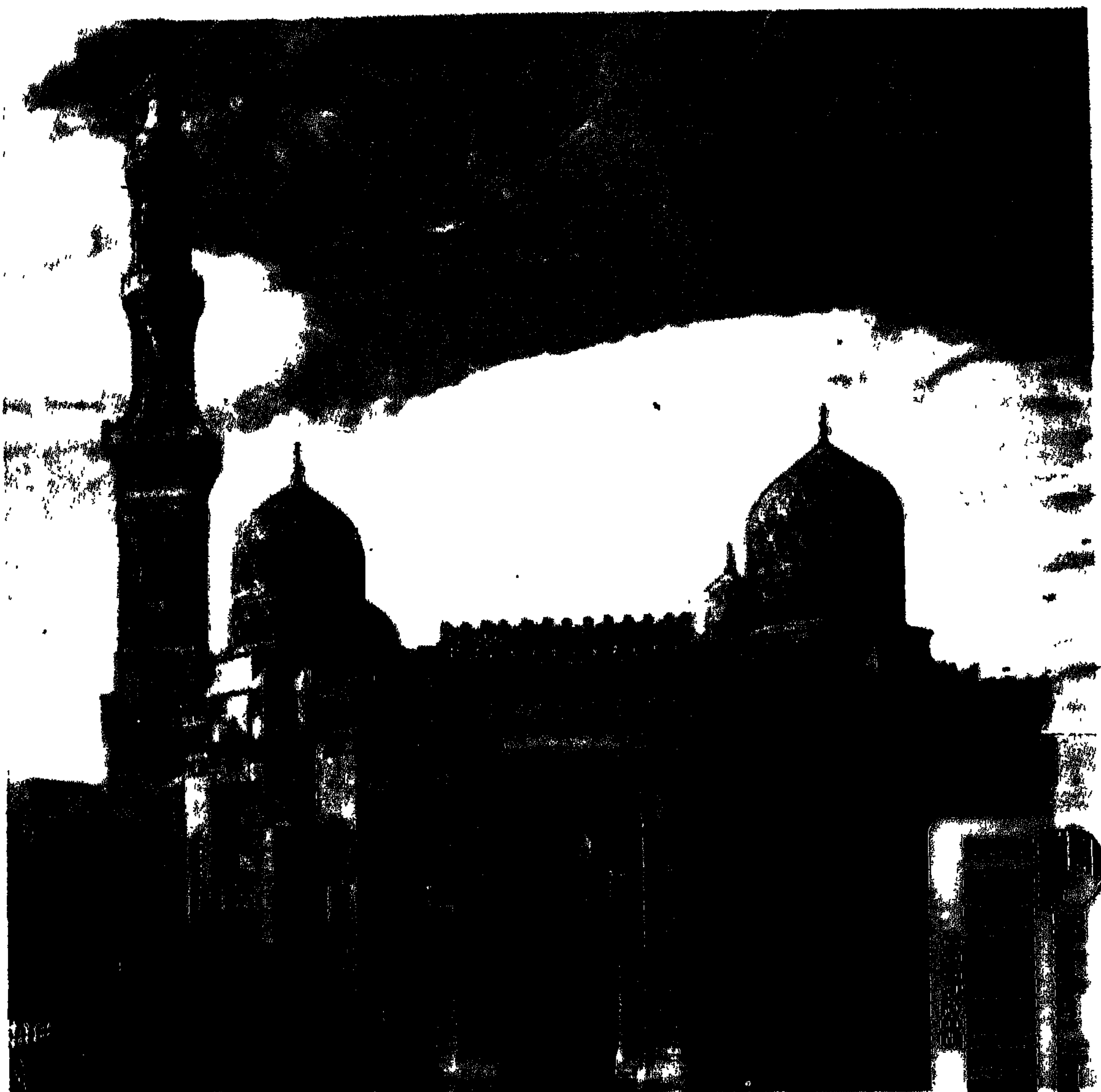
تاريخ الإسكندرية وحضارتها

فى العصر الإسلامى



تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية

١٩٨٢

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ اسكندرية

تاريخ الإسكندرية وحضارتها

في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

١٩٨٢

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ اسكندرية

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

حظيت الإسكندرية العاصمة القديمة لمصر البطلمية والرومانية بعناية المؤرخين والجغرافيين القدامى منهم والمسلمين، فزارها عدد كبير منهم فى العصور المختلفة وبهرهم تخطيطها ونظام شوارعها، فامتدحوا مبانيها وعبروا عن إعجابهم بروائعها، ووصفوا عمرانها الزاهر وآثارها العظيمة التى احتفظت بها الإسكندرية فى العصرين اليونانى والرومانى والعصور الوسطى. وكان ممن زارها ووصفها المؤرخ بوليبيوس فى العصر اليونانى، والجغرافى سترابون فى بداية العصر الرومانى. أما فى العصر الإسلامى فقد كانت مركزاً من مراكز الرحلة لما احتوته من عجائب وغرائب، فزارها فى هذا العصر جمهور من الرحالة المسلمين والمسيحيين على السواء، سحرهم بياض أبنيتها (١)، ونظافة شوارعها، واستقامتها، وكثرة آثارها، وسجلوا إعجابهم بهذه الآثار فى كل ما كتبوه من تواليف، وزعموا أنها «إرم ذات العماد التى لم يخلق

---

(١) يقول ياقوت الحموى: «أما صفة بياضها فهو إلى الآن موجود، فان ظاهر حيطانهم شاهدناها مبيضة جميعها إلا اليسير النادر لقوم من الصعاليك» انظر ياقوت، معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٦. وقال ابن عبد الحكم فى ذكر بياض مبانيها: «أن ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها، وكان لباسهم فيها السواد والحمرة، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من لصوع بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام». (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١ ص ٦١ — المقريزى، الخطط ج ١ ص ١٤٨، ١٥٠ — السيوطى، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧. راجع أيضاً النويرى السكندرى، الالمام بالاعلام بما جرت به الأحكام صورة شمسية بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، رقم ٧٣٧ م ورقة ٢٧٢ أ عن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة

مثلها فى البلاد » (١) ، ولذلك لا يخلو كتاب من كتبهم من وصف آثارها البطلمية والرومانية مثل المنار ومسلتى كليوباتره وعمود السوارى والشوارع المقنطرة (٢) المرصوفة بالبازلت والمفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون . وممن زارها من الرحالة فى العصور الوسطى : ياقوت الحموى، وابن رشيد السبتى ، وابن سعيد المغربى ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وناصر خسرو ، والعبدرى ، وبنيامين التطيلى . . . إلى آخره .

---

(١) ذكر ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة أن الذى بنى الاسكندرية شداد بن عاد ، وقال ابن لهيعة : بلغنى أنه وجد حجر بالاسكندرية مكتوب فيه ، « أنا شداد بن عاد وانا الذى نصب العماد ، وحيد الأحياد وسد بذراعه الواد » (ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ص ٦٠ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧) ويذكر المقريزى ان الاسكندر اصاب فى الاسكندرية « اثر بنيان وعمداً كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من حمير وملوك عاد : انا شداد بن عاد ، شددت بساعدى الواد ، وقطعت عظيم العماد وشواسخ الجبال والأوطاد وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد.» (الخطط ج ١ ص ١٤٩) .

(٢) ذكر المقريزى أن « أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر » (المرجع السابق ص ١٥٠). ولقد أعجب الرحالة المسلمون بشوارع الاسكندرية، فقد ذكر ياقوت الحموى عن الأزهر بن سعيد أنه قال : « قال لى عمر بن عبد العزيز أين تسكن من مصر ، قلت أسكن الفسطاط ، فقال أف أم نتن ، أين أنت عن الطيبة . قلت أيتهن هى ، قال الاسكندرية . » (أنظر معجم البلدان ، المجلد الأول، ص ٢٠٨) وذكر ابن حوقل النصيبى : ان للاسكندرية « طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون » (ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥١) ووصف ابن جبير الأندلسى شوارعها فقال : « ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أحفل منه » (الرحلة ص ٤٠) . كذلك شاهدها صاحب كتاب « الاستبصار فى عجائب الأمصار » فى القرن السادس الهجرى ، وعبر عن إعجابه بعمرانها واتساع شوارعها بقوله : « والاسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها ، واتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها » (الاستبصار فى =

وهكذا اهتم المؤرخون القدامى والمحدثون بدراسة تاريخ هذه المدينة فى العصرين اليونانى والرومانى ، وذكر آثارها القديمة ، فى حين لم يلق تاريخها الإسلامى منهم إلا عناية شاحبة هزيلة لا تشبع هوى الباحث أو الدارس لتاريخها هذا . كذلك لم تلق الإسكندرية فى العصر الإسلامى العناية والاهتمام اللذين لاقتهما مدينة القاهرة مثلا ، ولعل ذلك يرجع إلى الطابع اليونانى الذى كانت تتميز به الإسكندرية رغم تعريبها ، أو إلى ضياع الجزء الأعظم من معالمها الإسلامية بسبب تطور عمرانها وتجدد هذه المعالم . وهكذا ظل جانب هام من تاريخ هذه المدينة العظيمة مهملا حتى ظهرت الأبحاث القيمة التى نشرها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال والأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة والأستاذ حسن عبد الوهاب ، فكشفت هذه الأبحاث القيمة عما خفى من هذا التاريخ . ومع ذلك فمازال تاريخ هذه المدينة فى العصر الإسلامى فى حاجة إلى المزيد من الأبحاث العلمية ، خاصة بعد أن أسفرت الأبحاث الأثرية فى أرض الاسكندرية عن كشف أجزاء من سورها الإسلامى مما قد يساعد على إعادة تخطيط المدينة كما كانت فى هذا العصر .

ولقد تنبهت جامعة الإسكندرية إلى أهمية دراسة تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وحرصت على تدريسه بكلية الآداب منذ العام الماضى لإتصاله اتصالا مباشراً بالتاريخ العام لمصر الإسلامية ، ولعلاقته الوثيقة بتاريخ الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط ، وللدور الرائع الذى لعبته مدينة الإسكندرية فى المجال العلمى والسياسى والاقتصادى فى مصر منذ الفتح العربى حتى العصر الحاضر .

= عجائب الأسصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ ص ١٠١) .

ولقد كان لى الفخر فى تدريس هذه المادة لأول مرة فى العام الدراسى ١٩٥٩ — ١٩٦٠ فرأيت أن أجمع هذه المحاضرات وأنشرها فى هذا الكتيب حتى يتيسر لطلاب الجامعة الإفادة منها على أكمل وجه.

والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية فى فبراير سنة ١٩٦١ .

مقدمة الطبعة الثانية

منذ أن صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، بدأ اهتمام الباحثين فى التاريخ الإسلامى والوسيط يتزايد بتاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وبدأت أضواء البحث والدراسة تتركز عليها ، فظهرت بحوث جديدة فى تاريخها الإسلامى ، أهمها : مقالان وردا فى الكتاب الذى أصدرته محافظة الإسكندرية فى سنة ١٩٦٣ : الأول للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الإسكندرية ، بعنوان « الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية العصر الفاطمى » ، والثانى لى بعنوان « تاريخ الإسكندرية وحضارتها من العصر الفاطمى إلى الفتح العثمانى » ، ثم كتاب لى أيضاً بعنوان : « تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى » وهو بحث قصير حرصت فيه على الإحاطة بالتخطيط والعمران السكندرى فى هذا العصر ، حتى يتيسر للباحث فى تاريخها الإلمام بالتطورات التى طرأت على نظامها التخطيطى والعمرانى منذ تأسيسها ، وقد صدر هذا الكتاب فى بيروت فى سنة ١٩٦٣ ، ثم كتاب ثالث بعنوان : « أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى » لأستاذنا الراحل المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال المؤرخ العالم الذى فقدناه.

وكان من الطبيعى أمام هذه البحوث الجديدة أن أهتم فى طبعتى الثانية باجراء بعض التعديلات فى الطبعة الأولى ، فقمت باضافة فصول فى تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى يمكن أن تميط اللثام عما خفى من هذا التاريخ والدور الحضارى الهام الذى لعبته الإسكندرية أعظم ثغور مصر الإسلامية فى العصر الوسيط ، ويكشف فى آن واحد عن عظمة تاريخ الإسكندرية الحافل بالأحداث ، وروعة التراث الإسلامى الذى يتمثل فيما

تبقى من آثارها . وقد حاولت فى هذه الطبعة الجديدة أن ألقى مزيداً من الضوء على طبوغرافية المدينة فى العصر المملوكى ، وعن معالم جديدة أمدتنا بها المصادر العربية ، فاتنى فى الطبعة الأولى ، كما فات غيرى ممن كتب عن هذا العصر تسجيلها وتحديد مواضعها على خريطة المدينة . ويرجع الفضل الأكبر فى تحديد هذه المعالم إلى ما زودنا به النويرى السكندرى فى مصنفه العظيم « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية » ، والذى لا يزال بعد مخطوطا لم يشهد أضواء النشر والتحقيق ، وقد استقيت قسما كبيراً من هذه المادة من الصورة الشمسية لمخطوطة الهند التى قام بنسخها السيد درويش النخيلى المعيد بقسم التاريخ وتفضل مشكوراً باطلاعى عليها ، كما استقيت قسما منها من الصورة الشمسية لمخطوطة النويرى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٤٩ ت والنسخة المصورة منها المحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ٧٣٧ م. أسأل الله أن يوفقنى فيما أنا بسبيله والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية فى ٧ أغسطس ١٩٦٨ .

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

كان الاسكندر الأكبر يؤمن كل الإيمان بتفوق الحضارة الإغريقية على غيرها من الحضارات المعاصرة لها ، فعمد لذلك إلى نشر هذه الحضارة فى البلاد التى تغلب عليها ، ودخلت فى فلك الإمبراطورية اليونانية . وكان لابد له أن يؤسس لهذا العالم المتأغرق مركزاً حضرياً يحقق له غايته من نشر وإشعاع الحضارة الهلينية فى بلاد الشرق القديم (١) . فلما افتتح صور فى يوليو سنة ٣٣٢ ق.م. بعد حصار دام سبعة شهور ، زحف إلى مصر ودخلها، ولم تستطع قوات مازاكيس الوالى الفارسى على مصر أن تقف أمام جيوشه ، فاستسلمت لها دون قتال (٢)، ورحب به المصريون وتوجوه ملكاً على مصر فى معبد الإله بتاح بممفيس (٣). ولم يكن الإسكندر يهدف من وراء فتحه لمصر

(١) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٣ — زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان : مقال فى الكتاب الذى قدمته الغرفة التجارية بالاسكندرية بالمعرض الزراعى الصناعى سنة ١٩٤٩ ص ٣٥

(٢) آيدرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة الدكتور عبد عواد حسين والدكتور عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٦٠ — محمد عواد حسين ، مقدمة لتاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، كتاب محافظة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ١١

(٣) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 24 — زكى على : المرجع السابق ص ٣٤

تمكين فتوحاته فى آسيا الصغرى والساحل السورى فحسب ، بل كان يرمى إلى تأسيس مركز للحضارة الهلينية فيها ، يحقق له غايته من إشعاع هذه الحضارة فى بلاد الشرق القديم ، وقاعدة بحرية تهيىء له السيطرة الفعلية للساحل الشرقى للبحر المتوسط خاصة بعد أن تهدمت ميناء صور(١) ، وتكون فى ذات الوقت ثغراً مقدونياً يخلف صور فى العالم التجارى . وقضى الاسكندر فصل الشتاء فى منفيس ثم ركب فرع النيل الغربى المعروف بالفرع الكانوبى (٢) متجها إلى واحة آمون المعروفة اليوم بسيوة ، فوصل مصب هذا الفرع الكانوبى فى كانوب ، ورحل بعد ذلك إلى بحيرة مريوط ، ومنها أدرك قرية ساحلية تقع على بعد أربعين ميلا شمال نقراطيس لا يسكنها إلا نفر من صيادى الأسماك ، وكانت هذه القرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis (٣) (راقودة عند العرب) . ويذكر آريان أنه اختار هذه البقعة لتأسيس المدينة التى سماها باسمه قبل أن يرحل لزيارة معبد آمون . وقدر لهذه المدينة الخالدة أن تصبح من أعظم مدن العالم كما قدر لها أن ترث مدينة صور فيما بلغته من ازدهار اقتصادى .

وذكروا فى تبرير اختيار الاسكندر لهذا الموقع بالذات أن هذا الميناء لا يتعرض للتيارات البحرية فى شرق حوض البحر المتوسط التى كانت تدفع الرواسب النهرية التى يحملها النيل إلى مصبه نحو الشرق ، وأن هذه

(١) محمد عواد حسين ، مقال عن تخطيط المدينة فى كتاب محافظة الاسكندرية ص ١٣

(٢) عمر طوسون : تاريخ خليج الإسكندرية القديم ، ١٩٤٢ ص ٥

(٣) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ١٩٤٤ ص ١٢١ — ١٢٢ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، ص ٣٤

الرواسب كانت تهدد بسد الموانى ، الواقعة على البحر شرقى الدلتا ، ولعل الاسكندر فطن إلى الفائدة الكبرى من وجود جزيرة فاروس على مقربة من شاطىء راقودة، ولعله كان ينوى أن يتخذها حاجزا طبيعياً يحمى الإسكندرية من أنواء البحر وعواصفه (١) . كذلك أدرك الاسكندر أهمية وجود بحيرة مريوط إلى الجنوب ، وهى بحيرة عذبة كانت تصل إليها مياه النيل عن طريق قنوات تتفرع من ترعة شيديا ، وكانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر . وبالإضافة إلى كل ذلك كانت مياه النيل تصل إلى المدينة عن طريق ترعة شيديا التى تتفرع من الفرع الكانوبى عند شيديا (٢) ، كل هذه الأسباب دفعت الإسكندر إلى اختيار هذه القرية موضعا لمدينة الاسكندرية (٣) . ويرى الأستاذ زكى على أن هناك عوامل مختلفة أدت إلى اختياره هذا بعضها عوامل ذات طابع اقتصادى وأخرى ذات صبغة حربية وسياسية ، فقد كان موقع الإسكندرية شبيهاً بميناء صور الحصينة ، وأن الشبه استلفت نظر الاسكندر الذى كان ينشد تأسيس ميناء حصين يسيطر من حيث موقعه الاستراتيجى على شرق حوض البحر المتوسط ، ويتحكم فى الطرق التجارية العالمية فى آن واحد ، باعتباره مركزاً للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقى (٤) . ويأتى الأستاذ زكى على

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط الاسكندرية ، ص ٣٩

(٢) تتفرع هذه الترعة إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما فى محاذاة الشاطىء إلى كانوب (أبى قير) بينما يتجه الآخر إلى الاسكندرية ويدور جنوب المدينة ثم يصب فى الميناء الغربى المعروف بالصندوق وإن كان برشيا يعتقد أن هذا الفرع كان يصب فى الميناء الشرقية (ص ٧٨)

(٣) زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ... ص ١٣٥ ، فؤاد فرج : الاسكندرية ، ١٩٤٢ ، ص ٥

(٤) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها ص ١٣٨ — ١٤٥ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، ص ٣٥

برأى آخر فى مقاله عن « الإسكندرية فى عهد البطالمة والرومان » ، فيذكر أن راقودة كانت تؤلف المنفذ الرئيسى بين مصر وممالك البحر المتوسط ، والمركز التجارى الهام مع بلاد الإغريق فى عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين ، وأنها كانت أسهل للاتصال بالعالم الإغريقى من الفرما مما دفع الإسكندر إلى إختياره لموقعها حتى يقيم عليها مدينته الجديدة (١) ، ويرجح بريشيا أن اختيار الإسكندر لهذا الموقع جاء نتيجة لقربها من نقراطيس المركز التجارى الهام ، ولمواجهتها لجزيرة فاروس (٢) . ويرى الدكتور إبراهيم نصحى أن الاسكندر ، فيما يظهر ، قد هدف من إنشاء الإسكندرية فى هذا الموقع أن يجعلها ثغراً مقدونياً يخلف صور فى العالم التجارى ، خاصة وأن مصر لم تكن لها موانىء جديرة بها على شواطىء البحر المتوسط (٣) . على أن الدكتور ابراهيم جمعة يرى أن فكرة بناء الإسكندرية جاءت عفو خاطره ، لأنه حين استولى على صور لم يكن قد فكر بعد فى تأسيس مدينة الإسكندرية ، وأن بناء الإسكندرية لا علاقة له بأغراض تجارية (٤) . إلا أنه مما لا شك فيه أن الإسكندر ضمن لمدينته أن تكون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب وهو ما كان يسعى جاهداً إلى تحقيقه بعد أن اتسعت امبراطوريته وأصبحت تضم آسيا الصغرى وفينيقية وفارس ومصر ، وقد تحقق ذلك بالفعل فى العصر البطلمى عندما أصبحت مصر مرفقاً ومركزاً للصادرات والواردات (٥)

(١) زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum p. 25

(٣) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج ١ ص ١٣

(٤) ابراهيم جمعة : جامعة الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٢٣

(٥) لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ٣٥٣ — ٣١٠

وملتقى طرق التجارة العالمية ، ويدل اختيار الإسكندر لهذا الموقع على بعد نظره وحسن تقديره ، فكانت راكوتيس التى اختارها لهذا الغرض لا تعدو أن تكون شريطا ساحليا ضيقاً يقع بين البحر شمالا وبحيرة مريوط جنوباً ، وتشرف عليه جزيرة فاروس الصخرية من الشمال ، وتقوم بمثابة حاجز طبيعى لحماية الميناء من طغيان البحر وأنوائه . ويذكر جاستون جونديه Jondet أن بقايا الأرصفة التى كشف عنها فى قاع البحر بالقرب من جزيرة فاروس تدل على أن جزيرة فاروس كانت تستخدم كميناء قديم منذ عهد رمسيس الثانى وظيفته حماية مصر من طغيان سكان البحار ، ويستند جونديه إلى ضخامة الأحجار وتشابهها بأحجار الأبنية الفرعونية (١) . والواقع أننا لا يمكن أن نقطع برأى فى هذا الموضوع ما دمنا لم نفحص هذه الآثار ، على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الأحجار من بقايا معبد السيرابيوم ، فقد ذكر المقريزى فى الخطط . « أنه كان حول (عمود السوارى) نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا » (٢) ، أو من بقايا الأهرامات الصغيرة التى هدمها صلاح الدين واستخدم أحجارها فى بناء الأسوار والقلعة. (٣) وعهد الإسكندر إلى المهندس دينوقراطيس Denokrates

---

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, M.I.E. vol. IX, le Caire 1916.

زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) شاهد ابن جبير سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) « المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقض وينقل أحجاره إلى القلعة المبتناة الآن على القاهرة» ص ٥٧ . وشاهد أيضاً موضعاً فى منية ابن الخصيب =

بتخطيط الإسكندرية وتولى كليومينس النقراطيسى Cleomenes الإشراف على أعمال البناء ، إذ كان يقوم بادارة الشؤون المالية فى عهد الاسكندر (١) . وقام دينوقراطيس بتطبيق نظام التخطيط الإغريقى الذى ابتدعه هيبوداموس الميليطى Hippodamus فى القرن الخامس قبل الميلاد وطبقه فى رودس وهاليكارناسوس (٢) ، ويتميز هذا النظام بتقسيم المدينة إلى شوارع مستقيمة تتقاطع فى زوايا قائمة بحيث يتألف من ذلك ما يشبه رقعة الشطرنج (٣) . على أن تخطيط الإسكندرية لم يتم فى حياة الإسكندر ، إذ توفى فى ١٣ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. بمدينة بابل وهو بعد شاب فى سن الثالثة والثلاثين. وبموته يبدأ عصر

. اسمه أنصنا » كان لها سور تولى هدمه صلاح الدين وحمل على كل من كسب منحدر فى النيل وتليفة من حمل صخره إلى القاهرة لنقل بأمره إليها « ص ٥٨ .

وذكر الشيخ عبد اللطيف البغدادى المتوفى عام ٦٦٨ هـ أنه كان بالجيزة عدد كثير من أهرامات حجرية صغيرة « فهدمت فى زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب على يدى قراقوش أحد الأمراء ، وكان خصياً رومياً سامى الهمة ، وكان يتولى عمائر مصر ، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطاً بالفسطاط والقاهرة وما بينها وبالقلعة التى على المقطم وأخذ حجارة هذه الأهرامات الصغار » أنظر عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة ، ١٨٧٠ ، ص ٢٣ .

(١) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 26.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٣٢٤ — زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٢ . وقد لاحظ مؤرخو وجغرافيو العرب هذا النظام فأشار إليه ياقوت صاحب المعجم فقال « وهى شطرنجية ثمانية شوارع فى ثمانية » المجلد الأول ص ٢٦٠ . ومثل هذا النظام ماثلاً حتى أيام المماليك فقد وصفه ابن شاهين الظاهرى بقوله « وهى مدينة مربعة على عمد ، وشبهها بعضهم برقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » أنظر كتاب زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ .

جديد هو العصر الهلينستى (٣٢٣ – ق.م. ٣١ ق.م.) نعنى به عصر الحضارة المتأغرقة أو الحضارة الإغريقية التى اكتسبت كثيراً من الصفات المحلية أو العناصر المشرقية ، فابتعدت بعض الشىء عن صفتها الأصلية وهى الصفة الهلينية . وانتشر هذا النوع من الحضارة فى النواحى الشرقية للإمبراطورية الإغريقية ، ولكن مصر امتازت عن غيرها من البلاد المتأغرقة وأصبحت تحتل المركز الأول لهذه الحضارة من جميع الوجوه (١) .

حاول قواد الإسكندر أن يتفقوا فى بابل على تنصيب خلف للإسكندر ، ولكن اتفاقهم لم يكن إلا ظاهرياً ، إذ أجمعوا أخيراً على تنصيب أخ غير شرعى للإسكندر كان مصاباً بالصرع والبله اسمه أرهيدايوس الذى لقب بفيليب ، والاعتراف بحق روكسانا الفارسية زوجة الإسكندر فى إشراك طفلها – إذا جاء ذكراً – مع فيليب فى شؤون الملك ، وتعيين برديكاس الوصاية عليها (٢) . وقام برديكاس الذى كان يسعى جاهداً إلى السيطرة على عرش الامبراطورية بمهمة توزيع حكم ولايات الامبراطورية بين القواد ، فمنح حكومة مصر لبطليموس بن لاجوس الذى عرف باسم سوتر أو المنقذ ، وكان يطمع فى الظفر بها ، نظير اعترافه بمركز برديكاس كوصى على الملكين ، كما عين صديقه كليومينس النقراطيسى مساعداً لبطليموس فى مصر . وشرع بطليموس حكمه فى منف بالتخلص من كليومينس

(١) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٢٠ – لطفى عبد الوهاب : مقدمة لحضارة الاسكندرية ص ٤ ، ١٧ – زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٩

(٢) لطفى عبد الوهاب يحيى ، دراسات فى تاريخ مصر ، ج ١ ، عصر البطالمة ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٠

حتى لا يكون رقيباً عليه ، خاصة وأنه كان يهدف إلى الإستقلال بمصر عن الإمبراطورية ، فأمر بقتله ومصادرة أمواله . وازداد نفوذ بطليموس بعد ذلك عندما استولى على برقة سنة ٣٢٢ ق.م. وضمها إلى أملاكه ، وأثار بذلك غيرة زملائه وعلى الأخص بر ديكاس الذى غضب لقتل كليومينس . وكانت الفتن قد اشتعلت فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، ودبت الانقسامات بين أفراد الأسرة المالكة ، وازدادت مطامع الولاة فى الإستقلال ، وقامت بينهم الحروب ، وقنع بطليموس بتتبع هذه الأحداث من بعيد ، فانتهز فرصة انشغال بر ديكاس فى آسيا واتفق مع أرهابايوس سراً على الفوز بجثة الإسكندر التى قرر اجتماع بابل فى يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. دفنها فى مقدونية . ويبدو أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تدعيم مركزه السياسى والروحى فى مصر إذ كان المقدونيون والإغريق ينظرون إلى الإسكندر نظرة أقرب ما تكون إلى التأليه.
وكان قواد الإسكندر قد عهدوا إلى أرهابايوس بمهمة إعداد التابوت الذى توضع فيه الجثة ، وتنظيم احتفال كبير لدفنها فى إيجى Aeges (١) .
وفى أواخر عام ٣٢٢ ق.م. وصلت جثة الإسكندر إلى سوريا ، تمهيداً لإرسالها إلى مقدونية ، فانتقل بطليموس إلى هناك ، ونجح بمساعدة قائد الحامية فى نقل جثة الإسكندر (٢) إلى مصر ، حيث دفنها بادىء ذى بدء فى منف ريثما يتم بناء مقبرة لها فى الإسكندرية فيدفنها هناك. وكان ظفر بطليموس بجثة الإسكندر كسباً سياسياً له وطد مركزه ، ودعم منصبه كوريث للإسكندر فى مصر ، كما كان صفعة لبر ديكاس وتحدياً له. وكان لابد لبر ديكاس من كسر شوكة بطليموس والقضاء عليه باعتباره أشد خصومه وألد أعدائه ، فأعد الحملات

---

(١) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٣٤

(٢) لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ١٢٢

إلى مصر ، وحاصرت قواته بيلوز فى سنة ٣٢١ ق.م. ، ولكنه فشل فى اقتحامها ، وثار عليه جنده وقتلوه . وهكذا أخفق فى سياسته ، وراح ضحية أطماعه . وبموت برديكاس ثبت بطليموس على عرش مصر ، وأخذ يعمل على تقوية دعائم استقلاله ، والاتجاه بسياسة مصر نحو البحر المتوسط الذى أخذ يؤلف مركز الحضارة ، بعد أن كانت تتجه فيما مضى إلى آسيا ، فعقد أحلافاً مع جزر شرق البحر المتوسط ، وأعد نفسه لاختيار الإسكندرية عاصمة له فى مصر باعتبارها أصلح المدن المصرية لتوجيه سياسته وسياسة خلفائه الدفاعية . وفى سنة ٣١٩ ق.م. هاجم جنوب سوريا واستولى عليه ، إذ كان يطمع فى غاباته الغنية لاستخدام أخشابها فى بناء أسطوله ، تمهيداً لاصطناع سياسة بحرية.

وتألقت الحياة الإقتصادية فى مصر فى عهده ونمت موارد الدولة ، فاستغل ما لديه من أموال فى تجميل الاسكندرية ، واستكمال عمرانها ، وإعدادها لتكون جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد ، وبؤرة للحضارة الإغريقية ، فأقام بها الأبنية العظيمة ، وسار على نهج الإسكندر فى مصادقة المصريين دينيا ، إذ كان قد أسس فى الإسكندرية معبداً للإلهة إيزيس المصرية حتى يوفق بينه وبين المصريين . وفى نفس الوقت أقام معابد أخرى للآلهة اليونانية ، فحرص بطليموس على إيجاد دين مشترك يربط بين الشعب اليونانى والشعب المصرى ويقرب بينهما . فجعل للبلاد معبوداً جديداً اسمه سيرابيس Serapis ، وأقام له معبداً عظيماً جنوبى الإسكندرية فى الحى الوطنى الذى كان يعرف براكوتيس (١) .

---

(١) زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ص ١٥٥ — الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٢

ازدهرت الإسكندرية فى عصر البطالمة ، واتسعت مرافقها ، ونمت عمائرها ، وأقيمت فيها المنشآت الجليلة الرائعة وأصبحت تفوق غيرها من المدن اليونانية الرومانية ، خاصة بعد أن نقل إليها بطليموس جثة الإسكندر ودفنها فى السيما . لقد حرص بطليموس سوتر على تزويد الإسكندرية بكل ما كانت تحتاج إليه من تزيين وتنميق ، لاستكمال عظمتها ، فربط بين جزيرة فاروس وبين المدينة برصيف أو جسر طوله نحو ١٢٥٠ متراً وعرضه نحو ٣٠ متراً سمى بالهبتاستاديوم Heptastadium ، وقد قدر لهذا الرصيف أن يتسع بمضى الزمن ويصبح حيا هاما من أحياء المدينة ، وبذلك قسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين : أحدهما شرقى ويعرف بالميناء الكبير Megas Limen ، والآخر غربى يسمى ايونوستوس أى العود الحميد Eunostos (١) ، ويعرف بميناء السلام (٢) ، وهو الميناء الحالى ، وكانت تصب فيه قناة متصلة ببحيرة مريوط . وكان هذان الميناءان يتصلان بعضهما ببعض عن طريق ممرين محصنين ، فتحا بالجسر عند طرفيه الجنوبى والشمالى . ومد بطليموس من الطرف الشمالى لرأس لوكياس Cape Lochias شريطاً صخرياً ينحنى نحو الغرب ، وظيفته حماية الميناء الشرقى من عواصف البحر . واتخذ بطليموس لنفسه ميناء داخل الميناء الشرقى ، جنوبى جزيرة أنتيرودوس (٣) ، سماه الميناء الملكى أو ميناء الملوك ، وبذلك أصبح ميناء الاسكندرية يفوق سائر موانىء البحر المتوسط .

---

(١) هنرى رياض وآخرون ، دليل آثار الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٥ ص ١٢ .

(٢) زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ص ١٦٠ — الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٩ . Breccia : Alexandria Ad Ægyptum, p. 68, 78.

(٣) سميت هذه الجزيرة كذلك نسبة إلى جزيرة رودس التى كانت حكومتها ترتبط وجزيرة ديلوس بصلات من الود والصداقة مع حكومة بطليموس سوتر ، إذ كان =

وكانت ترعة شيديا تزود الإسكندرية بمياه النيل ، وكانت تتفرع من الفرع الكانوبى إلى ترعتين : شرقية وغربية ، فالشرقية كانت تسير بحذاء الشاطىء إلى كانوب بينما كانت الأخرى تدور جنوبى راكوتيس ثم تصب فى الميناء الغربى ،وكانت تتفرع من هذه الترعة قنوات أخرى صغيرة ردمت فيما بعد عند بناء الإسكندرية (١) وأقيمت بدلا منها شبكة من الصهاريج لحفظ المياه من التسرب فى جوف الأرض .

وكانت المدينة فى عصر البطالمة تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل، بحيث تؤلف شكلا مستطيلا طوله يفوق عرضه ، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة المرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر (٢) تتقاطع فيما بينها : سبعة ممتدة طولا بحذاء الساحل ، واثنى عشر تقطعها عرضاً من الشمال إلى الجنوب . وقد ذكرنا أن الفضل فى هذا التخطيط الشطرنجى يرجع إلى دينوقراطيس الذى اتبع نظام التخطيط الاغريقى الذى ابتدعه هيبوداموس الميليطى وطبق فى تخطيط المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق.م. ، مثل هاليكارناسوس وبيرايوس ورودس. وكان يخترق المدينة بطولها من الشرق إلى الغرب ، وبعرضها من الجنوب إلى الشمال شارعان رئيسيان ، لا يقل اتساع الواحد منهما عن ثلاثين مترا ، الأول يسمى الشارع الكانوبى Canopus ، لأنه يمتد من الباب الشرقى حتى ضاحية كانوب (أبى قير حالياً) ، متتبعاً

= القائمون بالحكم فيهما جاعة من التجار الذين كان يحرصون على تأمين طرق التجارة البحرية والابقاء على الصلات الاقتصادية مع مصر (لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة، ص ٣١٢)

(١) محمد عواد حسين ، تخطيط الاسكندرية ، ص ١٨

(٢) يرى الأستاذ نوك Noak أن البازلت الملون الذى رصفت به شوارع المدينة من العصر الرومانى (Breccia, op. cit. p.72.)

طريق الحرية فى الوقت الحاضر(١)، ثم يمتد من الباب الغربى حتى شاطىء البحر ، وكان يزدان على جانبيه بالأعمدة والتماثيل، كما كانت تتخلله أقواس النصر . أما الطريق الثانى فكان يقطع الطريق الكانوبى فى وسطه ، ويتفق فى تخطيطه مع خط شارع النبى دانيال فى الوقت الحاضر . وكان لهذا الطريق العمودى على البحر نفس اتساع الطريق الكانوبى وكان يزدان كذلك بالتماثيل والأقواس والأعمدة .

وقد أطلق على هذا الشارع اسم السما تحريفاً من كلمة سوما Soma ، وهى كلمة إغريقية معناها الجسد الحى (٢) ، وقد سمى كذلك بسبب وقوع ضريح الإسكندر فى نقطة التقاء هذا الشارع مع الشارع الكانوبى فى الميدان المسمى باسم Meson pedion (٣) . وكان يقوم على جانبى كل من هذين الشارعين بائكتان ممتدتان بطولها بحيث تؤلفان ممران على جانبى الطريق يحتمى تحتها المارة من سقوط المطر أو حرارة الشمس . ولقد أطلق بطليموس فيلادلفوس على شوارع المدينة اسم زوجته اريسينوى يضاف إليها ألقاب آلهات الإغريق التى شبهت بها : مثل أرسينوى بازيليا ، وأرسينوى تليا ، وأرسينوى الألوسية ، وأرسينوى خالكيويكس (٤) .

---

(١) فند بريشيا الآراء المعارضة لنظرية اتفاق الطريق الكانوبى القديم مع طريق أبى قير وانتهى إلى تأييد فكرة مطابقة تخطيط الشارع القديم مع الشارع الحالى . (أنظر بريشيا ص ٧٤) .

(٢) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة ، ص ١٢٢

(٣) ابراهيم نصحى ، مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص ٣٢٥

(٤) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ — زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ص ١٦١



(شكل ١) جانب من البرج الرومانى بالشلالات

وقد وضع بطليموس لتزويد المدينة بمياه الشرب والسقاية نظاما دقيقاً ، فمدت فى جوف الأرض قنوات لتوصيل هذه المياه من ترعة شيديا إلى صهاريج وخزانات جوفية ، ما زال بعضها قائماً حتى اليوم. وقد لاحظ مؤرخو العرب وجغرافيوهم هذا التنظيم ، فذكر المسعودى أن تحت ميناء الإسكندرية « قناطر مقنطرة عليها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة »(١) ، كما شاهدها ابن جبير فى رحلته فذكر أن « الماء يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » (٢).

وكان يحيط بالإسكندرية سور حجرى عظيم مزود بالأبراج الضخمة ، يفوق فى امتداده أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سيراقوصة وأثينا (٣) . ويبدو أن هذه الأسوار كانت من بناء بطليموس سوتر وفقاً لما ذكره تاكيتوس ، وكانت الأسوار من الجهة الشمالية الشرقية تمتد بحذاء الشاطىء حتى رأس لوكياس ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى(٤) ويعتقد بوتى Botti أن الجزء الشمالى من المدينة المطل على الساحل لم تكن به أسوار ، وأن أسوار الجانبين الشرقى والغربى كانت ثلاثية أى تتألف من ثلاثة أسوار ، وذكر ابن الحكم نقلا عن هانىء بن المتوكل أنه كان على الإسكندرية

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٧٣

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤١

(٣) Breccia, Alex. Ad. Ægyptum. p. 69. يذكر محمود باشا الفلكى أن محيط الأسوار كان يبلغ نحو ١٥٨٠٠ مترا وأن طولها كان يبلغ ٥٠٩٠ م وعرضها يتراوح ما بين ١١٥٠ ، ٢٢٥٠ م . (الاسكندرية القديمة ، ص ٦٧)

(٤) Breccia, op. cit. p. 71.

سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق (١) . وذكر كل من المقريزى والسيوطى هذه العبارة نقلا عن ابن الحكم عن عبد الله بن طريف الهمدانى (٢) . أما ابن رسته فقد أشار إلى أسوار الإسكندرية إشارة عابرة عند حديثة عن الطريق المائى الواصل بين الفسطاط والإسكندرية ، فيذكر أنه يخرج من الفسطاط فى سفينة ، ثم ينحدر فى النهر فيسير مسافة ثلاثين فرسخاً (أى ما يقرب من مائة وستين كيلو مترا) لا يرى عن يمينه وعن يساره سوى النخيل والبساتين والضياع حتى ينتهى إلى سور الإسكندرية (٣) . وكان ينفتح فى سور الإسكندرية أربعة أبواب كان يطلق على الشرقى منها اسم باب الشمس ، وعلى الباب الغربى باب القمر (٤) ، ولقد تعرضت هذه الأسوار للتجديد فى العصر الرومانى أيام هادريان وأنطونيوس . وتبقى من هذا السور آثار برج نصف دائرى بحدائق الشلالات متصل بستارة السور الأساسية ، وتتميز الأحجار الرومانية فى أدنى هذا البرج بكبر أحجامها ، وبتسنمها وبروزها على النحو الشائع فى العمارة الرومانية .

وكانت المدينة فى العصر البطلمى تنقسم إلى خمسة أحياء متجاورة ، رمز لكل منها بأحد حروف الهجاء اليونانية وهى ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١

(٢) المقريزى ، ج ١ ص ١٤٨ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٣٧

(٣) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨

(٤) زكى على ، الاسكندرية، تأسيسها ص ١٦٠ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، ص ٤٩ — جمال الشيال ، الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، ص ١٩٦

وكانت المقابر تقع فى ظاهر المدينة ، فى شرقها وغربها ، وكان اليونان والأجانب يدفنون بالمقابر الشرقية فى العصر البطلمى ، أما المقابر الغربية فكان يدفن بها المصريون وعدد قليل من اليونان ، وأغلب المقابر البطلمية كانت فى جوف الأرض ، وتتألف عادة من ممرات وغرف وجوفات منحوتة فى الصخر فى تخطيط معقد كما هو الحال فى مقابر كوم الشقافة والشاطبى (١) .

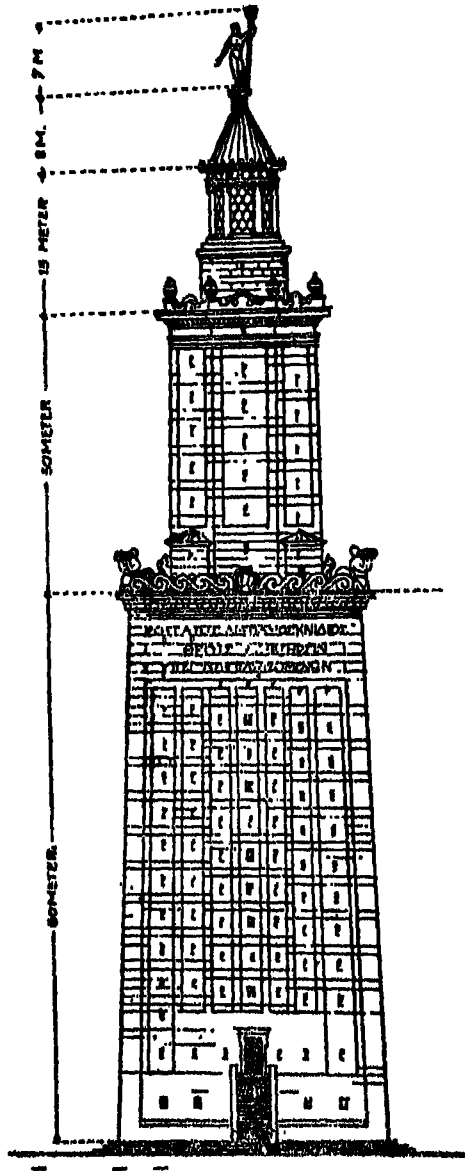
وفيما يلى أهم المؤسسات والمنشآت العامة التى أقامها البطالمة فى الإسكندرية وكانت سبب عظمتها وشهرتها : —

اولا — المنار :

كان لابد لبطليموس سوتر أن يعنى بميناء الإسكندرية حتى تتحقق له السيادة البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد رأينا أنه بنى الرصيف الحجرى الذى يقسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين ، ويصل فى نفس الوقت بين المدينة نفسها وبين جزيرة فاروس الواقعة أمامها . ولما كان يتعذر على السفن التجارية والحربية الدخول فى الفراغ الضيق الواقع بين الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة فاروس والطرف الشمالى الغربى من الشريط الصخرى المتصل برأس لوكياس ، فقد رأى بطليموس أن ينشىء عند مدخل هذا الميناء مناراً ضخماً لهداية السفن عن طريق إشعال النار فى قمته . وعهد بطليموس باقامة هذا المنار فى الموضع المذكور من جزيرة فاروس إلى المهندس سوستراتوس دى كيندوس ابن ديكسيفانس الذى شرع فى تأسيسه فى أواخر أيام سوتر ، وأتم بناءه فى أوائل عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ — ٢٧٩ ق.م.) وجاء

(١) كانت مقبرة كوم الشقافة تعرف باسم نكروبوليس

Breccia, op. cit. pp. 82-83



(شكل ٣) منار الاسكندرية وفقاً لوصف المؤرخين





بناؤه أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبعة (١). وظلت منارة الإسكندرية من أعاجيب الدنيا السبع فى العصر الوسيط حتى طليعة القرن السابع الهجرى، ولكنها أخذت تفقد مكانتها تدريجيا بعد أن أقيم على مثالها منائر أخرى فى مناطق مختلفة من العالم آنذاك، بحيث لم تعد منارة الإسكندرية فى زمن الهروى من العجائب بل أصبحت مثلها مثل أى برج للمراقبة على الساحل خاصة بعد أن أطاحت الزلازل بطابقها العلوى (٢). ولقد ضاعت معالم هذا المنار الذى ذاعت شهرته فى الآفاق، ولم يتبق منه إلا أساسه الذى أقيمت عليه قلعة قايتباى سنة ٨٨٢ هـ. فلقد تهدم طابقه العلوى فى سنة ١٨٠ هـ بسبب زلزال شديد سبب سقوط رأس المنار (٣)، وظل المنار كذلك حتى قام أحمد بن طولون بترميمه فجعل فى أعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح (٤)، ثم تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلى البحر فى عهد أبى الجيش خمارويه، فبناها (٥). ويذكر المسعودى أن ما يقرب من ثلاثين ذراعاً من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث فى أيامه فى شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ (٦). وفى عهد

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨. ويذكر المقريزى فى الخطط أنه كان « فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فاذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو». المقريزى، الخطط، ج ١ ص ١٥٧

(٢) الهروى، كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات، دمشق ١٩٥٣ ص ٤٩

(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ١٦٥

(٤) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ — السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ج ١٤٧

(٥) المسعودى، التنبيه والاشراف، ص ٤٨

(٦) نفس المصدر

الظاهر بيبرس قام ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته للإسكندرية فى سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢ م) ، وأنشأ فى أعلى المنار مسجداً فى الموضع الذى كانت تشغله قبة ابن طولون . إلا أن هذا المسجد لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) الذى سبب طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية ،(١) فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى سنة ٧٠٣ هـ . وعبثت يد الإهمال بهذا الأثر الجليل ، فلم يحاول سلاطين المماليك بعد بيبرس تعميره أو ترميمه ، وتهدم جانب منه ، ويرجح تهدم المنار كله فيما بين عامى ١٣٢٦ ، ١٣٤٩(٢) فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فلقد شاهده الرحالة ابن بطوطة مرتين : مرة فى رحلته الأولى إلى مصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد جوانبه مهدماً ، ومرة فى رحلته الثانية سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) فوصفه قائلا : « . . . . فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر — رحمه الله — شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه » (٣). ولم يبق من المنارة فى سنة ٧٧٥ فى زمن النويرى السكندرى إلا البقعة التى كانت تقوم عليها فحسب (٤) . فلما كانت أيام الأشرف قايتباى أمر بأن يبنى على أنقاض منار الإسكندرية برج جديد سمى برج قايتباى ، فتم البناء فى عامين . ولقد وصلتنا أوصاف عديدة لهذا المنار فى

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) Omar Tousoun Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe du XIIe siècle, dans B.S.R.A. fasce 30, 1936, pp. 49-53.

(٣) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ص ٤٠ .

(٤) النويرى السكندرى ، الالمام ، صورة شمسية بدار الكتب المصرية ، ص ١٠١

العصور الوسطى (١). وقد استخدم بتلر Butler بعض هذه الأوصاف فى تصوير منار الإسكندرية وتخيله كما كان قبل دثوره ، ومنه نستنتج أن المنار كان يتألف من « قاعدة مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع وتدق فى حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ، ويستدير شكلها ثم يعلوها عند القمة مصباح » (٢). ثم تبعه تيرش Thiersch الذى استخدم لوصف المنار كل ما أمكنه العثور عليه من مصادر تاريخية يونانية ولاتينية وعربية ، كما استعان بنقوش من العملات ورسوم الفسيفساء بكنيسة سان ماركو بالبندقية ، وتتلخص كل دراسته لهذا الموضوع فى رسم أظهر فيه المنار كبرج حجرى ارتفاعه الكلى ١٢٤ متراً ، يتألف من طابق أدنى مربع الشكل ارتفاعه نحو ٦٠ متراً كان يضم عدداً من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة ، ويعلو هذا الطابق جسم مثمن الشكل ارتفاعه نحو ٣٠ متراً ، وينتهى بشرفة ، ثم يعلوه جسم أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ متراً ، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران فى أعلى

---

(١) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص ٣٣٨ — ابن الفقيه الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ، ج ٥ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٥ ص ٨٢ — ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ج ٧ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٩١ — المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة محيى الدين عبدالحميد ، ج ١ ص ٣٧٥ — ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، تحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٢ ، ص ١٥١ . — ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ طبعة بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٨٣ — ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤١ — رحلة بنيامين التطيلى ، مدريد ١٩١٨ ، ص ١١٣ الهروى ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٤٨ ، ٤٩ — الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٩٦ — المقريزى الخطط ، ج ١ ص ١٥٥

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٣٤٥

المنار لهداية السفن ، ويعلو القبة تمثال ضخم من البرونز ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون (١) .

ثانيا — دار الحكمة والمكتبة :

عهــــد بطليموس سوتر إلى الخطيب الأثينى ديمتريوس فاليريوس Demetrius Phalerius بتأسيس دار الحكمة (ميوزيوم) والمكتبة فى الحى الملكى بالاسكندرية ، لتؤدى وظيفة الجامعة العلمية التى يتوافد إليها العلماء والمفكرون من كافة أنحاء العالم الهلينستى ، حتى تنافس أثينا ، مركز الثقافة الهلينية ، فى المركز الأول للاشعاع الثقافى والعلمى فى هذا العالم ، وأقام بهذه الدار عدد من العلماء برزوا فى الجغرافية والفلك والعلوم الرياضية والطب والتاريخ والأدب والفلسفة ، وكانت الدولة تمنحهم مرتبات ضخمة لتشجيعهم على أعمال البحث والتنقيب(٢) . فنبغ اراتوستينس Eratosthenes فى الجغرافيا (أول من قاس قطر الأرض) ، واريستارخوس الفلكى Aristarchus فى الفلك (أول من اكتشف المجموعة الشمسية) ، واقليدس فى الهندسة (كتب كتابه المسمى العناصر والأصول فى الرياضيات) الذى تتلمذ عليه ارشميدس ، كما نبغ تيوفراستوس فى علم النبــــات ، وأراسيستراتوس فى الجراحة ،

(١) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum, p. 108 , 109. — دليل آثار الاسكندرية ، ص ١٧ — عبدالعزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن تطورها ص ٧

دائرة معارف الشعب ، عدد ٨٥ ص ٣٢٨

فؤاد فرج ، الاسكندرية ص ٢٠ — جمال الشيال ، الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها ص ١٩٨

(٢) زكى على ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، ص ٥٤ .

وهيروفيلوس فى الطب والتشريح . وكاليماكوس Callimachus ، وتيوكريتس وأبولونيوس الرودى فى الشعر ، وازدهرت العلوم الفلسفية والأدبية فى أواخر أيام البطالمة (١) . أما المكتبة فكانت تضم عدداً هائلا من الكتب العلميـــة والأدبية ، فقيل إنها بلغت فى أيام بطليموس فيلادلفوس نحو أربعمائة ألف مجلد ، أضيف إليها ألوف من المجلدات فى العصر البطلمى ، منها مائتا ألف كتاب أهداها انطونيوس إلى كليوباتره ، هذا باستثناء ما كان موجوداً فى القصور الملكية وفى مكتبة معبد السيرابيوم التى كانت تعتبر فرعاً من المكتبة الكبرى ، وقد ارتفع عدد كتب مكتبة السيرابيوم على حد قول ماركيلينيوس إلى مايقرب من ٧٠٠ ألف مجلد فى آخر أيام كليوباترة . وهكذا كانت مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبات العالم ، وقد بلغ من شهرتها فى المجال العلمى ما ذكره المؤرخ أميانوس ماركلينيوس إذ أشار إلى أنه كان يكفى لتزكية أى طبيب أن يكون قد تعلم الطب فى الإسكندرية (٢) . ويبدو أن ذلك لايعدو أن يكون اتجاها سلكه البطالمة نحو الدعاية السياسية عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمركز للثقافة العالمية والعلوم ، فزودوا مكتبة الإسكندرية بالنسخ الأصلية من الرسائل التى وجدت فى عصرهم ، وتوسل بعضهم بطرق ملتوية لشراء الكتب (٣) .

ولقد ظلت دار الحكمة ومكتبة الإسكندرية تحملان مشعل الحضارة

---

(١) لطفى عبد الوهاب ، مقدمة فى حضارة الاسكندرية ، ص ٥ ٢ — ابراهيم جمعه ، جامعة الاسكندرية ، ص ٣٤ — ٧٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٢) اميانوس ماركيلينوس فى مصر ، ترجمة الدكتور وهيب كامل ، ص ٩١

(٣) لطفى عبد الوهاب ، ص ٢٦

السكندرية حتى احترق قسم كبير منها في عام ٤٨ ق.م. عندما أشعل يوليوس قيصر النيران في سفن المصريين، فامتدت ألسنتها إلى الأرصفة القريبة، وأحرقت المخازن الجمركية، واتصلت بعدها بمخازن الكتب التابعة للمكتبة(١) في الحي الملكي . ثم قضى الاضطراب السياسي والديني في الإسكندرية في عصر انتشار المسيحية على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب. ومن المـ ـ أن مكتبة المتحف بددت في سنة ٢٧٢ م، عندما أخمد الإمبراطور أوريليانوس الثورة التي أشعلها فيرموس، وحاصر الثوار في الحي الملكي وقضى على ثورتهم . أما مكتبة السرابيوم فقد تبددت في سنة ٣٩١ م عندما هاجمها الجيش الإمبراطوري يساعده المسيحيون بزعامة ثيوفيلوس بطريرك الإسكندرية (٢) . ومع ذلك فقد ظلت بقايا دار الحكمة في العصر الإسلامي ، فوصفها الرحالة المسلمون وغيرهم(٣)، وسماها بنيامين التطيلي باسم أكاديمية أرسطو ، أستاذ الإسكندرية(٤)

ثالثاً — المعابد

أقام بطليموس معبد السرابيوم لعبادة سرابيس Serapis الإله الشرقي ذي المظهر اليوناني، وهي عبادة طورها بطليموس من عبادة مصرية تشكل نوعاً من الاتحاد بين أوزيريس وأبيس، ليعطيها شكل رجل في عنفوان قوته ، له صورة الإله زيوس، وبذلك نجح بطليموس في التوفيق بين العنصرين المصري

(١) كانت المكتبة تقع بين الملعب ورأس لوكياس .

(٢) اسپانوس مارکیلینوس ، ص ٨٦ ، حاشية ٢

(٣) أنظر كتاب الأعلاق النفيسة ، ص ١١٨ (. . . . فندخل باب الشرق من الاسكندرية فهنالك قبة خضراء على ستة عشر عمودا من رخام وهي وسط المدينة، بناها الاسكندر . . .) .

(٤) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 113.

والإغريقى عن طريق الدين(١). شيد هذا المعبد فوق مرتفع من الأرض فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى ، وكان يؤدى إليه درج مؤلف من مائة درجة ، كما كان يضم أروقة تطل بواسطة بوائك على بهو مكشوف . وأضيف إلى هذا المعبد إضافات فى عهد بطليموس فيلادفوس(٢). وفى عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) أقام بوستيموس ، حاكم الإسكندرية ، فى معبد السرابيوم عموداً ضخما من الجرانيت تكريماً لزيارة الإمبراطور للإسكندرية ، وقد عرف هذا العمود باسم عمود السوارى ، ويبلغ ارتفاعه بما فى ذلك قاعدته ورأسه نحو ٢٦,٨٥ متراً ، قطره من أسفل ٢,٧٠ ، وقطره من أعلى ٢,٣٠ م ، وقد أعجب به كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين ووصفوه وصفاً رائعاً (٣) .

ثم تعرض هذا المعبد للتدمير ، مرة فى أثناء ثورة يهود الإسكندرية فى عهد الإمبراطور تراجان ، والمرة الثانية فى سنة ٣٩١م ، حين أمر بهدمه البطريرك ثيوفيلوس ، وكسر تمثال سرابيس (٤) ، وأقام على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان التى ظلت قائمة حتى القرن العاشر الميلادى (٥) .

كذلك أقامت كليوباترة معبد القيصريوم احتفالا بقدوم أنطونيوس ،

---

(١) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة ، ص ١٨٤ — دليل آثار الاسكندرية ، ص ٤٤

(٢) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها . . . ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٣) ابن رسته ، ص ١١٧ — ياقوت الحموى ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ — ابن حوقل ص ١٥٠ ؛ ابن جبير ، ص ٤١ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٤) Breccia, op. cit. p. 113.

(٥) دليل الاسكندرية ص ٤٧

ويمكن تحديد موقع هذا المعبد اليوم فى الموضع الذى تقوم عليه الكنيسة المرقسية وكنيس اليهود ، ونصبت كليوباترة أمام المعبد مسلتين نقلتها من معبد عين شمس ، وكانتا تحملان أسماء تحتمس الثالث و سيتى الثانى ورمسيس الثانى ، وهما المسلتان اللتان نقلتا إلى لندن ونيويورك . ولقد تحول هذا المعبد إلى كنيسة فى عام ٣٥٤ م ، ثم أحرق فى عام ٩١٢ م .

رابعا — السوما او ضريح الاسكندر :

يذكر استرابون أن بطليموس سوتر نقل جثة الإسكندر (سوما أوالجثة الحية) من منف إلى الإسكندرية ، ووضعها داخل تابوت من الذهب الخالص . ولقد جنت الإسكندرية من وراء ضريح الإسكندر مكاسب كبيرة وأصبحت مركزاً دينياً له قدسيته ، كما أصبح الضريح مزارا لأفواج متتابعة من الزوار الوافدين من بلاد اليونان(١). غير أن رفات الإسكندر لم تلبث أن نقلت إلى تابوت من الرخام الشفاف ، بعد أن استولى بطليموس الحادى عشر على التابوت الذهبى (٨٠ ق.م. — ٥٨ ق.م) (٢) .

ويبدو أن ضريح الإسكندر كان مقاماً فى قلب المدينة فى شارع السيما ، ويرى جمهور من رجال الآثار احتمال وقوعه بجوار الكنيسة المرقسية بينما يرجح عدد آخر أنه مطمور تحت جامع النبي دانيال . وأقام البطالمة مقبرتهم حول قبر الإسكندر فى تل البانيوم (كوم الدكة أو كوم الديماس) (٣) .

(١) لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٣١٥

(٢) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها ، ص ١٦٤ — Breccia, op. cit. p. 98.

(٣) محمود الفلكى ، الاسكندرية القديمة ، ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٢٦

وذكر استرابون أن هذه المنطقة كانت تلاً صخرياً يمكن الوصول إلى أعلاه عن طريق أحدور لولبي (١) ، ويشرف هذا التل على المدينة كلها .

* * *

ثم أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية منذ انتصر أغسطس قيصر على كليوباترة فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ، وأقام الرومان حامية رومانية فى معسكر كبير أقاموه فى شرق المدينة ، هى ضاحية نيكوبوليس أى مدينة النصر ، تيمناً بانتصار أغسطس على أنطونيوس وكليوباترة ، وفقدت الإسكندرية كثيراً من عظمتها السياسية فى العصر الرومانى لأنها أصبحت تابعة لروما التى فرضت سيادتها على العالم الرومانى بقوة ساعديها ، ومع ذلك فقد كان الرومان ينظرون إلى مصر نظرة خاصة ، فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق.م. إلى ولايات تابعة للسناتو تسمى الولايات السناتورية ، وأخرى تابعة للإمبراطور ، تعرف بالولايات الإمبراطورية ، كانت مصر فى عداد الولايات الأخيرة ، فكان الوالى ورؤساء الإدارة الرومانية فى مصر يعينون من قبل الإمبراطور ويمثلونه مباشرة ، ولكن مصر كان لها وضع خاص باعتبارها المصدر الرئيسى لتزويد روما بالغلال (٢) ، ولذلك أقيم عليها حاكم رفيع الرتبة يدعى Praefectus (٣) .

ولعبت الإسكندرية دوراً هاماً فى التاريخ الرومانى ، فقد عمل الأباطرة

---

(١) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ، ص ١٦٧

(٢) مصطفى العبادى ، الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٦٦

(٣) إبراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة والرومان (مقال فى المجمل فى التاريخ المصرى ص ٩٦) .

الرومان على إخضاعها لأن فى ذلك ضمان لخضوع مصر كلها، وتوسلوا فى سبيل ذلك بوسائل مختلفة، منها أنهم أقاموا ما يتجاوز نصف الحامية الرومانية فى مصر فى الضاحية الجديدة التى أسسها أغسطس وسماها نيكوبوليس (١)، وبالإضافة إلى ذلك فقد جرد الإمبراطور أغسطس المدينة من مجلسها التشريعى إمعاناً فى سلب سيادتها. كذلك سعى الأباطرة الرومان إلى الاعتماد على الجالية اليهودية فى الإسكندرية ضد الإغريق وعملوا على التفريق بينهما، ورحب اليهود بالسيطرة الرومانية لأنها قضت على سيادة العنصر اليونانى وساوت بينهم وبين الإغريق، وقد شجع عطف الرومان اليهود على المطالبة لأنفسهم بحق الوطنية السكندرية الكاملة التى كانت يتمتع بها الإغريق (٢). وهنا اشتد العداء بين الفريقين على الأخص فى عهـــد كاليجولا Caligula (٣٧ — ٤١ م) عندما هاجم الإغريق بعد استمالتهم لوالى الإسكندرية اليهود (٣)، وطالب الإغريق فى عهد كلوديوس Claudius (٤١ — ٥٤ م) بحقوقهم المدنية، غير أن الإمبراطور رفض منح الإسكندرية مجلساً للسناتو (٤)، واشتد النزاع بين اليهود والإغريق فى عهد نيرون (٥٤ — ٦٨ م)، وقاموا فى أيام الإمبراطور تراجان بثورات عديدة، ووثبوا على الإغريق وأعملوا فيهم القتل، وقد أدت هذه الفتنة إلى تخريب كثير من المنشآت المعمارية فى المدينة، فتهدم الحى اليهودى والكنيس

---

(١) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٦٧

(٢) لطفى عبد الوهاب، عصر البطالمة، ص ٣٧٢

M. El-Abbadi, The Alexandria citizenship, The Journal of Egyptian Archaeology, (pp. 106 — 123). vol. 48, 1962.

(٣) زكى على، الاسكندرية فى العصر الرومانى، مجلة الغرفة التجارية ص ٧٤— مصطفى العبادى، الاسكندرية فى العصر الرومانى، ص ٦٨

(٤) زكى على، المرجع السابق، ص ٧٥

الأكبر ، وأحرق اليهود معبداً لليونان، ودمروا بعض الأبنية (١) . وأخمدت الثورة فى عهد الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) الذى قدم إلى مصر مرتين ، جدد فى المرة الأولى ما تخرب من أبنية المدينة،واهتم خاصة بمعبد السيرابيوم ، وأقام فيه مدرسة على غرار الميوزيوم أو دار الحكمة ، وكانت لزيارته الثانية سنة ١٣٠ أثر طيب فى تهدئة الأحوال .

ولمـــا قدم الإمبراطور سبتميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١ م) إلى الإسكندرية فى سنة ٢٠٠ م ، منحها مجلساً للسناتو ومنح سائر عواصم الأقاليم حق تكوين مجلس لكل منها (٢) ، كذلك منح خليفته كراكلا (٢١١ — ٢١٧ م) الإغريق الحقوق المدنية الرومانية . ولكن هذا الإجراء لم يسعد الإسكندريين لأن منح الإسكندرية مجلساً للسناتو لم يكن اجراء قاصراً على مدينتهم ، وإنما طبق على عواصم الأقاليم .

وكان الدين المسيحى قد بدأ ينتشر فى مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية وذلك منذ النصف الثانى من القرن الأول، وازداد هذا الانتشار بوجه خاص فى الإسكندرية إبان القرن الثانى للميلاد ، وأصبح لها كنيسة فى هذه المدينة بينما كانت المسيحية تنتشر فى الأقطار الأخرى فى بطء شديد ، واعتنقها الناس خفية فى هذه الأقطار . ويفسر الدكتور عزيز سوريال هذا الإنتشار السريع فى مصر دون غيرها باستعداد العقلية المصرية لتقبلها منذ أن أعلن

---

(١) زكى على ، المرجع السابق ، ص ٧٥

(٢) مصطفى العبادى ، الاسكندرية فى العصر الرومانى ، « كتاب محافظـــة الاسكندرية ، ص ٦١ ، ٧٣

إخناتون الوحدانية المطلقة (١) .

وأثار انتشار المسيحية مخاوف الرومان،واعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين عنصرا خطيرا فى المجتمع ، فعمدوا إلى اضطهاد دعاة المسيحية ومعتنقيها منذ النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى، وعلىالأخص فى عهد سبتميوس سفروس . وبلغ هذا الاضطهاد ذروته فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الذى اصطدمت رغبته فى توحيد النظام الإدارى فى الإمبراطورية الرومانية عن طريق العقائد الوثنية التى رفض المسيحيون المشاركة فيها (٢) . إلى حد أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ اعتلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية فى سنة ٢٨٤م (٣) . وفى عهده اشتعلت نيران الثورة فى الإسكندرية ضد الإمبراطور ، فاضطر هذا إلى القدوم إليها،وحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت ، فتخرب كثير من أبنيتها . وأتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الأباطرة لكنيسة الإسكندرية ، إلا أن هذا الاضطهاد لم يثن المصريين عن اعتناق الدين المسيحى فانتشر انتشاراً تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وكان اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣— ٣٣٧) م بهذا الدين رسمياً فى سنة ٣١٣ م كدين من أديان الدولة البيزنطية انتصاراً حاسما للمسيحية ، وما لبث الإمبراطور تيودوسيوس

---

(١) عزيز سوريال عطية ، الاسكندرية المسيحية ، مقال فى مجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) محمد عواد حسين ، داود عبده ، الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، ص ١٠١

(٣) عزيز سوريال ، المرجع السابق ، ص ٨٠ — السيد عبد العزيز سالم الاسكندرية ، دائرة معارف الشعب ، حاشية رقم ١ ، ص ٣٢٨

(٣٧٩ — ٣٩٥ م) أن اعتنق المسيحية وفرضها قسراً على رعايا الإمبراطورية ، وفى عهده قام البطريرك ثيوفيلوس بهدم المعابد الوثنية فى الإسكندرية وتدميرها. وفى سنة ٣٨٩ ﻫ تهدم معبد سرابيس ، بقرب كانوب ، شرق الإسكندرية (١).

وأقيمت فى هذا العصر عدة كنائس ، منها كنيسة القديس مرقس البشير على شاطىء الميناء الشرقية ، بالقرب من رأس لوكياس غير بعيد عن الكنيسة المرقسية الحالية ،وكنيسة القديس أثناسيوس التى أسست فى سنة ٣٧٠ فى نفس الموضع الذى أقيم عليه جامع العطارين فيا بعد ، إذ جاء فى كتاب وصف مصر Description de l'Egypte ذكر هذا الجامع باسم جامع كنيسة القديس أثناسيوس ، كذلك تحول معبد القيصريوم إلى كنيسة القديس ميخائيل فى عصر الإمبراطور قسطنطين ، كما أقيمت كنيسة العذراء مريم على يدى الأسقف ثيوناس (٢٨٢ — ٣٠٠ م) على شاطىء الميناء الغربى ، وتحولت هذه الكنيسة بعد الفتح الإسلامى إلى مسجد جامع سمى بالجامع الغربى نظراً لقربه من الميناء ، أو جامع الألف عمود الذى تهدم فيا بعد (٢) . وكانت معظم هذه الكنائس تنحو فى تخطيطها نحو النظام البازيليكى الشائع فى العصر البيزنطى والذى يقوم أساساً على صفوف متوازية من الأعمدة تحمل سقفاً خشبياً (٣) .

---

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، ص ٨١ . ويذكر الأستاذ الدكتور عزيز سوريال أن الرهبان بقيادة أثناسيوس استولوا على معبد القيصريوم ٣٥٤ ، وحولوه إلى الكنيسة المرقسية .

(٢) نفس المرجع، ص ٨٣ — جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ، ص ٢٠٣ — فؤاد فرج ، ص ٣٨ ، ٣٩

(٣) داود عبده ، فن الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢١٠

وكان لانتصار المسيحية الأرثوذكسية السكندرية على الوثنية أثر كبير في ارتفاع مكانة هذه المدينة من الوجهة الروحية ، ولم تقبل بيزنطة هذا الوضع ، وهنا نشأ نزاع مذهبي كبير بين بيزنطة والإسكندرية من أجل الزعامة الدينية ، ويستتر هذا النزاع السياسى وراء الجدل المذهبي حول طبيعة المسيح . وينقسم المسيحيون إلى طائفتين : أتباع مذهب الوحدانية البحتة أو الطبيعة الواحدة القائلة بطبيعة المسيح الالهية البشرية فى آن واحد (١) ، ويسمون بالمونوفيزيت أو اليعاقبة ، وكان هؤلاء يتبعون كنيسة الإسكندرية ، ثم أصحاب مذهب الطبيعتين ويسمون بالدوفيزيت أو الملكانيين ، وكانوا يتبعون كنيسة بيزنطة التى أنكرت اندماج طبيعة المسيح الإلهية فى طبيعته البشرية (٢) . واحتدم النزاع بين الفريقين ، وتدخل الأباطرة فى هذا النزاع ، وعقد الأمبراطور مارسيان مجمعاً دينيا فى خلقدونية عام ٤٥١ أقر فيه مذهب الملكانيين ، وقرر أن مذهب الوحدانية كفر والحاد وخروج عن الدين الصحيح ، وقرر طرد ديسقورس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة ونفيه (٣) . ولم يقبل المصريون هذه القرارات ، وأعلنوا عصيانهم لها ، وتحول النزاع إلى تحد مجيـــــد من جانب المصريين ، وتسمى هؤلاء بالأرثوذكسيين أى أصحاب الدين الصحيح . وأمعن الأباطرة فى سياستهم التعسفية ، فانتقل مركز الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الاسكندرية ، وكان

---

(١) يخالف هذا المذهب ما دعا إليه آريوس الذى أنكر ألوهية المسيح (داود عبده ، الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، ص ١٠٣)

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٦

(٣) آيدرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة دكتور محمد عواد حسين ودكتور عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٢٧

من أكبر زعمائها الأنبا شنـــودة والبطاريرك بنيامين . ولقد كان لإسراف البيزنطيين فى اضطهاد المصريين أثر كبير فى معاداة المصريين لهم وفى تمهيد السبيل لفتح العرب لمصر .

وفى سنة ٦٠٢ هـ سقط الإمبراطور موريس صريعاً إثر ثورة قام بها الجيش بزعامة فوكاس الذى اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا الإمبراطور كان مولعاً بسفك الدماء وأعمال الإرهاب ، فسخط عليه أقرب الأقربين إليه ، وأخذوا يدبرون المؤامرات لخلعه . وفى سنة ٦٠٨ هـ أعلن هرقل بطريق قرطاجنة وحاكم إفريقية الثورة على فوكاس ، غير أنه كان شيخاً طاعناً فى السن لا يحتمل سنه القيام بأعباء الإمبراطورية البيزنطية ، فرشح لهذا المنصب ابنه الشاب هرقل ، فأعد جيشاً من البربر بقيادة نيكيتاس لغزو مصر بينما يزحف هرقل الصغير على سالونيك تمهيداً للاستيلاء على القسطنطينية (١). وتمكن نيكيتاس من الإستيلاء على الإسكندرية فيما بين سنتى ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، وتم الإنقلاب بفضل وزراء فوكاس أنفسهم الذين أسلموه إلى هرقل فأمر بقتله فى ٥ أكتوبر سنة ٦١٠م . وانتهى الأمر باعتلاء هرقل الصغير العرش الإمبراطورى فى هذا التاريخ (٢) .

وأرسل الإمبراطور هرقل إلى نيكيتاس يثبته فى حكم الإسكندرية ويجعله نائباً عنه فى حكم مصر منها . وكان الخطر الفارسى على أملاك الدولة البيزنطية

---

(١) Oman, The dark ages, London, 1958 - C. Diehl, Histoire du moyen âge, t. III, le monde oriental, Paris, 1936, p. 141.

ايدرس بل ، مصر من الاسكندرية الأكبر ، ٢٥٣ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٧٤

(٢) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣١

قد ازداد زيادة تهدد باقتطاع أجزاء كبيرة منها ، وساعد على ذلك النزاع المذهبي بين المونوفيزيين والملكانيين (١) ، وتفوق قواد الجيش الفارسي على قواد الروم ، وخلو خزائن الإمبراطورية الرومانية من المال (٢) . ونجح الفرس في الاستيلاء على انطاكية ودمشق وقيسارية ، وتوجوا زحفهم بفتح بيت المقدس وتخريب كنائسها وهدم أسوارها وأديرتها وذلك في شهر مايو سنة ٦١٥.

وفي هذه الآونة تلقت الإسكندرية مزيداً من اللاجئين الوافدين إليها من الشام ، ولم يمض عام واحد على فتح بيت المقدس حتى واصل الفرس بقيادة شاهين الزحف نحو الإسكندرية فسقطت العريش والفرما ثم منفيس ، وسار جيشهم بعد ذلك في البر يساعده أسطول كبير سار في النيل متجها نحو الإسكندرية ، وحاصر الفرس الإسكندرية في سنة ٦١٧ م وطال حصارهم لها ، وخربوا ما كان حولها من عمران ودمروا الأديرة والكنائس حولها وجعلوها أطلالا دارسة ، وفر نيكيتاس في إحدى السفن إلى القسطنطينية عندما اشتد حصار الفرس لها ، واضطر أهل المدينة إلى فتح أبوابها ، فدخلتها حشود الفرس في سنة ٦١٧ ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم (٣). ولم يطل العهد بالفرس في البلاد ثم يلبثوا أن خرجوا عنها بعد صلح في سنة ٦٢٨ الذى استردت بيزنطة بمقتضاه جميع ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدى الفرس(٤).

عمد هرقل إلى تدعيم أركان دولته وإزالة أسباب النزاع والفتن فيها بعد

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٦٦

(٢) بتلر ، ص ٤٤

(٣) نفسه ، ص ٥٣ — ٦٦

(٤) آيدرس بل ، ص ٢٥٥ — عمر كمال ، ص ٦٨

جلاء الفرس عن البلاد ، فعمل على التوفيق بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية ، وأيد مذهباً جديداً يقول بالإرادة الواحدة (المونوثيلية) ، وتفسيره أن للمسيح طبيعتين ولكن له إرادة واحدة ، زعماً منه أن هذا المذهب قد يؤدى إلى التقريب بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين ، وأرسل لهذا الغرض حاكماً على مصر اختاره دون غيره فى سنة ٦٣٤م لتعصبه للمذهب الإمبراطورى يسمى قيرس ، ولكن قيرس عجز عن استمالة المصريين إلى المذهب الجديد ، فلجأ معهم إلى سياسة الشدة والتعسف ، وأخذ يضطهد الأقباط اضطهاداً لم يشهد له المصريون نظيرا من قبل ، وأمام هذا الاضطهاد الرهيب اضطر البطريرك القبطى بنيامين إلى الفرار من الإسكندرية من بابها الغربى إلى الصحراء ، ولاذ فى نهاية الأمر بدير صغير لا يبعد كثيراً عن مدينة قوص (١). وحذا حذو بنيامين عدد كبير من المصريين ، فروا إلى أديرة وادى النطرون مثل دير البراموس ودير أنبا بشواى ودير أبى مقار ، وهجر كثير من الفلاحين مزارعهم وقراهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى فى البلاد واضطراب جميع مرافقها ، وتعرض من بقى من الأقباط فى ديارهم لصنوف العذاب والتنكيل. وعلى مثل هذه الحالة السيئة من الفوضى والاضطهاد لقى العرب أهل هذه البلاد عند افتتاحهم لها :

---

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٣٣

الفصل الثانى

الاسكندرية بعد الفتح العربى

(١) فتح العرب للإسكندرية

(٢) أسباب عدول العرب عن اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية .

الفصل الثانى

الاسكندرية بعد الفتح العربى

(١)

فتح العرب للاسكندرية

لما افتتح عمرو بن العاص حصن بابليون سنة ١٩هـ (٦٤١م) انفتح أمامه الطريق إلى الإسكندرية، عاصمة الديار المصرية. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية، وسار إليها فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم(١)، واشتبك عمرو مع الروم فى نقيوس الواقعة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل الغربى، بالقرب من منوف الحالية، ثم فى سلطيس (وصحتها سنطيس) الواقعة على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور الحالية، وانهزم الروم فى كل من هذين الحصنين. ثم التقى عمرو بالروم فى حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطى أمام الإسكندرية، وكانت الكريون تشرف على ترعة الإسكندرية التى يعتمد عليها أهل الإسكندرية فى السقيا ونقل المؤن، وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام، وانتهت بانتصار عمرو على تيودور انتصاراً حاسماً تراجع الروم على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير (٢). وتحصن الروم فى الإسكندرية، وكان عليها

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٢٧

(٢) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٥٢ — محمود عكوش، مصر فى عهد الاسلام، ص ١٢٩

أسوار محكمة البناء ، ولها حصن منيع كان قد أقامه الفرس زمن احتلالهم للإسكندرية بشرق المدينة من جهة الميناء الشرقية (١) ، وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الإسكندرية لمناعتها فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط ما بين حلوة ، وهو موقع بشرق الاسكندرية ، إلى قصر فارس ، ويسير هو على رأس جيشه لفتح بقية الوجه البحرى .

وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حاصرها مدة ثلاثة أشهر ، حتى صالحه المقوقس عن أهلها ، وأن هذا هو الفتح الأول (٢) ، وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص أقام على حصار الإسكندرية عدة أشهر ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : «ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا » (٣) . وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص فتح الإسكندرية صلحاً فى يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين ، وخلف بها ألف رجل من أصحابه ، ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البحر ، « فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم ، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ، ففتحها وأقام بها (٤) . وذكر المقريزى أن عمرو ضرب الحصار على الإسكندرية مدة ١٤ شهراً ، منها تسعة أشهر بعد موت هرقل ،

---

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٦٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٦ (طبعة عبد المنعم عامر) .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، طبعة ليدن ، ص ٧٨ (وطبعة عبد المنعم عامر ص ١١٤) .

(٤) السيوطى ، ج ١ ص ٥٢ . والنص مع بعض العبارات المحذوفة فى ابن عبد الحكم ، طبعة عبد المنعم عامر ص ١١٨ — النويرى السكندرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، مخطوطة الهند ص ٥٦ ب .

وخمسة قبل ذلك ، وأن فتحها تم فى أول محرم سنة ٢١ ﻫ (١) .

وساعد على فتح العرب للإسكندرية موت الإمبراطور هرقل ، وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته فى ٢٣ صفر سنة ٢٠ ﻫ (١١ فبراير سنة ٦٤١م)، وقيام المنازعات فى القسطنطينية من أجل العرش ، مما اضطر الروم إلى العمل على إنهاء الحرب وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية. ونقل لين بول ما ذكره حنا النقيوسى إذ يقول : « إن البطريرك قيرس الذى عاد من القسطنطينية وبيده تفويض من الإمبراطور يخوله عقد الصلح مع عمرو ، ذهب إلى عمرو فى بابليون ليفاوضه فى الصلح . وقد تم الإتفاق بينهما على أن يدفع أهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية ، وأن يقدموا لعمرو ١٥٠ جنديا و٥٠ مدنيا بمثابة رهائن ، وأن يتعهد المسلمون بعدم التدخل فى شئون المسيحيين وكنائسهم ، والسماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية ، وأن يبقى المسلمون مدة ١١ شهراً خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم . ووقعت المعاهدة بين الطرفين فى طليعة نوفمبر سنة ٦٤١ ، وتم إبحار الروم فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م» (٢)

وما إن أتم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية حتى بعث معاوية بن حديج رسولا من قبله إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح ، فقال له معاوية : « ألا تكتب معى كتاباً ؟ . قال عمرو : وما تصنع بالكتاب ؟ ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ؟ » فلما قدم معاوية على عمر بن الخطاب وبشره بالفتح خر عمر ساجداً ، وقال « الحمد لله » (٣) . وذكر

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٥

(٢) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٥

Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages. p. 11.

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة عبد المنعم عامر ، ص ١١٩

ابن عبد الحكم نقلا عن عبد الله يزيد المقرىء عن موسى بن على أن معاوية بن حديج قدم إلى المدينة فى الظهيرة ، فأناخ راحلته بباب مسجدها ، فبينما كان جالساً فيه إذ خرجت جارية من دار عمر بن الخطاب ، فرأته شاحب الوجه عليه ثياب السفر فسألته عن اسمه ، فأجابها بأنه رسول عمرو بن العاص ، فانصرفت عنه ثم أقبلت عليه مسرعة بعد قليل حتى دنت منه ودعته إلى مقابلة الخليفة ، فتبعها . ويروى ابن حديج تفاصيل المقابلة بينه وبين خليفة المسلمين فيقول : « فلما دخلت فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ، ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية . فخرج معى إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن فى الناس ، الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، ثم قال لى : قم فأخبر أصحابك . فقمت فأخبرتهم . ثم صلى ، ودخل منزله ، واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ، ثم جلس ، فقال : يا جارية ، هل من طعام ؟ . فأتت بخبز وزيت . فقال : كل . فأكلت على حياء ، ثم قال : ياجارية ، هل من تمر ؟ . فأتت بتمر فى طبق ، فقال : كل . فأكلت على حياء . ثم قال : ما ذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت أمير المؤمنين قائل . قال : بئس ما قلت أو بئس ما ظننت ، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ » (١). ثم أردف عمرو بن العاص رسوله برسول ثان يحمل كتاباً إلى الخليفة قال فيه : « أما بعد ، فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٠

الأخضر» (١). وذكروا أنه كان بها من الحمامات اثنى عشر ديماسا ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها يسع جماعة نفر (٢) . ويعتقد بتلر أن هذه الأعداد تتضمن شيئا من المبالغة، ويرجح أن النساخ نقلوها نقلا فيه بعض التحريف (٣)، ولكنها مع ذلك تعبر عن عظمة عمران الإسكندرية عند الفتح العربى ، وما أحدثه فتحها من آثار فى نفوس الفاتحين .

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٦ — ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٥ ، بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢٥ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤ — النويرى السكندرى ، ص ٥٦ ب

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٧٠

(٢)

أسباب عدول العرب عن اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر الاسلامية

وهكذا بهت العرب عند افتتاحهم للإسكندرية ، لما شاهدوه فيها من حسن العمارة ، وروعة التخطيط ، وجليل العمران ، وكثرة الدور التى هجرها أصحابها فأصبحت أخائذ للفاتحين (١) ، كما أعجبوا ببياض دورها المتخذة من الرخام الأبيض الناصع البياض ، وبحصانة أسوارها ، وروعة آثارها ، وكثرة مرافقها . وليس غريباً أن ينال فتح الإسكندرية هذه الأهمية ، وليس عجيباً أن يذهل العرب عند مشاهدة آثارها الجليلة ، فمنار الإسكندرية كان يعد إحدى عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم ، بينما اعتبرها أحد مؤرخى العرب فى عصر المماليك إحدى عجائب ثلاث : « منارة الإسكندرية وجامع بنى أمية وحمام طبرية » (٢) ، ولذلك حظى هذا المنار بنصيب وافر من وصف المؤرخين ورحالة العرب والأعاجم على السواء ؛ وعمود دقلديانوس الذى عرف خطئاً باسم عمـــــود بومبى كان موضع إعجاب الرحالة العرب ، فأفاضوا فى وصفه ، وأسبغوا عليه كثيراً من القصص ، وسموه عمود السوارى لضخامته ، وارتفاعه الهائل بين الأعمدة الأخرى التى كانت تحيط

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٧

(٢) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، لنشره رافيس ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٥

به فى معبد السيرابيوم أو القصر حسب تسمية الرحالة العرب (١) ، ثم أطلقوا على باب المدينة القبلى اسم باب العمود نسبة إلى هذا العمود ، وما زال اسم العمود يطلق فى الوقت الحاضر على الجبانة الواقعة خارج باب العمود أو باب الشجرة أو باب السدرة أو باب البهار ، من أبواب الإسكندرية الإسلامية. ويضاف إلى هذين الأثرين آثار أخرى جليلة كانت تزهو بها الإسكندرية كالمكتبة المشهورة التى زعموا افتراء وظلما أن العرب أحرقوا ما كان بها من كتب بأمر عمرو بن العاص ، استناداً على رواية كتاب متأخرين ، منهم ابن العبرى (من القرن السابع الهجرى) وعبد اللطيف البغدادى الرحالة ومن حذا حذوهما (٢) ، وكالملعب المعروف بالجيمنازيوم الذى يزعم مؤرخو العرب أن عمرو بن العاص نزل به مع صاحبه الشماس فى الجاهلية لمشاهدة إحدى احتفالات القوم (٣) ، وكالمسلتين اللتين كانتا فى صدر كنيسة القيصريوم ، واللتين ظلتا قائمتين حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كذلك كان تخطيط الإسكندرية الرائع عاملا من العوامل التى أثارت إعجاب الفاتحين ، فشوارعها المستقيمة التى

(١) ابن رسته ، ص ١١٧ — ابن حوقل ، ص ١٥٠ — ابن جبير ، ص ٤١ — ياقوت ، ص ٢٦٢

(٢) راجع الحديث عن مكتبة الاسكندرية وتفنيد الرواية القائلة بحرق العرب لها فى كتاب فتح العرب لمصر ، ص ٢٩٤ — ٣١٢. وفيما يختص بحريق مكتبة الاسكندرية المعروفة بمكتبة المتحف فى حرب الاسكندرية ثم فى سنة ٢٧٢ م ، عندما أخمد الامبراطور أورليان الثورة التى تزعمها فيرموس ، راجع : أميانوس ماركيلينوس فى مصر ، ص ٨٦ حاشية رقم ٢ — محمود باشا الفلكى ، الاسكندرية القديمة ، ص ١١٨ — دليل آثار الاسكندرية ، ص ٢٠ — السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية ، ص ٥٤

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٩ — السيوطى ، ج ١ ص ٤٦ — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ، طبعة بيروت ص ٢٧٨

تتقاطع عمودياً فيما يشبه رقعة الشطرنج (١) ، وكانت مقنطرة أى تكتنفها البوائك من الجانبين ، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والأعمدة ، وصهاريجها الجوفية كانت فسيحة ، بحيث « يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة . وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ، ومتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء » (٢) . وأسوارها كانت منيعة مزودة بالحصون والأبراج (٣) .

وهكذا كان طبيعياً أن يقع اختيار عمرو بن العاص على هذه المدينة العظيمة لتكون عاصمة لمصر الإسلامية ، فمناخها طيب من أى بقعة أخرى بأرض مصر (٤) ،

---

(١) لاحظ بعض مؤرخى العرب هذا النظام الشطرنجى ، فأشار إليه ياقوت فى معجمه (مجلد ١ ، ص ١٨٦) كما أشار إليه ابن شاهين الظاهرى (زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠) .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، مجلد ١ ، ص ٣٧٣ — الاستبصار ، ص ٩٣ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٣

(٣) كانت الاسكندرية مزودة بسبعة حصون وخنادق (ياقوت ، مجلد ١ ، ص ١٨٦ — المقريزى ، مجلد ١ ، ص ٢٦٠ وما يليها) وقد أشار ابن عبد الحكم إلى حصونها فقال : « حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم ، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس » (فتوح مصر ، ص ١٠٩ ، ١١٠) . وأغلب الظن أن هذه الحصون كانت موزعة على الأركان البارزة السبعة لسور الاسكندرية القديم .

(٤) ذكر ياقوت عن الأزهر بن معبد أن عمر بن عبد العزيز سأل الأزهر بن معبد عن بلدته فى مصر ، فأجابه بأنه يعيش فى الفسطاط ، فقال له عمر : « أف أم نتن ، أين أنت عن الطيبة » فقال له الأزهر : « أيتهن هى ؟ » قال : الاسكندرية (ياقوت ، مجلد ١ ، ص ١٨٤) . وذكر المقريزى فى الخطط نقلا عن الحسن ابن صفوان أن قرب الاسكندرية من البحر ، وسكون الحرارة والبرد عندها ، وظهور ريح =

وأسوارها الحصينــة تكفل للمسلمين مقاومة الغــزاة والمغيرين (١) ، وبيوتها المهجورة تغنى المسلمين عن بناء مساكن وخطط جديدة . ويذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص عندما رأى بيوتها خالية من أصحابها هم بسكناها واتخــاذها قاعدة لمصر ، إذ أن ذلك يكفيه بنــاء مدينة جديدة لا يمكن مهما بذل العرب فى بنائها من جهود ونفقات أن تصل فى العظمة والإتساع العمرانى والمظهر الجمالى إلى ما وصلت إليه الإسكندرية ، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك وكتب إليه يبرر ما رآه بقوله : « مساكن قد كفيناها » (٢) . ولا شك أن تفكير عمرو فى اختيار الإسكندرية حاضرة له فى مصر كان أمراً طبيعياً فى الوقت الذى لم يكن العرب على استعداد لتأسيس مدينة جديدة ، ثم إن الإسكندرية كانت تعتبر المدينة الأولى فى مصر منذ أسسها الإسكندر حتى افتتحها العرب ، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق ، كثيرة الخيرات، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة وبطيب هوائها وبموقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام الذى هيأ لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب . كل هذه المميزات كانت كفيلة باختيارها حاضرة لمصر الإسلامية ، ولكن ابن عبد الحكم يذكر

=الصبا فيها مما يصلح أمر سكانها ويرق طباعهم ويرفع همتهم (المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٨٥). كذلك امتدح صاحب الاستبصار طيب هوائها وتربتها (الاستبصار ص ١٠٠)

(١) أثبتت الأيام صحة هذا القول ، فعندما انتقض أهل الاسكندرية على المسلمين سنة ٢٥ هـ ، تحصنوا داخل الاسكندرية ، وعانى عمرو بن العاص كثيراً فى استردادها ، وأقسم أن يهدم سورها ، وفعل .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٢ — السيوطى ، ج ١ ص ٥٧ — المقريزى ، ج ١ ص ٢٩٣

عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو أرسل يستشير عمر بن الخطاب فى اختياره للإسكندرية ، فسأل عمر رسول عمرو إليه سؤاله المعروف : « هل يحول بيني وبين المسلمين » فلما أجابه الرسول بالإيجاب ، كتب إلى عمرو يأمره باختيار مكان آخر لا يفصله عنه ماء فى شتاء ولا صيف ، وأنه كتب كذلك إلى سعد بن أبي وقاص فى مدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة ألا يجعلوا بينه وبينهم ماء متى أراد أن يركب راحلته إليهم حتى يقدم عليهم فعل . فعدل سعد عن اتخاذ المدائن حاضرة للمسلمين ، وانتقل منها إلى الكوفة على الجانب الغربى من الفرات ، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذى نزل فيه إلى البصرة ، حيث تلتقى بها الطرق الآتية من نجد والشام وإيران ، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط (١) . وأغلب الظن أن عمر بن الخطاب كان يهدف من وراء قوله أن تكون عاصمة البلاد فى موضع مأمون لا يطل على بحر أو على نهر ، بل فى موضع يسهل الوصول إليه دون اجتياز مياه عذبة أو ملحة ، ويبدو أيضاً من قوله أنه كان يشترط فى اختيار الحاضرة ألا تكون ميناء بحرياً . ورأى عمر بن الخطاب على هذا النحو رأى سليم يشف عن بعد نظره وكياسته ، وعدوله عن اتخاذ الإسكندرية قاعدة لمصر الإسلامية كان تصرفا حكيما ، فالاسكندرية ميناء بحرى لابد لمن يتخذه قاعدة له من التفوق فى الشؤون البحرية . وكان البطالمة والرومان والبيزنطيين عارفين بأمور البحر ملمين بأصول الملاحة ، وكانت لهم الأساطيل التجارية

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٣٢ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٣ (طبعة بيروت) — السيوطى ، ج ١ ص ٥٧ — عبد الرحمن زكى ، عواصم مصر الاسلامية من كتاب « فى مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ ص ٩٩ ، ١٠٠ — جمال الدين الشيال ، الفسطاط ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٢ سنة ١٩٥٨ ص ١٣٤

والحربية تجوب مياه البحر المتوسط ، ولذلك لم تكن هذه الشعوب تخشى من اتخاذ قواعد بحرية على السواحل ، بل ان هذه القواعد كانت ضرورات أملتها ظروف هذه الشعوب . أما العرب فكانوا أبعد الشعوب إلماماً بشؤون البحر ، وإذا كان عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين قد برعوا فى ركوب البحر فى العصر الجاهلى (١)، بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر غرباً، والمحيط الهندى جنوباً، وخليج فارس شرقاً ، وبحكم اشتغالهم بالتجارة فى البر والبحر فى مراحل تاريخهم القديم ، واحتكاكهم بشعوب بحرية ، وكانت لهم أساطيل تجارية ترسو قطعها على فرض البحر كعدن والجار والشعيبة وأيلة ، فان العرب فى العصر السابق مباشرة على الإسلام كانوا قد فقدوا كل اتصال لهم بالبحر ، وأهملوا شؤونه ، وفقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، واقتصروا فى تجارتهم على الطرق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية : الحبشية والفارسية. فالفرس بضمهم اليمن والبحرين وما يليهما قضوا على تجارة العرب فى الخليج الفارسى وأصبحت تجارة الهند فى أيديهم (٢) ،

---

(١) اللغة العربية مليئة بألفاظ واصطلاحات بحرية إما عربية الصياغة أو مشتقة من اللغات الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية وردت فى الشعر الجاهلى،فمن أسماء السفن فى الجاهلية الفلك وبوصى وعدولية وخلية والجارى. وكذلك الأمر بالنسبة للاصطلاحات البحرية المقتبسة من اللغات الأجنبية مثل لوتى وأسطول ومجداف وسكان وشراع ونوخذ وأسطام وقرقور (راجع :

Aly Mohamed Fahmy, Muslim Sea power in the eastern Mediterranean, Cairo 1966, p. 41

— فتحى عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ — السيد عبد العزيز سالم ، دراسات فى تاريخ العرب ، ج ١ عصر ما قبل الاسلام الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٨).

(٢) Aly M. Fahmy, op. cit. p. 48.

والأحباش منذ أن افتتحوا اليمن، احتكروا الطريق التجارى عبر البحر الأحمر . ويعلل ابن خلدون تخلف العرب فى ثقافة البحر وركوبه ببداوتهم ، بينما يعزو تفوق البيزنطيين والافرنجة البحرى إلى « ممارستهم أحواله ، ومرباهم فى التغلب على أعواده » (١) . ولا نشك فى أن العرب انصرفوا عن الاشتغال بالملاحة البحرية لأسباب ، منها أن بلادهم صحراوية قليلة الأشجار التى تصلح لصناعة السفن القوية ، كما أن بلادهم — باستثناء جبال اليمن — تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسى والمسامير، كما تخلو من النباتات التى تصنع منها حبال السفن ، ثم إن الملاحة فى البحر الأحمر كانت تكتنفها الصعوبات لكثرة الصخور والشعاب المرجانية (٢) .

فالمسألة إذن لم تكن رهبة من البحر ، كما يزعم الرواة ، ولكنها كانت مسألة بعد نظر وإدراك ووعى لحقيقة الأمور ، فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط والخليج الفارسى ، والعدو الذى يواجهونه سواء كان فارسياً أو بيزنطياً خصم عنيد متمرس فى شؤون البحر وثقافته ، متدرب على ركوبه ، ولا شك أن عمر بن الخطاب أدرك أن العرب فى هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم لقلة خبراتهم البحرية بخلاف الفرس الذين كانت صلتهم بالبحر أقل بكثير من الروم ، ولذلك نجح العرب فى أمد وجيز فى تقويض الإمبراطورية الساسانية ، بينما استمر نضالهم مع البيزنطيين فى الشام وفى جزر البحر المتوسط وفى المغرب قرونا طويلة ، وقد دفعه هذا الإدراك إلى تأديب العلاء بن الحضرمى واليه على

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، ج ٢ ص ٦٢٨

(٢) فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٥

البحرين لتغريره بالمسلمين فى الخليج الفارسى وتعريضهم للهلاك فى سنة ١٧ هـ (١)، ولوم عرفجة بن هرثمة الأزدى سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه فى البحر (٢) . وقد يكون إدراك عمر بن الخطاب بتخلف المسلمين البحرى نتيجة لإخفاق حملة علقمة بن مجزز المدلجى البحرية إلى الحبشة فى سنة ٢٠ هـ ، إذ غرقت سفنه فى البحر ، فكان لذلك أثر عميق فى نفسه (٣) . لذلك كله عمد عمر بن الخطاب إلى تأسيس الأمصار الإسلامية فى داخل البلاد كما عمد إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطى على ثغور المسلمين ، فاهتم بحصين السواحل متوسلا فى ذلك بوسائل برية ، فأمر بمرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحراس على مناظرها(٤) وإقامة الأربطة أو المحارس أو المسالح أو المناظر، وشحنها بالمقاتلة لمراقبة النواحى التى يقبل منها البيزنطيون فى البحر، والإنذار باقتراب العدو ليلا عن طريق إيقاد النيران فى مواقيد خاصة بأعلاها ، تنبيها للمرابطة بالخطر ، وتوجيها لهم للإستعداد لصد الغزاة ودفعهم . كان هذا النظام ضروريا فى العهد الأول الذى تبع الفتوحات ، عندما كان العرب — وإن كانوا يعرفون شيئاً عن ركوب البحر — يجهلون حروبه وأساليب القتال فيه، ومواجهة البيزنطيين الذين كانت لهم حتى ذلك الحين السيادة الفعلية فى البحر، بالاضافة إلى أن العرب كانوا لا يثقون فى المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة، مما حمل العرب على إبدال سكان السواحل

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة ليدن ، ج ١ ص ٢٥٤٦

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨

(٣) الطبرى ، ج ١ ص ٢٥٩٥

(٤) البلاذرى، فتوح البلدان، طبعة دكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ص ١٥٢ — Oheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 85

الشامية بسكان آخرين من العرب أو الموالين لهم . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام ومصر مبثوثة بالقلاع والأبراج التى كانت أشبه ما تكون بسور منيع(١) اعتمد عليه العرب فى الدفاع عن البلاد ، وحظيت سواحل الإسكندرية ورشيد وتنيس ودمياط والبرلس ، وعكا وصور وصيدا وعرقة وجبيل وطرابلس وعسقلان وأنطاكية بقلاع ومحارس ومناظر ، ووضعت فى هذه المدن حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أى مجموعات ، كل عرافة من مائة رجل ، وكان المرابطة يقومون بالدفاع عن السواحل أثناء فصل الصيف عندما يصبح البحر صالحا للملاحة ، أما فى الشتاء ، وهو فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والأنواء ، فكانت الحاميات تعود إلى قواعدها فى الفسطاط أو دمشق ، ولا يبقى منها على الساحل إلا جماعات يسيرة .

وهكذا أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أن الإسكندرية بوقوعها على البحر ، وإحاطتها بالبسائط من الشرق والغرب ، كانت سهلة المنال على العدو ، وقد عبر ابن خلدون عن هذه الحتمية بقوله : « ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد ، تكون صريخا للمدينة ، متى طرقها طارق من العـــدو ، والسبب فى ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل ، كانت فى غرة للبيات ، وسهل طروقها فى الأساطيل البحرية على عدوها ، وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها ، .... وهذه كالإسكندرية من المشرق ، وطرابلس من المغرب ، وبونة وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير ، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى

(١) Cheira, op. cit. p. 87.

أسمتها ، كان لها بذلك منعة من العدو ، ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما فى سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها » (١) .

لذلك السبب لم تكن الإسكندرية فى رأى عمر بن الخطاب بجديرة بالاختيار كعاصمة لمصر ، ولعل وقوعها على الساحل كان سبباً فى أن يهتم خليفة المسلمين بتحصينها والدفاع عنها ، « فكان يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكثف مرابطها ولا يأمن الروم عليها » (٢) ، وجعل عمر على رباط الإسكندرية ، ربع رجاله يقيمون بها ستة أشهر فى الصيف ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر ، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه (٣) . كذلك اهتم عثمان بن عفان بتحصينها بعد أن تعرضت لغزو الروم ، سنة ٢٥ هـ ، فكتب إلى عبد الله ابن سعد يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الإسكندرية رابطتهـا ، ثم اجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » (٤) .

ويضيف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد تفسيراً آخر لعدول عمر بن الخطاب عن اختيار الإسكندرية حاضرة لمصر الإسلامية ، واختيار عمرو بن العاص موضع الفسطاط لهذا الغرض ، أن هذا الموضع الذى يقع

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ص ٨٣٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٨ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٩ — المقريزى ، الخطط مجلد ١ ص ٢٩٣

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

قريباً من عواصم مصر التقليدية (عين شمس ومنف) هو أصلح المواضع لحكم الوجهين القبلي والبحري ، وأن اختيار عمرو له تسجيل لعودة مصر إلى السياسة الوطنية الأصلية ، التي توجه اهتمامها إلى داخل البلاد ونحو المشرق العربي ، وذلك ما لم يكن يتحقق في الإسكندرية التي تتطلع إلى البحر وإلى الشواطىء الأوربية (١)

وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب بخصوص الماء الذي يفصل بينه وبين المسلمين منطقياً يعبر عن حسن بصيرته وبعد نظره ، لأن الإسكندرية أصبحت بوقوعها على البحر مدينة مهددة بالغزو من البحر ، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم فتحها بحراً في أوائل سنة ٢٥ هـ (أواخر عام ٦٤٥ م) ولم يكن قد مضى بعد على فتحها أربع سنوات . وتفصيل ذلك أن عمرو بن العاص لما افتتح الإسكندرية استخلف عليها عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم في رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط (٢) ، ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وخلفه عليها عبد الله بن سعد في سنة ٢٥ هـ من قبل عثمان بن عفان ، فتشدد عبد الله بن سعد مع أهل مصر في جباية الضرائب والجزيات ، فضج أهل الإسكندرية ، ويبدو أنهم كتبوا إلى الإمبراطور البيزنطي يستمدونه ويستنصرون به على العرب (٣) ، ولم يتردد قنسطانز الثاني امبراطور الدولة البيزنطية في اغتنام هذه الفرصة المواتية إذ كان

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمي ، مقال بكتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، ص ٢٤٠

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٠

(٣) يذكر البلاذري أن الروم في الاسكندرية كتبوا إلى إمبراطور الروم يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين ، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية (البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٠) .

قد هاله ما رآه من فتوحات العرب فى الشام ومصر وبرقة. فأراد أن يسترد مصر والشام من المسلمين معتمداً على قوته البحرية (١) ، وانتهز فرصة جهل العرب بشؤون البحر وافتقارهم إلى الأساطيل وعمد إلى مفاجأتهم فى الإسكندرية واحتلالها ، لتكون قاعدة بيزنطية لإخراج العرب من مصر (٢) . وأراد قنسطانز أن يشغل المسلمين فى الشام عن الدفاع عن الإسكندرية ، فأرسل حملة أخرى للإغارة على شواطىء الشام فى نفس الوقت الذى أغار فيه على الإسكندرية ، ولكن هذه الحملة على الشام لم يكتب لها النجاح ، إذ تصدى لهم جيش معاوية والى الشام وهزمهم هزيمة نكراء ، وأعد قنسطانز سفنه وأساطيله وقيل أنه أرسل إلى الإسكندرية ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة (٣) ، وجعل على رأس هذه الحملة قائده مانويل الذى يسميه مؤرخو العرب منويل الخصى (٤) . وكان والى مصر إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان . ولما أرسى أسطول الروم بالاسكندرية ، انتقض سكان الإسكندرية من الروم على المسلمين ، وانضموا إلى بنى جنسهم ، وفوجىء المسلمون بنزول الروم فى الإسكندرية فأسلمت المدينة للروم بدون مقاومة ، وزحفت جيوش الروم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقى متجهة إلى الفسطاط ، فطلب أهل مصر من عثمان أن يقر عمرو بن العاص على قيادة جيش المسلمين

---

(١) ابراهيم أحمد العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦١

(٢) ابراهيم أحمد العدوى ، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٠

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨

لقتال الروم « فان له معرفة بالحرب وهيبة فى قلب العدو » (١) . وترك عمرو أعداءه يتقدمون فى البلاد ، ينزلون القرى فيشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، وينهبون ما مروا به ، وبذلك اكتسبوا عداء الأهالى من القبط ، فلما بلغوا نقيوس صدهم المسلمون صدمة عنيفة ، واشتبكوا معهم فى قتال شديد ، وحمل مانويل على جيش عمرو ورماه بالنشاب ، وانهزم شريك ابن سمى فى خيله (٢) . وما زال عمرو يقاتلهم حتى هزمهم ، فتراجعوا إلى الإسكندرية ، وتحصنوا بها ونصبوا العرادات على أسوارها (٣) . فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب المجانيق فأخرب جدرها (٤) ، ولكن الروم قذفوا عمرا وجيشه بالحجارة ، وقاسى العرب كثيراً أثناء حصارهم للمدينة ، وندم عمرو على تركه أسوار الإسكندرية سليمة بعد أن افتتحها سنة ٢١ هـ ، فأقسم لئن أظهره الله على أعدائه واستولى على المدينة هذه المرة ليهدمن سورها ، ويجعل الإسكندرية « كبيت الزانية يؤتى من كل مكان » (٥) . ولا شك أن عمرا لقى فى اقتحام المدينة صعوبات جمة ، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد عناء شديد ، فأعمل السيف فى حامية الروم ، وقتل القائد البيزنطى مانويل وعدداً كبيرا من رجاله ، وقيل إنه أمر برفع السيف عن الباقين ، وبنى فى ذلك

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨ — ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٣٦

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠

(٤) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٢٦٠

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ص ٧٨

الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا سماه مسجد الرحمة ، وهدم سور المدينة كله فى رواية (١) وأخربه فقط فى رواية أخرى (٢). ونجح العرب فى إحراق عدد كبير من سفن الروم . وهكذا استطاع عمرو أن يقضى على حملة الروم البحرية .

وكادت الإسكندرية تتعرض فى سنة ٣٤ هـ مرة ثانية لغزو الروم ، فإن الإمبراطور قنسطانز الثانى لم ينس هزيمة جيوشه فى الإسكندرية فى سنة ٢٥هـ، ثم إن العرب كانوا قد اصطنعوا فى خلال هذه السنوات العشرة سياسة بحرية ، إذ دفعتهم إلى ذلك الأخطار التى تعرضت لها ثغورهم فى مصر والشام . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح .. » (٣) .

ومضت مرحلة الدفاع البرى عندما فشلت بيزنطة فى استرداد الساحل الشامى سنة ٢٣هـ، والمصرى سنة ٢٥هـ، أمام قوة الدفاع العربى ، وآن للعرب أن يبدأوا بدورهم مرحلة الهجوم ، وكان لزاماً عليهم فى تلك الحالة أن يكون لديهم أسطول قوى يضمن لهم إحباط أى محاولة بيزنطية من البحر لاسترداد

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٧ — البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠ — المقريزى ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨

(٢) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦١

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨

مصر والشام ، ويمهد لهم السبيل للدفاع عن مكاسبهم ، وتأمين مناطق النفوذ البحرية ضد البيزنطيين الذين كانوا ما يزالون سادة البحر المتوسط .

ويرجع الفضل فى إنشاء الأسطول العربى الإسلامى إلى معاوية بن أبى سفيان عامل الشام فى خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذى أدرك فضل الأساطيل فى الدفاع عن الساحل أثناء غزو أخيه يزيد للساحل ، فبدأ بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ(١) ، وشجع على انتقال المسلمين إلى السواحل من كل ناحية . ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة بناء السفن فى مصر ، فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان وأرسلها إلى مصر ، واستعان بالخبراء من القبط وببعض الملاحين من أهل مصر لصناعة هذه السفن فى الإسكندرية وتسييرها (٢) ، والشروع فى السيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل الشام ومصر لاتخاذها قواعد بحرية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها ، وإذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو أرواد المواجهة لساحل أنطرطوس ، فان عثمان بن عفان على الضد من ذلك أطلق لمعاوية يده فى الشام، وأذن له بغزو الروم بحرا فى قبرص سنة ٢٨ هـ على ألا يحمل الناس عليه كرها وأن يحمل معه امرأته .

وبدأ العرب ينافسون الروم فى البحر ، فتغلبوا على جزيرتى قبرص ورودس ، وأراد معاوية مهاجمة القسطنطينية ، فآثر قنسطانز أن يبدأ هو بالهجوم ، والتقى الأسطول المصرى والشامى مع الأسطول البيزنطى بالقرب من

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٠

من مياه الإسكندرية فى موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذات الصوارى التى انتصر فيها الأسطول العربى على الأسطول البيزنطى انتصارا حاسما (١) ثبت للعرب السيطرة فى البحر والتفوق على البيزنطيين (٢) .

ويعلق الأستاذ فتحى عثمان على انتصار العرب فى ذات الصوارى بأنها تعتبر « حداً فاصلا فى تاريخ البحر المتوسط ؛ ذلك أن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية فى مهدها ، ولو أنه وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين »(٣)

* * *

من ذلك كله نعلم أن موقع الإسكندرية على البحر الأبيض المتوسط كان موقعاً يعرضها لخطر الغزو البحرى ، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها ، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع الفسطاط ، وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد ، يستطيع منه الإشراف على مصر العليـــا ومصر السفلى .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٥٥ — ٢٥٨ — الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ٢٨٧٠ — الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣ — ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٨ —

Cheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 83 — Aly M. Fahmy, Muslim sea - power, pp. 85 — 89.

حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط . مجله الجمعية التاريخية ، مايو ١٩٥١ ص ٩٠ — ٩٤ .

(٢) ابراهيم العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ٦٤ —
Aly Fahmy, op cit. p 89

(٣) فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة

(١) نذر الاضمحلال قبل الفتح العربى

(٢) اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربى وأسبابه

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة

(١)

نذر الإضمحلال قبل الفتح العربى

كانت الاسكندرية قبل الفتح العربى قد فقدت جانباً كبيراً من عظمتها القديمة ، والمكانة السامية التى تبوأتهما فى العصرين البطلمى والرومانى ، لعاملين : الأول ، الاضطراب الذى سادها إبان الصراع بين الوثنية والمسيحية ، ثم أثناء النزاع المذهبى بين بيزنطة والاسكندرية حول طبيعة المسيح وإرادته. والعامل الثانى ، تعرض جانب من عمرانها للتدمير والتخريب فى أثناء الحصار الفارسى من جهة ، ونتيجة لهبوط قسم كبير من واجهتها الشمالية إثر هزات أرضية عنيفة من جهة أخرى .

فمن حيث العامل الأول ، رأينا فيما سبق أن اضطهاد الروم لمعتنقى المسيحية فى الاسكندرية كان قد بلغ ذروته فى عهد الامبراطور دقلديانوس ، الذى كان يرغب فى توحيد النظام الإدارى فى جميع أنحاء الامبراطورية وكان المسيحيون فى مصر عنصراً نافراً بين مواطنى الامبراطورية الرومانية(١) ، وكان لابد من اتخاذ الاجراءات اللازمة لإدماجهم سواء رضوا أم كرهوا ،

---

(١) محمد عواد حسين ، وداود عبده ، الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، ص ١٠١

ولذلك صدر قرار الامبراطور دقلديانوس باصطناع سياسة الاضطهاد الذى بلغ من العنف والشدة درجة أدت إلى أن الكنيسة القبطية فى مصر بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء من تاريخ تولى دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤م(١) . وقد احتدمت فى الاسكندرية نار الثورة ضد الامبراطور ، فاضطر إلى القدوم بنفسه لإخمادها ، وحاصرها زهاء ثمانية أشهر تعرض عمرانها خلالها للتخريب . كذلك أدى انتصار المسيحية على الوثنية إلى هدم كثير من آثار الوثنية فى الاسكندرية من معابد وهياكل سنة ٣٩١ م ، فشمل التخريب معبد السيرابيوم الذى قام المسيحيون بزعامة البطريرك ثيوفيلوس بهدمه وتدميره ، وتكسير تماثيل سيرابيس ، واشعال النيران فى مكتبة المعبد ، وشهدت شوارع الاسكندرية معارك عنيفة ، راح ضحيتها العديد من السكان .

كذلك تأثر العمران السكندرى فى العصر البيزنطى بحركة الاضطهاد الأعظم التى باركها قيرس حاكم مصر من قبل الامبراطور هرقل ، فقد مارس قيرس سياسة إرهابية فى الاسكندرية ، حملت عدداً كبيراً من الأهالى على هجرها والفرار إلى الصحراء ، وأدت بطبيعة الحال إلى شيوع الفوضى والاضطراب واضمحلال الحياة الاقتصادية فيها .

وأما العامل الثانى ، وهو تعرض الاسكندرية لحركة هبوط حدثت فى عصر سابق للفتح العربى نتيجة هزات أرضية عنيفة أدت إلى انخفاض منسوب المدينة ستة أو سبعة أمتار (٢) ، فطغى البحر على الجانب الأعظم من الواجهة

---

(١) راجع ما سبق ذكره فى الفصل الأول .

(٢) صبحى عبد الحكيم ، مدينة الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٣٠ .

الشمالية للمدينة ، المطلة عليه ، واختفى تحت مياه البحر ، وكان يشتمل على جزء من الحى الملكى ، وجانب من الحى اليهودى ، كما سبب هذا الهبوط اختفاء جزيرة أنتيرودس الملكية والأرصفة القديمة التى كانت تقع إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس (١) . وقد أشار المقريزى إلى هذه الظاهرة إذ نقل عن جماعة من ثقات أهل الاسكندرية أن أسلافهم « شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحواً مما بين المدينة والمنارة فى هذا الوقت ، فغلب عليه ماء البحر فى المدة اليسيرة ، وأن ذلك فى زيادة »(٢) .

وقد اكتشف جاستون جونديه فى الفترة ما بين ١٩١٠ ، ١٩١٦ على الأرصفة القديمة لميناء الاسكندرية التى كانت مغمورة تحت مياه البحر إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس، ونشر بحثين عن هذا الاكتشاف أحدهما فى مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية (٣) ، والثانى فى مذكرات المعهد المصرى ، ولم يكن هذا الاكتشاف الذى أسفرت عنه بحوث الأستاذ جونديه الدليل الوحيد على حدوث هبوط أدى إلى طغيان البحر على جزء من ميناء الاسكندرية القديم. ففى سنة ١٩٣٣ عثر بعض الغواصين على عدد من الأعمدة الرخامية والجرانيتية على عمق ٥ أمتار ، وآثار من بينها تمثال لرأس من الرخام الأبيض ارتفاعه ٣٠ سم ، من المعتقد أنه تمثال لرأس

---

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'anciene île de Pharos, Mémoires presentés à l'Institut Egyptien, vol. IX, le Caire, 1916, pp. 57 — 63.

(٢) المقريزى الخطط ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) Gaston Jondet, Les ports antiques de Pharos, dans Bulletin de la Société Archéologique d'Alexandrie, no. 14, 1912.

الاسكندر(١). وفى سنة ١٩٦١، اكتشفت أحد مواطنى الاسكندرية، ويدعى كامل حسين أبو السعادات فى منطقة الميناء الشرقية تمثالا رومانيا من الجرانيت الأحمر يمثل رجلا واقفاً، كما اكتشف بعض القواعد الحجرية والتماثيل والعملات القديمة، ثم اكتشف تمثالا ضخماً لايزيس يزيد ارتفاعه على ٧ أمتار ويبلغ وزنه نحو ٢٥ طناً وذلك فى منطقة قايتباى (٢).

وبالاضافة إلى هبوط قسم كبير من واجهة الاسكندرية الشمالية مما أدى إلى غرقها تحت مياه البحر، فان قسما كبيراً من عمران الاسكندرية تخرب قبيل الفتح العربى، إبان الحصار الفارسى لمدينة الاسكندرية فى سنة ٦١٨م، وبعد اقتحام الفرس لأسوارها، وان كان قد ثبت أن الأضرار التى أصابت الأبنية العامة الكبرى بالاسكندرية كانت أقل بكثير مما أصابت ظاهر المدينة(٣)

وهكذا كان الاضمحلال قد بدأ يظهر أثره على مدينة الاسكندرية قبل أن تدخلها جيوش العرب الفاتحين .

---

(١) سليم أنطون مرقس . الكشوف الأثرية تحت مياه البحر الأبيض المتوسط ؛ مقال فى كتاب دراسات أثرية وتاريخية ، من مطبوعات العيد الماسى لجمعية الآثار بالاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ص ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٦٧

(٢)

اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربى وأسبابه

لم تمض أعوام قليلة على فتح العرب لمصر ، حتى أخذت الاسكندرية تسير بخطى حثيثة نحو اضمحلال محتوم ، ولا ترجع أسباب هذا الاضمحلال إلى اتخاذ المسلمين الفسطاط حاضرة لمصر الإسلامية بدلا من الاسكندرية العاصمة القديمة للبلاد ، ومقراً للولاة ، ومركزاً رئيسياً لاشعاع الحضارة العربية الاسلامية ، أو نتيجة للأسباب التى ذكرناها من قبل والتى أخذت تتضح وتظهر آثارها عقب الفتح العربى فحسب ، بل ترجع إلى عوامل أخرى ثلاثة لا يمكن للباحث فى تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى أن يغفلها .

وأول هذه العوامل ، نقص عدد سكان الاسكندرية بعد الفتح العربى مباشرة نتيجة لجلاء عدد كبير من سكانها من الروم واليهود ، وكانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من مجموع سكان المدينة ، وفقاً لمعاهدة الصلح . فقد اشترط قيرس على عمرو أن يجلو رجال حامية الاسكندرية عن المدينة حاملين معهم أمتعتهم وأموالهم (١) . وقد قدر ابن عبد الحكم عدد من جلا

(١) يذكر البلاذرى أن عمرا صالح المقوقس على أن يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، ويقيم بها من أحب المقام (البلاذرى ، ج ١ ص ٦٠) ، وذكر حنا النقيوسى من بين شروط الصلح أن ترحل سامية الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها (بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٥ — سيدة الكاشف مصر فى عصر الولاة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ١٦) ويروى ابن عبد الحكم نصاً لقله=

من الروم بثلاثين ألف رجل ، خرجوا فى مائة مركب من المراكب الكبار « مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل »(١) . وذكر أيضاً نقلا عن هانى ابن المتوكل أنه رحل من الاسكندرية فى الليلة التى دخلها عمرو بن العاص ، أو أو فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو ، سبعون ألف يهودى (٢) ، وذكر أيضاً أن عدد من بقى من سكان الاسكندرية بلغ ستمائة ألفاً سوى النساء والصبيان (٣)، منهم أربعون ألف يهودى عليهم الجزية(٤)، وواضح مما ذكره أن الرقم مبالغ فيه كثيراً ، فان ديودور الصقلى يقدر عدد سكان الاسكندرية فى سنة ٦٠ ق.م. بنحو نصف مليون (٥) ، أى فى ذروة عظمتها ، وليس من المعقول أن يصل عدد سكانها إلى ستمائة ألف عند الفتح العربى ، أى بعد عصر الإضطهاد أو عهد الشهداء الذى لقى فيه سكان الاسكندرية فى زمن البيزنطيين صنوف الاضطهاد الدينى ، مما اضطر عدداً كبيراً من المؤمنين بالمذهب اليعقوبى إلى الفرار من المدينة إلى الصحراء

=عن هانى ء بن المتوكل جاء فيه : «كان عدد من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال ، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن » (فتوح مصر ، ص ١٢١ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٨) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٢١ — السيوطى ، ج ١ ص ٦٨ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩١

(٢) نفس المصدر — السيوطى ، نفس المصدر — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢١ ، ١٢٤ — السيوطى ، نفس المصدر — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١

(٤) نفس المصدر .

(٥) Breccia, Alexandria Ad Aegyptum, Bergamo, 1922, p. 32.

وبعد فترة الاحتلال الفارسى التى سبقت الفتح العربى خاصة الفترة التى أعقبت دخول جيوش الفرس الاسكندرية، ففيها قتل عدد كبير من أهل المدينة عند أول دخول الفرس أبوابها، وأرسل عدد كبير آخر إلى بلاد الفرس (١)، يضاف إلى ذلك أن سياسة قيرس التعسفية حملت كثيراً من أهل المدينة إلى الخروج عنها والفرار إلى أديرة الصحراء. ولو افترضنا أن هذا الاحصاء الذى أورده المؤرخون العرب قريب من الصحة، لما كثر عدد من الأخائذ التى ظفر بها الفاتحون العرب، فقد أجمع المؤرخون على أن الاسكندرية لم يكن بها خطط، وإنما كانت أخائذ استولى عليها المسلمون، باستثناء الدار التى اختطها الزبير بن العوام غربى الاسكندرية (٢). وكان المسلمون، لكثرة الأخائذ، ينزلون كل عريف فى قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه (٣)، فقد اتخذ عمرو قصراً فى داخل المدينة على نشز مرتفع، وبجواره أسس جامعه المسمى بجامع عمرو بن العاص، أو الجامع الغربى، الواقع بالقرب من باب الاسكندرية الغربى، وقد آل هذا القصر إلى عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد ذلك، ونزل أبو ذر الغفارى الصحابى منزلا يقع غربى المصلى المجاور لمسجد عمرو مما يلى البحر، ونزل معاوية بن حديج فى قصر فوق التل (٤).

ونعتقد أن عدد سكان الاسكندرية لم يكن يتجاوز كثيراً الثلثمائة ألف، فقد ذكر المقريزى نقلا عن ابن لهيعه أنه وجد بالاسكندرية من أهل الذمة

(١) بتلر، ص ٦٠.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ١٧٧ — القاضى الرشيد بن الزبير، كتاب الذخائر والتحف، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، الكويت ١٩٥٩ ص ٢٠٣

(٣) نفس المصدر، ص ١٧٨ — المقريزى، مجلد ١، ص ٢٩٣

(٤) نفس المصدر، ص ١٧٧ — المقريزى، مجلد ١، ص ٢٩٣

ثلثمائة ألف ، فقدر عليهم دينارين لكل شخص ، فحصل عمرو من جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار (١) .

والواقع أن عدد سكان الاسكندرية قبل الفتح العربى لم يكن يصل بأى حال من الأحوال إلى نصف مليون شخصاً للاعتبارات السابقة ، وقد نقص عدد هؤلاء السكان برحيل الروم ، وكانوا يؤلفون العدد الأعظم من السكان ، مع عدد غير قليل من اليهود ، خافوا على أنفسهم البقاء فى الاسكندرية فى ظل الفاتحين الجدد . ونضيف إلى ما سبق ذكره أن عدد سكان الاسكندرية فى الوقت الحاضر لا يزيد على مليون ونصف مليون ، على الرغم من امتداد المدينة الحديثة إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، بحيث أصبحت فى الوقت الحاضر تتسع إلى نحو أربعة أمثال المساحة التى كانت تشغلها الاسكندرية القديمة ، وبالرغم من اكتظاظ المدينة الحاضرة بالسكان واحتشادها بالدور المرتفعة التى تتسع لأعداد كبيرة منهم .

وقد نقص عدد سكان الإسكندرية مرة ثانية فى سنة ٢٥ هـ برحيل عدد كبير من أهلها عقب استيلاء عمرو بن العاص على المدينة للمرة الثانية ، ففى هذه السنة « كتب الروم إلى قسطنطين ابن هرقل، وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين ، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل فى ثلاث مائة مركب ، مشحونة بالمقاتلة ، فدخل الاسكندرية ، وقتل من بها من روابط المسلمين ، إلا من لطف للهرب ، فنجا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمرا الخبر ، فسار إليهم فى خمسة عشر ألفاً ..... فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب

---

(١) المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٩٢ ، مجلد ٢ ص ١٤٢

المجانيق ، فأخرب جدرها ، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة ، فقتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وهرب بعض رومها إلى الروم ، وقتـــل عدو الله منويل » (١) . وهكذا اضطر عدد كبير من الروم المنتقضـين إلى الفرار مع فلول الجيش البيزنطى إلى القسطنطينية بعد أن هزمهم عمرو ابن العاص ، واسترد المدينة (٢) .

والعامل الثانى فى اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربى ، هو تهديم عمر و بن العاص لسورها الحصين بأبراجه العتيدة ، وقلاعه التى لا ترام (٣) ، وذلك عندما دخلها فى المرة الثانية ، على أثر انتقاض أهلها ، ونزول الجيش البيزنطى بقيادة مانويل . ويذكر المؤرخون العرب أن عمرا عانى كثيراً عند حصاره لأسوار الاسكندرية ، وندم على تركه أسوار المدينة سليمة عندما افتتحها فى المرة الأولى ، فأقسم لئن استولى عليها هذه المرة الثانية ليهد من أسوارها ، ويجعل الاسكندرية «كبيت الزانية يؤتى من كل مكان» (٤)

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ — البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٩ — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٩٤

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١١٠ — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٨٨ . ومن المعروف أن سور الاسكندرية عند الفتح العربى كان مزوداً بقلاع وحصون منها حصن فارس أو قصر الفرس وكان يقع بالقرب من الساحل فى ركن من أركان السور الشرقى ، ومنها الحصن القديم الذى اتخذت فيه دار الامارة فى سنة ٤٤ هـ ، ومن المعتقد ان دار الامارة كانت تقع إلى الشمال الغربى من الاسكندرية .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩٤

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه هدم السور كله، بعد أن افتتح المدينة (١)، حتى لا يتخذ هذا السور مرة ثانية حصناً للمنتقضين، يتحصنون فيه، وتصلهم الامدادات من البحر، خاصة وأن العرب كانوا قليلى خبرة بشؤون البحر وثقافته، ولم تكن دار صناعة الاسكندرية قد استأنفت بعد نشاطها فى صناعة السفن بعد.

ويبدو أن ما ذكره هؤلاء المؤرخون فيما يختص بهدم سور الاسكندرية كله يتضمن بعض المبالغة، فليس من المعقول أن يهدم عمرو كل سور الاسكندرية الذى يحمى المدينة من الغارات البحرية، خاصة وأن العرب كانوا يخشون الروم عليها، ويعتبرونها بابا مفتوحاً لنزولهم بأرض مصر(٢)، كما أنه ليس من المعقول أن يذكر المؤرخون أن عمرو هدم سور الاسكندرية كله، ثم يذكرون بعد ذلك فى حوادث سنة ٢٠٤ هـ أن أحد الثوار فى مصر وهو عبد العزيز الجروى حاصرها مدة سبعة أشهر، ونصب عليها المجانيق(٣)، مما يدل على أن سور الاسكندرية كان ما يزال قائماً على الأقل فى معظم أجزائه. فكيف يمكننا أن نفسر هذا التناقض الواضح إلا إذا كان المقصود بالحصار حصن الاسكندرية وحده كما يذكر الكندى؟ (٤)..

وحتى إذا صح ذلك فاننا نعتقد أن سور الاسكندرية لم يهدم كله فى سنة ٢٥هـ كما يزعم المؤرخون، فان مجرد ثغرة كبيرة أو حتى عدد من الثغرات فى هذا السور كانت كافية لتدفق جيوش المسلمين فى المدينة، ونعتقد أن هدم سور

(١) نفس المصدر، ص ٢٣٧ — البلاذرى ج ١ ص ١٦١ — المقريزى، الخطط مجلد ١ ص ٢٩٤ — السيوطى، ج ١ ص ٧٠

(٢) محمد عبد الهادى شعيرة، الاسكندرية من الفتح العربى، مقال فى كتاب الغرفة التجارية سنة ١٩٤٩، ص ٨٦

(٣) المقريزى، الخطط، مجلد ١، ص ٣٠٤

(٤) الكندى، كتاب الولاة، ص ١٧١، ١٧٢

بأكمله عمل هائل يستغرق شهوراً طويلة فى وقت لم تكن تتوفر فيه معاول الهدم المعروفة فى الوقت الحاضر خاصة إذا عرفنا أن سور الاسكندرية كان شديد الصلابة والمناعة ، وتكتنفه الأبراج والحصون فى سائر أجزائه .
وأغلب الظن أن عمرو بن العاص فتح فى هذا السور ثغرات كبيرة ، ونرجح أن هذه الثغرات فتحت فى الجانب القبلى والجانب الجنوبى الشرقى منه ، ويؤيدنا فيما نذهب إليه ما ذكره البلاذرى إذ يؤكد أن عمرو فتح الاسكندرية « وأخرب سورها »(١) ، كما يؤكد فى موضع آخر أن عمرو نصب المجانيق ، « فأخرب جدرها » (٢) . ونعتقد أن المقصود بالتخريب هدم بعض أجزاء منه ، أو فتح ثغرات ، ليدخل منها الجند ، وفى نفس الوقت ليضمن عدم صلاحية الأجزاء الباقية بعد ذلك ليتحصن فيها أهل المدينة إذا فكروا فى الانتقاض مرة أخرى ، ونعتقد أن عمرو أبقى على الجانب الشمالى والشمالى الغربى والشمالى الشرقى من السور ، لتساعد على مدافعة المغيرين والغازين من البحر(٣) ، كما نعتقد أيضاً أن الأجزاء المهدمة من السور رممت ترميما مؤقتاً فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، عندما نزل الأندلسيون الاسكندرية أو قبل ذلك بعهد قصير . ويؤيد ما ذهبنا إليه أن بقايا من السور القديم كشفت عنها الأبحاث الأثرية التى أجراها المهندس المصرى محمود باشا الفلكى فى أواخر القرن التاسع عشر والتى أسفرت عن كشف مكان السور القديم

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦١
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٠
(٣) يذكر على باشا مبارك أن أحمد بن طولون عندما جدد أسوار الاسكندرية هدم الأسوار القديمة حاشا ما كان من جهة البحر والغرب ، فقد أبقى عليه مع بعض التغيير (على مبارك ، الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٤٣) .

المحيط بالاسكندرية ابتداء من برج السلسلة فى مسافة تمتد أكثر من ثلاثة كيلومترات طولا ، والتى دلت على أن الجزء الممتد من رأس لوخياس حتى الميناء الغربى كان على شكل رصيف لتيسير شحن وتفريغ السفن التى كانت تصل إلى الميناء حتى درجات من الرصيف (١) .

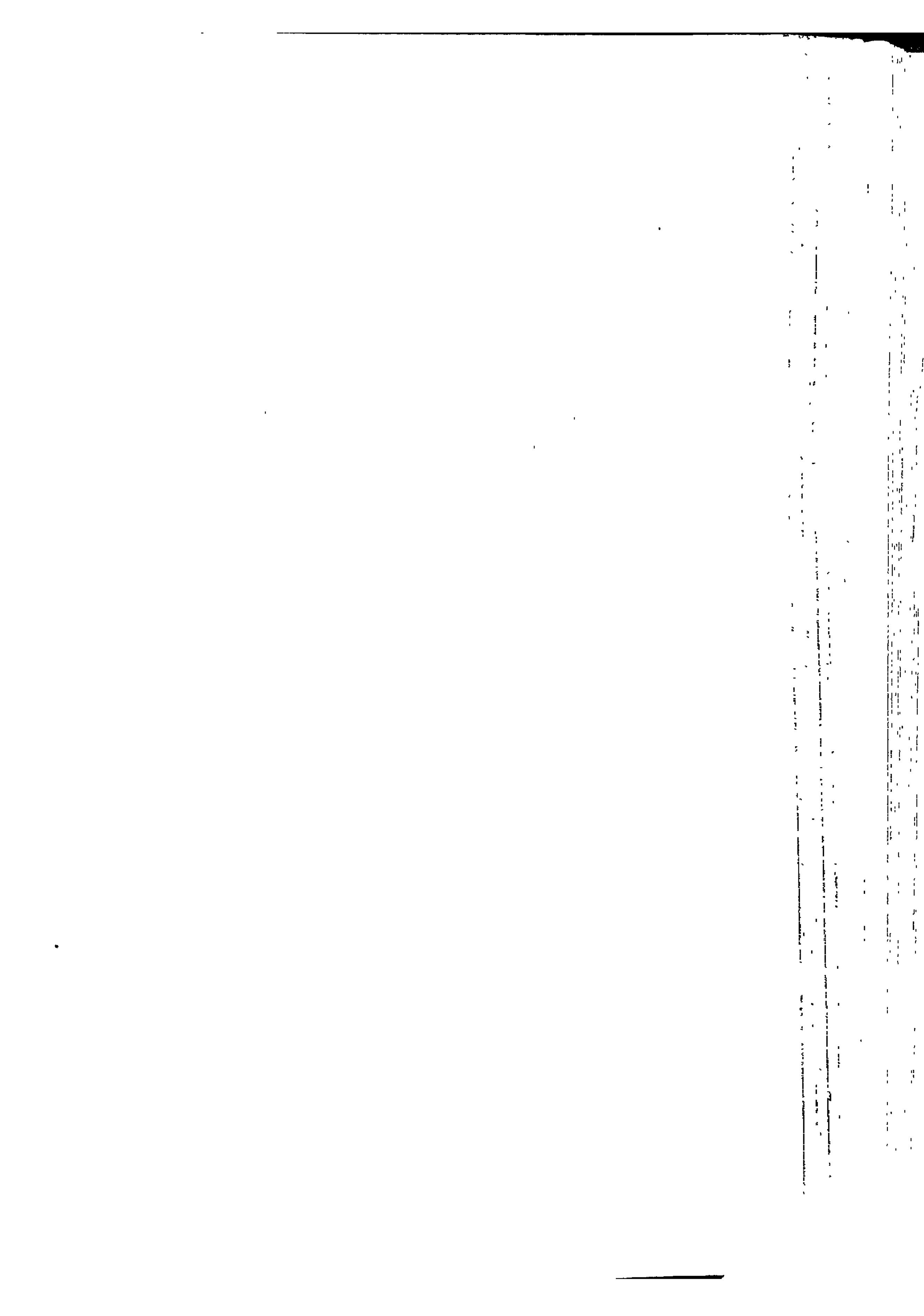
وأيا ما كان مدى التخريب الذى لحق بسور الاسكندرية وكيفية معالجته بعد ذلك ، فإن هنالك أمر ثابت لابد من ذكره ، وهو أن العمران السكندرى تأثر بهذا التخريب ، والمعروف أن الأسوار هى التى تحدد نمو العمران واتساعه ، فاذا تخربت أو فتحت فيها ثغرات ، انكمش العمران إلى المناطق الداخلية من المدينة ، وأصبحت المناطق الملاصقة لجانب السور المخرب أرضاً براحا مهجورة ، ونتيجة لذلك ، يكتظ قلب المدينة بالسكان ، حتى يبتعدوا عن مرمى قذائف المجانيق ، فلا تصل إليهم هذه القذائف ، ولا تتعرض لها الا الأبنية المهجورة القريبة من السور المتخرب ، وهذا يفسر لنا انحسار العمران فى الاسكندرية بعد الفتح الثانى لها إلى الداخل ، فتصبح المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية منطقة غير مأهولة بالسكان، وتتحول إلى أطلال دارسة .

أما العامل الثالث الذى ساعد على اضمحلال المدينة بعد الفتح العربى مباشرة ، فهو انقطاع ترعة شيديا التى كانت تمد الاسكندرية بماء النيل ، واعتماد السكان فى السقاية والرى على مياه الآبار والخزانات ، والصهاريج .

---

(١) محمود باشا الفلكى ، الاسكندرية القديمة ، ص ٦٦ — جمال الدين الشيال ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ١٩٦ .

وقد ترتب على انقطاع المياه أن أقفرت البساتين والمزارع التى كانت تمتد على ضفتى الترعة القديمة بعد أن كانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة ، وكانت الجنات تتصل فيما بينها وبين أرض برقة ، وكانت السفن تجرى فى النيل ، وتتصل بأسوار الاسكندرية . وسنرى فيما بعد كيف أن عمران الاسكندرية كان يزدهر فى الأوقات التى يتم فيهـا تطهير هذه الترعة من الرواسب الطينية التى تتراكم فى مجراها ، ونفهم من ذلك أن نمو عمران المدينة كان يتوقف على وصول لمياه النيل إلى مدينة الاسكندرية عن طريق ترعتها المعروفة بخليج الاسكندرية التى كانت تصب فى الميناء الغربية .



الفصل الرابع

الإسكندرية فى العصر الاموى

(١) الاسكندرية دار رباط .

(٢) مظاهر اهتمام الولاة بالاسكندرية .

(٣) الاسكندرية أهم قاعدة بحرية فى البحر المتوسط .







الفصل الرابع

الاسكندرية فى العصر الأموى

(١)

الاسكندرية دار رباط

اهتم ولاة الاسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص بتحصين ساحل مدينة الاسكندرية بالأربطة والنواظير لأنها كانت معرضة للهجوم من البحر وكان ميناؤها أصلح موانئ مصر لنزول العدو ، لذلك اعتبرها المسلمون ثغراً من الثغور الاسلامية التى يفد اليها المرابطة بقصد الرباط ،وقد رأينا من قبل كيف كان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية ،وكيف قسم عمرو بن العاص أجناده إلى قسمين متساويين : قسم أبقاه معه فى الفسطاط ،وقسم وزعه إلى نصفين ،أحدهما لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الثانى لسائر السواحل ، كما رأينا كيف اهتم عبد الله بن سعد بتحصين الاسكندرية امتثالا لرأى الخليفة عثمان بن عفان . وهكذا نزل العرب بالاسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص وانتجعوها للرباط ، وطلباً لثواب الجهاد ، فقد ذكر النويرى الاسكندرى أن عمرو أرسل إليها بعد الفتح قبائل العرب من لخم وجذام وكنده والأزد وحضرموت وخزاعة والمزاغنة لسكناها بقصد حراستها وحراسة الميناوين الشرقية والغربيـة بوجه خاص ، فنزلت لخم فى المكان « المعروف بكوم الدكة » ، ونزلت جذام « بركة جذام » ،

ونزلت كندة « بالبراكل » ، ونزلت الأزد « بحارة الأزدى » ، ونزلت حضرموت « بشارع الحضارمة » ، بينما نزلت خزاعة والمزاغنة بناحيـة أبى قير شرقى الاسكندرية من ظاهرها ، يحرسون . ا. ويذكر النويرى أن ذرية هذه القبائل كانت موجودة فى زمنه حتى سنه ٧٧٠ هـ التى كتب فيها كتابه « الإلمام بما قضت به الأحكام » ، وأنهم كانوا يعرفون ـا بالقبائل وأن عدد مقدميهم بلغ ثلاث وثلاثين مقدماً ، لكل منهم جماعة من القبائل لم يخرجوا عن طريقة ملبوس العرب ، « بل يسدلون العذبات ويفرجون ذراريعهم على جارى عادة أسلافهم » (١) .

وقد قيل فى فضل الرباط فى الاسكندرية أقوال كثيرة ، وكتبت فى ذلك رسائل كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

١ — رسالة فى فضائل الاسكندرية ، مخطوطة مجهولة المؤلف ، اشتملت على فتح الاسكندرية وفضل المرابطة فيها ، وذكر أسوارها وعدد مساجدها ، محفوظة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة (٢) .

٢ — الدرة السنية فى تاريخ الاسكندرية ، صنفه أبو مظفر منصور ابن سليم السكندرى (ت ٦٧٣ هـ) (٣) .

٣ — فضائل الاسكندرية ، لأبى على الحسن بن عمر بن أبى اسحاق

---

(١) النويرى السكندرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، صورة شمسية من مخطوطه الهند ، ص ٧٧ ب

(٢) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصرالاسلامى ، مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٧ ، ص ٣٧٩

(٣) هذا المخطوط كان محفوظاً بمكتبة أيا صوفيا ، ولكنه فقد .

المعروف بابن الصباغ (١) .

٤ — فضائل الإسكندرية ، لأبي الفضائل (٢) .

وفي فضائل الرباط بالإسكندرية يذكر ابن الصباح الذى جمع معظم ما كتبه أبو الفضائل ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المقيم بالإسكندرية ثلاثة أيام من غير رباء بمنزلة من عبد الله سبعين سنة ما بين الروم والعرب » (٣) . ورووا عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الإسكندرية وعسقلان عروستان والإسكندرية أفضلها ، وإنها لتأتى يوم القيامة تزف بأهلها إلى بيت المقدس ، فمن رابط بالأسكندرية أربعين يوماً كتب الله له براءة من النار ، وأمن من العذاب ، وخيار أهلها أفضل من خيار غيرها ، وشرار أهلها أفضل من شرار غيرها ، وهى مدينة ذى القرنين مكتوبة فى توراة موسى وزبور داود والانجيل والفرقان ، موصوفة فى الكتب ، يعرفها أهل العلم باسم الخضراء ، واسمها فى الزبور ، واسمها فى التوراة المذهبة ، وفى الفرقان مدينة ذى القرنين ، يبعث الله منها سبعين ألف شهيد ، وجوههم على صورة القمر ليلة

---

(١) [illegible] هذا المخطوط صورة شمسية محفوظة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية تحت رقم ٧٧٩ م مصورة من النسخة المحفوظة فى المكتبة الظاهرية بدمشق .

(٢) هكذا ورد الا[illegible] فى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » للسخاوى (ت ٨٣١ هـ) الوارد ذيلا فى كتاب علم التاريخ عند المسلمين ، لفرانز روزنثال ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص ٦١٥ .

(٣) ابن الصباغ ، فضائل الاسكندرية ، مخطوطة ، ص ٤ ب . النويرى السكندرى ، مخطوطة ، صورة عن نسخة الهند ، ص ١١٤ أ — ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٥ ص ١١٦ .

البدر ، يعطى كل واحد منهم نوراً على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم لسبعين ألفاً ، فطوبى لمن رابط فيها . » (١) .

وأورد النويرى عن سليمان الأعمش أنه قال : « حدثنا مولى عمر بن عبد العزيز ، قال له : يا أمير المؤمنين ، ألا أحدثك بحديث ؟ قال : بلى . قال : حدثنى أبى عن جدى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مدينتان من مدائن الجنة وهما من مدائن العدو ، وأنهما ستفتحان على أمتى ، إحداهما من مدائن الروم يقال لها الإسكندرية ، والأخرى من مدائن الديلم يقال لها قزوين ، فمن رابط فى إحداهما ليلة واحدة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال : فاستوى عمر جالساً ، وكان مضطجعاً ، فقال : الله ! ! لقد حدثك بهذا الحديث أبوك عن جدك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فقال الأنصارى : لقد حدثنى أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثتك يا أمير المؤمنين . ثم قال : اللهم اجعل قبرى بالإسكندرية أو بقزوين ، فوالله لولا شغل أنا فيه لاتخذت داراً أو منزلا باحداهما » (٢) .

وذكر النويرى أيضاً « عن نافع ابن عمر قال له رجل من أصحابه : أى المواضع أحب إليك ، ترابط فيها ؟ فقال : الإسكندرية . وقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أحب الرباط إلى الله عز وجل رباط الإسكندرية لأنها تزف على الخلائق يوم القيامة فى صورة مدينة نورها يتلألأ ، مكاللة بالدر والياقوت ، وذلك بفضل شهدائها » (٣) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤ ب ، ٥ أ

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١١٤ أ ، ١١٤ ب

(٣) النويرى ، ص ١١٤ ب

ونقل السيوطى عن عبد الله بن مرزوق أنه : « لما نعى إلى ابن عمى خالد ابن يزيد ، وكان توفى بالإسكندرية ، لقينى موسى بن على بن رباح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات بالإسكندرية ؟ فأقول : بلى . فيقولون : هو حى عند الله يرزق ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك . » (١) .

وهكذا قرن المسلمون اسم الإسكندرية بالثواب والجهاد والجنة ، حتى عمرت بمن وفد إليها من المرابطة ، وقد ازداد عدد الحامية المرابطة من ثلاثة آلاف فى أول الأمر إلى ١٧ ألفاً أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألفاً (٢) . وقد نزلها من الصحابة سرق بن أسيد ويقال أسد الجهنى أو الديلمى أو الأنصارى (٣) ، وعبد الله بن عمر بن العاص (٤) ، وسفيان بن هانىء بن جبير أبو سالم الجيشانى الذى توفى بالإسكندرية فى إمارة عبد العزيز بن مروان (٥) ، وعلقمة بن يزيد المرادى الغطيفى الذى ولى رابطة الإسكندرية زمن معاوية بن أبى سفيان (٦) ، والمستورد بن سلامة بن عمرو الفهرى المتوفى

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٨٠

(٢) عبد الهادى شعيرة ، ص ٨٦

(٣) السيوطى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧

(٤) سكن عبد الله بن عمر بالاسكندرية عابداً ومرابطاً للجهاد حتى وفاة معاوية (المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى حسن ، ص ٥٥) .

(٥) السيوطى ، ص ٩٨ .

(٦) الكندى ، كتاب الولاة ، ص ٣٦ — السيوطى ، المصدر السابق ص ١٠٤

بالإسكندرية فى سنة ٤٥ هـ (١) ، كما نزلها من التابعين ثمامة بن شفى الهمدانى (٢) وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام (٣) ، ومن تابعى التابعين سعيد بن يزيد الحميرى القتبانى الاسكندرانى ، وطلحة بن أبى سعيد الإسكندرانى ، والعلاء بن كثير الإسكندرانى (٤) .

وكان من الطبيعى أن يزود ساحل الإسكندرية بالمحارس والأبراج والحصون لإقامة هؤلاء المرابطة ، خاصة بعد أن تخربت أسوار الإسكندرية عند الفتح الثانى ، ولم تعد قادرة على رد المغيرين عليها من جهة البحر . وقد وصف ابن رستة (ت ٢٩٠ هـ) هذه الحصون المشيدة على ساحل الإسكندرية ، فقال : « وبالإسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها ، تسمى المحارس » (٥) ، ولعل وجود هذه المحارس كان سبباً فى تسمية الإسكندرية بالثغر المحروس(٦) أو بمحروسة ثغر الإسكندرية (٧) .

وكان يتولى مرابطة الإسكندرية رئيس يشرف على شؤونهم ، وينظم أمورهم ، ومن هؤلاء الرؤساء علقمة بن يزيد الغطيفى الذى عقد له عتبة ابن أبى سفيان على الإسكندرية فى اثنى عشر ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكتب علقمة إلى عتبة يشكو « قلة من معه من الجند ، وأنه يتخوف على نفسه وعليهم ، فخرج عتبة إلى الإسكندرية مرابطاً فى ذى الحجة سنة ٤٤هـ.

(١) السيوطى ، ص ١٠٩
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢١
(٤) نفسه ص ١٢٤ ، ١٢٥
(٥) ابن رستة ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ، ١٨٨١ ص ١١٨
(٦) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، طبعة بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢٠
(٧) اليونينى ، الذيل على مرآة الزمان ، ج ٢ ص ١٣٣

فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم » (١) . وذكر ابن عبد الحكم أن معاوية أمد علقمة الغطيفى بعشرة آلاف من أهل الشام ، ثم أمده بخمسة آلاف من أهل المدينة ، كما أمر معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة أو برمل الإسكندرية فى أربعة آلاف على أهبة الإستعداد لنجدته إذا ما طلب علقمة منه ذلك (٢) . ومن ولاة رابطة الإسكندرية كريب بن أبرهة بن الصباح الأصبحى فى زمن عبد العزيز بن مروان (٣) .

(١) الكندى ، ص ٣٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٩ — السيوطى ، ج ١ ص ٨٠

(٣) السيوطى ، ج ١ ص ١٠٧

(٢)

مظاهر اهتمام الولاة بالاسكندرية

اهتم ولاة مصر بالإسكندرية اهتماماً خاصاً ، فأقاموا على رابطتها ولاة ذكرنا منهم علقمة بن يزيد الغطيفي وكريب بن أبرهة (ت ٧٥)، وعبد الرحمن ابن معاوية بن حديج الذى ولاه عبد الملك بن مروان فى سنة ٨٦ ه على المرابطة بها، وزاد فى عطائه وأخرجه إليها (١). وزارها من ولاة مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى فى سنة ٦٠ه، بعد أن استخلف على الفسطاط عابس بن سعيد، ولم يعد مسلمة إلى الفسطاط إلا فى أول سنة ٦١ ه(٢)، كما زارها عبد العزيز بن مروان فى سنة ٧٤ه (٣)، واستخلف عليها ابنه الأصبغ بن عبد العزيز ، ثم نقل الأصبغ من ولايتها واستخلف عليها جناب بن مرثد (٤) . وزارها عبد العزيز بن مروان مرة ثانية فى سنة ٧٧، وأمر ببناء حصن الإسكندرية وكان مهدما منذ افتتح عمرو الإسكندرية الفتح الثانى(٥) وزارها للمرة الثالثة فى سنة ٨١ه فى وجوه الناس من الأشراف والشعراء، وزارها للمرة الرابعة فى سنة

---

(١) الكندى ، ص ٥٨ ، ٣٢٦

(٢) نفس المصدر، ص ٣٩

(٣) الرشيد بن الزبير ، كتاب الذخائر والتحف ، ص ١٠٩

(٤) الكندى ، ص ٥١

(٥) الذهبى، تاريخ الاسلام ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ ، ج ٣ ، ص ١٢٥

٨٣ هـ (١) وولى عليها عياض بن غنيم التجيبي في سنة ٨٤ . وفي سنة ٩١ هـ زارها قرة بن شريك (٢) ، كما زارها حنظلة بن صفوان في سنة ١٠٣ هـ (٣) وكان يليها من قبله قيس بن الأشعث التجيبي ، ثم عبد الله بن عبد الرحمن ابن حديج الذى وليها مكانه فى سنة ١٢٢ هـ (٤) . كذلك زارها المغيرة بن عبيد الله الفزارى والى مصر من قبـــل مروان الجعدى فى رمضان سنة ١٣١هـ (٥).

وينعكس اهتمام ولاة مصر والاسكندرية بثغر الإسكندرية فيما أنشأوه بها من منشآت ، والواقع أن العرب لم يغيروا شيئا فى تخطيط المدينة ، إذ أن القبائل التى شاركت فى فتحها مثل قبليتى جذام ولخم (٦) ، استقرت فى الأخائذ ، واكتفى العرب على هذا النحو بالإقامة فى الدور التى تركها الروم . أما الأبنية المدنية الجديدة التى اختطها العرب فقليلة ، منها الدار التى أنشأها الزبير بن العوام ، وعدة دور أقامها زبان بن عبـد العزيز بن مروان (٧) . ومعظم ما أقامه ولاة مصر بالإسكندرية يقتصر على المساجد والحصون ، وقد رأينا أن

---

(١) الكندى ، ص ٥٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٧١

(٤) نفسه ، ص ٨١

(٥) نفسه ، ص ٩٣

(٦) المقريزى ، البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، ص ٣٥

(٧) الكندى ، ص ١٠١

بناء الحصون كان أمراً ضرورياً لحراسة الساحل من الغزو البحرى ، أما المساجد فقدكانت تتخذ بالإضافة إلى وظيفتها الرئيسية كمراكز دينية ، مراكز اجتماعية وعلمية وسياسية . وكانت هذه المساجد تقام إما فى المواضع التى كانت تشغلها كنائس قديمة ، مثل جامع الألف عمود الذى أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم ، وجامع العطارين الذى أقيم فى موضع كنيسة القديس أثناسيوس ، أم فى مواضع أخرى فرضتها الحوادث ، مثل جامع الرحمة الذى أسس فى الموضع الذى رفع فيه المسلمون السيف عن رقاب الروم فى سنة ٢٥ هـ . وظلت شوارع الإسكندرية مستقيمة ، تتقاطع فيما بينها عمودياً ، على شكل رقعة الشطرنج ، وسنرى أن هذا النظام يظل واضحاً حتى عصر دولة المماليك الشراكسة (١) .

ويذكر المؤرخون أنه أقيم فى الإسكندرية فى القرن الأول للهجرة عدد من المساجد أهمها :

١ — مسجد موسى عليه السلام ، وكان يقع قريباً من المنار . ويذكر ابن عبد الحكم أن هذا المسجد كان أقرب إلى الكنيسة (٢) ، ولعله يعنى بذلك أنه كان أقرب مساجد المدينة إلى الكنيسة الكبرى أو كنيسة القديس مرقص التى كانت تقع على شاطىء البحر ، بحيث تتمكن السفن الوافدة إلى الميناء الشرقية من رؤيتها (٣) .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اسكندرية ص ١٨٣ — الهروى ، كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٤٧ — غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦١

(٣) جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ، ص ٢٠٣ — داود عبده ، فن الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢١١

٢ — مسجد الخضر ، وكان يقع بالقرب من القيسارية (١) .

٣ — مسجد سليمان ، أو مسجد الرحمة (٢) ، وكان يقع عند القيسارية ، قريباً من مسلتي معبد كليوباترة القديم المسمى بالقيصريوم ، وفي الموضع المعروف بالبقرات ، وقد سمي أيضاً بمسجد القيسارية ، لهذا السبب ، كما سمي أيضاً بمسجد اللبخات لقربه من بعض أشجار اللبخ (٣) . وقد كان الموضع الذي أسس عليه مسجد الرحمة غير معروف ، ولكن ياقوت يجعل من هذا المسجد ومسجد سليمان الذي يقع بالقيسارية مسجداً واحداً ، وعلى هذا الأساس يمكننا تحديد موقعه قريباً من الكنيسة المرقسية الحالية . وقد يكون موقعه بالقرب من المكان المسمى اليوم بسيدي عمرو بحدائق الشلالات حسب ما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول (٤) .

٤ — مسجد ذي القرنين ، ويخلط ابن عبد الحكم بين هذا المسجد والمسجد الأخضر الذي كان يقع قريباً من الباب الأخضر من أبواب

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤١ . ونلاحظ أن ابن عبد الحكم يخلط بين مسجدي الخضر والأخضر ، ثم يذكر أن كلا منهما مسجد (فتوح مصر ، ص ٦١) بينما يؤكد السيوطي أنهما مسجدان ، أحدهما بالقيسارية ، والآخر عند باب المدينة المعروف بالباب الأخضر وهو الأرجح .

(٢) ذكر ياقوت أن المسلتين كانتا عند مسجد الرحمة بالقرب من البقرات (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٨٤)

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ . ويسميه الهروي بمسجد النحات وصحتها اللبخات ويشير إلى أن هذا المسجد عنده شهداء لا تعرف أسماؤهم (الهروي ، ص ٥٠) .

(٤) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢٥٢

الإسكندرية (١) . والأرجح أن مسجد ذى القرنين كان يقع قريباً من قبر الإسكندر ، ولعله أقيم فى نفس الموضع الذى يقوم عليه اليوم مسجد النبى دانيـــال .

٥ — مسجد الخضر (٢) الواقع بالقرب باب المدينة الغربى ، وتصحيحه المسجـــد الأخضر (٣) ، وكان يقع قريبـــاً من ساحل البحر (٤) .

٦ — الجامع الغربى ، أو جامع الألف عمود الذى يشاهده المـــرء على يمينه عند دخوله من الباب الغربى ، أقامه عمرو بن العاص عندما افتتح الإسكندرية ، وأسهم فى عمارته الصحابة الذين اشتركوا فى الفتح (٥) ، وبجوار هذا الجامع كانت تقع الدار التى نزلها أبو ذر الغفارى الصحابى (٦) ويذكر على مبارك أن هذا المسجد أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم (٧)

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ — ابن دقاق ، ص ١٢٢ — السيوطى ، ج ص ٤١

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ — السيوطى ، ج ١ ص ٤١

(٣) نسبة إلى الباب الأخضر وهو غير باب القرافة أو باب الإسكندرية الغربى

(٤) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، ص ٣٩

(٥) الهروى ، ص ٤٧

(٦) يذكر ابن عبد الحكم أن أباذر الغفارى نزل منزلا يقع غربى المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر (فتح مصر ، ص ١٧٧) .

(٧) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ١٤٣ . وذكر النويرى السكندرى أن موضعه كان ديراً .

وهى الكنيسة التى أسسها البطريرك ثيوناس (٢٨٢ — ٣٠٠ م) (١) . ويبدو أن بناة هذا المسجد الجامع استغلوا أعمدة الكنيسة فى بيت الصلاة ، فسمى لذلك بالألف عمود . وكانت لهذا الجامع مقصورة وبداخله سوارى عديدة يجتمع حولها جماعة من أهل الزهد والتصوف (٢) . ويبدو أن بناة هذا الجامع ألحقوا به محارس ومنافع ، وذكر البكرى أن سعيد بن صالح صاحب نكور قلدها فى مسجده الذى أقامه هو على نهر عيسى قريبـــاً من رباط نكور (٣) . وقد ظل جامع الألف عمود قائماً على الأقل حتى أيام الحملة الفرنسية على مصر(٤) ، وعرف هذا الجامع منذ أواخر العصر الفاطمى بالجامع القديم أو الجامع العتيق ، إذ أقام الأفضل شاهنشاه جامعاً بالقرب من سوق العطارين ، فأصبح بالإسكندرية منذ هذا العهـــد جامعان ، جامع غربى وجامع شرقى . وقد تعرض الجامع العتيق للزيادة فيه زمن صلاح الدين ، كما رمم فى سنة ٧٧٢ هـ وجدد بياضه (٥) . وفى هذا الجامع صلى الأشرف شعبان صلاة الجمعة عند زيارته لهذه المدينة سنة ٧٧٠ بعد واقعة القبارصة . ويحدد لنا النويرى موقع هذا الجامع ، فيذكر أنه يقع قريباً من ضريح الشيخ الطرطوشى من دار السلطان ، داخل سور الإسكندرية ، مما يلى الباب المعروف بالبـــاب الأخضر . ويؤكد هذا التحديد أن الجامع الغربى أو

(١) عزيز سوريال عطية ، الاسكندرية المسيحية ، مقال فى مجلة الغرفة التجارية ، ١٩٤٩ ص ٨٣

(٢) الضبى ، بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس ، مدريد ١٨٨٤ ص ١٣٢

(٣) عبيد الله البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٩١

(٤) أدى السلطان سليم الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى فى يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ (٦ يونية سنة ١٥١٧)

(٥) النويرى (مخطوطة) ص ١٦٣ ب

جامع الألف عمـــود هو نفس جامع عمـــرو الكبير (١) . وهنـــاك رأى آخـــر للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فهو يذكر أن الجامع الكبير الذى بناه عمرو بن العاص كان يقع فى الموضع الذى يقوم عليه اليوم المسجد العمرى (فى نهاية شارع أبى الدرداء عند التقائه بشارع الخـــديوى سابقاً) ، ويستدل على ذلك بأدلة ، منها أن هذا المسجـــد الحـــالى من اسمه ، ولقربه من حى عمـــود السوارى وباب السدرة ، بعيداً عن الشاطىء ، وفى موضع أمين ، يتفق مع الموقع الذى أقيم عليه الجامع الكبير . كذلك يستند على نص ذكره ابن عبد الحكم جاء فيه ، أن عمرا لما فتح الإسكندرية ، أقبل هو وعبادة بن الصامت ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو الدرداء ، ومعاوية بن حديج ، وعلوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص ، وأن عمرا نزل فى قصر هناك ، ونزل أبو ذر منزلا فى غرب المصلى المجاور لمسجد عمرو مما يلى البحر (٢) . ولما كان المسجد العمرى الحالى يقع قريباً من مقام سيدى أبى الدرداء ، فلا يستبعد أن يكون المسجد العمرى مقاماً على

---

(١) يتفق هذا الموضوع مع موضع مدرسة الباب الأخضر التابعة لقسم الجمرك قريباً من مدرسة المنير ، وهى مدرسة كبيرة المساحة تشغل حالياً أرضاً كان يقوم عليها دير للراهبات الفرنسسكان ، ولها فناء ضخم تكثر به أبدان أعمدة من الرخام وتيجانها متناثرة ، فى أحد جدرانها شاهد قبر بالخط الكوفى ، وتطل المدرسة على شارع يعرف بشارع الألف عمود ، وأعتقد أن موضع هذه المدرسة هو نفس الموضع الذى كان يشغله جامع الألف عمود .

(٢) هذا القول يؤكد وجهة نظرى فى أن جامع عمرو بن العاص كان يقع قريباً من البحر ، والمسجد العمرى الحالى الذى لا أشك فى قدمه يقع بالقرب من باب السدرة أى فى الجنوب الغربى من مدينة الأسكندرية بعيداً عن البحر .

أرض جامع عمرو الكبير ، لأن وجود مقام لسيدي أبي الدرداء يعني بقاء أشياء في ذهن الشعب تربط بين هذا المكان وذكرى مقام أبي الدرداء بالإسكندرية . ويستند الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في رأيه أيضاً على الروايات الشعبية التي تقول بأن جامع العمري الحالي هو مسجد عمرو بن العاص (١) ، وأخيراً يستند على دليل مادي وهو وجود عمود قديم له تاج ذو نقش إسلامي قديم ، يمكن أن يرجع إلى العصور الإسلامية الأولى .

٧ — مسجد المنارة الذي كان يرابط فيه متطوعة المصريين وغيرهم ، ولعله هو نفس المسجد الذي وصفه ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) ، وذكر أنه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه (٢) . ويسميه صاحب الاستبصار بمسجد سليمان ، ويذكر أنه مسجد محكم البناء (٣) . ويذكر السيوطي أن مسجد المنارة المذكور من بناء الملك الكامل (٤) ، بناه بعد أن هدمت الرياح القبة التي كان قد أقامها أحمد بن طولون على رأس المنار بعد تهدمه إثر زلزال سنة ١٨٠ (٥) ، ولكن الملك الكامل محمد لم يكن قد تولى سلطنة مصر قبل سنة وفاة ابن جبير ، ولذلك نرجح أن أعمال الملك الكامل لم تكن تتجاوز ترميم هذا المسجد .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي ، في كتاب محافظة الاسكندرية ص ٢٥٢

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، لنشرها وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤١

(٣) كتاب الاستبصار ، ٩٦

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٤

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢ ص ١٦٥

(٣)

الأسكندرية أهم قاعدة بحرية عربية فى البحر المتوسط

اشتهرت الإسكندرية فى العصر البطلمى كقاعدة رئيسية للتجارة البحرية ، وفاقت موانىء مصر الأخرى فى هذا المجال ، إذ كفلت لها ترعة شيديا الإتصال المباشر بطريق القوافل إلى مصر العليا ، وأصبحت الإسكندرية على هذا النحو المركز الرئيسى فى مصر الذى تستقبل عن طريقه كل ما كانت تحتاج إليه من العالم الخارجى ، وتصدر عن طريقه الفائض من ثرواتها الزراعية وكل ما يرد إليها من إفريقيا والشرق (١) . وكان من الطبيعى أن تنشأ فى الإسكندرية دار لصناعة السفن التجارية والحربية ، استخدمت لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب الأرز الواردة من الساحل اللبنانى ، والسرو الواردة من ميليتوس ، والصنوبر من شمال البلقان ، كما كان يرد إليها القطران اللازم لصناعة السفن من غابات مقدونية ومن هضاب آسيا الصغرى (٢) . وفى العصر الرومانى توقف اهتمام أباطرة الرومان بعد موقعة أكتيوم البحرية ، لأن البحر المتوسط أصبح مقصوراً على الرومان لاتنافسهم فى السيطرة عليه قوة منافسة (٣) ، ومع ذلك فقد استطاع السكندريون استخدام أساطيلهم فى البحرين الأبيض والأحمر على خيروجه ، ففى البحر الأبيض كان لهم أسطول

(١) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة ، ص ٣٠٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤

(٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ص ٢٨

تجارى يجوب موانىء البحر المتوسط ، أما فى البحر الأحمر فقد احتكرت الإسكندرية التجارة الشرقية احتكاراً تاماً (١) . وفى العصر البيزنطى ، تدهورت البحرية الرومانية بصورة واضحة يدل عليها ضعف المقاومة التى واجهها الوندال فى أواخر القرن الخامس ، ولم تنتعش هذه البحرية إلا فى عصر الإمبراطور البيزنطى انستاسيوس الذى حرص على تأسيس قوة بحرية دائمة فى البحر المتوسط ، ولعله هو الذى أعاد بناء دار الصناعة البحرية فى الإسكندرية (٢) ، ونجح فى تكوين قوة بحرية حقيقية قاعدتها ميناء القرن الذهبى ، وقد اعتمد جستنيان وخلفاؤه على هذه القوة البحرية فى تحقيق انتصارات البيزنطيين ، وأصبح الأسطول البيزنطى يتحكم فى منافذ البحرين المتوسط والأسود (٣) . واحتفظت بيزنطة بقواعد بحرية ودور للصناعة فى قرطاجنة وعكا والإسكندرية والقسطنطينية ، حيث تم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة الحركة المعروفة باسم الدرومونز ، كما اتخذت قواعد بحرية أخرى فى سرقوسة ورافنا (٤) ، وأصبح للدولة البيزنطية فى طليعة القرن السادس أساطيل إقليمية ترابط وحداتها على سواحل البحر المتوسط عند بداية الفتوحات العربية .

وقد رأينا كيف أحجم العرب عن الحروب البحرية واعتمدوا فى الدفاع

---

(١) مصطفى العبادى ، الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٩٣

(٢) أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ص ٢٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٣

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٨

البحرى على القلاع والمحارس والمناظر التى توزعت على سواحل الشام ومصر، كما رأينا كيف اضطر العرب إلى اصطناع سياسة بحرية بعد أن ثبتت أقدامهم فى هذين القطرين، وفى نفس الوقت الذى تهمم فيه معاوية فى الشام بانشاء أسطول عربى شامى، كان عبد الله بن سعد، عامل مصر فى خلافة عثمان بن عفان، يقوم بانشاء أسطول عربى مصرى فى الإسكندرية، القاعدة البحرية القديمة، ألقى عبء صناعته على كاهل الأقباط، وقد اشترك الأسطول المصرى مع الأسطول الشامى فى غزوة قبرص (١)، كما اشترك الأسطولان معاً فى غزوة ذات الصوارى التى انتهت بانتصار الأسطول العربى انتصارا حاسما. كذلك اشتركت السفن السكندرية فى حصار القسطنطينية سنة ٩٨ هـ زمن سليمان بن عبد الملك، وكان على أهل مصر أبو عبيدة بن عقبة بن نافع (٢) الذى تولى على بحر مصر فى سنة ١١٨ هـ (٣).

ولكن معاوية بن أبى سفيان لم يستفد من انتصار العرب فى موقعة ذات الصوارى لمتابعة الغزو البحرى لجزر البحر المتوسط الشرقى، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ، وبمناوءة على بن أبى طالب من أجل الخلافة، عن مواجهة البيزنطيين. أما البيزنطيون، فقد اغتنموا هذه الفرصة لتدعيم جبهتهم الداخلية وإعادة بناء قوتهم البحرية، ثم وجهوا فى سنة ٤٩ هـ هجوما عاتياً على سواحل الشام. ويبدو أن البيزنطيين سببوا بهجومهم خسائر فادحة وأضراراً جسيمة فى الجانب العربى، حملت معاوية على إعادة إنشاء دار

(١) ابن الاثير، حوادث سنة ٢٩ — فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٣٨

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية منذ الفتح العربى، ص ٢٦٢

(٣) الكندى، ص ٧٩

لصناعة الأسطول فى عكا لتنتج له سفناً محلية بدلا من اعتماد الشام فى الانتاج البحرى على دار صناعة الإسكندرية وحدها . « فأمر بجمع الصناع والنجارين، فجمعوا ، ورتبهم على السواحل ، وكانت الصناعة فى الأردن بعكا » ، وظلت عكا القاعدة البحرية فى الشام إلى أن نقلت زمن بنى مروان بن الحكم إلى صور (١) ، ومنذ قامت دار الصناعة بعكا ودار صناعة الإسكندرية بصناعة السفن حتى أصبح العرب يشكلون خطراً متزايداً على البيزنطيين ، وتوالت انتصارات العرب عليهم على نحـــو لم يكن فى الحسبان ، هذه الانتصارات حملت الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى على تحويل نشاطه البحرى من نصف البحر المتوسط الشرقى إلى نصفه الغربى (٢)، حيث كانت جيوش العرب تهاجم إفريقية البيزنطية وتشن الغارات البحرية من قاعدة الإسكندرية على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى ، فان الروايات الخاصة بغزو جزيرة صقلية تدل على أن أسطول مصر التى ترابط وحداته فى الإسكندرية ، والذى أخذ منذ ذلك الحين يتوجه إلى البحر المتوسط الغربى ، هو الذى كان يتولى مهمة غزو هذه الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى حتى بداية القرن الثانى الهجرى ، عندما بدأت دار الصناعة بتونس تنتـــج لحسابها سفناً إسلامية . وكانت دار صناعة الإسكندرية تنتج سفناً تجارية تنتقل ما بين موانىء الشام ومصر وسفناً حربية تحمل المجانيق والعرادات وآلات قذف الحجارة والنار الهلينية (٣) . وكان

---

(١) البلاذرى، ج ١ ص ١٤٠

(٢) ابراهيم أحمد العدوى ، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٠

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤

أمراء البحر يخرجون منها للغزو ، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهنى فى سنة ٤٧ هـ فى البحر إلى رودس بعد أن عزله معاوية عن إمارة مصر ، وولاه إمرة البحر ، وأقام مكانه مسلمة بن مخلد الأنصارى (١) .

وقد اعتمد العرب بادىء ذى بدء فى صناعة السفن على دار صناعة الإسكندرية ، وعلى خبرة المشتغلين فى البحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعالة فى المعارك البحرية الأولى فحسب (٢) ، بل ساهموا مع جيش عبد الله بن سعد فى موقعة سبيطلة التى وقعت فى سنة ٢٨هـ (٣) ، كما سبق أن ساعدوا عمرو بن العاص فى الفرما ، وكانوا له أعوانا على البيزنطيين (٤) ، ومما لا شك فيه أن أسطول الاسكندرية هو الذى حمل غنائم عبد الله بن سعد التى كان ينوء بأثقالها جيشه من ميناء طرابلس بليبيا إلى الإسكندرية (٥) ، والأسطول السكندرى أيضاً بقيادة عبد الله بن قيس الدزقى هو الذى غزا جزيرة صقلية فى سنة ٤٦هـ ، فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يفتتح سوسه (٦) . وقد يكون من بين قواد المسلمين الذين غزوا صقلية وجربة وقوصرة فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربى لإفريقية أبو محمد فضالة بن عبيد الأنصارى الصحابى (ت ٥٣) الذى كان يتـولى القضاء

(١) الكندى ، ص ٣٨

(٢) Cheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 92

(٣) المالكى ، كتاب رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ص ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، المغرب الكبير ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢

(٥) المالكى المصدر السابق ، ص ١٧

(٦) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٢٧٨

والبحر بمصر فى خلافة معاوية ، ودخل إفريقية غازياً هو ورويفع بن ثابت الأنصارى (١) ، وقد يكون من بينهم أيضاً عقبة بن نافع الذى غزا فى البحر بأهل مصر سنة ٤٩ هـ (٢) . ويبدو أن الأسطول الإسلامى فى المغرب الذى كان يتألف معظمه من مراكب مصرية اشترك فى العمليات الحربية ضد البيزنطيين فى ولاية حسان بن النعمان ، وقد أحرز هذا الأسطول فى مياه قرطاجنة انتصاراً ساحقاً على الأسطول البيزنطى بقيادة البطريق جان، أعظم قواد ليونتيوس ، الذى أغار على ساحل إفريقية فى سنة ٧٩ هـ (٣) ، وأرغم سفن الروم على الفرار إلى صقلية . كذلك أسهم أسطول مصر فى غزو جزيرة سردانية فى خلافة عبد الملك بن مروان ، فقد سير عبد العزيز بن مروان والى مصر عطاء بن أبى نافع الهزلى وقيل عطاء بن رافع (٤) ، فى مراكب أهل مصر لغزو سردانية ، فوصلت سفن عطاء إلى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات ، وكان الوقت فى بداية الشتاء ، فنصحه موسى بن نصير ، والى إفريقية يومئذ ، بالبقاء فترة الشتاء إلى أن يطيب ركوب البحر ، ولكن عطاء لم يأخذ بنصيحته ، وشحن سفنه ثم رفع مراسيه ، فغزا جزيرة يقال لها سلسلة(٥) ، وافتتحها وأصاب فيها مغانم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة

---

(١) المالكى ، كتاب رياض النفوس ، ص ٥٢ — التجانى ، رحلة التجانى ، تحقيق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ١٢٤

(٢) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) البكرى ، ص ٣٨ — المالكى ص ٣٣— Cheira, op. cit. pp. 195-197
Diehl, Histoire du Moyen âge, t. III, Paris 1936, p. 207

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٣ — الذهبى ، العبر فى أخبار من غبر ج ٣ ص ٢٣٣

(٥) لعلها صقلية التى كانت تكتب بحرف السين بدلا من الصاد .

والجوهر ، ثم انصرف قافلا ، فأصابته عاصفة عاتية أغرقت معظم سفنه ، فوجه موسى بن نصير يزيد بن مسروق فى الخيل إلى سواحل البحر للبحث عن بقايا سفن عطاء وإنقاذ من يقذفه البحر من أصحاب عطاء الأحياء . وقد أفاد موسى بن نصير من الملاحين المصريين الناجين ، فألحقهم بدار الصناعة بتونس . وفى سنة ٨٩ هـ قام عبد الله بن مرة بطالعة أهل مصر على موسى ، فعقد له موسى على بحر إفريقية ، فغزا سردانية ، وافتتح مدنها ، وغنم منها غنائم كثيرة (١) .

وهكذا كان العرب الفاتحون لإفريقية يعتمدون فى غزواتهم البحرية فى الفترة ما بين سنتى ٢٨ هـ إلى ٨٩ هـ على أسطول مصر الذى ترابط قطعه فى مياه الإسكندرية ، فتخرج لغزو صقلية وسردانية وتقفل بعد ذلك إلى قاعدتها فى الإسكندرية . وقد كان نشاط هذه السفن فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط يعرض سواحل مصر للغزو البحرى البيزنطى ، كما حدث عندما أغار البيزنطيون على البرلس فى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ٥٣ هـ واستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوى ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى فى جمع كثير من الناس (٢) ، رداً على الغزوة التى قام بها عبد الله بن قيس الذرقى على صقلية سنة ٤٦ هـ وغزوة عقبة ابن نافع فى أهل مصر فى البحر فى سنة ٤٩ هـ ، وكما أغار البيزنطيون فى سنة ٩٠ هـ على دمياط (٣) وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ، رداً على غزو المسلمين لصقلية وسردانية فى سنة ٨٩ هـ .

(١) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ٧٥

(٢) الكندى ، ص ٣٨

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٧

وفطن ولاة العرب فى إفريقية إلى أهمية إنشاء دار صناعة فى إحدى مدن الساحل التونسى لتزويد الجيش العربى بأسطول مستقل فى عملياته الحربية عن أسطول مصر ، يساعد على غزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التى كانت تؤلف مراكز انطلاق لغزوات البيزنطيين على السواحل التونسية ، وتشكل خطراً جاثماً أمام هذه السواحل .

ويزعم بعض مؤرخى العرب أن بحر إفريقية أصبح فى سنة ٧٣ هـ عملا تولاه محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى (١) ، وواضح أن هذا التاريخ غير صحيح ، لأن إفريقية خرجت عن طاعة العرب منذ مقتل زهير بن قيس البلوى سنة ٦٩ هـ حتى حملة حسان بن النعمان الغسانى الأولى على إفريقية فى سنة ٧٤ هـ (٢) ، وصحة هذا التاريخ فى رأيى سنة ٩٣هـ استناداً إلى ما ذكره المقرى ، إذ يقول : «كان محمد بن أوس من « أهل الدين والفضل معروفا بالفقه ، ولى بحر إفريقية سنة ثلاثة وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير . . . » (٣) . ومن المعروف أن أول غزاة غزيت فى بحر إفريقية حدثت فى سنة ٨٥ هـ ، فى ولاية موسى بن نصير على المغرب ، وذلك عندما عقد لولده عبد الله على البحر (٤) .

---

(١) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٠٥ — الحميدى ، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ ص ٤٢

(٢) المغرب الكبير ص ٢٤٢ وما يليها .

(٣) المقرى ، ج ٤ ص ٥٨ . ومن الملاحظ أن النساخين كثيراً ما أخطأوا فى نسخ السنين خاصة ما كان يتعلق منها برقمى ٩ ، ٧ ، إذ كانوا يحرفون كتابتهما بالحروف الكوفية لتشابه هذين الرقمين عند الكتابة ، كما حدث بالنسبة لسنة ١٧٢ أو سنة ١٩٢ التى تسجل تاريخ انشاء مدينة فاس .

(٤) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٧٥

وإلى حسان بن النعمان يرجع الفضل فى إنشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى ينسبون إليه غرس البذور الأولى للفن العربى الإسلامى ، وإنشاء بحرية عربية إسلامية فى المغرب ، كما ينسبون إليه حركة تعريب الدواوين ، وتعريب العملات ؛ فلقد أظهر عبد الملك اهتماما كبيراً بالقوى البحرية بسبب ما كانت تتعرض له بلاد الشام فى بداية خلافته من غارات البيزنطيين والمردة ، مما حمله على مهادنتهم ، واقتسام دخل جزيرة قبرص معهم (١) .

أدرك حسان بن النعمان أن الفتح العربى للمغرب لا يمكن أن يتدعم إلا إذا جارى العرب البيزنطيين فى البحر ، فاصطنعوا سياسة بحرية فى المغرب ، وأنشأوا أسطولا إفريقياً يواجهون به أسطول البيزنطيين التى ترابط قطعه فى موانىء صقلية وجنوبى إيطاليا ، ولذلك سير إلى عبد الملك بن مروان وفدا من ٤٠ رجلا من أشراف العرب لإطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غزو أساطيل الروم ، وكتب إليه رسالة أوضح له فيها أهمية إنشاء دار صناعة بتونس ، وطلب منه أن يبعث إليه بجماعة من أقباط مصر يتولون إنشاء دار صناعة تونس لشهرة الأقباط فى صناعة السفن (٢) . وعظم على عبد الملك

---

(١) فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٩

(٢) مما يدل على شهرة الأقباط — والمقصود بهم بطبيعة الحال ملاحى الاسكندرية الذين شاعت شهرتهم فى مجال الملاحة منذ العصر البطلمى وتسيير السفن — ما رواه المقريزى ، إذ ذكر أن أبا سلمة عبد الرحمن أراد الخروج إلى الاسكندرية فى سفينة ، فاحتاج إلى رجل يجدف ، فسخر رجلا من القبط (المقريزى الخطط ، ج ٢ ص ٥٨) . وذكر ابن عبد الحكم عن الليث عن يزيد بن أبى حبيب « إذ بلغه أن كعب الأحبار كان يقول : مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت حتى يخرب=

ذلك ، وعز عليه ، وكان رجلا مجاهداً شارك فى فتوح إفريقية فى حملة معاوية ابن حديج ، أن يتعرض المسلمون لهذه الأخطار المتواصلة ، فعزم على تحقيق رغبة حسان ، ونصحه إثنان من الصحابة هما : أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها ، وبينا له فضل المرابطة فيها ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بمصر يأمره بأن « يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهى تونس ، وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ، ويجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم » (١) . فوفد القبط عليه وهو مرابط فى تونس ، فجعل معظمهم فى مرسى رادس ، ووزع الباقين فى مراسى إفريقية ، ثم أجرى البحر من مرسى رادس إلى موضع دار الصناعة ، واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، وأمر القبط بعمارتها فى الميناء المتصلة بالبحيرة ، وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر ، وتحولت تونس على هذا النحو إلى قاعدة بحرية هامة ، تخرج منها الأساطيل الإسلامية لمهاجمة الجزر البيزنطية المقابلة للساحل التونسى .

=الله بهم وبصناعتهم جزائر الروم » (ابن عبد الحكم ، ص ٧). وتتضمن البرديات المكتشفة فى الفيوم والبهنسا وكوم اشقاو ذكر عدد كبير من الصناع المصريين كالنجارين والعمال المهرة والقلفطين وقصارى الأقمشة ممن كانوا يشتغلون فى دار الصناعة بالاسكندرية (فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٤٤) .

(١) البكرى ، ص ٣٨ — التجانى ، ص ٥ — ٧ ، ابن أبى دينار ، المؤنس فى ذكر بلاد افريقية وتونس ، ص ١١

الفصل الخامس

أحداث الإسكندرية فى العصر العباسى

(١) الإسكندرية قاعدة هامة للأسطول العباسى ومركز رئيسى للحملات إلى المغرب .

(٢) غزاة البحر الأندلسيون يستولون على الإسكندرية .

ا - ثورات أهل الحوف الشرقى وامتدادها إلى الإسكندرية .

ب - مشكلة الأندلسيين الوافدين : هل هم ربضيون أم غزاة بحر ؟

ج - استيلاء الأندلسيين على الإسكندرية .

د - جلاء الأندلسيين عن الإسكندرية واستيلائهم على إقريطش

(٣) ثورات بنى مدلج فى الإسكندرية .

الفصل الخامس

أحداث الاسكندرية فى العصر العباسى

(٢)

الاسكندرية قاعدة هامة للأسطول العباسى ومركز رئيسى للحملات الى المغرب

كانت الاسكندرية من أولى مدن مصر التى خرجت على الأمويين ودخلت فى فلك العباسيين ، فعندما قدم مروان بن محمد إلى مصر فى شوال سنة ١٣٢ ﻫ ، سود أهل الحوف الشرقى ، مؤيدين للعباسيين ، وحذا حذوهم عدد من عمال الأمويين أمثال الأسود بن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، الذى لجأ إلى الاسكندرية ، وسوّد بها . وكان من الطبيعى أن يعمل مروان بن محمد على إحباط حركة الأسود الموالية للعباسيين فى الاسكندرية ، فبعث لقتاله عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، فاشتبك الفريقان فى الكريون فى ذى القعدة من تلك السنة ، فى قتال عنيف انتهى بهزيمة الأسود بن نافع ، وقتل فى هذه المعركة عيسى بن أبى عبدة بن عقبة ابن نافع ، ودخل الكوثر بن الأسود المعافرى أحد قواد الأمويين الاسكندرية وقتل فيها عبد الأعلى بن الهجرس مولى مراد(١). وحاول القبط برشيد، فى

(١) الكندى ، ص ٩٥ ، ٩٦ — سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية منذ الفتح العربى ، ص ٢٦٣ .

نفس الوقت، الخروج على طاعة الأمويين، فبعث إليهم مروان بن محمد عثمان ابن أبي نسعة في المقامصة فهزمهم وقضى على حركتهم (١) . غير أن جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي العباسي لم تلبث أن تغلبت على أتباع مروان في الفسطاط ، وقضت عليه في بوصير ، وأصبحت مصر بذلك من البلاد التابعة للخلافة العباسية .

وعلى الرغم من انصراف الدولة العباسية، التي انتهجت منذ قيامها سياسة شرقية، عن شؤون البحر ، ونفض يدها من محاربة البيزنطيين في البحر ، فقد حرص ولاتها في مصر على مواصلة الاهتمام بقاعدة الاسكندرية البحرية التي أصبحت مركزاً رئيسياً للعمليات العسكرية في المغرب المنشق على العباسيين. وكان من الطبيعي أن يسعى العباسيون إلى فرض نفوذهم على افريقية التي خرجت عن طاعتهم ، فلم يكد يمضي أربع سنوات على قيام الدولة العباسية حتى سير أبو العباس السفاح الجيوش العباسية بقيادة أبي عون عبد الملك ابن يزيد ، الذي قدم على جيشه عدداً من أشراف أهل مصر من بيت بني حديج وبني موسى بن نصير ، منهم قنبرة بن بحرية بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج ، وعثمان بن عبيد الله بن موسى بن نصير ، والضحاك بن محمد اللخمي ، ودحوح بن ثابت البلوي ، وزحف الجيش العباسي نحو المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٣٦هـ (٢)، يتقدمه قائد عباسي يعرف باسم عامر ابن اسماعيل . وفي نفس الوقت بعث صالح بن علي العباسي بالمثنى بن زياد الخثعمي في شوال سنة ١٣٦ هـ إلى الاسكندرية ، ليجهز المراكب منها للاقلاع

---

(١) نفسه ، ص ٩٦

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ — أبو المحاسن ، ج ١ ص ٣٣١

نحو طرابلس الغرب ، كما بعث بعياش بن عقبة الحضرمى فى حمل الطعام والأقوات لجيش أبى عون وعامر بن اسماعيل .

وكان دعاة أهل مصر الذين سيرهم صالح بن على العباسى دعاة لأهل إفريقية (ومنهم قنبرة ، وعثمان بن عبيد الله ، والضحاك) قد بلغوا مدينة سرت ، فى حين بلغ الجيش العباسى بقيادة أبى عون وعامر بن اسماعيل برقة عندما توفى أبو العباس السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ ، وخلفه أبو جعفر المنصور الذى أقر صالح بن على على خراج مصر وصلاتها. فكتب صالح إلى أبى عون يأمره بالرجوع ، وبرد الدعاة عن أهل مصر (١). فأقام أبو عون ببرقة أحد عشر شهراً واتخذ بها مصلى ، ثم رجع بجيشه إلى مصر (٢) .

وفى خلافة أبى جعفر المنصور ساءت الأحوال بافريقية ، فقد تغلب عليها الصفرية بادىء ذى بدء ، وارتكبوا فى القيروان ، الحاضرة ، من ضروب البطش والظلم والطغيان واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد ما حرك عوامل الغيرة على الاسلام فى نفس أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، إمام الإباضية فى طرابلس منذ عام ١٤٠ هـ ، فزحف بجموعه نحـو القيروان لتطهيرها من دنس قبيلة ورفجومة الصفرية ، وتحرير أهل القيروان من طغيانها ، وتمكن عبد الأعلى بعد موقعة دارت بالقرب من القيروان فى صفر سنة ١٤١ هـ من دخول القيروان (٣). وكان قد وفد على أبى جعفر

(١) يرجع السبب فى ذلك إلى أن أبا جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ووجه إليه بهدية (المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٣٢) .

(٢) الكندى ، ص ١٠٣

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨٢

المنصور بعض عساكر العرب من المغرب يستصرخونه لانقاذ افريقية من فساد الخوارج الصفرية المتطرفين ، ولم يتردد أبو جعفر المنصور فى العمل السريع ، وبادر بتولية محمد بن الأشعث الخزاعى على مصر وافريقية فى ذى الحجة من سنة ١٤١ ،وعهد إليه بارسال جيش لاسترجاع افريقية ، فسير ابن الأشعث جيشاً عباسياً بقيادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص العجلى ، ولكن هذا الجيش منى بهزيمة نكراء فى سرت سنة ١٤٢ ه على أيدى الاباضية أتباع عبد الأعلى (١) ، وأمام هذه الهزيمة اضطر ابن الأشعث إلى الخروج بنفسه على رأس حملة إلى إفريقية. ويذكر الكندى أنه توجه إلى الاسكندرية بعد أن استخلف محمد بن معاوية بن بجير صاحب شرطته على الصلاة ،وكان خروجه إليها يوم الأضحى سنة ١٤٢ه(٢) ، ومن هناك جهز الجيوش وخرج نحو برقة فى جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) . ونستنتج من ذلك أن الاسكندرية أصبحت القاعدة الرئيسية فى مصر لتسيير الجيوش إلى افريقية بحكم متاخمتها للمغرب (٤) .

ولم تكن الاسكندرية قاعدة للأسطول العباسى ومركزاً للحملات إلى إفريقية فحسب ، بل كانت بحكم اتصالها بالطريق المؤدية إلى إفريقية والمغرب ملتقى للمتناقضات السياسية فى هذه الفترة ،على حد تعبير الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٥) ، فبينما كانت الخلافة العباسية توجه منها الدعاة

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ — المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٤٣
(٢) الكندى ، ص ١٠٩ — أبو المحاسن ، ج ١ ص ٣٤٦
(٣) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٤٣
(٤) سعد زغلول ، الاسكندرية منذ الفتح العربى ، ص ٢٦٥
(٥) سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥

والجيوش إلى المغرب ، كانت ملاذا للمناوئين للخلافة من الشيعة العلويين ؛ فعندما انتهت حركة بنى الحسن العلويين بالحجاز بالفشل في سنة ١٤٥ هـ وباستشهاد محمد بن عبد الله بن الحسن فى ١٤ رمضان ، وابراهيم بن عبد الله فى ٢٧ ذى القعدة ، لجأ خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى القائم بدعوة على بن محمد بن عبد الله إلى الاسكندرية ، واستخفى زماناً طويلا بها بعد وفاة على بن محمد ، وظل مقيما بالثغر السكندرى حتى وفاته فى زمن المهدى العباسى بعد سنة ١٦٠ هـ (١) .

(١) الكندى ، ص ١١٥ — سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥

(٢)

غزاة البحر الأندلسيون يستولون على الأسكندرية

(١) ثورات أهل الحوف الشرقى وامتدادها إلى الاسكندرية :

فى خلافة هشام بن عبد الملك ، أنزل عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر فى سنة ١٠٩ ، بيوتا من قيس يبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف بالحوف الشرقى ، فى شرق الدلتا كما نزلها أيضاً قبائل من اليمانية ، وأمرهم بالاشتغال بالزراعة (١) حتى يحلوا تدريجياً محل قبط الحوف الذين ثاروا على هشام ابن عبد الملك أول ثورة لهم فى سنة ١٠٧ ه‍ (٢) ، عندما زاد على كل دينار قيراطاً. وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاندماج فى الأهالى مما كان له أعظم الأثر فى انتشار الاسلام بقرى مصر (٣) . وفى سنة ١٧٨ زاد اسحق بن سليمان عامل خراج مصر على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، فخرج عليه أهل الحوف ، وحشدوا حشودهم ، فسير اليهم هارون الرشيد قائده هرثمة بن أعين فى جيش عظيم ، فتلقاه أهل الحوف بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج (٤) . سكت أهل الحوف سكوتاً مؤقتاً إلى أن تحينت لهم الفرصة لإعلان ثورتهم الثانية فى سنة ١٨٦ ه‍ وذلك عند ما بعث

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٣

(٢) سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الولاة ، ص ١٣٦

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٧

(٤) الكندى ، ص ١٣٦ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٤

الليث بن الفضل عامل خراج مصر من قبل الرشيد « بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم ، فانتقصوا من القصبة أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث . فلم يسمع منهم ، فعسكروا وساروا إلى الفسطاط ، فخرج إليهم ليث بن الفضل فى أربعة آلاف من جند مصر .... فالتقى ليث مع أهل الحوف لثنتى عشرة خلت من شهر رمضان سنة ست وثمانين ، فانهزم الجند عن ليث وبقى فى مائتين أو نحوها ، فحمل عليهم بمن معه ، فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة » (١). ومع ذلك فقد امتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، فبعث ليث إلى الرشيد يبلغه أنه لا يستطيع أن يجبى خراج الحوف الا بجيش يبعث به معه ، فعزله الرشيد .

كذلك امتنع أهل الحوف مرة ثالثة عن أداء الخراج فى ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩٠ هـ ولكنهم أذعنوا بالخراج عندما سار إليهم يحيى بن معاذ الذى سيره الرشيد لاخضاعهم ،فى ١١ شوال سنة ١٩١(٢) .

وعاود أهل الحوف ثورتهم فى ولاية حاتم بن هرثمة بن أعين سنة ١٩٤ هـ ، فلما قدم إليهم ونزل بلبيس صالحوه على خراجهم (٣) .

ثم أشعل الصراع بين الأمين والمأمون فى سنة ١٩٦ هـ نار الفتنة فى مصر وبادر جماعة من أشراف مصر بخلع الأمين واخراج جابر بن الأشعث عامله على مصر ، وبايعوا للمأمون ، وولوا عباد بن محمد من قبل المأمون على صلاة مصر وخراجها فى ٨ من رجب سنة ١٩٦ هـ(٤) ، وبلغ الأمين

---

(١) الكندى ، ص ١٤٠ — المقريزى ، ج ١ ص ١٤٤
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٣ — المقريزى ، ص ١٤٤
(٣) الكندى ، ص ١٤٧
(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — المقريزى ، ج ٢ ص ٨٦

ما فعله المصريون من خلعه وإخراج عامله جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة ابن قيس بن الزبير الجرشي رئيس قيس بالحوف بولايته على مصر ، كما كتب إلى عبد الصمد بن مسلم بن عمارة الجرشي أحد زعماء القيسية فى الحوف ، وإلى يزيد بن الخطاب وعثمان بن مستنير الجذامى من زعماء اليمانية بنفس إقليم الحوف الشرقى ، يأمرهم بمعاونة ربيعة بن قيس ونصرته بجميع أهل الحوف يمنها وقيسها . فاستجاب أهل الحوف إلى أمره وزحفوا إلى الفسطاط لمحاربة عباد بن محمد بن حيان وأنصاره من أهلها ، وفى هذه الأثناء تغلب أحد زعماء اليمنية وهو بهلول اللخمى على الاسكندرية (١) ، ونزل عبد العزيز الجروى ، أحد رؤساء اليمنية أيضاً من بلدة فاقوس ، فى بلبيس وبعث عماله يجبون الخراج من الحوف (٢). حاول أهل الحوف مهاجمة الفسطاط فتصدى لهم عباد الذى خندق عليها ، وأسفر الاشتباك عن هزيمة أهل الحوف ، خاصة بعد أن فت فى عضدهم مقتل محمد الأمين ، وبيعة المأمون فى المحرم سنة ١٩٨ . وولى المأمون المطلب بن عبد الله الخزاعى على خراج مصر وصلاتها ، فى ١٥ ربيع الأول ، فلما قدم ، ولى على الاسكندرية أحد أشرافها المعروفين من بيت بنى حديج وهو حديج بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج ، فثار بنو مدلج الذين ينزلون مع جذام ولخم على مقربة من الاسكندرية ، واضطربت الأمور فى الاسكندرية ونواحيها ، فبعث إليهم المطلب جيشا بقيادة أخيه هرون ، فانهزم هرون ، وفى الوقت نفسه عزل المطلب عن ولاية مصر ، فى شوال سنة ١٩٨ ، فوليها من بعده العباس

(١) الكندى ، ص ١٥٣ — المقريزى ، ج ٢ ص ٨٦

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥١ — المقريزى ، نفس الصفحة

ابن موسى ، فقدمها ابنه عبد الله الحسن بن عبيد الأنصارى ، الذى أثار الجند بسجن المطلب و بمنع أعطياتهم ، وبتهديدهم ، و بتحامله على الرعية . فلما وصل العباس بن موسى وفى صحبته محمد بن إدريس الشافعى ، لم يضع حداً لهذه التصرفات الجائرة ، فقد عاود الأنصارى سياسة التحامل على الجند والرعية فثار الجند ، ودعوا إلى ولاية المطلب ، وأعادوه بالفعل إلى الولاية للمرة الثانية فى ١٤ من المحرم سنة ١٩٩ هـ ، ولكن نار الفتنة اندلعت بولايته وسرى الاضطراب فى تنيس حيث انتزى عبد العزيز الجروى ، واستفحل خطره ، بعد أن هزم كل جيش سيره المطلب لمحاربته . (١) .

وفى هذه الظروف السيئة رست بمياه الاسكندرية مراكب أندلسية قفل أصحابها من غزوهم ، ونزلوا الاسكندرية لابتياع ما يلزمهم ، فأغراهم الاضطراب السائد واستنصار بعض الطامعين من العرب بهم على خصومه ، فلم يترددوا فى التدخل عندما واتتهم الفرصة .

(ب) مشكلة الأندلسيين الوافدين : هل هم ربضيون أم غزاة بحر ؟

من الشائع عند الباحثين أن الأندلسيين الذين قدموا فى مراكبهم إلى الاسكندرية ، ودخلوا طرفا فى النزاع القائم بين الطامعين فى ولايتها ، جماعة من أهل ربض قرطبة القبلى ، يعرفون باسم الربضيين نسبة لهيج الربض أو ثورة الربض على الأمير الحكم بن هشام الأموى (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) . فنفاهم الأمير خارج الأندلس ، فوفد عدد كبير منهم إلى فاس ، وسمح لهم الإمام إدريس بن إدريس الحسنى بالاقامة فى عدوة الأندلس من مدينة

(١) الكندى ، ص ١٥٧

فاس (١) ، بينما وصل فوج كبير منهم إلى الاسكندرية .

وسبب هيج الربض أن الأمير هشام والد الحكم كان قد أحاط نفسه بالفقهاء المالكية ، واستسلم لهم ، وعظم بذلك شأنهم ، وتجاوزوا حدودهم ، فلما تولى الحكم الإمارة بعد أبيه حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه من نفوذ ، ويكف أيديهم عن التدخل فى شؤون دولته ، فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى إثارة الرعية عليه ، وحاول بعض الفقهاء أن يغدروا به فى سنة ١٨٩ هـ بحجة أنه تظاهر بشرب الخمر وانهمك فى الملذات ، فامتنع منهم ، ثم اتفق الفقهاء ووجوه قرطبة مع محمد بن القاسم القرشى المروانى المعروف بابن الشماس على مبايعته بالامارة ، فخذلهم ، وأفشى سرهم ، فأبلغ الحكم ابن هشام بما اجتمعوا عليه ، وروى له تفاصيل المؤامرة ، وأعطاه بياناً بأسمائهم فقبض عليهم الأمير ، وصلبهم عند قصره ، وبلغ عددهم ٧٢ رجلا (٢) ، من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسى ، وكان قدوة فى الدين والورع ، وأبو كعب بن عبد البر ، وموسى بن سالم الخولانى وولده ، وغيرهم (٣) . وامتلأ جو قرطبة وتشبع بمظاهر السخط على الحكم ، بعد

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٦ — النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة ، ج ٢٢ ، ص ١٥ — سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦ ص ٥٠ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٠٦ — المقرى ، نفح الطيب ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٣٢٢

أن أمر بقتل الثوار ، وأنكر الناس عليه إطلاقه يد ربيع القومس متولى المتاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيا فى رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين (١) . وفى هذا الجو المتوتر ، وقع حادث بـ ـل أشعل نيران الفتنة بين سكان الربض القبلى من قرطبة المعروف بشقندة ، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاماً ، فغلت نفوس الأهالى بالغضب ، وانفجرت براكين غضبهم على الأمير ، وكأنما كانوا يرتقبون وقوع هذا الحادث فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على المملوك فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير ، وأول من شهر السلاح ضده أهل الربض القبلى بعدوة النهر ، ثم انضم إليهم أهل المدينة والأرباض الأخرى ، واتجه الجميع يحملون ما استطاعوا حمله من سلاح نحو قصر الإمارة ، فتحصن الحكم فى قصره وأوكل بحراسته والدفاع عنه كتائب من الجند والعبيد ، واشتبك الثوار مع الجند فى قتال عنيف كاد يتغلب فيه الثوار ، لولا أن الحكم لجأ إلى حيلة تشبه حيلة الشاميين يوم الحرة فبعث برجلين من ثقات رجالـه هما عبيد الله البلنسى واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض ، فأشعلوا النار فى مساكن الثوار ، فلما شاهد هؤلاء النار تحتدم فى بيوتهم بادروا بالعودة لاستنقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم ، وقتلوا منهم خلال ثلاثة أيام متواصلة عدداً كبيراً تجاوز عشرة آلاف رجل ، وفر من قرطبة أضعاف هذا العدد (٢) ، وقد انتقم الحكم من الثوار الذين وقعوا أسرى ، فأمر بصلب ثلاثمائة ممن قبض عليهم صفا واحداً على ضفة نهر الوادى الكبير من باب القنطرة القبلى حتى نهاية المصارة فى جنوب قرطبـة

---

(١) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ، ص ١٥

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٦

الغربى ، وأمر بهدم الربض مصدر الفتنة ، فأعيد بطحاء مزرعة . ولما مضت ثلاثة أيام من القتل والسفك ، أمر برفع السيف عن أعناقهم وتأمين الفلول ، على أن يخرجوا من الأندلس ، فنزل بعضهم فى مدينة فاس التى أسسها إدريس بن عبد الله بن حسن فى سنة ١٧٢ هـ (١) ، وأطلق على العدوة الجنوبية من تلك المدينة اسم ربض الأندلسيين ويذكر البكرى أنه كان يسكن أوزفور من أغمات بالمغرب الأقصى قوم يعرفون ببنى موسى من ربضية الأندلس ، فاستفسدوا إلى من جاورهم ، وأساءوا عشيرتهم ، فحاربوهم ، فانهزم الأندلسيون ، وتفرقوا ببلاد أغمات ، وبنو مدينة جزناية ، ولكن البربر أجلوهم عنها إلى وليلى (٢) . أما جمهورهم الأعظم ، وعددهم ١٥ ألفاً ، فقد ركبوا سفنا فى البحر ذكر الكندى أن عددها أربعون مركبا (٣) واتجهوا شرقاً حتى انتهوا إلى الاسكندرية وذلك فى أول ولاية عبد الله المأمون ابن الرشيد (١٩٨ـ ٢١٨ هـ).

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ ثورة الربض ، فأبو المحاسن يجعلها فى رمضان سنة ١٩٨ (٤) (مايو ٨١٤م) ، وابن الأثير والنويرى يتفقان على أنها حدثت فى سنة ١٩٨ هـ (٥) . أما ابن الأبار فقد حدد تاريخها تحديداً دقيقاً فى يوم الأربعاء ١٣ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٦) (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م) ،

---

(١) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٨٧ وما يليها

(٢) البكرى ، ص ١٥٥

(٣) الكندى ، ص ١٦٤

(٤) أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٥٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٧٢ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ص ١٧

(٦) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ص ٤٤

ويحددها ابن عذارى كذلك فى سنة ٢٠٢ (١) ، و يوافق رودريجو الطليطلى على هذا التاريخ (٢) .

غير أن دوزى عارض هؤلاء المؤرخين القائلين بتاريخ سنة ٢٠٢ ﻫ (٣) لأن الثوار ثبت أنهم نزلوا فى مياه الاسكندرية قبل ذلك بأربعة سنين ، استناداً على رواية ابن القوطية الذى يؤكد أنهم « ملكوها فى أول ولاية الرشيد »(٤) وصحتها المأمون (٥) الذى بدأت خلافته فى ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ ﻫ ، وما رواه المقريزى (نقلا عن الكندى) إذ يقـول : « وفى سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعى أمير مصر وبين عبد العزيز الجروى الثائر بتنيس ... وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم »(٦) . ولكن الأستاذ ليفى بروفنسال يؤكد صحة تاريخ سنة ٢٠٢ ، الذى حدده ابن حيان بايراده نص المنشور الذى أصدره الحكم بعد قضائه على الهيج وأرسله إلى ولاة الأندلس ، وفيه بيان بيوم الثورة فى ١٣ رمضان ، كذلك يعتمد ليفى بروفنسال (٧) على ما أورده

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٣

(٢) Las Cagigas, Andaluces en Africa, Boletin de la Real Academia de Ciencias, Bellas letras y Nobles artes de Cordoba, año VIII, 1929 No. 25. p. 108

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, Leyde, 1932, p. 296

(٤) ابن القوطية ، ص ٥١

(٥) ابن الأبار ، ص ٤٥

(٦) الكندى ، ص ١٥٨ — المقريزى ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٧) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, p. 165, Note 1

ابن حزم في جمهرة الأنساب (١) ، وعلى ما جاء في المغـــرب في حلى المغرب لابن سعيد (٢) الذى حدد نفس يوم الأربعاء ١٣ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ تاريخاً لقيام ثورة الربض ، وأكد أن الحكم أمر بهدم الربض القبلى فى اليوم التالى حتى صيره مزرعة ، وتتبع دور الثوار بالهدم والاحراق . ويذهب الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى القول بأن الأندلسيين الذين وفدوا فى سفنهم إلى الاسكندرية فى عام ١٩٩ هـ ليسوا من ثوار الربض لأن ثورة الربض اندلعت فى قرطبة بعد سنة ٢٠١ هـ ، بينما شارك الأندلسيون فى أحداث الاسكندرية فى سنة ١٩٩ هـ(٣) ، وهذا يعنى فى رأيه أن هؤلاء الأندلسيين كانوا غزاة بحريين وأن الغزو كان حرفتهم وصناعتهم . ونحن نؤيد الدكتور سعد زغلول فيما ذهب اليه كما نؤيد الأستاذ ليفى بروفنسال فى تاريخ سند ٢٠٢ الذى يسجل ثورة الربضيين على الحكم ، ونعتقـــد أن دوزى أخطأ إذ اعتبر أن ثورة الربض قامت فى سنة ١٩٨ والواقع أن الثورة المذكورة حدثت فى سنة ٢٠٢هـ، وأن بعض ثوار الربض لحقوا بطليطلة التى وقع اختيارهم عليها بالذات لمخالفة أهلها الحكم قبل ثورة الربض بأربعة سنوات (٤)، فغزاهم الحكم فى سنة ١٩٩هـ ، وعاث فيهم أشـد العيث ونقل وجوه أهلها إلى ترجلة (٥). ومن هنا جاء اللبس بين ثورة الربض فى سنة ٢٠٢ وثورة أهل طليطلة قبل ذلك فى سنة ١٩٩ هـ ، ونفى أهلها إلى ترجلة .

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٨٨

(٢) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ج ١ ص ٤٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربى ، ص ٢٦٧

(٤) ابن الأبار، ص ٤٥ — ابن سعيد ، ص ٤٢

(٥) ابن سعيد ، ص ٤١ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١

ونعتقد بعد هذا العرض السابق أن الأندلسيين الذين قدموا فى سفنهم إلى الاسكندرية سواء فى ٤٠ سفينة كما يذكر الكندى (١) أو فى ٤٢ سفينة كما صححناه عن اليعقوبى (٢) ، كانوا لا يزيدون بحال من الأحوال عن خمسة آلاف شخص ، بل إن اليعقوبى يؤكد أنهم كانوا زهاء ثلاثة آلاف (٣) ، ومن المستبعد أن يزيد عددهم على خمسة آلاف لسبب آخر منطقى وهو أنه إذا افترضنا أن كل سفينة قدموا عليها مهما كبر حجمها تحمل مائة من الرجال يصبح مجموع الأندلسيين أربعة آلاف . ونستند فى رأينا أيضاً على نص أورده الكندى ، إذ ذكر أن حشود اللخميين فى الاسكندرية بعد أن انضم إليهم الأندلسيون والصوفية فى الاسكندرية بلغت عشرة آلاف رجل (٤) ، ومن المعروف أن عدد اللخميين كان كبيراً للغاية وأنهم كانوا يؤلفون قوة هائلة قد تفوق قوة الأندلسيين والصوفية معا ، ومعنى ذلك أن الأندلسيين كانوا فى حدود أربعة أوخمسة آلاف على الأكثر .

ونعتقد أن هؤلاء الأندلسيين الذين قدموا إلى الاسكندرية فى سنة ١٩٩هـ ، أى قبل ثورة أهل الربض التى حدثت فى سنة ٢٠٢ هـ . بما لا يقل عن ثلاث سنوات كانوا على حد قول الأستاذ الدكتور سعد زغلول غزاة بحريين ، وأهل الأندلس بحكم طبيعة بلادهم واحتكاكهم بدول أوروبا كانوا رجال بحر وأهل غزو ، وأنهم ، بخلاف ما يشير إليهم المؤرخون ، كانوا ملاحين

(١) الكندى ، ص ١٦٤

(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، طبعة النجف ، ١٣٥٨ ص ١٧٤
ذكر اليعقوبى خطئا أنهم قدموا فى أربعة الاف مركبا وصحتها أربعين مركباً .

(٣) اليعقوبى ، المصدر السابق ، ص ١٧٤

(٤) الكندى ، ص ١٦٤

مهرة ومن المعروف أن جماعات كبيرة من البحريين من أهل الأندلس كانوا يتخذون لهم مراكز ساحلية من شرق الأندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية كان يتزعمهم أمير سرقسطة ويستخدمهم ضد الكارولنجيين (١)، وقد وجه هؤلاء غاراتهم على السواحل الكارولنجية بعد أن تفككت قوى الكارولنجيين البحرية، ونجحوا فى اتخاذ قواعد اسلامية ثابتة فى فراكسينت على ساحل بروفنس وجزيرة كامرج عند مصب الرون ، وفى ماجلون ، ومنها وجهوا غاراتهم إلى داخل البلاد فى بروفانس ، وانتشروا فى جبال الألب وتحكموا فى الممرات الموصلة بين فرنسا وايطاليا فيما بين مونت سنى والبحر المتوسط (٢) . ويبدو أن هؤلاء الغزاة الأندلسيين أغاروا من قواعدهم فى الأندلس، ولحسابهم الخاص، على جزيرة قورشقة (كورسيكا) فى سنة ١٩١هـ (٨٠٦م)، فأرسل إليهم ببين بن شارلمان ، ملك إيطاليا ، أسطولا ليرغمهم به على الانسحاب ، ونجح فى خطته ، وفى أثناء قفولهم إلى قواعدهم تعقبهم آدمر ، كونت جنـوة بأسطوله ، ولما أحس الأندلسيون بمطاردته لهم تحولوا إليه واشتبكوا مع أسطوله فى موقعة بحرية انتهت بهزيمة الأسطول الجنوى ، وأسر المسلمون ستين راهبا باعوهم فى الأندلس (٣) . ثم عاود البحريون الأندلسيون الغزو البحرى بعد عامين من تلك الوقعة ، فأرسوا بسفنهم فى سردانية ، ولكن أهلها تصدوا لهم وأرغموهم على الخروج منها ، فهاجموا

---

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٢٢٩

(٢) أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٠

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠

قورشقة ، واشتبكوا مع القائد بورشارد فى موقعة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وخسروا فيها ثلاثة عشرة سفينة (١) . ثم عاودوا هجومهم على قورشقة فى سنة ١٩٥هـ وفى سنة ١٩٨، وفى هذه المرة الأخيرة اشترك معهم أسطول صاحب أمبورياش الذى نجح فى أسر ثمانية سفن بما فيها من بحريين بلغ عددهم ما يزيد على خمسمائة ، وقد انتقم المسلمون لذلك فأغاروا على سواحل نيقة (نيس) وبروفنس وغيرها (٢) .

وبالاضافة إلى هذه المنطقة التى كان يتخذها غزاة البحر الأندلسيين ، كانت توجد منطقة أخرى تقع على الساحل الجنوبى الشرقى من الأندلس، عند الموضع الذى قامت عليه مرية بجانة ، وكان هؤلاء البحريون ينزلون قبل قبل ذلك فى مرسى أشكوبرش Escombreras الواقع فى خليج قرطاجنة الحلفاء(٣) . ويذكر البكرى أن هؤلاء البحريين الأندلسيين ، ومنهم الكركرنى وأبو عايشة والصفر وصهيب أسسوا مدينة تنس الحديثة بالمغرب الأوسط فى سنة ٢٦٢ هـ (٤)، كما يذكر أن جماعة منهم أسسوا مدينة وهران بالاشتراك مع نفزة وبنى سفن من ازداجة سنة ٢٩٠ هـ (٥) .

وينبغى أيضاً أن نذكر هنا الدور الهام الذى قام به البحريون الأندلسيون بقيادة أصبغ بن وكيل الهوارى المعروف بفرغلوش فى فتح صقلية ، فى سنة

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ص ١٤٠ — فتحى عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

(٢) شكيب أرسلان ، ص ١٤٠ — مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٣

(٣) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٠

٢١٤ هـ ، وأقاموا يفتحون صقلية مع الأغالبة حتى سنة ٢١٩ هـ (١) ، وقد اشتركوا بأسطول قوامه ٣٠٠ سفينة فى الاستيلاء على مينائى بارمة وميناو (٢)

وعلى هذا النحو نجد أن غزاة البحر الأندلسيين اشتغلوا بأعمال الغزو والنهب أو ما يسمونه بالقرصنة البحرية على سواحل ايطاليا وجزر البحر المتوسط قبل ثورة الربض سنة ٢٠٢ هـ ، ولم يكن لحكومة قرطبة حتى سنة ٢٣٠هـ أسطول بحرى منظم ،وكانت أعمال هؤلاء الغزاة تتم بدون موافقة رسمية من حكومة قرطبة (٣)، فهم إذن غزاة يشتغلون لحسابهم الخاص .

ومما يؤكد رأينا فى أن الأندلسيين القادمين إلى الاسكندرية كانوا غزاة أن الكندى يشير عند ذكره خبر نزولهم إلى أنهم : « قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكان الأمراء لا تمكنهم دخول الاسكندرية ، وانما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم »(٤) . ونفهم من ذلك أن نزول الأندلسيين بالاسكندرية لم يكن حدثاً جديداً وأنهم كانوا يلجئون قبل هذا التاريخ إلى مياه الاسكندرية ويرسون بالذات فى منطقة الرمل (٥) إثر كل غزو يقومون به ، وأنهم كانوا يمتارون منها ما يحتاجون إليه أثناء غزوهم فى البحر . فهم إذن غزاة يعتمدون فى حياتهم على ما يغنمونه فى غزواتهم لسواحل أوربا الجنوبية وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط . والمسألة أن المؤرخين ، اختلط عليهم الأمر بعد قيام أهل الربض بالثورة على الحكم ، فخلطوا بين البحريين

---

(١) المغرب الكبير ، ص ٣٦٠

(٢) مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٦

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 244

(٤) الكندى ، ص ١٥٨

(٥) اليعقوبى ، ج ٣ ص ١٧٤

وبين الربضيين ، ومن المعروف أن أهل الربض تفرقوا فى البلاد الأندلسية(١) ونزل بعضهم إلى بر العدوة ، أقرب السواحل المغربية إلى الأندلس خوفاً من بطش الأمير الحكم بهم ، فاحتلوا عدوة فاس فصيروها ربضاً قبليا لها ، ومن المعروف أيضاً أن الحكم عفا عنهم بعد ذلك، وكتب لهم أمانا على الأنفس والأموال، « فأباح لهم التفسح فى البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته حاشا قرطبة أو ما قرب منها »(٢) .

(ج) استيلاء الأندلسيين على الاسكندرية :

كان المطلب قد عقد لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج على الاسكندرية فاستخلف هذا عمر بن عبد الملك بن محمد الحديجى الذى يقال له عمر بن هلال فوليها عمر ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب ، وأقام على الاسكندرية أخاه الفضل ابن عبد الله بن مالك الخزاعى (٣) .

واستغلت طائفة البحريين الأندلسيين حالة الفوضى فى مصر ، واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية ونواحيها من لخم وبنى مدلج ، ودخلوا طرفاً فى النزاع . فعندما ولى المطلب أخاه الفضل على الاسكندرية حقد عمر بن هلال عليه، وتحالف مع ثائر آخر فى ثغر تنيس هو عبد العزيز الجروى كان طامعاً فى إمارة الفسطاط . فكتب إليه الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وأن يخرج الفضل بن عبد الله منها (٤) . ولم يكن فى امكان

(١) ابن الأبار، ج ١ ص ٤٥ — ابن عذارى، ج ٢ ص ١١٥

(٢) ابن عذارى، ج ٢ ص ١١٥

(٣) الكندى، ص ١٥٧

(٤) الكندى، ص ١٥٨

ابن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجرىء ، فرأى أن يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون الشتاء فى مراكبهم بمياه الاسكندرية . ولم يتردد الأندلسيون فى مساعدة ابن هلال ، وبفضل مساعدتهم له نجح فى اخراج الفضل منها ودعا فيها لعبد العزيز الجروى ، ولكن أهل الاسكندرية استاءوا من تدخل الأندلسيين ، فهاجموا عليهم ، واشتبكوا معهم فى معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين وعودتهم إلى مراكبهم ، وقتل فى هذه المعـركة عدد منهم . وهكذا انتصر السكندريون وأعادوا واليهم الشرعى ، ولكن المطلب لم يلبث أن عزل أخاه الفضل وأسند الولاية إلى اسحق بن أبرهة بن الصباح وهنا تحركت مطامع ابن هلال من جديد ، فخرج لمقاتلته فى شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، وتجنبا للقتال عزل المطلب اسحق بن أبرهة وولى الاسكندرية لأبى بكر بن جنادة بن عيسى المعافرى . وفى نفس الوقت نجح الجروى بالاتفاق مع السرى بن الحكم القائد فى التغلب على المطلب ، وارغامه على الخروج من مصر ، وتولى السرى بن الحكم ولاية مصر باجماع الجند عليه فى مستهل رمضان سنة ٢٠٠ هـ(١) . وهنا سنحت الفرصة لابن هـلال للتغلب على الاسكندرية ، فهاجم واليها أبا بكر بن جنادة المعافرى وأخرجه منها ، ودعا للجروى بها ، وتهيأ للاندلسيين المجال للنزول بأرض الاسكندرية والإقامة فى برها بدلا من البقاء فى سفنهم ، ولكن الأندلسيين بحكم طبيعتهم الجافية كرجال بحر وغزاة احتكوا بأهل الاسكندرية ، وأفسدوا فيها ، وكان ابن هلال يسعى للتقرب إلى أهل الاسكندرية وإرضائهم بغية الإبقاء على ولايته عليهم ، فأمر باخراج الأندلسيين من بر المدينة والحاقهم بسفنهم ، فاضطغنوا ذلك عليه (٢) انتظاراً لفرصة مواتية ينقلبون عليه فيها ، وحدث فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الاسكندرية أن ظهر بالاسكندرية طائفة يدعون بالمعروف وينهون

(١) الكندى ، ص ١٦١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٢

عن المنكر ويعارضون الوالى ، سموا أنفسهم بالصوفية ، وتولى الزعامة عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى . وكان من الطبيعى أن أن يتحالف هؤلاء الصوفية مع الأندلسيين لاشتراكهم معهم فى معاداة الوالى والسخط عليه ، واجتذب الصوفية اللخميين واعتضدوا بهم ، وكان اللخميون قوة هائلة لها وزنها فى ناحية الاسكندرية ، وكانت لهم أطماعهم الخاصة . وعزم الحلفاء على إزاحة ابن هلال ، فتجمعت حشودهم حتى بلغت بالاضافة إلى الأندلسيين والصوفية زهاء عشرة آلاف ، فحاصروا ابن هلال فى قصره ، فسلم هذا نفسه إليهم هو وأخوه محمد وابن عمه أبو هبيرة وحديج الواحد بعد الآثر ، فتلقفتهم سيوف الحلفاء ، وقتلوهم فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ ه .

ثم تنازع اللخميون بعد مقتل ابن هلال مع الأندلسيين نزاعاً أدى إلى قيام الحرب ، واشتبك اللخميون بقيادة زعيمهم رباح بن قرة مع الأندلسيين ، فانهزم اللخميون ودخل الأندلسيون الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ ه ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، وفى عهده ساد الفساد ، وكثر القتل والنهب ، فاضطر الأندلسيون إلى عزله ، وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى (١) . وعندئذ تدخل بنو مدلج ، وكانوا يقيمون بظاهر الاسكندرية ، إذ خافوا أن يستقل الأندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين ولكنهم منوا بهزيمة نكراء ترتب عليها أن أصبح الأندلسيون يتحكمون فى مصير الاسكندرية ، فنفوا بنى مدلج عنها ، وانفردوا بحكمها. ولم يجد السرى ابن الحكم ، والى الفسطاط ، بدا من قبول الأمر الواقع ، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخاذل ، فعندما توسط لارجاع بنى مدلج إلى منازلهم ، قبلوا وساطته وأذنوا لهم بالعودة .

---

(١) نفسه ص ١٦٤

وبلغ الجروى ما اجترمه الأندلسيون من قتل صاحبه ابن هلال واستبدادهم بالاسكندرية ، وتقاربهم مع السرى بن الحكم الذى سبقه فى الظفر بالامارة على الفسطاط ، فعزم على السير إلى الاسكندرية وانتزاعها من الأندلسيين ، وجهز لهذا الغرض جيشاً عدته خمسون ألفاً ، ونزل على حصن الاسكندرية فى المحرم سنة ٢٠١ هـ ، ولعله حصنها المعروف بالحصن الفارسى أحد عجائبها المشهورة ، وواصل الجروى حصاره للحصن حتى كاد أن يفتتحه ، وعندئذ خاف السرى بن الحكم أن يتغلب عليه فتتضاعف قوته ثم يتغلب عليه بعد ذلك فأرسل قوة بقيادة عمرو بن وهب الخزاعى إلى تنيس لفتحها فيرغم الجروى على فك الحصار والعودة إلى بلده ونجحت خطة السرى ، واضطر الجروى إلى العودة إلى تنيس فى نفس شهر المحرم .

وفى هذه الأثناء حدث انقلاب عسكرى فى الفسطاط ، إذ انقلب الجند الخراسانيون على السرى فى ربيع الأول سنة ٢٠١ ، وأرغموه على التراجع إلى الصعيد . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى ولايته بتقليد من المأمون . وعندئذ زحف الجروى إلى الاسكندرية للمرة الثانية ، واتفق مع الأندلسيين على دخول حصنها ، فدخلها قائده سلامة الطحاوى وابنه على بن عبد العزيز الجروى ، ودعوا فيها للجروى ، وأقام الجروى على ولايتها رجلا من بنى حديج هو معاوية بن عبد الواحد بن محمد ، ومضى الجروى بكل قواته لمواجهة قوات السرى ، فانتهز الأندلسيون الفرصة ، وقاموا بخلع عامل الجروى على الاسكندرية ، وطردوه منها ، كما خلعوا ولاءهم للجروى ، ودعوا للسرى .

ولما بلغت هذه الأنباء الجروى زحف إلى الاسكندرية للمرة الثالثة فى شهر رمضان سنة ٢٠٣هـ ، وكان أهالى هذه النواحى يتعرضون لأضرار جسيمة فى كل مرة يخرج فيها بجيشه نحو الاسكندرية ، فعارضه القبط فى سخا ، وانضم إليهم بنو مدلج فى ثمانين ألفا ، واشتبك الجروى مع هذه القوة

الحديدة ، ونجح فى إلحاق الهزيمة بهم ، ثم بعث جيوشه إلى الاسكندرية لحصارها ، ولحق بها للمرة الرابعة ، «فأغاق الأندلسيون حصنها ، فحاصرهم الجروى أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، فأقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة ٢٠٤هـ إلى سلخ صفر سنة ٢٠٥هـ» (١). وبينما كان جيشه يضرب جدران الحصن بالمنجنيق أصيب الجروى بفلقة حجر منجنيق فتوفى ، وبوفاته انتهت حركته وانسحب جنده إلى تنيس ، ولم يطل العمر بالسرى بن الحكم هو الآخر ، إذ توفى فى جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ ، وخلفه ابنه أبو النصر ، وهكذا انفرد الأندلسيون بحكم الاسكندرية بعد أن توفى المتنافسان ، فى حين قام صراع عنيف بين أبناء السرى والجروى .

(د) جلاء الأندلسيين عن الاسكندرية واستيلائهم على اقريطش :

صمم المأمون على وضع حد للاضطرابات الداخلية فى مصر ، فأسند هذه المهمة إلى قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وأدرك ابن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن جميعاً لا بد من استخدام الجيش والأسطول فى آن واحد ، فسير جيشاً من الخراسانيين إلى مصر ، وأقبل هو فى سنة ٢١٠ هـ فتلقاه على بن الجروى بالأموال والإنزال ، وانضم إليه ، وبعث فى طلب بعض السفن إلى تنيس ، أسند قيادتها إلى على بن الجروى لمعرفته بالحرب فى البحر (٢) . ونجح عبد الله بن طاهر أخيراً فى إخضاع عبيد بن السرى ، وآلت إليه ولاية مصر فى ٢ ربيع الأول سنة ٢١١ هـ . وما ان تم لعبد الله ابن طاهر ذلك حتى عزم على السير إلى الاسكندرية لاستنزال الأندلسيين ، فبعث على مقدمته العباس وهاشم من قواد خراسان فى مستهل صفر سنة ٢١٢ ، ثم أدركهما عبد الله فى ربيع الأول ، فنزل على حصنها ، وحاصر المدينة

(١) الكندى ، ص ١٦٩ — ١٧٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٠

قرابة أسبوعين ، فاستسلمت . وخرج إليه أهلها بالأمان ، ولم يجد الأندلسيون عندئذ بدا من مصالحته . فصالحهم على أن يخرجوا من الاسكندرية إلى حيث أرادوا من البلاد غير التابعة للعباسيين (١) بشرط ألا يأخذوا فى مراكبهم أحداً من الأهالى ولاعبدا ولا آبقا ، فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم. وهكذا أبحر الأندلسيون من الاسكندرية فى أوائل سنة ٢١٢هـ(٢) يقودهم أحد زعمائهم وهو أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى المعروف بابن الغليظ أو الغليظ من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لمدينة قرطبة (٣) .

واختار أبو حفص جزيرة اقريطش منزلا للمسلمين ، وكانت من أخصب جزر البيزنطيين ، وتتميز بموقع استراتيجى رائع فى وسط البحر المتوسط الشرقى (٤) . ويبدو أن الأندلسيين كانوا يعرفون هذه الجزيرة معرفة تامة فان فازيلييف ، استناداً على ماروواه جنيزيوس ، يذكر أنهم أغاروا عدداً

---

(١) ذكر الطبرى وابن الأثير أن الأندلسيين سألوا عبد الله بن طاهر أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التى ليست من بلاد الاسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، فرحلوا عنها ، ونزلوا بجزيرة اقريطش (الطبرى ج ٣ص ١٠٩٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر ابن الأبار أن عبد الله بن طاهر صالح الأندلسيين على التخلى عنها مقابل مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة اقريطش (ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٤٥). ونستنتج من ذلك أن الأندلسيين كانت لهم معرفة سابقة بجزيرة اقريطش

(٢) يذكر الطبرى وابن الأثير خروج الأندلسيين من الاسكندرية فى حوادث ٢١٠ (الطبرى ج ٣ ص ١٠٩١ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١١ ، ٢١٢).

(٣) الضبى ، ص ٣٩٤ — المقرى ، ج ٤ ص ١٥٧

(٤) ابراهيم أحمد العدوى ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ، ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثانى ، ص ٥٥

من المرات على جزيرة اقريطش وعلى جزيرة يونانية أخرى قبل أن يرحلوا من الاسكندرية فى سنة ٢١٢ . ففى عام ٢١١ هـ « بعث العرب على اقريطش عشر سفن أو عشرين عادت بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة »(١) . ومما يؤكد ذلك أن أبا المحاسن بن تغرى بردى يذكر أن الأندلسيين نزحوا عن الاسكندرية قبل وصول عبد الله بن طاهر خوفاً منه وتوجهوا إلى جزيرة اقريطش(٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد أبحر الأندلسيون فى أربعين سفينة بقيادة أبى حفص عمر بن شعيب البلوطى (٣) ، واتجهوا شمالا إلى اقريطش حيث نزلوا فى خليج سودا سنة ٢١٢ هـ . وذكر البلاذرى أنهم فتحوا من اقريطش حصنا واحداً ونزلوه ، ثم لم يزل أبو حفص يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم » (٤) . ونستنتج من هذا النص أن الأندلسيين لم يلقوا مقاومة عنيفة عند نزولهم ، وأنهم قنعوا بحصن واحد من حصونها العديدة . ويبدو أنهم كانوا يخشون من قيام أهل اقريطش بمحاربتهم فى ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة حتى يتحصنوا فيه إذا ما غزاهم الروم ، وحفروا حوله خندقاً ، فعرف الحصن لذلك بالخندق ، ثم وصل إلينا فى العصر الحاضر محرفاً إلى Candia . وما إن اطمأن المسلمون

(١) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, La Dynastie d'Amorium, Bruxelles, 1935, p. 54

(٢) أبو المحاسن ، ج ٢ ص ١٩٢

(٣) ذكره البلاذرى أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسى (البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩) وقيل شعيب بن عمر بن عيسى (الضبى ، ص ١٩٤ — الحميدى ، ص ٢٨٣)

(٤) البلاذرى ، ص ٢٧٩

إلى تحصين قاعدتهم حتى أخذوا يفتتحون المدن والحصون الأخرى فى الجزيرة ، فأتموا فتحها كلهـا فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ ، أى بعد مضى ١٨ سنة من نزولهم بها(١)،وقيل افتتحت بعد سنة ٢٣٠هـ فى قول ابن حزم، وبعد سنة ٢٢٠ فى قول أبى سعيد بن يونس (٢) . ولا نشك فى أن الأندلسيين استولوا على الجزيرة بالتدرج فى الفترة ما بين ٢١٢ و ٢٣٠هـ ، مستغلين فى ذلك حالة الوهن والضعف التى أصابت الدولة البيزنطية على أثر ما استنزفته من قوى أثناء ثورة توماس . وذكر فازيلييف أن المسلمين استولوا على ٢٩ مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها . وكان من الطبيعى أن تلتمس العناصر الاسلامية فى اقريطش الأمان ممثلا فى سلطة اسلامية تظللها بحمايتها،ولم يكن هناك مفر من الدخول فى فلك الخلافة العباسية التى كانت تسيطر على الشرق الأدنى الإسلامى كله بما فيه مصر وإفريقية (٣) . وما لبثت إقريطش أن أصبحت فى التقسيم الادارى للدولة العباسية تابعة لمصر (٤) ، وظلت إقريطش تابعة لمصر فى زمن الطولونيين والإخشيديين ، « وكانت مراكب إقريطش تمير أهل مصر

---

(١) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٣٢٧

(٢) الحميدى ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٣) أشار الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى ذلك فى رسالته التى بعث بها إلى الامبراطور تيوفلس ، فقال : « وأما ما ذكرت من أمر أبى حفص الأندلسى ومن صار معه من أهل بلدنا فى خضوعهم لابن ماردة (المعتصم) ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من النظر فى أمورهم والانكار لفعلهم ، فانه لم ينزع إليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا فى بلدنا ، ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا إلى الدخول فى طاعة ابن ماردة لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته » (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١١٥ — ١١٨).

(٤) العدوى ، إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ، ص ٥٩

بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل إلى عمال مصر »(١) وذكر النويرى السكندرى أنه كان يحمل من اقريطش « العسل النحل والجبن الكثير لمصر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا »(٢) نسبة إلى مدينة كندية أو الخندق .

وهكذا أقام الأندلسيون فى اقريطش دولة اسلامية اعتمدت على معرفة سكانها بشؤون البحر فى تجارتها وفى علاقاتها بجاراتها ، ودامت هذه الدولة حتى المحرم سنة ٣٥٠ هـ . عندما فاجأ البيزنطيون بقيادة فقفور فوقاس أهل إقريطش على غرة ، واستولى عليها .

---

(١) القاضى النعمان (أبوحنيفة بن محمد) قضية اقريطش ، ص ٣٣

(٢) النويرى السكندرى ، الالمام ص ١٢٣ أ

(٣)

ثورات بنى مدلج فى الاسكندرية

لم تنته الفتن فى مصر بخروج الأندلسيين من الاسكندرية فى سنة ٢١٢هـ، فقد واصل أهل الحوف الشرقى ثورتهم فى ولاية عيسى بن يزيد الجلودى سنة ٢١٢هـ بسبب تعسف صالح بن شيرزاد متولى الخراج والزيادة عليهم فى خراجهم، فبعث عيسى بن يزيد جيشاً بقيادة ابنه محمد لقتالهم ، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدى أهل الحوف فى بلبيس فى صفر سنة ٢١٤ هـ ، ولم ينج منه سوى محمد بن عيسى (١) ، وشجع هذا الانتصار أهل الحوف على المضى فى الثورة فى ولاية عمير بن الوليد، وفى ولاية عيسى بن يزيد الثانية، وعبدوية ابن جبلة ، وأمام هذه الثورة اضطر أبو اسحق المعتصم بن هرون إلى القدوم بنفسه فى أربعة آلاف من أتراكه ، فى رجب سنة ٢١٤هـ، لمحاربة أهل الحوف القيسية واليمنية، واشتبك جيشه معهم فى بلبيس فى ٢٠ شعبان سنة ٢١٤، فانهزم أهل الحوف، ثم دخل المعتصم الفسطاط بعد ذلك فى ٨ رمضان ، وأقام بها إلى أول المحرم سنة ٢١٥ ، ورحل بعد ذلك إلى الشام . ثم قدم الافشين حيدر ابن كاووس الصغدى إلى مصر ، فى ٣ ذى القعدة سنة ٢١٥، وشهد الثورة العامة التى اجتاحت شمال الدلتا كله عربها وقبطها، فواقع بأهل اشليم الواقعة بالحوف/الغربى (٢)؛ وحارب أهل الحوف الشرقى وفل جماعتهم ، وكانت

---

(١) الكندى، ص ١٨٥ — المقريزى، ج ٢ ص ٨٧

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اشليم مجلد ١ ص ٢٠٠ — أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٥

الثورة قد امتدت إلى الاسكندرية ، فقد ثار أهل هذه المدينة من بنى مدلج على والى مصر عيسى بن منصور (٢١٦ هـ) من قبل المعتصم ، وتولى رئاسة بنى مدلج بحر بن على اللخمى وابن عقاب اللخمى ، فى حين تولى قيادة الثورة معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج . ونظراً لخطورة الموقف فى الاسكندرية اضطر الأفشين إلى إرسال جيش بقيادة عبيد الله بن يزيد بن مزيد الشيبانى لاخماد حركة بنى مدلج بالاسكندرية ، ونجح أهل الاسكندرية منذ الاشتباك الأول فى التغلب على عبيد الله بن يزيد وحاصروه فى حصن الاسكندرية فى شوال سنة ٢١٦ هـ . وما ان علم الأفشين بذلك حتى بادر بالزحف إلى الاسكندرية ، وتغلب وهو فى طريقه إليها على الثوار اللخميين فى شرقيون بالحوف (وهى المحلة الكبرى) ، وفى دميره الواقعة بالقرب من دمياط ، ثم اشتبك مع طائفة من بنى مدلج بخربتا من قرى الاسكندرية وانتصر عليهم ، ثم عاود المدالجة الاشتباك معه عند محلة الخلفاء فهزمهم الأفشين ، وأسر معظمهم ، ونزل بهم قرطسا فضرب بها أعناقهم . ومن قرطسا واصل الزحف إلى الاسكندرية فدخلها فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢١٦ (١) ، وفر منها رؤساء الثورة .

وما إن انتهى الأفشين من مشكلة ثورة بنى مدلج بالاسكندرية حتى شغل بثورة القبط فى البشرود من قرى أسفل الأرض . وقدم الخليفة العباسى المأمون بنفسه فى المحرم سنة ٢١٧ عندما اضطربت البلاد فى جنوب مصر وشمالها ، وكان لحضوره أعظم الأثر فى تهدئة الثورة ، فالأفشين أوقع القبط بالبشرود فنزلوا على حكم المأمون الذى أمر بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، وموسى ابن ابراهيم الذى سيره الخليفة إلى الصعيد لمحاربة ابن عبيدس الفهرى نجح

---

(١) الكندى ، ص ١٩١ — المقريزى ، ص ٨٧

فى القبض عليه ، واستقدمه إلى منزل الخليفة بسخا حيث قتل (١) . وأقام المأمون بالفسطاط وحلوان نحوا من ٤٩ يوما غادر مصر بعدها إلى مقر خلافته.

لم تكن حركة بنى مدلج بالاسكندرية فى سنة ٢١٦ هـ آخر حركاتهم الثورية ، فلم تكد تمضى ستة وثلاثون عاماً على هذه الثورة حتى قاموا بثورة جديدة فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر (٢٤٢ — ٢٥٥ هـ) . ففى ربيع الآخر سنة ٢٥٢ أشعل بنو مدلج نيران الثورة فى أرض الاسكندرية ، وكان يتزعمها جابر بن الوليد المدلجى من بنى الهجيم بن عثوارة بن عمرو بن مدلج ، الذى سرعان ما اجتمع إليه حشد من بنى مدلج الصلبيه (أى الخلص) والموالى ، فلما بلغ ذلك والى الاسكندرية محمد بن عبيد الله بن مزيد الشيبانى بعث فرقة من حامية الاسكندرية عدتها ثلثمائة رجل بقيادة رجل من أصحابه يقال له نصر الطحاوى . وفى أول لقاء بين هذا القائد وجابر المدلجى عندها (كفر الزيات) ، انهزم الطحاوى وتراجع إلى جنبويه بالبحيرة فنزلها ، ولكن جابر المدلجى زحف إليه وهزمه للمرة الثانية وعاد إلى الكريون ، فاستنجد الطحاوى بوالى الاسكندرية ، فأرسل إليه مدداً بقيادة برد بن عبد الله وأبو العوا ، فتجمعت حشود الوالى فى دسونس مع قوات الطحاوى ، وقدم إليهم جابر المدلجى ، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف أسفر عن هزيمة الطحاوى وبرد ، وظفر جابر بعسكرهم فغنم جميع ما فيه ، بينما عاد فل الطحاوى إلى الاسكندرية ، فتحصنوا بها .

واستفحل أمر جابر بن الوليد المدلجى وعظم شأنه بسبب انتصاراته ووفد إليه القوم من كل ناحية ، وانضم إليه كل من كان يومى إليه بشده ونجدة (٢)

---

(١) الكندى ، ص ١٩٢ — أبو المحاسن ، ج ٢ ، ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٦

من الفتاك والشطار وقطاع الطرق أمثال عبد الله المريسى ، « وكان رجلا خبيثاً » وجريج النصرانى « وكان من شرار النصارى » ، وأبو حرملة النوبى « وكان رجلا فاتكا » . ويعتبر أبو حرملة أخطر هؤلاء جميعاً ، فعقد له جابر على سنهور وسخا وشرقيون وبنا ، واشتد خطر أبى حرملة إلى حد تخلخل معه أمر الديار المصرية وانضم إليه عبد الله بن أحمد الأرقط الذى يرتفع نسبه إلى على بن أبى طالب ، فقوده أبو حرملة وولاه بنا وبوصير وسمنود ، أما أبو حرملة فقد أقام بشرقيون . ولم يسع يزيد بن عبد الله والى مصر الا أن يحاول من جديد إخماد هذه الحركة ، فبعث جيشا من الأتراك بقيادة أبى أحمد محمد ابن الدبرانى ، نجح فى ايقاع الهزيمة بجيش عبد الله الأرقط فيما بين بوصير (١) وبنا ، وعاد ابن الأرقط إلى شرقيون حيث انضمت فلول جيشه مع قوات أبى حرملة ، واشتبكت هذه القوات من جديد مع الدبرانى ، فانهزم ابن الأرقط وأبو حرملة ، ثم كر أبو حرملة فى سندفا على قوات الدبرانى ، فانهزم الدبرانى وقتل من رجاله أبو حامد الدبرانى ، وتراجع أتباعه إلى سندفا . ولما عجز يزيد ابن عبد الله عن مواجهة جابر بن الوليد وأصحابه أرسل إلى الخليفة يستمده لقتال جابر وغيره ، ولم يتردد الخليفة العباسى إزاء ذلك فى إجابة مطلب والى مصر ، فندب الخليفة الأمير مزاحم بن خاقان أخا الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى عسكر هائل إلى مصر معينا ليزيد بن عبد الله (٢) ، فقدم مزاحم فى ١٧ رجب سنة ٢٥٢ ، وقبل أن يشرع فى عملياته الحربية أرسل رسلا إلى جابر ابن الوليد يأمره بالرجوع إلى الطاعة ، ولكن جابر سوّف فى الرد عليه وعمل على استرضائه بأن أجاز رسله بجوائز عظيمة . وعندئذ عزم مزاحم على العمل ، فعهد إلى الدبرانى بمحاربة أبى حرملة ، فاشتبك الدبرانى معه فى مستهل شعبان

---

(١) هى قرية بوصير بنا من كورة السمنودية ، كانت تقع بالقرب من المحلة

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٣١٤

بسمنود فى موقعة انتهت بهزيمة أبى حرملة وتقهقره إلى شرقيون فسندفا ، ثم حدثت الواقعة الثانية الحاسمة بين الدبرانى وأبى حرملة وأسفرت عن وقوع أبى حرملة فى أسر الدبرانى ، ثم أدخل به سجن الفسطاط مع جمع كثير من الأسرى فى رمضان سنة ٢٥٢ ، وظل مقيما به حتى توفى فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٢٥٣(١) . وفى نفس الوقت استسلم ابن عسامه المعافرى الساعد الأيمن لابن الأرقط العلوى ، ولبس السواد (٢) ، ونجح سلتق التركى فى التغلب على أصحاب جابر فى صا وشباس ، فقتلهم ونفاهم عن تلك البلاد (٣) ، واستأمن أحمد بن الأرقط العلوى فى شهر رمضان ، فأرسله مزاحم إلى العراق فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٥٣(٤) . وفى هذه الآونة عزل الخليفة المعتز يزيد بن عبد الله وولى مكانه مزاحم بن خاقان ، الذى بدأ ولايته على مصر بمطاردة جابر بن الوليد ، فعقد ليزيد بن عبد الله فى طلبه بناحية الاسكندرية ، أما هو فقد مضى لمحاربة الخارجين عليه بالحوف أمثال ابن عزيز وابن ضوء وغيرهما . أما يزيد بن عبد الله فقد أقام معسكره بالشراك ، الواقعة إلى الشرق من تروجة ، مقر جابر منتظراً قدوم مزاحم الذى نجح فى إخماد حركة ابن عزيز بالحوف الشرقى ، وأسره وأسر عدداً من الثوار يبلغ نحو مائة ، قدم بهم فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٢٥٣ . ثم زحف مزاحم إلى تروجه لمحاربة جابر فاشتبك معه بتروجه ، فانهزم جابر وأسر جمع كبير من رجاله ، بينما استطاع جابر الفرار بنفسه إلى نهيا من أرض الجيزة فى ١٣ جمادى الآخرة

---

(١) الكندى ، ص ٢٠٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٨

(٤) نفسه

فأرسل مزاحم قائده أزجور لمطاردته ، فحاربه أزجور وهزمه،وأسر من رجاله أربعين رجلا ، وتراجع جابر إلى الفيوم ، وما زال به مزاحم يطارده من بلدة إلى أخرى حتى أفنى رجاله . وأدرك جابر استحالة المقاومة ، فاضطر أخيراً إلى طلب الأمان ، فأمنه مزاحم هو وستة نفر من رجاله ، فدخلوا الفسطاط ، وسجن جابر ، ثم بعث به إلى العراق فى رجب سنة ٢٥٤(١) . .

وهكذا انتهت حركة جابر بن الوليد فى نواحى الاسكندرية بالفشل بعد عامين من قيامها ، سبب خلالها متاعب كثيرة للخلافة العباسية التى أثبتت على حد قول الدكتور سعد زغلول « أنها أعجز من أن تفرض سلطانها على مصر ، وأن هذا العجز لم يعد يهدد الأمن والسلام فقط ، بل أصبح يهدد وحدة الوادى نفسها ، وهذا يعنى أنه إذا كانت الأقاليم تستطيع أن تقطع علاقاتها بالوالى وبالخلافة ، فإن الفسطاط كانت تستطيع أن تقطع علاقاتها ببغداد إذا أرادت ، وهذا ما حدث على أيام أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية »(٢) .

ومع ذلك فان ذيلا من ذيول هذه الحركة سببت حرجا لأحمد بن طولون فى أول ولايته لمصر ، فقد خرج عليه ابن عم لجابر بن الوليد المدلجى وانضم إليه أحمد بن عبد الله بن طباطبا العلوى وأعلنا الثورة فيما بين الاسكندرية وبرقة فى موضع يقال له الكنائس فى سنة ٢٥٥ (٣)، ولكن هذه الثورة انتهت بالفشل بعد مقتل ابن طباطبا . ولم ترفع الاسكندرية راية العصيان مرة ثانية إلا فى عصر المستعلى بالله الفاطمى على النحو الذى سنفصله فيما بعد .

(١) الكندى ، ص ٢١٠ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد ، ص ٢٨١

(٣) الكندى ، ص ٢١٢

الفصل السادس

الاسكندرية فى ظل الطولونيين والعباسيين

(١) فى العصر الطولونى .

(٢) فى ظل العباسيين (بعد سقوط الدولة الطولونية) .

الفصل السادس

الاسكندرية فى ظل الطولونيين والعباسيين

(١)

فى العصر الطولونى

لما ولى المعتز الخلافة فى المحرم سنة ٢٥٢ ﻫ قلد ولاية مصر إلى أحد قواده الأتراك ويدعى باكباك فى سنة ٢٥٤ ﻫ ، فاختار هذا الوالى أحمد بن طولون نائباً فيها لما عرف به من مقدرة فى الادارة وكفاية فى الضبط والنظر ، وجعله على قصبتها الفسطاط دون غيرها ، فدخلها ابن طولون فى ٢٣ من رمضان سنة ٢٥٤ ﻫ (١) . وعند قدومه كان سلطانه ضئيلا إلى أبعد الحدود لم يتجاوز الفسطاط(٢)، لأن ولاة العباسيين كانوا يقسمون أعمال مصر بين عدة أشخاص ليكون كل منهم عينا على الآخر ، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بالبلاد ، وكان على خراج مصر عندما تسلم ابن طولون ولاية الفسطاط أحمد ابن محمد بن المدبر ، وكان على القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز . وكانت الاسكندرية ولاية قائمة بذاتها يتولاها اسحق بن دينار ، وكذلك كانت برقة ولاية يتولاها أحمد بن عيسى الصعيدى

---

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ ، ص ٤٢

(٢) سيدة اسماعيل الكاشف ، وحسن أحمد محمود ، مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٠

فلما خلع المعتز ، وخلفه المهتدى بالله ، وقتل باكباك ، أسند الخليفة جميع ما بيده إلى يارجوخ وهو زعيم تركى جديد برز فى المقدمة وحظى بمكانة سامية عند الخليفة المهتدى ، وكان يارجوخ حما لابن طولون ، فمن الطبيعى إذن أن يرفع من مكانة صهره ويعتمد عليه اعتماداً كلياً فى ولاية مصر كلها ، فكتب إلى أحمد بن طولون : « تسلم من نفسك لنفسك » (١) ، وزاده الأعمال الخارجة عن الفسطاط قصبة مصر كالاسكندرية وبرقة ، وكتب يارجوخ إلى اسحق ابن دينار متقلد الاسكندرية يأمره بتسليم هذه الولاية إلى ابن طولون. وعندئذ عزم ابن طولون على الخروج إلى ثغر الاسكندرية ، لمشاهدته وتسلمه فخرج إليه مرابطاً فرحا بما حصل له منه « لمحبته للثغور لا غير » وكان ذلك وفقاً لما ذكره البلوى فى سنة ست وخمسين ومائتين (٢)، وإن كان الكندى يؤكد أن رحيله إلى الاسكندرية تم فى ٨ من رمضان سنة ٢٥٧ . وذكر البلوى أن ابن طولون عندما اقترب من الاسكندرية لتسلمها تلقاه اسحق بن دينار ، وكان قد بلغه إضافة الأعمال الخارجة عن الفسطاط إلى ابن طولون ، وتوقع أن يصرفه عن ولاية الاسكندرية ، فخرج اليه حتى لقيه بأبعد المواضع ، وعندما رآه ترجل له ، واعترف له بحق الرئاسة عليه ، فكبر فى عينى ابن طولون ، واستحيا هذا أن يصرفه عن ولاية الاسكندرية ، فأقره عليها (٣) ، كذلك تسلم ابن طولون عمل برقة من أحمد بن عيسى الصعيدى (٤) ،

---

(١) البلوى ، ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٨

(٤) ابن سعيد الأندلسى ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، تحقيق زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة كاشف ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٨٠

ثم عاد إلى الفسطاط التى أصبحت مركزاً وقاعدة لامارته فى ١٦ شوال سنة ٢٥٧ (١) .

ومنذ أن زار أحمد بن طولون مدينة الاسكندرية لأول مرة سواء فى سنة ٢٥٦ أو فى رمضان سنة ٢٤٧ ، فانها وقعت فى قلبه موقعاً حسنا ، وأصبح يتوق إلى زيارتها . ويذكر البلوى أنه بعد عودته من الاسكندرية استقبل أخاه موسى ، فطلب منه أخوه أن يوليه ثغر الاسكندرية لحبه الاقامة فى أحد الثغور فوعده بولايتها ، ولكنه أخذ يسوف فى إجابته لطلبه ، حياء من أن يعزل عنها اسحق بن دينار ، وانتظاراً لأن ينفذ إليه يارجوخ الكتب بولاية الثغور الشامية ، وقد رشح أخاه موسى لولاية ثغـــر طرسوس ، وأخذ موسى ابن طولون يترقب قلقاً أن ينجز أخوه وعده له ، فلما استبطأه حدث فى ذلك أبا يوسف يعقوب بن اسحق كاتب ابن طولون ، فخاطب يعقوب الأمير أحمد بن طولون فى ذلك فأجابه ابن طولون بقوله : « أنا والله محتشم من اسحق بن دينار ، وقد تلقـــانى من الاسكندرية بالألطاف وحسن التواضع مما يوجب زيادة فى عمله ، فكيف صرفه عنا ، فرد فكره عن هذه الناحية وتلطف فى هذا تلطفاً يزول به استيحاش أخى منى ، واحذر أن يعلم أنى جاريتك فيه بحرف . قال : أفعل » . فلما قابل موسى بن طولون يعقوب الكاتب سأله عما تم فى قضيته ، فأفضى إليه بما استكتمه احمد بن طولون إياه وما أسر به إليه ، فمضى موسى إلى أخيه وسبه ولعنه . وعندئذ غضب أحمد ابن طولون ، ونفى أخاه إلى ثغر طرسوس ، وعاقب يعقوب على مخالفتـه

---

(١) الكندى ، ص ١٦٢ — أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٧

لأمره بأن زج به فى سجن المطبق بالفسطاط (١) .

ثم زار أحمد بن طولون الاسكندرية للمرة الثانية فى ٢٢ شعبان سنة ٢٥٩ هـ ، وقضى بها أسبوعين ، واستخلف عليها ابنه العباس ، وعاد إلى الفسطاط فى ٨ من شوال سنة ٢٥٩ (٢) . وعندما خالفه ابنه العباس أثناء غيابه فى طرسوس ، وخرج عليه بتأثير من بعض قواد أبيه ورفقاء السوء فى سنة ٢٦٥ هـ ، أظهر العباس الرغبة فى الخروج إلى الاسكندرية ، فقال له محمد بن أبا ونظراوه من قواد أبيه : « ما يصنع الأمير بالاسكندرية فقال : بلغنى أن الروم تطرقها ، وأحب أن ألقاهم لعل الله جل اسمه أن يظفرنى بهم . فقالوا له : بعضنا يكفيك هذا ، والصواب ألا تفارق ما جعلك الأمير أيده الله عليه ..» . فلم يصغ إليهم واستخلف أخاه ربيعة على القطائع وخرج إلى الاسكندرية ، فأقام بها أياما ، ثم تجاوزها إلى برقة (٣) . وما إن أبلغ ابن طولون بحركة العباس حتى قدم من الشام ، ثم خرج على رأس جيش كبير وجهه إلى برقة فى ١٢ ربيع أول سنة ٢٦٨ هـ ، أما هو فقد أقام بالاسكندرية ولم يبرحها إلا بعد أن استنزل ولده فى ١٣ رجب سنة ٢٦٨ هـ(٤) .

ولم يتوان أحمد بن طولون أثناء زياراته القصيرة لثغـــر الاسكندرية عن العناية بالمدينة والاهتمام بدار صناعتها حتى تزيد فى انتاج السفن ، وذلك لحاجته الشديدة لأسطول قوى يحمى به سواحل بلاده بعد أن اتضحت نوايا الموفق العدوانية ضد دولته ، ويحافظ بفضله على طرق الاتصال البحرى بين

---

(١) البلوى ، ص ٤٧ — ابن سعيد ، ص ٧٢

(٢) الكندى ، ص ٢١٦

(٣) البلوى ، ص ٢٤٨

(٤) الكندى ، ص ٢٢٣

الشام ومصر (١) .

وشهدت الاسكندرية فى عهده ازدهاراً ورخاء لم تشهدهما من قبل . ومن حظ الاسكندرية أن هذا الازدهار أعقب فترة من المصائب والمحن اعتورتها على أثر الفتن والثورات التى اجتاحت الحوف الشرقى والغربى ومنطقة البحيرة كما سبق أن أوضحناه ، ويبدو أن ابن طولون قد أحس عند زيارته لهذه المدينة بضرورة إحاطتها بسور منيع يحميها من الغزوات ، فأقام سورا (٢) يحيط بأجزائها العامرة فقط ، أى أن الأسوار الجديدة لم تطوق مسطح المدينة القديمة كلها ، فقد أخرجت من السور الجديد منطقتان كبيرتان ، فى شرق المدينة وجنوبها ، فالمنطقة الشرقية كانت تضم مقابر اليونان والرومان ، والمنطقة الجنوبية كانت تضم بعض المزارع ، وأطلال معبد السيرابيوم ، إلى جانب بعض الآثار الرومانية التى يشرف عليها عمود السوارى ، ويبدو أيضاً أن ابن طولون أدرك عدم جدوى توسيع رقعة المدينة بضم الأجزاء المهجورة داخل نطاق السور الجديد ، خاصة وأن توسيع رقعة المدينة يستلزم بالضرورة توسيع محيط السور ، وزيادة النفقات التى لا مبرر لها . ولذلك نجد أن سور الاسكندرية الأول فى العصر الاسلامى ، وهو السور الذى أسس فى عصر أحمد بن طولون ، باعتبار أن السور الثانى الاسلامى أسس بعد ذلك فى عصر السلطان صلاح الدين أو عصر السلطان الظاهر بيبرس ، كان يضم ما يزيد قليلا على ثلث مساحة المدينة القديمة ، بعد أن أخرجت منه المناطق الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية . وقد شاهد

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، ص ٢٧

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٤٣ — جمال الشيال ، الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة ، ص ٢٠٩

ابن رسته هذا السور الطولونى فأشار إليه إشارة عابرة عند حديثه عن الطريق المائى الواصل بين الفسطاط والاسكندرية والذى ينتهى فى الشمال الغربى بسور الاسكندرية (١) .

وفتحت فى السور الجديد أبواب أربعة فى نفس اتجاهات الأبواب القديمة أو قبالتها ، فسمى الباب الشرقى بباب الشرق ، أو باب رشيد (٢) أو باب القاهرة ، وسمى الباب الغربى بباب القرافة نسبة إلى مقبرة وعلا التى تقع خارج هذا الباب ، تفاؤلا بوجود هذه الجبـسـانة التى يقال أنه دفن بها المقداد بن الأسود (٣) ، أو الباب الغربى بحكم وقوعه بغرب الاسكندرية .

أما الباب القبلى فسمى بباب الشجرة (٤) ، أو باب السدرة (٥) ، نسبة إلى شجرة ضخمة من أشجار السدر كانت مغروسة إلى جواره ، وعرف هذا الباب أيضاً باسم باب العمود بسبب إشرافه على عمـود السوارى الذى أصبح يقع خارج سور المدينة . أما الباب الشمالى ، فقد ظل يعرف باسم باب البحر (٦) لاشرافه على الميناء الشرقية ، كما عرف أيضاً بباب أشتوم (٧) .

---

(١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١٢٩ ب

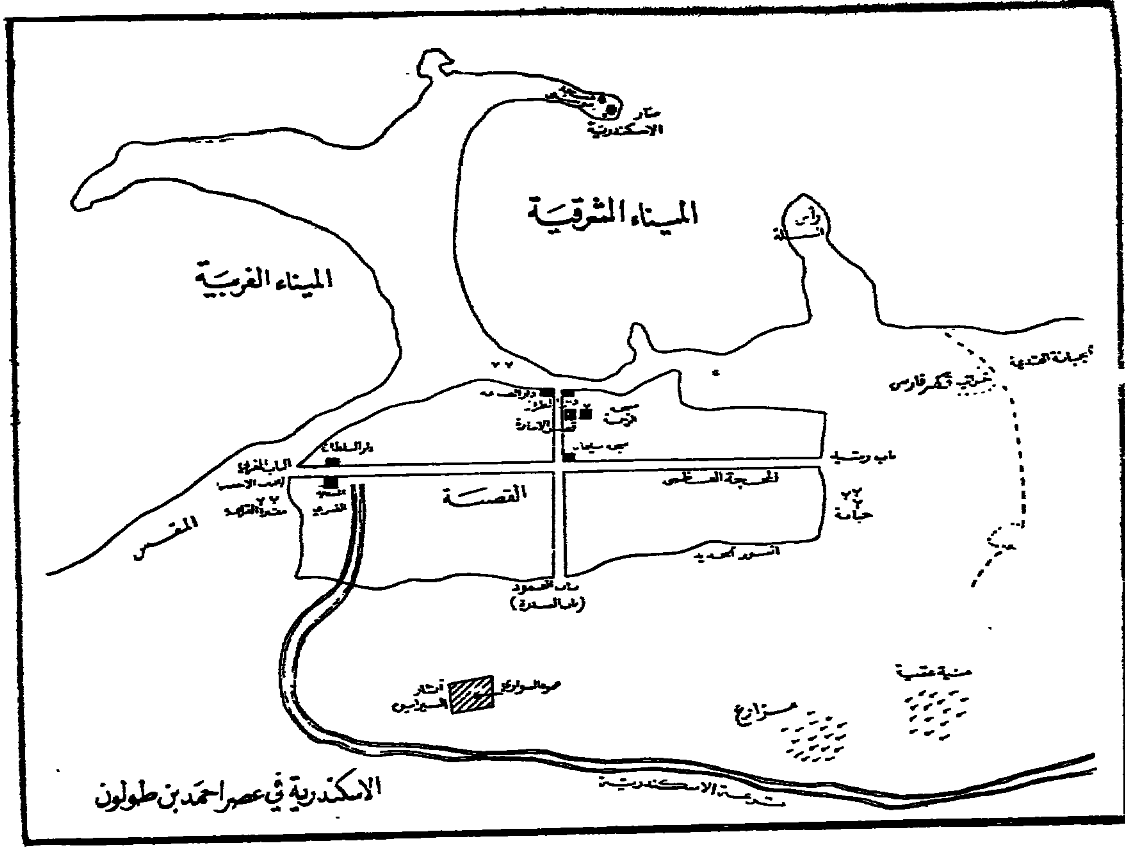
(٣) الهروى ، ص ٤٧

(٤) ياقوت ، ص ١٨٧

(٥) النويرى ، ص ١٤٦ ب

(٦) النويرى ، ص ١٤١ ب — القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٤

(٧) الاستبصار ، ص ٩٧



خريطة توضح أسوار الأسكندرية وبعض معالمها فى عصر أحمد بن طولون

وظل الطريق الفسيح الممتد بين باب الشرق وباب القرافة يخترق المدينة من وسطها ، وكان يعرف بالمحجة العظمى . ولاشك أن تخطيط المدينة ظل محتفظاً بطابعه القديم ، إذ ظلت المساجد التى أسست بعد الفتح العربى قائمة فى مواضعها . أما عن أحياء المدينة فلا نعرف منها سوى حيين : الأول هو القصبة (١) ويقع فى قلب المدينة ، والثانى هوحى العادلية (٢) ولا ندرى أين كان موقعه على وجه الدقة .

أما الآثار الرائعة التى كانت تزدان بها مدينة الاسكندرية ، فقد أصبحت تقع خارج المدينة ، مثل عمود السوارى ، الذى كان يتوسط عدة أعمدة تحمل فوقها قبة ، وقد ذكره المقريزى بقوله : « وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض ، على ربوة عظيمة ، بازاء باب البلد (يقصد باب العمود) طوله خمسمائة ذراع ، وعرضه على النصف من ذلك ، وبابه من أعظم بناء و أتقنه .... وكان فيه نحو مائة أسطوانة ، وبازائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثل غلظها ... وكان فى وسطه قبة ، من حولها أساطين ، وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض »(٣) . وفى موضع آخر يقول : « ويقال أن عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية ... »(٤) كذلك خرج عن نطاق المدينة الملعب القديم الذى كان يقع جنوبى الشارع الكانوبى إلى الشرق من منطقة البانيوم ، وأصبح جانب منه يجاور باب رشيد فى المدينة الإسلامية .

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ - السيوطى ، ج ١ ص ٣٧

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤٠٦

(٣) المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨١

ولم تقف أعمال ابن طولون الاصلاحية على بناء السور ، فقد قام كذلك بترميم منار الاسكندرية إذ كان طابقه العلوى قد تهدم بفعل زلزال سنة ١٨٠ هـ(١) (٧٩٦ — ٧٩٧ م) ، فرممه أحمد بن طولون ، وجعل فى أعلى المنار قبـــة من الخشب ، المصعد إليها من داخلها ، « وهى مبسوطة مؤربة بغير درج »(٢). ولكن هذه القبة لم تلبث أن سقطت بفعل الرياح ، وتهدم أحد أركان المنار وهو الجانب الغربى مما يلى البحر نتيجة لزلزال عنيف حدث فى سنة ٢٧١هـ (٣) ، فتولى ترميمها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٤) . وسنرى أنه لم يمض على هذا التعمير ثلاثة أرباع قرن حتى تهدم فى شهر رمضان سنة ٣٤٤ نحو من ثلاثين ذراعاً من أعاليها بسبب الزلزلة المهولة التى وقعت فى بلاد الشام ومصر والمغرب فى آن واحد فى النصف من يوم السبت ١٨ من رمضان (٥) . فيتولى الصالح طلائع بن رزيك أو غيره من الوزراء دعم الجزء المهدم وتجديده بالبناء ، الذى كان يبدو للناظر إليه واضحاً كالشامة إذا ما قورن بمظهر بناء المنار كله (٦). ومع ذلك

---

(١) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج ١ ص ٢٧٥ — السيوطى ، ج ٢ ص ١٦٥

(٢) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ ص ٤٨ — المقريزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٦

(٣) أحمد بن عبد الله القلقشندى ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، الكويت ١٩٦٤ ، ص ٢٥٦ .

(٤) المقريزى ، مجلد ١ ص ٢٧٦

(٥) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٤٨ ـ المقريزى ، ج ١ ص ٢٧٦

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الاسكندرية ، ص ١٨٧

فقد كان هذا الترميم موقوتاً إذ لم يلبث أن تداعى فى أيام الظاهر بيبرس، وسقط بعض أركان المنار ، فأمر ببناء ما انهدم منه فى سنة ٦٧٣ ، وبنى مكان قبة ابن طولون مسجداً (١) . ثم تهدم هذا البناء فى ذى الحجة سنة ٧٠٢ ه على أثر زلزال عنيف ، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ترميمه فى شهور سنة ٧٠٣ ه (٢) .

كذلك عمل أحمد بن طولون على تعمير الاسكندرية ، فأمر فى ربيع الأول من سنة ٢٥٩ه بحفر خليج الاسكندرية(٣) ،ومن المعروف أن خليج الاسكندرية كان مطموراً قبل سنة ٢٤٥، فأمر قاضى مصر الحارث بن مسكين بحفره (٤) ، ويبدو أن هذا الخليج انطم بعد ذلك فأعاد حفره ابن طولون وساعد ذلك على إعادة غرس المناطق التى خربت خارج الاسكندرية الاسلامية والتى كانت تؤلف فيما مضى الجزء الشرقى والجنوبى من مدينة الاسكندرية السابقة على الفتح العربى ، وتحويلها إلى بساتين وروضات .

* * *

ورث أبناء أحمد بن طولون حبه لها ، فقد أقام ابنه ربيعة بها فترة طويلة (٥)

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧ . ولكن السيوطى يذكر أن هذا المسجد من بناء الملك الكامل (السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٤) ، بناه بعد أن هدمت الرياح القبة الطولونية . وقد أشار ابن جبير إلى هذا المسجد ، ولذلك نرجح أن هذا المسجد كان قائماً قبل العصر الأيوبى ، ولعله كان من بناء الصالح طلائع ابن رزيك ، وتكون أعمال كل من الملك الكامل والظاهر بيبرس أعمال تجديدية .

(٢) المقريزى ، نفس المصدر ، ص ٢٧٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٠٠

(٤) الكندى ص ٤٦٩ — ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٣٦١ — المقريزى ، ج ١ ص ١٢٦ ، ٣٠٠

(٥) الكندى ، ص ٥٤٢ — المقريزى ، ج ٢ ص ٧٦

كما اعتنى بها خمارويه، واهتم بأسطولها اهتماماً خاصاً، وكان يخرج لزيارتها وتفقد قطع الأسطول فيها . ويذكر المؤرخون أنه خرج إلى الاسكندرية فى ٤ من شوال سنة ٢٧٦ هـ (١) ، فأقام بها فترة ، الوقت قبل أن يرحل إلى بلاد الشام فى ١٧من ذى القعدة سنة ٢٧٧هـ . وفى ٢٦شعبان سنة ٢٨١هـ، أى قبل أن يغادر مصر إلى الشام للمرة الأخيرة من حياته ، خرج خمارويه فى رحلة سياحية لمجـــرد النزهة والمشاهدة إلى مريوط وهى قرية من قرى الاسكندرية تمتاز بكثرة بساتينها وثمارها ، ومنها كانت تجلب الفواكه إلى الاسكندرية ، كما كانت تمتاز بصحة المناخ حتى قيل : لم تطل أعمـــار الناس فى بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادى فرغانة (٢) . وذكر المقريزى أن بلاد مريوط التى كان يسقيها ماء النيـــل كانت فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة (٣) .

---

(١) الكندى ، ص ٢٣٩ – المقريزى ، ج ٢ ص ٧٦

(٢) الاستبصار ، ص ١٠١ — ياقوت ، مجلد ٥ مادة مريوط ، ص ١١٩

(٣) المقريزى ، ج ١ ص ٣٠٠

(٢)

فى ظل العباسيين (بعد سقوط الدولة الطولونية)

آلت ولاية مصر بعد سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ ﻫ إلى أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى ، الذى قدم إلى مصر فى هذه السنة من قبل الخليفة المكتفى العباسى ، وقلد ولاية الاسكندرية إلى رجل يعرف باسم على بن وهسودان (١)، أو على بن حسان (٢) . وفى هذا الوقت الذى عادت فيه مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية قام أحد أتباع الطولونيين ويدعى محمد بن الخليج بالدعوة لابراهيم بن خماروية على منابر الرملة ، وتمكن ابن الخليج من الانتصار على قوات عيسى بن النوشرى عند غزة ، وتقدم بعدها فى مصر بقصد إحياء الدولة الطولونية البائدة . وتوالت انتصاراته على العباسيين فى العريش والفرما والفسطاط ،ومن هناك سير فى اثر عيسى النوشرى عسكراً بقيادة رجل من أتباعه يقال له خفيف النوبى ، وزوده بقوة بحرية للاستيلاء على الاسكندرية . ولما بلغ عيسى النوشرى سير خفيف إليه ، رحل من الجيزة إلى الاسكندرية حتى وافاها ، وقوات خفيف البرية تطارده (٣) .

وكان محمد بن الخليج قد سير ست مراكب مزودة بالسلاح والرجال بقيادة محمد بن لجور لدخول الاسكندرية ،وفى نفس الوقت سير مدداً فى البر إلى خفيف النوبى ، ونجحت قوات محمد بن لجور فى دخول الاسكندرية

(١) الكندى ، ص ٢٥٨

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٤٥

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٠

بعد مناوشة قصيرة الأمد . حيث ظفر بما خلفه عيسى النوشرى بالاسكندرية من معدات وآلات ، ووزعها على عسكره . ثم أقام بعسكره مواقفاً عيسى النوشرى ، خارج الاسكندرية ، عدة أيام انصرف بعدها إلى الفسطاط .

أما عيسى النوشرى ، فقد تراجع إلى ناحية تروجة ، وهناك أدركه خفيف النوبى ، واشتبك معه فى قتال عنيف أسفر عن هزيمة نكراء منى بها خفيف ، وقتل من أتباعه عدد كبير ، بينما فرّ فله إلى الفسطاط .

ولم تقف الخلافة العباسية مكتوفة الأيدى أمام هذه الأحداث ، فقد أسرع الخليفة العباسى بارسال جيش من العراق بقيادة فاتك وبدر الحمامى وغيرهما من كبار القادة ، وتعاون هذا الجيش مع جيش النوشرى للقضاء على حركة ابن الخليج ، وحدثت بين الفريقين وقائع انتهت آخر الأمر بهزيمة ابن الخليج والقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ، أى بعد مضى نحو سبعة أشهر وعشرين يوماً من بداية حركته (١)

ولم يكد يمضى على دخول مصر فى فلك الخلافة العباسية سبع سنوات حتى تعرضت فى ولاية أبى منصور تكين الأولى لغزوة قام بها الفاطميون ، وكان يتولى ثغر الاسكندرية وأعمال برقة وقتئذ القاسم بن سيما منذ منتصف رمضان سنة ٣٠١ هـ(٢) . ففى أول المحرم سنة ٣٠٢هـ (٣)، دخلت عساكر عبيد الله المهدى بقيادة حباسة بن يوسف الاسكندرية فى مائة ألف أو أكثر

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٢

(٢) عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبرى ، طبعة ليدن ، ١٨٩٧ ، ص ٤٤

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٣ وذكر الكندى أن جيش الفاطميين دخل الاسكندرية فى اليوم الثامن من المحرم (الكندى ، ص ٢٦٩)

كما قدم إليها أسطول فاطمى عدته مائتا مركب (١) ، فتصدت لها عساكر العراق ومصر فى مشتول . واشتبك الفريقان فى معركة ضارية قتل فيها آلاف من الجند من الطائفتين ، حتى تغلب عسكر العباسيين على جيش حباسة وهزمه وأجلاه عن الاسكندرية وبرقة . وعاد حباسة بمن بقى معه من عساكره إلى إفريقية ، وكان هذا أول جيش فاطمى يهاجم الاسكندرية من قبل عبيد الله المهدى (٢) . ويبدو أن والى مصر الجديد أبا الحسن ذكا الرومى الأعور أدرك أهمية الاسكندرية فى هذه الفترة الحرجة من تاريخها بحكم كونها حلقة الاتصال بين مصر والمغرب واتصال أهلها بالمهدى الفاطمى ، فقدكان أهل الاسكندرية يميلون إلى الفاطميين ويعطفون على دعوتهم ، ودليل ذلك أنهم ناصروا العلويين عندما اضطهدهم المتوكل ومن تبعه من الخلفاء (٣) ، وأن دعاة الاسماعيلية فى مصر أعدوا الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لتقبل المذهب الاسماعيلى .

وكان من الطبيعى أن يخرج ذكا إلى الاسكندرية لتفقد أسوارها ودراسة أحوالها ، فخرج إليها فى أول المحرم سنة ٣٠٤ هـ ، وأقام بها إلى أن عاد إلى الفسطاط فى ٨ من ربيع الأول ، بعد أن أقام على ولايتهما ولده المظفر ابن ذكا بدلا من القاسم بن سيما . وعندما عاد إلى الفسطاط تتبع من كان على اتصال بعبيد الله المهدى فى إفريقية ، فسجن كثيراً منهم ، وعذب آخرين ، فعظمت هيبته فى النفوس . وفى هذه الفترة جلا أهل لوبية ومراقية إلى

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص ٢٨٦

(٢) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ١٧٣

(٣) محمد عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربى ، كتاب غرفة الاسكندرية التجاريه ، ١٩٤٩ ص ٩١

الاسكندرية خوفاً من صاحب برقة ، فوصلت جموعهم إلى الاسكندرية في شوال سنة ٣٠٤هـ (١)، فخاف ذكا من وفود هؤلاء البرقيين ،واحتاط للأمر ، فسير إلى الاسكندرية فرقاً من عسكره ، فرقة بعد فرقة (٢) .

وفي غضون سنة ٣٠٦ هـ ، أي قبل محاولة المهدى الفاطمي الثانية غزو مصر ، حدث خلاف بين المظفر بن ذكا وبين بربر البحيرة ، فاضطر إلى الخروج من الاسكندرية إلى تروجة ، ثم عاد إلى الاسكندرية بعد ذلك . ولا يستبعد الأستاذ الدكتور سعد زغلول أن يكون هؤلاء البربر قد حنوا إلى إخوانهم بربر المغرب أتباع الفاطميين الذين كانوا قد التقوا بهم في سنة ٣٠٢ هـ أو أنهم كانوا على علاقة بالمهدى (٣)

ثم عاود الفاطميون الكرة مرة أخرى في سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) ، وسارت مقدمة جيش المهدى إلى لوبية ومراقية بقيادة أبي القاسم محمد بن المهدى وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق، وأبو غانم الكاتب، وعبد الله بن الحسن بن أبي خنزير،وسليمان بن كافي،وعندما وصلت الأنباء بذلك إلى الاسكندرية فزع أهل الاسكندرية وارتاعوا ، وبادروا بالجلاء

---

(١) الكندى ، ص ٢٧٤ — المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١١٤ . ويرجع سبب وفود هؤلاء البرقيين إلى الاسكندرية إلى أنهم قاموا بالثورة على الحامية الكتامية التي تركها أبو القاسم محمد بن المهدى عقب غزوته لمصر سنة ٣٠٢، فسير إليهم المهدى الجيوش بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصى، الذى لم يتمكن من دخولها إلا بعد حصار دام ١٨ شهراً ، فقتل بها معظم سكانها الذين لم يسعدهم الحظ بالفرار إلى الاسكندرية (البيان المغرب، ج ١ ص ٢٤١)

(٢) المقريزى ، ج ٢ ص ١١٤

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي ، ص ٢٨٥

عن مدينتهم فى البر والبحر إلى الشام ، فهلك أكثرهم ، وخرج مظفر بن ذكا منها فى خمسة آلاف ، فى حين دخلت مقدمة الجيش الفاطمى بقيادة أبى القاسم الاسكندرية وهى خالية تقريباً من السكان فى يوم الجمعة ٨ من صفر سنة ٣٠٧(١) وعندئذ زحف ذكا إلى الجيزة ، وعسكر بها فى منتصف شهر صفر فى طائفة يسيرة من الجند بعد أن خالفه معظم جيشه ، وأبوا الخروج معه إلى الجيزة ، واشترطوا عليه أن يدفع لهم عطاياهم (٢) . ولم تمض أيام حتى وصل الحسين ابن أحمد الماذرائى واليا على خراجها ، فخرج إلى الجيزة ، ووضع العطاء بها ، وفى نفس الوقت أخذ ذكا يتأهب للقتال ، ويعد نفسه للمعركة المقبلة ، فأمر ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة ، ولم يلبث أن توفى بها فى ٩١ ربيع الأول سنة ٣٠٧هـ ، وأحدثت وفاته ارتباكاً فى صفوف أهل الفسطاط ، فلحق كثير منهم بالقلزم والحجاز (٣) . وخلف ذكا على ولاية مصر أبو منصور تكين للمرة الثانية ، فنزل الجيزة ، وأقام بها خندقاً ثانياً ، واستعد لتلقى جيش الفاطميين .

وحدث فى هذه السنة أن تفشى وباء فى عسكر المغاربة بالاسكندرية وكثر المرض بينهم ، فتوفى داود بن حباسة وعدد من وجوه القواد ، واشتدت علة أبى القاسم محمد بن المهدى (٤) . وفى أثناء ذلك أقبلت ثمانون سفينة من

---

(١) الكندى ، ص ٢٧٥ . ويذكر المقريزى أنه دخلها فى ربيع الآخر سنة ٣٠٧ هـ (المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧١)

(٢) الكندى ، ص ٢٧٥

(٣) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ١٩٦

(٤) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج ٢ ص ١٣٣ — أبو المحاسن ، ج ٣ ص ١٩٦

سفن الأسطول الفاطمى بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامى ، وأرست فى مياه الاسكندرية (١) ، فأرسل الخليفة المقتدر بالله الأسطول العباسى المرابط فى طرسوس ، فقدمت منه ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم ، وأرست برشيد (٢) ، وسرعان ما اشتبك الأسطولان الفاطمى والعباسى فى مياه رشيد فى قتال عنيف ، فى ٢٠ من شوال ٣٠٧ هـ ، ظفرت فيه مراكب المقتدر ، وأحرقت كثيراً من سفن المغاربة ، وذكر الكندى أن الله بعث الريح « على مراكب سليمان فألقتها إلى البر ، فتكسرت ، وأخذ من فيها أخذاً باليد ، وأسرهم ثمل وقتل منهم خلقاً كثيراً ، واستأمن إليه من بقى ، ودخل بهم الفسطاط ، فأنزلهم المقس يوم الإثنين لأربع بقين من شوال سنة ٣٠٧هـ ، ومعه سليمان الخادم وكل رئيس كان فى تلك المراكب ، فأمر تكين بتمييز الأسارى ، فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية ، وميز كتامة وزويلة ناحية ، ثم أذن للناس فى قتلهم ، فقتلهم الجند والرعية ، وكانت عدة القتلى سبعمائة أو نحو ذلك ، ودخل ثمل الفسطاط ومعه سليمان فطيف به مقيداً وبرؤساء المراكب وهم مائة وسبعة عشر ، وذلك فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شوال »(٣). أما سليمان فقد توفى فى سجنه بمصر ، فى حين حمل يعقوب إلى بغداد ، فهرب منها وعاد إلى إفريقية ، فقاد أساطيلها (٤)

---

(١) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٨٧ — المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٧١

(٢) الكندى ، ص ٢٧٦

(٣) الكندى ، ص ٢٧٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٦ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٦١

وفى ٥ من المحـرم سنة ٣٠٨ هـ وصل إلى مصر جيش عباسى عدته ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة مؤنس الخادم. فنزلوا الجيزة ، واستعدوا لتلقى المغاربة. وفى هذه الأثناء تحرك الجيش الفاطمى من الاسكندرية بعد أن ترك أبو القاسم على ولايتها ابن بعلة (١) ، وتقدمت القوات الفاطمية فى الطريق الزراعى المؤدى إلى الفسطاط ، ونزلت الفيوم ، واستولى البربر على جزيرة الأشمونين كلها بالاضافة إلى الفيوم ، واشتبك الجيش العباسى والمصرى مع البربر المغاربة فى عدة وقائع انتهت بهزيمة البربر ، وفرارهم إلى برقة ، وكان ثمل الخادم قد استغل فرصة خروج الجيش الفاطمى من الاسكندرية ودخلها فى المحرم سنة ٣٠٩ بمراكبه ، وظفر بالحامية المغربية ، بينما فر ابن بعله . وغنم ثمل الخادم كل ما تركه المغاربة من سلاح ومتاع ، وأطلق سراح جميع من كان فى سجنهم (٢) ، ثم نفى أهل الاسكندرية الممالئين للفاطميين إلى رشيد (٣) .

وتخلف بمصر بعد رحيل المغاربة عدد منهم آثروا المقام بها ، وألفوا فرقة من بين فرق الجيش ، وقد لعب هؤلاء المغاربة دوراً هاما فى سياسة مصر الداخلية ، ومهدوا الطريق أمام الفاطميين فى افريقية لفتح مصر (٤) . فعندما توفى أبو منصور تكين فى ١٦ ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ ، حدث نزاع بين ابنه محمد بن تكين وبين أبى بكر محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج بسبب مطالبة الأول بولاية مصر بعد أبيه ، فتصدى له الماذرائى ،وأمره

---

(١) الكندى ، ص ٢٧٧

(٢) عريب بن سعد ، ص ٨٥

(٣) الكندى ، ص ٢٧٧

(٤) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧

بالخروج عن مصر. إلا أن محمد بن تكين لم يلبث، بعد أن سار إلى الشام، أن قفل عائداً إلى مصر مدعياً أن معه تقليد بولايتها من قبل الخليفة القاهر . فاستجاش الماذرائى بالمغاربة الموجودين فى مصر برئاسة أبى مالك حبشى بن أحمد السلمى (١) لمنع ابن تكين من دخول مصر .

ثم تتابع الولاة على مصر من قبل القاهر ، فقد وليها محمد بن طغج وهو مقيم بدمشق مدة ٣٢ يوماً ، ثم خلفه على ولايتها أحمد بن كيغلغ للمرة الثانية فى ٧ شوال سنة ٣٢١ . وفى أيامه شغب الجند فى طلب أرزاقهم على محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج فأحرقوا داره ودور ذويه . وحدث أن انقسم الجند فى مصر إلى فرقتين : فرقة من المشارقة بقيادة حبكويه وفرقة من المغاربة بقيادة حبشى بن أحمد . ونشبت الحرب بين الفرقتين فى ٥ ذى الحجة سنة ٣٢١ هـ ، واستمرت المعارك دائرة بينهما إلى أن قدم محمد بن تكين من فلسطين فى ١٣ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، فنزل الجزيرة مع جنده وأظهر كتابا بولايته ، فأنكر الماذرائى ذلك ، كما أنكره جماعة المغاربة الذين تمسكوا بولاية أحمد بن كيغلغ ، واشتبك المغاربة مع عسكر محمد بن تكين بالقرب من الفسطاط ، فانهزم المغاربة . ولكن هذه الهزيمة لم تصرفهم عن مناهضة ابن تكين وتأييد ابن كيغلغ ، فعقد ابن تكين لحبكويه وأحمد بن بدر السميساطى على ألف من الجند لمحاربة المغاربة ، واشتبك الطرفان فى شرقيون فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ ، فانهزم حبكويه وأصحابه ، وطاردهم المغاربة ، وأشفوا غليلهم بقتلهم ، ثم عبر المغاربة النيل ، وتخلى عسكر ابن تكين عنه ، وانضموا إلى ابن كيغلغ الذى

---

(١) الكندى ، ص ٢٨١

تمكن من دخول الفسطاط فى ٦ رجب سنة ٣٢٢ هـ (١) .

وعندما تولى محمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى ولاية مصر للمرة الثانية وردت الأنباء بقدومه فى جيش إلى مصر ، وإقبال عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كلملم إلى تنيس ودمياط ، عزم ابن كيغلغ على التسليم ، ولكن الماذرائى اعترض على ذلك ، وبعث بالمغاربة لمنع جيش ابن طغج من الوصول إلى الفسطاط ، وعلى بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن ابن طغج فى النيل وعندما اشتبكت السفن ، دارت الدائرة على على بن بدر فى ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ(٢) . وأقبل صاعد فى مراكبه إلى الفسطاط بينما تقدم ابن طغج فى البر لمقاتلة ابن كيغلغ (٣) . غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى ابن طغج حقنا لدماء المسلمين ، فى حين لم يرض المغاربة عن الدخول فى طاعته ، وكرهوا المقام معه ، فمضوا إلى الشرقية ، وانضم إليهم المعارضون لابن طغج أمثال بجكم وعلى بن بدر ونظيف الموسوى وعلى المغربى (٤) .

وتحرك حبشى وفرقته المغربية لمحاربة ابن طغج ، وزحفوا إلى الفيوم فسار صاعد فى مراكبه إلى خليج الفيوم ، وأراد أن تدور ، فلم تدر لضيق الخليج ، فوقع فى قبضة حبشى ، الذى قتله وقتل عدداً كبيراً من أتباع ابن طغج ، وظفر بمراكبه (٥) . ومن الفيوم اتجه حبشى إلى الاسكندرية فى حشود جيشه ، بينما سار على بن بدر وبجكم فى مراكب صاعد ، مارين

---

(١) الكندى ، ص ٢٨٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٦

(٣) ابن سعيد الأندلسى ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٤) الكندى ، ص ٢٨٦

(٥) ابن سعيد ، ص ١٦٠

بالفسطاط ، فأرسوا بجزيرة الصناعة ، وأحرقوا ماكان بها من السفن ، وحاول ابن طغج أن يتصدى لهم ، ولكنهم انحدروا إلى الاسكندرية حيث اجتمعوا بجيش حبشي . ومن الاسكندرية واصلوا السير غرباً إلى برقة ، وكتبوا إلى القائم بأمر الله الفاطمي صاحب إفريقية يستأذنونه في الدخول في طاعته ، ويحرضونه على الاستيلاء على مصر ، مذللين له المهمة(١) .

ولم يتح لحبشي أن يشهد وصول الجيش المغربي من إفريقية ويرى ثمرة جهوده ، إذ توفي في قرية رمادة ببرقة في صفر سنة ٣٢٤ هـ قبل أن تصل جيوش الفاطميين. وبلغ ذلك ابن طغج ، فتأهب لاستقبال هذه الحملة ، وأمر باخراج عساكر مصر إلى الاسكندرية والصعيد وهما طرفا مصر من الغرب ، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٣٢٤ هـ . وأقبلت عساكر الفاطميين بقيادة يعيش الكتامي وأبي تازرت الكتامي وانضمت إليها فرقة المغاربة المعسكرة في برقة بقيادة بجكم ، ودخلوا مدينة الاسكندرية في ربيع الآخر. وكان من الطبيعي أن يبادر ابن طغج برد هذا الغزو في سرعة مناسبة قبل أن تزحف قوات الغزاة نحو الفسطاط ، فأرسل أخاه الحسن ، والقائد صالح بن نافع على رأس جيوشه إلى الاسكندرية في ٢٢ ربيع الآخر ، واشتبك عسكر ابن طغج مع عسكر المغاربة فيما بين تروجة وأباوق (موضع جنوبي مريوط) في معركة حامية دارت في ٥ جمادى الأولى ، وأسفرت عن هزيمة ساحقة منى بها جيش المغاربة ، وقتل فيها وأسر عدد كبير من وجوههم ، وكان القائد يعيش الكتامي نفسه من بين القتلى ، وتمكن الحسن بن طغج وصالح بن نافع من دخول الاسكندرية، فتتبعوا المغاربة فيها بالقتل ، وفر بجكم وعلى المغربي

---

(١) الكندى ، ص ٢٨٧ — ابن سعيد ، ص ١٦١ — ابو المحاسن ، ج ٣ ص ٢٥٢

وأتباعهما إلى برقة(١). حيث أقاما بها فى حماية الخليفة الفاطمى فترة من الوقت إلى أن استأمنا إلى محمد بن طغج فى سنة ٣٢٨ هـ فأمنهما وعادا إلى مصر(٢).

وهكذا نجح محمد بن طغج الإخشيد فى سحق حركة المغاربة نهائياً، ووضعت هزيمتهم فى يوم أبلوق حداً للاضطراب الذى كان يسود الاسكندرية وغيرها من المدن، وهو اضطراب أفسح المجال لتطلعات الخلفاء الفاطميين نحو مصر. وفى ظل الأسرة الإخشيدية نعمت الاسكندرية بهدوء نسبى استمر حتى اليوم الذى دخلت فيه قوات جوهر الصقلى الاسكندرية.

(١) الكندى، ص ٢٨٨

(٢) نفسه، ص ٢٨٩

الفصل السابع

الاسكندرية فى العصر الفاطمى

١ — دور الاسكندرية فى الأحداث السياسية فى هذا العصر

(ا) حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٩ — ٤٦٥)

(ب) حركة الأوحد بن بدر الجمالى فى سنة ٤٧٧ ﻫ

(ج) نوبة الاسكندرية فى سنة ٤٨٨ ﻫ .

(د) اشتراك الاسكندرية فى الصراع بين الوزراء .

٢ — أهميـة الاسكندرية كقاعدة بحرية للفاطميين .

٣ — منشآت الفاطميين فى الاسكندرية

(ا) المنشآت الحربية

(ب) المنشآت المدنيـة

(ج) المنشآت الدينيـة

١ — جامع العطارين

٢ — مسجد الطرطوشى

٣ — مسجد المؤتمن

٤ — ضريح الطرطوشى

الفصل السابع

الاسكندرية فى العصر الفاطمى

(١)

دور الاسكندرية فى الاحداث السياسية فى هذا العصر

على الرغم من الفشل المتواصل الذى منى به الفاطميون فى محاولاتهم فتح مصر ، فقد ظلت فكرة فتح مصر أملا يراودهم ، وظلوا يتطلعون إلى تحقيقها ، خاصة بعد أن أيقنوا باستحالة فتح الأندلس لعدة أسباب : منها أن الدعاية الفاطمية التى مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم فى الأندلس لم تجتذب إلا عدداً محدوداً من الأنصار والمشايعين من أهل الأندلس ، ونخص بالذكر منهم ابن أبى المنظور الذى ولى القضاء لاسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) ، والشاعر الإلبيرى محمد بن هانىء الأندلسى (ت ٣٦٢ هـ) الذى طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية ، فالتحق بخدمة المعز الفاطمى بالقيروان (١) ، والقائد على بن حمدون الجذامى المعروف بابن الأندلسى الذى قدم إلى المغرب واتصل بعبيد الله المهدى وولده ، فعهد إليه المهدى ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣هـ(٢). ومنها أن الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ، الذى فطن إلى خطط

---

(١) محمود على مكى ، التشيع فى الأندلس ، مقـــال بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤ ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٦٨

الفاطميين ، لم يعمل على محاربتهم بنفس سلاحهم فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء ، وبأعمال إيجابية حاسمة ، فقد بث العيون فى أنحاء المغرب ، واهتم بالأساطيل ، فأنشأ عدداً من دور الصناعة فى ثغور الأندلس ، ونجح فى إعداد أسطول ضخم نازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط ، وتلقب بألقاب الخلافة فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦هـ ليدعم مركزه فى داخل الأندلس وخارجه ، ووطد علاقاته بأعداء الفاطميين .

كل ذلك كان له أعظم الأثر فى أن يصرف الفاطميون نظرهم عن الأندلس ويتطلعوا من جديد نحو مصر ، وكان فتح مصر ، بعد الفشل المتلاحق فى الحملات السابقة ، يستلزم فى هذه المرة دراسة عميقة عن طريق العيون والدعاة للأوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر ، ومعرفة نقاط الضعف فيها تمهيداً لاستغلالها ، والتسلل عن طريقها ، كما كان يتطلب استعدادات عسكرية واسعة النطاق تسبقها مرحلة طويلة للدعاية الاسماعيلية ، يقوم الدعاة خلالها باعداد الشعب المصرى لتقبل هذا الفتح . وقد تم إعداد الحملة الفاطمية أخيراً ، على النحو الذى أوضحناه ، فى عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى أحسن اختيار الزمن الملائم لتوجيه الحملة (١) ، ووفق فى اختيار أبى الحسين جوهر

---

(١) كانت أحوال مصر الاقتصادية منذ وفاة محمد بن طغج الاخشيد فى سنة ٣٣٤ فى غاية السوء ، ولم ينجح كافور فى تحسينها ، « ففى سنة ٣٥٢ قصر النيل فى فيضانه وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات قاسى المصريون خلالها الشدائد » (جمال الدين الشيال ، مصر فى العصر الفاطمى ، بحث فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٢٩) ،

ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله : « وفى سنة ٣٥١ هـ ترفع السعر واضطربت الاسكندرية والبحيرة بسبب المغاربة الواردين إليها ، وتزايد الغلاء ، وعز وجود=

الصقلى ، أعظم قواده ، قائداً لها ، وأعد منذ سنة ٣٥٥ قصوراً على طول الطريق إلى مصر لنزول الجند ، وحفر لهم الآبار (١) ، ورسم تخطيطاً علمياً منظماً للمعركة المقبلة .

ولما اقتربت عساكر الفاطميين من الاسكندرية ، ودخلتها ، وأرست فى مياهها مراكب أسطوله (٢) ، جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات الناس وشاورهم ، فاتفقـوا فى أول الأمر على مراسلة جوهر ، وأن يشترطوا عليه شروطاً ، ثم عدلوا عن ذلك ، وأجمعوا على محاربته ، ثم تراجعوا عن هذا القرار ، وآثروا المراسلة بالصلح ، واتفقوا على إرسال وفد للمفاوضة مع جوهر فى مسألة الصلح ، من بين أعضائه أبو جعفر مسلم الحسينى ، وأبو اسماعيل الرسى الحسنى ، وأبو الطيب العباس ابن أحمد الهاشمى ، وأبو جعفر أحمد بن نصر ، والقاضى أبو طاهر محمد ابن أحمد ، وقابل الوفد جوهراً بتروجه ، فكتب لهم كتابا يتضمن شروط الصلح والأمان (٣) . غير أن الإخشيدية والكافورية لم يلبثوا أن نقضوا الصلح وبايعوا نحرير شويزان بالامارة ، وعند أول اشتباك وقع بين الإخشيدية والمغاربة بالقرب من الجيزة انهزم الإخشيدية ، وقتل من قوادهم نحرير

= القمح ، وقدم القرمطى إلى الشام سنة ٣٥٣ ، وقل ماء النيل ونهبت ضياع مصر..)» ويقول أيضاً : « وما زالت الاسكندرية وأعمالها فى اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ فملكتها » (المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٥) .

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٩٦

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٤١ .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٣

الأرغلى ومبشر الإخشيدى ويمن الطويل (١) . وبادر أهل مصر الفسطاط إلى دار الشريف مسلم يسألونه الكتابة إلى جوهر فى إعادة أمانهم، فكتب إليه وأجابه جوهر إلى ما التمسوه ، ثم عبر جوهر النيل من الجيزة، ونزل بموضع القاهرة فى ١٧ شعبان ، واختطها .

وفى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٢٩ مايو سنة ٩٧٣ م) وصل المعز لدين الله إلى الاسكندرية قادماً من المنصورية فى طريقه إلى القاهرة حاضرته فى مصر ، ودخل المعز مدينة الاسكندرية يوم الجمعة ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ هـ وهو ممتط جواده ، فاستقبله فيها القاضى أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بجير وسائر الشهود والفقهاء ووجوه التجار وأعيان الثغر ، فنزل المعز تحت منارة الاسكندرية (٢) يوم وصوله ، وخاطب مستقبليه بخطاب طويل « أعلمهم فيه بأن قصده القصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل بما أمره به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم وطوّل حتى أبكى بعضهم وخلع على جماعة »(٣)، ثم مضى إلى الجيزة ، ودخل القاهرة . وذكر ابن زولاق أن المعز عندما تلقاه القاضى محمد بن أحمد بالاسكندرية خلع عليه وحمله وسايره فى الركوب(٤)

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩ — النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٣١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٤

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٢ — عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية منذ الفتح العربى ، ص ٩١ — حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٥٠ — جمال الدين سرور ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٤١

(٤) الكندى ، الملحق ص ٥٨٤

وكان قد قدم مع المعز من افريقية القاضى عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان ، فولاه المعز قضاء مصر والاسكندرية (١) .

* * *

تألقت الاسكندرية فى العصر الفاطمى ، واستعادت ازدهارها القديم ، وأصبحت مركزاً أساسياً هاما ، شاركت فى كثير من الأحداث السياسية التى حفل بها العصر الفاطمى ، فكان أهل الاسكندرية بحكم تطرفها عن الدلتا المصرية ، وعزلتها عن بقية مدن مصر ، واتصالها بالطرق المؤدية إلى برقة وإفريقية وغلبة العناصر المغربية فيها (٢) ، يميلون إلى المعارضة ، وكانوا قبل وصول الفاطميين على اتصال بهم ، فلما قدم الفاطميون حن أهل الاسكندرية إلى الانفصال ، وأيدوا كل حركة تهدف إلى ذلك ، ومن هذه الحركات ما يلى :

(١) حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٩ — ٤٦٥) :

استبد أبو محمد ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان بأمور المستنصر ، وزادت مطالبته بالأموال حتى استوعبها ، وأخرج جميع ما فى القصر من ثياب وأثاث ، وباعهـا بالثمن ، وحالف الأتراك سراً على

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨٧

(٢) انتقلت فى العصر الفاطمى موجات كثيرة من المغرب واستقرت فى المنطقة الواقعة غربى الدلتا والبحيرة والفيوم والواحات والمناطق الغربية من صعيد مصر . فسكنت البحيرة جماعات من لواتة ، بينما نزلت هوارة بالبحيرة ، من الاسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة (راجع : عبد المجيد عابدين ، دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، ملحقة بكتاب البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب للمقريزى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١٣٢ — ١٣٤) .

المستنصر ، وأفرج عن أمراء عرب الشام الذين كانوا فى سجن المستنصر بعد أن اتفق معهم على الفتك ببدر الجمالى ، وانقسم عسكر مصر إلى قسمين متعادين . وفى سنة ٤٥٩ تتبع ناصر الدولة بن حمدان العبيد الذين كانت أم المستنصر قد استكثرت منهم فى الصعيد والإسكندرية ، فرأى أن يبدأ بمحاربة عبيد الاسكندرية ، فسار إليها ، والتقى معهم فى موضع يعرف بالكرم فقتل منهم نحو ألف ، وتحصن الباقون داخل أسوار الإسكندرية ، فحاصرهم فيها مدة ، وألح فى مقاتلتهم حتى سألوه الأمان ، فأخرجهم منها وأقام فيها من يثق به (١) . واشتد أمر ناصر الدولة بعد ذلك، واستبد بسلطة البلاد . فعزم المستنصر على وضع حد لهذا الاستبداد، وبادر بحشد قواته من المغاربة وبعض الأتراك بقيادة الدكز الملقب بأسد الدولة ، شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، واشتبك مع قوات ابن حمدان بالباب الجديد فى القاهرة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن حمدان وفراره إلى الإسكندرية (٢) فى سنة ٤٦١ ، حيث نزل فى حى من أحياء عرب البحيرة وهم بنو سنبس الذين حلوا محل بنى قرة (٣) الذين انسحبوا

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، (مخطوطة) ص ١٠٠ ا — الخطط ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٥ ، ٧٤

(٣) كان بنو قرة الجذاميون (من بطون ضبيب بن جذام) يسكنون البحيرة ، وكانوا عنصر شغب وفتنة ، فقد ثاروا فى الاسكندرية سنة ٤٤٢ واستولوا عليها ثم أوقعوا الهزيمة بالجيش الفاطمى ، فاضطر الوزير اليازورى الى استدعاء جموع سنبس (من طى ينسبون إلى سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث ابن طى) من الداروم بفلسطين وأقطعهم البحيرة ، « وأوطأهم الوزير ديار بنى قرة وأقطعهم أرضهم وديارهم ، فاتسعت أحوالهم وفخم أسرهم ، وعظم فى أيام الخلفاء الفاطميين شأنهم » (المقريزى ، البيان والاعراب ، تحقيق دكتور عبد المجيد عابدين ص ٨ ، ٩) .

إلى الصعيد (١) .

نزل ابن حمدان فى بنى سنبس بالبحيرة ، واستجار بهم ، وتزوج منهم (٢) ، ومن هناك أخذ يشن غاراته على أعمال مصر ، ويهزم جيوش المستنصر التى يسيرها لقتاله بالبحيرة الجيش بعد الآخر . وكان ناصر الدولة عند فراره إلى الإسكندرية فى صفر ٤٦١ هـ قد اصطحب معـه طائفة من اللواتيين ، الذين نهبوا ما تبقى من خزانة الكتب الفاطمية ونقلوه فى خليج الاسكندرية ، بينما أخذ عبيدهم جلودها برسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم ، وأحرقوا ورقها ، بالاضافة إلى ما استولى عليه عماد الدولة أبو الفضل بن المحيرق بالاسكندرية ، وانتقل بعد مقتله إلى بلاد المغرب (٣) .

وما زال أمر ابن حمدان يشتد وخطره يستفحل حتى انتهى به الأمر إلى أن حاصر القاهرة ، وقطع الميرة والأقوات عنها ، ونهب أكثر الوجه البحرى ، وقطع منه الخطبة للمستنصر ، ودعا للقائم بأمر الله الخليفة العباسى فى الاسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى (٤) ، وفى ذلك يقول المقريزى « وقطع خطبة المستنصر من جميع الوجه البحرى ، وكتب إلى الخليفة القايم

(١) عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) اتعاظ الحنفا (القسم المخطوط) ص ١٠١ ا

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٥٣

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، (المخطوطة) ص ١٠٥ ب — المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٢٩ — النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة (صورة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ج ٢٦ ، ص ٦٨ — جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢٨

ببغداد يسأله أن يجهز إليه الخلع والألوية السود ، فاضمحل قدر المستنصر وتلاشى أمره وتعاظمت الشدائد على مصر »(١) .

وهكذا ضعف المستنصر عن مواجهة ابن حمدان ، فأسلم له قياده فى نهاية الأمر ، وساءت الأمور فى مصر فى ذلك الحين إلى أقصى حد من تزايد الغلاء وقلة الأقوات وهلاك عدد كبير من السكان ، «وعظم الفساد والضرر وكثر الجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقفوا فى الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه ، مع ما نزل بالناس من الحروب والفتن التى هلك فيها من الخلق ما لا يحصيهم إلا خالقهم »(٢) . وظل الحال على هذا السوء إلى أن اختلف ابن حمدان مع الدكز ، فانقلب عليه الدكز وقتله فى سنة ٤٦٥هـ ، وتتبع أقاربه وذويه بالقتل ، واستبد الدكز بدوره ، فاضطر المستنصر إلى استدعاء الأمير بدر الجمالى ، فقدم إلى مصر فى سنة ٤٦٧ ، وقبض على الدكز وقتله ، ثم أخذ يصلح ما أفسده ناصر الدولة بن حمدان والدكز ، فخرج إلى الاسكندرية ، وحاصرها أياما ، ثم استولى عليها عنوة ، وقتل جماعة من الثوار فيها من طائفة العسكر الملحيين وأتباعهم(٣) ، وأصلح ما أفسده ناصر الدولة فيها ، وسلمها إلى القاضى ابن المحيرق (٤) . ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله : « وفيها (أى فى سنة ٤٦٧) سار أمير الجيوش بدر إلى الوجه البحرى فأوقع بلواتة وقتل مقدمها سليم اللواتى وابنه واستصفى جميع ما كان له ولقومه من أموال ، وأسرف فى قتلهم حتى يقال

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٦ ب .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠١ ا .

(٣) الذهبى ، ج ٣ ص ٢٦٣ — المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٤٨

(٤) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٥ ، ٧٤

أنه قتل منهم عشرين ألفاً ، وسار إلى دمياط وقتل أكثر من كان فيها من المفسدين ، وخرب وحرق ، وأصلح عامة أحوال الثغر ، ولم يدع بالبر الشرقى وجميع أسفل الأرض مفسداً إلا وقتله أو قمعه ، ثم عدا إلى البر الغربى ، فقتل كثيراً من الطائفة الملحية وأتباعهم ، وأقام على محاصرة الاسكندرية أياما حتى أخذها قهرا ، فقتل كثيراً من أهلها المفسدين ، وعفا عن أهل البلد فلم يتعرض لهم »(١) .

ويبدو أن ابن المحيرق القاضى لم يرض بما أسنده إليه بدر الجمالى ، فطمع فى أكثر من ذلك ، فلم يلبث أن أعلن الثورة فى الاسكندرية فى سنة ٤٦٨ هـ ، فاضطر أمير الجيوش بدر الجمالى إلى التوجه إلى الاسكندرية ، وقبض على قاضيها وعلى جماعة من فقهائها وأعيانها وأخذ منهم أموالا عظيمة (٢).

(ب) حركة الأوحد بن بدر الجمالى سنة ٤٧٧ .

لم يمض على إخماد حركة ابن المحيرق عشر سنوات حتى عادت الاسكندرية من جديد تفتح أبوابها للثوار والعصاة الخارجين على السلطة المركزية ، ففى سنة ٤٧٧ أعلن الأوحد أبو الحسن على الملقب بمظفر الدولة ، الابن الأكبر لأمير الجيوش بدر الجمالى ، الثورة على أبيه ، وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان ، وتحصن بالاسكندرية ، وكان أبوه قد ولاه عليها ، فأرسل إليه بدر أبا الفرج المغربى ، أحد الوزراء السابقين ليردعه ، فلم يستجب الأوحد إليه ، ثم سار إليه أخوه الأفضل ولاطفه ، فأخفق فى حمله على الطاعة ، فاضطر بدر الجمالى إلى الخروج إليه لاخماد حركته ، ونزل على أبوابها .

---

(١) اتعاظ الحنفا ، المخطوطة ، ص ١٠٧ ب

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٠١

وحاصرها شهراً ، وألح على الأوحد القتال « حتى طلب أهلها الأمان وفتحوا له الباب ، فدخلها وأخذ ابنه أسيراً » (١). ويذكر المقريزى أنه « ألح عليه القتال حتى أدخل البلد وأخذ ابنه تهراً » (٢) ، ثم عاقب بدر الجمالى أهل الاسكندرية الذين أيدوا حركة الأوحد بأن فرض عليهم جميعاً مسلمين وقبط مائة وعشرين دينار حملت إليه (٣) ، جدد بها بناء جامع العطارين بالاسكندرية . وذكر المقريزى ، أنه نزل إلى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ولده الأوحد ، « فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة »(٤) .

وجامع العطارين المذكور كان فى الأصل كنيسة باسم القديس أثناثيوس ، أقيم عليها بعد الفتح مسجد صغير ، وكانت عوامل الوهن والشيخوخة قد ظهرت على هذا المسجد فى بداية العصر الفاطمى ، فتهدمت أجزاء منه ، وتهاوت بعض سقفه ، وأصيب بأضرار جسيمه ، وعندما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى الاسكندرية وشاهد هذا الجامع مهدماً ، أمر بتجديد بنائه وأنفق على بنيانه الأموال التى أخذها من أهل الاسكندرية ، وأقام فيه صلاة

---

(١) نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٩

(٢) اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩ ا — النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٧٠

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٣١ — عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٨٣

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٩ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ٧٠

الجمع ، واستمر مسجداً جامعاً إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الذى أمر ببناء جامع آخر نقل إليه الخطبة من جامع العطارين (١) . وتاريخ تعمير جامع العطارين مسجل فى لوحة تاريخية بالمسجد .

(ج) نوبة الاسكندرية فى ٤٨٨ هـ :

وفى الاسكندرية أيضاً قامت النوبة السكندرية المعروفة بالحركة النزارية بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله فى ١٨ذى الحجة سنة ٤٨٧(٢). وتفصيل الموضوع أنه كانت بين الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى — وكان وزيراً للمستنصر — وأبى منصور نزار، الابن الأكبر للمستنصر، نفرة لأمورمنها أنه خرج يوماً، فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب ،فصاح به نزار « انزل ياأرمنى النحس »، فحقدها عليه ، وصار كل منهما يكره الآخر . ومنها أن الأفضل كان يعارض نزاراً فى أيام أبيه ويستخف به ، ويضع من قدر حواشيه، ويبطش بغلمانه، فلما مات المستنصرخافه لأنه كان رجلامكتمل الرجولة وله حاشية وأعوان (٣). لكل ذلك بادر الأفضل شاهنشاه بعد وفاة المستنصر، بالتخلص من نزار وإقصائه عن الخلافه، فأجلس أبا القاسم أحمد ، الابن الأصغر للمستنصر، فى منصب الخلافة، ولقبه بالمستعلى بالله، وسير إلى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير اسماعيل، أولاد المستنصر ، فجاؤوا إليه ، واستاءوا من جلوس أخيهم الأصغر على سرير الخلافة ، وشق عليهم ذلك ،

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩ .

(٢) أخطأ ابن واصل إذ جعل تاريخ هذه الحركة فى سنة ٤٩٥ بعد وفاة المستعلى بالله (التاريخ الصالحى ، مخطوطة ، حوادث سنة ٤٩٥) .

(٣) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٧٦ — جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٤٩

فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض بين يديه ، فرضخوا لذلك مرغمين ، وبايعوه ، ثم امتنعوا فيما بينهم عن ذلك ، وادعى كل منهم أن أباه قد وعده بالخلافة . ثم تظاهر نزار بأنه يحتفظ بخط أبيه بولاية العهد له . فمضى مسرعاً لاحضاره ، ثم توجه من فوره إلى الاسكندرية يصحبه أخوه عبد الله ومحمود ابن مصال اللكى (١) ، أحد الأمراء الذين أقنعهم نزار بالانضمام إليه فى مقابل أن يكافأه بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل (٢) .

وكان يتولى الاسكندرية فى هذه الآونة الأمير ناصر الدولة أفتكين التركى ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، فدخلا عليه ليلا ، وساعدهما قاضى الاسكندرية جلال الدولة على بن أحمد بن عمار ، وأنهيا إلى أفتكين بما تآمر عليه الأفضل ، وتراميا عليه ، وأطمعه نزار بأن يتخذه وزيراً بدلا من الأفضل ، وأمام هذا الاغراء لم يسع أفتكين الا أن يبايع نزارا بالإمامة ، كما بايعه أهل الاسكندرية ، وتلقب نزار بالمصطفى لدين الله (٣) . فلما علم الأفضل بذلك أخذ يتأهب لمحاربتهم ، وخرج فى آخر المحرم سنة ٤٨٨ هـ على رأس عساكره إلى الاسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين ، « فخرجا إليه فى عدة كبيرة وحارباه ، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الاسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزماً يريد القاهرة ، فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر

---

(١) نسبة إلى قرية لك ببرقة

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١١ ب .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ٧٣

بلاد الوجه البحرى » (١) . وقوى أمر نزار وأفتكين ، واجتذبا بهذا الانتصار كثيراً من العرب المقيمين بنواحى الاسكندرية ، واستفحل خطر نزار ، فاستولى على الوجه البحرى . وقد دفع ذلك الأفضل إلى معاودة الكرة لقمع حركة نزار ، التى أصبحت تشكل خطراً ماثلا على مركز المستعلى بالله ، فجهز جيشاً للمرة الثانية لمحاربة نزار ، ودس إلى زعماء العرب ، ووجوه أصحاب نزار ، « يدعوهم إلى التخلى عنه ، واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من الاقطاعات وغيرها » (٢) ، ونجح فى خطته ، إذ انضم إليه كثير من عرب البحيرة ، ولما استكمل إعداد جيشه زحف إلى الاسكندرية ، وبرز إليه نزار واشتبك الفريقان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة نزار والتجائه إلى المدينة ، فنزل الأفضل عليها وحاصرها حصاراً شديداً ، ونصب عليها المجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة ، وضرب أسوار المدينة بالأحجار واللهب ، ولم يكتف بذلك بل كاتب أنصار نزار ، يمنيهم بالوعود ، فلما اشتد الحصار ، وضاق على أهل الاسكندرية الأمر ، جمع ابن مصال ما له ، وفر إلى جهة المغرب فى ثلاثين قطعة يريد بلده لك برقة ، وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة ، ففت ذلك فى عضد نزار ، وفترت همته ، وضعفت نفسه ، وأيقن بالهزيمة . وفى نفس الوقت شدد الأفضل الحصار ، وتكاثرت جموعه ، فبعث إليه نزار وأفتكين يسألان الأمان ، فأمنهما ، ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وأفتكين وسيرهما إلى مصر ، ولكن الأفضل لم يف بعهد أمانه ، فقد تخلص منهما ، فقتل نزاراً وأفتكين . ويذكر المقريزى فى مقتل نزار أنه « سلم نزار لأهل القصر من أصحاب المستعلى ، وأنه بنى عليه حايط

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١١٢ ا

(٢) نفس المصدر

ومات . وقيل قتل بالاسكندرية والأول أصح » (١) . وقيل أنه استبقاه حتى مات فى الاعتقال (٢)، وهو أمر مستبعد لخوفه من أن يثور النزارية على المستعلى . أما أفتكين فقد قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر (٣) ، وأما ابن مصال فإنه مضى إلى بلده للك برقة ، ثم بعث إليه الأفضل بالأمان ، فقدم عليه وعفا عنه الأفضل وأكرمه .

ولقد أثر حصار الأفضل للاسكندرية وضربها بالمجانيق على عمرانها ، وعلى أسوارها ، وكان الأفضل عندما قبض «على نزار ، وتمكن من الاسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن مالأه أو أعانه ، فقبض على كثير من وجوه البلد ، منهم قاضى الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار ، واعتقله مدة ، ثم قتله وكان حسنة من حسنات الدهر ، ونخبة من نخب الفقه »(٤) . ثم إن الأفضل ولى قضاء الإسكندرية عوضاً عنه القاضى أبا الحسن أحمد بن الحسن بن حديد وبالغ فى إكرامه وإكرام أهل بيته ، ويبدو أنه كافأه بهذا المنصب لأنه لم يبايع هو وقومه نزاراً ، وكانوا يهادون الأفضل سراً (٥) .

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١١٢ ا — المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧

(٢) ابن منجب الصيرفى ، الاشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٩

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٢ ا — الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧ — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٤٣ — C. Cahen, La chronique abregée d'Al-Azimi, Journal Asiathique, Juillet- Septembre, 1938, p. 370.

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٢ ا

(٥) نفس المصدر ، ص ١١٢ ب

(د) اشتراك الاسكندرية فى الصراع بين الوزراء :

لما توفى الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد فى ٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، وبويع ابنه أبو المنصور إسماعيل الملقب بالظافر بأمر الله ، قام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين أبو الفتح سليم بن محمد بن مصال المغربى ، وكان يتولى الاسكندرية والبحيرة فى عهد الحافظ وال يدعى أبو منصور على بن اسحق المعروف بابن السلار ، فخرج بعساكره لنصرة الظافر الابن الأصغر للحافظ على أخيه الإبن الأكبر الطامع فى الخلافة ، ونجح فى تنصيب الظافر على دست الخلافة ، وقبض على أخيه الأكبر (١) ثم خرج على ابن مصال ، ولم يرض بوزارته ، وزحف فى جموعه إلى زوج أمه بالغربية ، وحشد الجيوش لمحاربة ابن مصال ، ثم زحف ابن السلاء إلى القاهرة ، واستولى على الوزارة فى سنة ٥٤٥ هـ ، وتلقب بالعادل (٢) .

وفى أيام الفائز بنصر الله خرج على وزيره الصالح طلائع بن رزيك أمير من أمرائه هو الأمير طرخان بن سليط بن طريف والى الاسكندرية ، فى سنة ٥٥٤ هـ ، فسير إليه الصالح طلائع ابن اخته الأمير عز الدين أبو المهند حسام على عسكر لقتاله . وفى سنة ٥٥٥ هـ ازدادت ثورة طرخان اشتعالا بانضمام أخيه إسماعيل إليه ، فقد خرج إسماعيل من القاهرة فى ليلة الخميس ١١ من المحرم ، ولحق بأخيه طرخان والى الاسكندرية ، وقد جمع لحرب الصالح حشوداً ضخمة من العربان وغيرهم . فخرج إليهما الأمير المظفر

(١) ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، تطوان ، ص ٢٣٥

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ ب — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ٢٩٥ ،

عز الدين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدين ورد ، وأدركهما بعد ذلك الأمير المظفر سيف الدين حسين . وعندما « برز طرخان من الاسكندرية فى جموعه لمقاتلتهما ، وخيّم على دمنهور ، وتلقب بالملك الهادى ، طرقه العساكر ، فهرب ، واختفى بالجيزة ، فقبض عليه فى سبعة عاشرة ، وعاد العسكر فى ثالث عشرينه ، فهرب طرخان من معتقله رابع ربيع الآخر ، وظفر به فى سادسه ، فصلب على باب زويله ، ثم ضربت رقبة اسماعيل فى ثانية ، وصلب إلى جانب أخيه . وكان أبو طرخان فراناً ، فترقى طرخان فى أيام الفتن حتى ولاه الصالح الاسكندرية فى سنة ثلاث وخمسين »(١).

وكان الصالح طلائع قد أنشأ فى وزارته فرقة من أمراء المغاربة يقال لهم البرقية ، وجعل أبا الأشبال ضرغام بن عامر مقدمهم ، فترقى حتى صار صاحب الباب ، وطمع فى شاور بن مجير السعدى الذى ولى الوزارة بعد انهزام رزيك بن الصالح طلائع ، فجمع ضرغام حشوده وتخوف منه شاور وانقسم العسكر على هذا النحو إلى فرقتين ، فرقة تناصر ضرغاماً ، وفرقة تعضد شاور . ولم تكد تمضى تسعة شهور على وزارة شاور حتى ثار عليه ضرغام فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ ، وهزمه وأخرجه من القاهرة بعد أن قتل ابنه الأكبر طى . واستقر ضرغام فى وزارة العاضد بعد خروج شاور من القاهرة ، فى حين مضى شاور إلى الشام ، واتصل بنور الدين محمود ابن زنكى صاحب دمشق وحلب ، واستنصره على ضرغام. أما ضرغام فقد انقلب على فرقته البرقية ، وقتل زعماءها بالسيف، ومنهم الأمير مرتفع الجلواص الذى كان مقيما بالاسكندرية . وفى هذه الآونة قدمت عساكر الشام بقيادة أسد الدين شيركوه ، فخرج ضرغام بعسكره ، واشتبك مع

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ ب ، ١٥٠ ا

شيركوه فى بلبيس ، فانهزم ضرغام وعاد إلى القاهرة ، وبعث إلى أهل البلاد يستنفرهم على النوريين ، فأتته الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية . فنزل شاور بالمقس ، وحارب أهل القاهرة ، وانتقل إلى الفسطاط ، واستولى عليها ، ثم نزل باللوق ، واشتبكت قواته مع قوات ضرغام فى عدة معارك انتهت بقتل ضرغام فى آخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ ، واستولى شاور بذلك على الوزارة (١) .

ولما طالب شيركوه شاور بالوفاء بما التزم به ، نظير ما قدمه إليه نور الدين من معونة ، نكث بوعده ، وأمره بالخروج من مصر ، فأبى شيركوه ، فبعث شاور إلى الفرنج يستنجد بهم على النوريين ، وقدم ملكهم مرى من عسقلان بجموعه ، وحاصرت قوات الفرنج وقوات شاور شيركوه فى بلبيس مدة ثلاثة أشهر ، وانتهى الأمر بموافقة شيركوه على الصلح على أن يعود إلى الشام . غير أن نور الدين لم يلبث أن جهز حملة جديدة بقيادة شيركوه وصلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب فى ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ ، فبعث شاور يستنجد بحلفائه الفرنج ، فمضى شيركوه إلى الصعيد ، إلى أن وصل إلى بلدة البابين (بالمنيا) حيث أدركه الفرنج والمصريون فى ٢٥ من جمادى الآخرة ، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة الفرنج والمصريين فى ٢٥ من جمادى الأولى (٢) .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ٤١٩ — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ٣٤٧ وما يليها .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٥٠ — ١٥١ — أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٣٦٤

وذكر يحيى بن أبي طى الحلبي أن أسد الدين كان قد كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور بسبب إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام ، فاستجابوا له ، وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال ، وكان قد لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً ، فظهر فى هذه الفتنة (١) . فكتب ابن مصال إلى شيركوه كتاباً حمله إليه الشريف الادريسى نزيل حلب ، ذكر له فيه أن السلاح فى طريقه إليه ، وكان أسد الدين شيركوه معسكراً وقتئذ بالجيزة ، فوصلت إليه خزانة السلاح والآلات بعد يومين مع ابن أخت الأمير ابن عوف ، واتجه أسد الدين بعد ذلك إلى قرية دلجة ، فنزل عليها بينما نزل شاور على الأشمونين ، وتم الاشتباك بين الفريقين ، وانتهى بهزيمة عسكر مصر والافرنج (٢) .

وعلى أثر هذا الانتصار سار أسد الدين شيركوه إلى الاسكندرية الموالية له ليتخذها قاعدة له فى مصر ، وجبى القرى التي صادفها فى طريقه إليها إلى أن وصل إلى ثغر الإسكندرية ، فخرج إليه أهلها وفيهم الأمير نجم الدين محمد بن مصال والبهسا ، والأشرف بن الحباب قاضيها ، والقاضي الرشيد بن الزبير ناظرها ومتولى ديوانها ، معبرين عن فرحتهم بقدومه ، وحمل القاضى الرشيد إلى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح (٣) ، وسلموا إلى شيركوه مدينتهم « لميلهم إلى مذهب السنة ، وكراهتهم لرأى المصريين » (٤) . ونزل أسد الدين شيركوه قصر الإسكندرية ، الذى اتخذه محبساً للفرنج ممن أسرهم

---

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٢٦

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٢٧

(٣) نفس المصدر

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥١

فى واقعة الأشمونين أو البابين . ثم خاف شيركوه أن يقصده شاور والفرنج فيحاصروه بالإسكندرية ، فآثر المضى إلى الصعيد لامتلاكه ، فاستناب ابن أخيه صلاح الدين يوسف على الإسكندرية ، وترك له حامية تتألف من ألف فارس ، بما فيهم الجرحى والمرضى والضعفاء ، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به ، ثم رحل هو إلى الصعيد ، فتغلب عليه ، وجبى أمواله .

ثم عاد الفرنج وعسكر شاور بعد هزيمتهم إلى القاهرة ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ، وتجميع حشودهم ، وأخرجوا لذلك ٢٤ ألف فرس ، ثم زحفوا إلى الاسكندرية وحاصروها مدة أربعة أشهر (١) ، وقيل ثلاثة ، قاتل أهل الاسكندرية خلالها جنباً إلى جنب مع صلاح الدين ورجاله ، وقووه بالمال ؛ وبذلوا فى نصرته أموالهم وأنفسهم حتى قتل منهم جماعة كبيرة . وحاول شاور أن يغريهم بكافة وسائل الإغراء لخذل صلاح الدين ، فمناهم بالوعود الخلابة ، وقطع على نفسه عهداً بأن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك ، ولم يزدهم ما عرضه عليهم إلا استبسالا وإلحاحا فى القتال ، وصبروا على الحصار وقلة الأقوات بالمدينة .

ولما علم أسد الدين شيركوه باشتداد الأمر على الإسكندرية حشد جموعاً كثيرة من العربان ، ورحل من قوص ، وسار نحو الإسكندرية لفك الحصار عنها ، وما إن علم شاور بذلك حتى عاد إلى القاهرة وأسرع بمراسلة شيركوه طالباً الصلح ، وبذل له خمسين ألف دينار ، وقيل ثلاثين ألفاً على أن يرجع إلى الشام ، فأجابه إلى ذلك بشرط ألا يقيم الفرنج فى البلاد . وتم الصلح

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، مخطوطة ، حوادث سنة ٥٦٢

على هذا الأساس ، وفتحت المدينة ، وتسلمها عسكر المصريين فى منتصف شوال (١) . وطلب صلاح الدين من مرى ملك الفرنج أن يبعث إليه مراكب لنقل الجرحى من المسلمين ، فأنفذ له عدة مراكب أقلعت بهم إلى عكا ، ومنها ساروا إلى دمشق . ولم يخرج صلاح الدين من الإسكندرية إلا بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بألا يعرض لهم بسوء ، ودخل شاور الإسكندرية فى ١٧ شوال ، فاستتر ابن مصال منه ، ثم فر إلى الشام (٢) ، بينما قبض شاور على ابن الحباب وعاقبه حتى افتداه أهله بمال جزيل . أما ابن الزبير فقد فر إلى رشيد ، فى حين امتنع الفقيه أبو طاهر بن عوف وجماعة كثيرة بمنار الإسكندرية ، فحاصرهم شاور ، فخاطبه ابن عوف قائلا : « اعذرنا يا أمير الجيوش وسامحنا بما فعلناه . فعفا عنهم ، وولى القاضى الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا ناظراً على الأموال » (٣) .

وكان للموقف النبيل الرائع الذى وقفه أهل الإسكندرية تجاه صلاح الدين من تعضيده ومناصرته ، أعمق الأثر فى نفسه ، فلم ينس لهم ما بذلوه من أجله من تضحيات يدل على ذلك تعدد زياراته إلى الثغر السكندرى وعنايته به ، واهتمامه بتعميره ، وتردده المتواصل أثناء وجوده بالإسكندرية على شيخها أبى الطاهر بن عوف على النحو الذى سنفصله فى الفصل التالى .

---

(١) ابن واصل ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) ذكر أبو شامة أنه قبض على ابن مصال وجماعة ممن أعانوا صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتتبع أهل الاسكندرية (الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٢٨) .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٦

(٢)

أهمية الإسكندرية كقاعدة بحرية للفاطميين

ظلت الإسكندرية دار صناعة بحرية تصنع فيها الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات فى العصر الفاطمى (١) ، وقاعدة بحرية هامة يخرج منها الأسطول السكندرى للغزو ، ومركزاً رئيسياً للحط والإقلاع ، ترسو فيه سفن المغرب التجارية والمدنية التى تحمل طلاب العلم والحجاج المغاربة والأندلسيين الوافدين إلى المشرق طلباً للعلم أو لأداء فريضة الحج (٢) .

فمن حيث البحرية الحربيـة نلاحظ أن الفاطميين اهتموا اهتماماً خاصاً بالأسطول بحكم اضطرارهم إلى غزو الأراضى البيزنطية ومقاتلة سفن الروم فى البحر ، بالإضافة إلى رغبتهم فى تيسير الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام التى تعرضت منذ طليعة القرن السادس الهجرى لغزو الصليبيين ، فخصصوا للأسطول ديواناً يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر ، وكان مقره صناعة الإنشاء بمصر (٣) ، وأنشأوا إلى جانب دور صناعة الإسكندرية ودمياط وتنيس داراً للصناعة بمصر (المقس) لإنشاء الشوانى ، وأضافوا

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧

(٢) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربى من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، والأستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٥٢ ، حاشية ١

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧

إليها الموضع الذى كانت تشغله دار الزبيب، كما أنشأوا على الساحل القديم بالفسطاط منظرة تعرف بمنظرة الصناعة .

وكانت سفن أسطول الإسكندرية تقلع من الاسكندرية لغزو بلاد الدولة البيزنطية وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى، أو تجر وراءها عدداً من قطع أساطيل العدو ، وقد لعب أسطول الإسكندرية دوراً هاماً فى الغزو البحرى وفى حماية مدينة الإسكندرية من غارات الأعداء : فى سنة ٣٨٣ هـ يذكر المقريزى أن سفن الأسطول السكندرى اشتبكت فى البحر مع الروم بنواحى الإسكندرية فى موقعة انتهت بأسر سبعين من الروم (١) ، ثم وردت مراكب الروم إلى الإسكندرية بعد ذلك ، فخرج إليها العسكر فى البر ، وتصدت لها سفن أسطول الأسكندرية فى البحر ، فولت هذه السفن الرومية من غير حرب إلى الشام ، فطاردها الأسطول السكندرى بعد أن أضيف إليه ١٨ مركباً مشحونة بالسلاح والمقاتلة (٢) ، وعاد أسطول الإسكندرية إلى قاعدته فى جمادى الأولى سنة ٣٨٤ هـ .

ويصف المقريزى وصول غزاة البحر إلى القاهرة قافلين من غزوتهم تلك بقوله : « وفى جمادى الأولى ، وصل غزاة البحر إلى القاهرة بمائة أسير ، فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة، وخرج العزيز وابنه منصور وشقا الشوارع ثم ركب فى عشارى ومعه العشاريات سائرة إلى المقس، ثم ركب من المقس إلى القصر ، فكان يوماً عظيماً لم ير بمصر مثله ، وقال فيه الشعراء » (٣) .

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق الدكتور الشيال ، ص ٢٧٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٢

وفى سنة ٥١٧ هـ بلغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة ، والى الإسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول مراكب الروم والبنادقة فى أكثر من عشرين مركباً ، فبادر إليها بسفن أسطول الإسكندرية ، فلما شاهدها الأعداء أقلعوا ، فأخذ منهم عدة قطع (١) . وفى سنة ٥٣٢ هـ كان غزو المراكب المصرية التى وصلت من الإسكندرية ، « منها المركب الغيطانى والمركب العجزى ، وكانت عظيمة الجرم جداً ، وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير » (٢) . وفى ١٦ من ربيع الآخر سنة ٥٥٣هـ قدم أسطول الإسكندرية من غزوه للسواحل التابعة للبيزنطيين ، وقد امتلأ أيدى الغزاة بالغنائم (٣) .

أما فيما يختص بالبحرية التجارية والمدنية ، فقد شغلت الإسكندرية مكاناً بارزاً بين المدن التجارية الهامة فى حوض البحر المتوسط فى العصر الفاطمى ، فكانت أهم مركز فى مصر والشام لتجارة البهار بالنسبة لدول أوربا (٤) . وكانت السلع تصل إلى مينائها ، ثم تحمل على ظهور الإبل وتخرج من باب البهار ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط ، والعكس بعكس ذلك ، ولعل هذا كان سبباً فى اهتمام الفاطميين بتطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية ، فمن المعروف أن خليج الإسكندرية انقطع جريان مياهه عنها قبل سنة ٤٢١ هـ ، إذ ردم جميعه ، وصار شرب أهل الإسكندرية من

(١) اتعاظ الحنفا ، . ١٢٦ ب

(٢) ابن القطان ، جزء من نظم الجمان ، ص ٢٣٣

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ ب

(٤) حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ ص ٥١

الآبار (١) ، ونفهم من هذا أن خليج الإسكندرية طهر فى تلك السنة ، ولكنه لم يلبث أن تجمعت فيه الرواسب الطينية إلى حد أن مياهه توقفت من جديد عن الجريان ، فأطلق الحاكم بأمر الله أبا منصور بن العزيز لحفره فى سنة ٤٠٤ هـ مبلغاً قدره ٥ آلاف دينار أنفقها فى حفر الخليج كله (٢) ، ثم طمر هذا الخليج مرة ثانية بالرواسب الطينية فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، فقد ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن ماء الشرب فى الإسكندرية من المطر (٣) .

وكانت علاقة مصر قد توثقت فى العصر العباسى مع البندقية التى نهضت خلال القرن الثالث الهجرى ، فنشطت أساطيلها فى نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام . واستطاع البنادقة فيما يقرب من سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) أن ينقلوا رفات القديس مرقص من الإسكندرية إلى البندقية ، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية (٤) .

وفى العصر الفاطمى تألقت مدينة الإسكندرية ، واستعادت ازدهارها القديم ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر ، وثغرها التجارى الأول

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٠١ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠

(٣) ناصرخسرو ، سفرنامة ، ص ٤٤

(٤) لبيت ، المواصلات فى مصر ، مقال فى كتاب « فى مصر الاسلامية » ، ص ٣٩

وقد أتيح لمصر منذ ما يقرب من شهرين أن تسترد هذه الرفات المقدسة التى استقبلت بالقاهرة فى احتفــــال مهيب .

الذى تفد إليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب ، ولذلك نافست بغداد فى الزعامة التجارية (١) ، كما أنها أصبحت محطاً رئيسياً للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر . وكان بعد بلاد المغرب وانقطاعها عن المشرق الإسلامى مركز الحضارة الإسلامية ومهدها ، واحتكاكها بالعالم الأوربى أثر كبير فى تطلع أهل المغرب والأندلس للرحلة إلى الشام ومصر والعراق ، لتلقى العلم على شيوخ العصر فى المراكز الثقافية المختلفة بهذه الأقطار ، كما دفع تطرف بلاد المغرب والأندلس عن دار الخلافة العلماء والأدباء المشارقة الذين ضاق المشرق بمواهبهم إلى الرحلة إلى تلك البلاد واستيطانها ، إما التماسا للعمل فى مختلف مراكزه ، ورغبة فى تحصيله على شيوخه فى تلك المراكز العلمية (٢) ، أو سعياً

---

(١) حسن ابراهيم حسن ، ص ٦١٠ . ويذكر هايد أن الاسكندرية كانت ترتبط تجارياً مع بلاد أوربا مثل مدينة أمالفى التى كان لها فنادق كثيرة فى الاسكندرية وجنوة التى كانت لها جالية من أكبر الجاليات الأجنبية بالاسكندرية ، وكذلك مدينة البندقية التى كانت سفنها تزود الاسكندرية بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن ومعدن الحديد .

Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, t. I., p. 105, Leipzig, 1923.

(٢) من أسند الرحلات العلمية : رحلة المهدى بن تومرت إلى المشرق ، فقد ذكروا أنه جاز البحر إلى الأندلس طلباً للعلم ، وركب مركباً من المرية إلى المشرق، وغاب فى رحلته فى طلب العلم مدة ٥ ١ عاماً ، وعند عودته نزل بالاسكندرية وتردد على مجلس الفقيه الطرطوشى ، ثم ركب البحر فى سفينة من الاسكندرية إلى المهدية (راجع ابن القطان ، ص ٣٩) ، ومنها رحلة الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة الذى رحل إلى المشرق فى سنة ٤٧٦ ، حج فيها وأخذ العلم فى بغداد والبصرة ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ، واستقر به المطاف فى ثغر الاسكندرية .

للتجارة(١)،أو رغبة فى أداء فريضة الحج (٢) . ولقد عقد المقرى فى كتابه «نفح الطيب بابين كبيرين أفردهما لذكر الوافدين على الأندلس من المشرق وإلى المشرق من الأندلس(٣). وهكذا التحم المشرق بالمغرب علمياً واقتصاديا وفنياً عن طريق الرحلات البحرية .

وكان لتعدد الرحلات البحرية التجارية ، والمدنية ، أثر كبير فى حذق البحريين المسلمين لطرق الملاحة فى البحر المتوسط ، فقد كانت السفن تتنقل بصفة مستمرة بين ثغور المغرب وبرقة مثل قصرطلميثة وطرابلس وسوسة والمهدية وتونس وبين الإسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس الشام وغيرها ، أو بين المرية ومالقة وإشبيلية وبين الإسكندرية وغيرها من مرافىء مصر والشام، تحمل إلى المغرب سلع المشرق ، كالتوابل (٤) والسكر والمسك ومواد الصباغة والدباغة والصمغ والكهرمان والحنطة والمواد الصيدلية والعطرية(٥)والثياب المنسوجة بالإسكندرية بوجه خاص،والتى يذكر المقريزى أنه «لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض» (٦) والشرب السكندرية والمفرج

(١) من أمثال هذه الرحلات التجارية رحلة التاجر الفارسى الفسوى أبى يزيد ثيمة بن موسى بن الفرات إلى الأندلس الذى ركب سفينة من مصر إلى الأندلس ، وكان يتجر فى الوشى ، وعاد من الأندلس إلى مصر فمات بها فى سنة ٢٣٧ هـ(الحميدى ص ٣٤٠) .

(٢) من أمثال الرحالة الذين أدوا فريضة الحج ابن جبير والعبذرى وأبو بكر بن العربى والوزير أبو عبد الله محمد بن عبد ربه وغيرهم .

(٣) سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٢١٢

(٤) مثل البهار والفلفل والزنجبيل والقرنفل

(٥) الطاهر أحمد المكى ، معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، مجلة المجلة ، العدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ ص ٨٨

(٦) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٦

الاسكندرانى الخاص بالطـــرح (١) والشاش السكندرى والسقلاطون ، ومثل الوشى الذى كان يعمل بتنيس ودمياط والإسكندرية ، والبز الذى يصنع فى دبيق والستور فى البهنسا (٢) . كذلك كانت تحمل إلى المغرب المنتجات الخزفية والبردى الذى اشتهرت مصر بصناعته . وكانت هذه السفن تحمل إلى المشرق منتجات المغرب والأندلس وهى عديدة وأهمها الزيتون الذى كان يزرع فى زويلة بالمهدية ويتجهز بزيته إلى سائر بلايد المشرق (٣)، وكذلك زيت برقة وزيت سفاقس(٤)، وزيت قابس (٥)، والفستق الذى كان يحمل من قفصه وشط الجريد إلى مصر (٦) والثياب والعمائم السوسية(٧) والثياب الصوفية والعمائم اوالمآزر المصنوعة فى أغمات وريكه(٨) والثياب الحريرية من قابس (٩) ، وجلود النمور والبقر التى كانت تصل إلى برقة من أوجلة وتتجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية (١٠)، وجلود

(١) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٥٩

(٢) السيوطى، ج ٢ ص ١٩٣

(٣) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩

(٤) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٠ — ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٢

(٥) الادريسى ، ص ١٠٦

(٦) البكرى ، ص ٧٠

(٧) الادريسى ، ص ١٢٥ — التجانى ، الرحلة ، ص ٢٠٦

(٨) الادريسى ، ص ٦٦

(٩) البكرى ، ص ٩٧ — الادريسى ، ص ١٠٦

(١٠) الادريسى ، ص ١٣١

اللمط وقرونه(١) ، والورق من أودغست(٢)، والصوف والعسل والتبر من مدينة تكرور وغانة (٣) ، ومن أودغست(٤) ، ويشترى أكثره أهل ورجلان ، والشب الكوارى من انكلاس وأبر وتلملة من بلاد كوار وكوكو (٥) ، والغضار والخزف من تونس (٦) ، والورق من فاس (٧). ومن برقة كانت السفن تحمل القطران والجلود للدباغ بمصر . ومن قصر طلميثة بليبيا يصدر الكتان والقطن والعسل والقطران والسمن إلى الاسكندرية(٨)، ومن الأندلس يصدر الزيت من إشبيلية إلى الإسكندرية (٩) والمشرق (١٠) ، ومن قرطبة الزئبق (١١)، ومن المرية (١٢) ومالقه(١٣) الوشي الذى يصدر إلى المشرق (١٤) ، ومن مرسية البسط التنتلية (١٥) ومن مرسية والمرية

(١) البكرى ، ص ١٧١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٨

(٣) الادريسى ، ص ٣ ، ٧

(٤) البكرى ، ص ١٥٩

(٥) الادريسى ، ص ٣٨ — ٤٠

(٦) ابن حوقل ، ص ٧٥

(٧) الجزناءى ، زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، ص ٣٣

(٨) الادريسى ، ص ١٣٦

(٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٩٩

(١٠) العذرى ، ترصيع الأخبار ص ٩٥ — الحميرى ، ص ٩.

(١١) الادريسى ، ص ٢١٣

(١٢) المقرى ، ج ٤ ص ٢٠٧

(١٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٠٦

(١٤) الضبى ، ص ٤٦٨

(١٥) المقرى ، ج ٤ ص ٢٠٧

ومالقة الزجاج والفخار المزجج والزليجى (١) ، ومن شاطبــة الورق (٢) ومن مالقة التين المالقى الذى كان يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند (٣) .

وكانت معظم السفن التجارية القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل الإفريقى ، وترسو بثغور تونس وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية ، ومنها تخرج إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس ، وسواحل الشام(٤). وذكر ناصر خسرو أن بحر الإسكندرية يمتد حتى القيروان (٥) ، ولعل ذلك يوضح لنا السبب فى بداية تأصل التقاليد المغربية فى جميع مناحى الحياة السكندرية أدبية ومادية .

(١) المقرى ، ج ١ ص ١٤٥ ، ١٨٧
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٦
(٣) الادريسى ، ص ٢٠٠
(٤) البكرى ، ص ٨٦
(٥) ناصرخسرو ، سفرنامة ، ص ٤٤

(٣)

منشآت الفاطميين فى الاسكندرية

شهدت الاسكندرية فى العصر الفاطمى ازدهاراً عظيما فى الحياة الفنية والاقتصادية والعلمية ، ورخاء لم تشهد له نظيراً من قبل ، وتدفقت عليها الثروات التى يعبر عنها ما كانت تحتويه خزائن قصور الفاطميين من الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسروج والخيام والأدم ما نوه به المقريزى فى خططه (١) . وقد أورد المقريزى نقلا عن ابن سعيد مثلا يدل على عظم الرخاء فى الاسكندرية فى العصر الفاطمى ، فروى أن الآمر بأحكام الله قلد المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة ، أخا الوزير المأمون بن البطائحى ولاية ثغر الاسكندرية فى غرة سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) ، وخلع عليه « بدلة مذهبة خاص من لباس الخليفة ، وطوق ذهب وسيف ذهب بغير منطقة ، وشرف بتقبيل يد الخليفة فى مجلسه ، وسلم إليه تقليد لفافة مذهبة بولاية الاسكندرية والأعمال البحرية ، وشدت له الأعلام والقصب الفضة والعماريات ، وحمل بين يديه الأكياس برسم التفرقة ، وحجبه الأمراء والأستاذون »(٢) .

فلما وصل حيدرة إلى الثغـــر مرض ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضرة القاضى مكين الدولة بن حديد ، « فأمر (ابن حديد) فى الحال بعض غلمانه بالمضى إلى داره ليحضر الدهن المذكور ، فلم يكن أكثر من مسافة

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٤ — ٢٧٥

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ ب

الطريق حتى أحضر حقاً مختوماً، فلك عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقـوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته ، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر إنعامه ، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه ، فكان جواب المؤتمن : قد قبلته منك لا لحاجة إليه ولا لنظر فى قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها . وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار » (١) . ويعلق المقريزى على ذلك بقوله : « فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات . وهذا إنما هو حال قاضى الاسكندرية ، ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ، وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبهتها إلا يسير حقير »(٢) .

وينعكس الانتعاش الاقتصادى الذى أصابته الاسكندرية فى العصر الفاطمى فيما أنشىء فى هذا العصر بها من منشآت متعددة الأغراض : حربية ومدنية ودينية ، وفيما يلى استعراض موجز لأهم هذه المنشآت :

(١) المنشآت الحربيـــة :

رأينا فيما سبق كيف تخرب سور الاسكندرية وفتحت فيه ثغرات واسعة

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٧ ا — الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٢ — المقرى ، ج ٣ ص ٦١

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣

بعد أن تعرض لقذائف مجانيق عمرو بن العاص ، ولا نستبعد أن تكون هذه الثغرات قد ازدادت بمضى الزمن اتساعاً إلى أن رممت ترميما مؤقتاً فى أواخر القرن الثانى وقبل نزول الأندلسيين ببر الاسكندرية . غير أن ما تعرضت له الاسكندرية إبان فتنة الصوفية والأندلسيين واللخميين من حصار الجروى لها ولأسوارها عدة مرات يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه الأسوار تخربت من جديد ، بدليل أنها تعرضت لقذائف المنجنيقات ، وقد أصيب الجروى بشظية حجر أثناء حصاره لها مدة سبعة أشهر ، وتوفى فى صفر سنة ٢٠٥هـ. ثم حوّطت الاسكندرية بسور جديد فى العصر الطولونى ، ونرجح أن هذا السور الجديد تم إنشاؤه فى إمارة أحمد بن طولون . وقد خرجت من السور الجديد مناطق كانت مهجورة ، وانحسر لذلك عمران الاسكندرية وانكمشت رقعتها بصورة واضحة . أما أحجار السور القديم فيغلب على الظن أنها استخدمت فى بناء السور الجديد أو فى بنيان العمائر الدينية والمدنية وهو أمر كان شائعاً فى تاريخ العمارة الاسلامية .

ولا شك أن بنيان سور الاسكندرية تأثر تأثيراً شديداً بالحركات الثورية والفتن التى نشبت فى الاسكندرية إبان العصر الفاطمى : فمن حركة ناصر الدولة بن حمدان، وقيام بدر الجمالى باستنزال الثوار بها ، إلى حركة الأوحد ابن بدر الجمالى، إلى نوبة الاسكندرية أو الحركة النزارية بها. وفى هذه الحركة الأخيرة استخدم الأفضل لاخمادها المجانيق، وألح فى القتال، وضرب الأسوار بالأحجار واللهب على النحو الذى ذكرناه حتى استسلم له نزار وأفتكين . ثم حظيت مدينة الاسكندرية بوال من أنشط ولاتها وأكثرهم ولعاً بالبنيان ، وكلفا بالاصلاح ، ذلك هو المؤتمن ، سلطان الملوك ، نظام الدين ، أبو تراب حيدرة الذى لم يتردد فى إصلاح هذه الأسوار وتجديد ما تهدم منها

بالبنيان ، ويذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، أنه فى سنة ٥١٧ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها المؤتمن ولاية الاسكندرية والأعمال البحرية « جددت عمارة سور الاسكندرية » (١).

وإلى أبى الأشبال ضرغام، أحد أمراء الاسكندرية، ينسب بناء برج عرف ببرج ضرغام عند باب البحر فى سنة ٥٥٧ (٢) ، والظاهر أن هذا البرج كان المقصود به تمكين الدفاع فى موضع من أكثر المواضع تعرضاً لطروق العدو ونزوله ، ولا نستبعد أن يكون هذا البرج قد أدى خدمة كبيرة للدفاع السكندرى إبان حصار الفرنج وشاور لصلاح الدين فى سنة ٥٦٣ هـ ، وفى حملة وليم الثانى صاحب صقلية على الاسكندرية فى سنة ٥٦٩(٣). وقد أحرق هذا البرج فى غزوة القبارصة سنة ٧٦٧ (٤) .

ويبدو أنه استعيض عن هذا البرج فى عصر المماليك الشراكسة ببرج قايتباى الذى أقيم على أساس منار الاسكندرية .

(ب) المنشآت المدنيــة :

عمرت الاسكندرية فى العصر الفاطمى بالمبانى الفخمة، والقصور السامقة، والرياض النضرة ، والدور الجليلة ، ولا عجب فى ذلك لأنه عصر شاع فيه نوع من الترف ، واستمتع القوم من أعيان المدينة وتجارها بحياة رغدة مترفة ، فأقبلوا على التأنق،وولعوا بالانشاء ، ويسجل شعراء الاسكندرية فى هذه

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ ب

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤

(٤) النويرى السكندرى ، (مخطوطة) ص ٨٤ ا

الفترة بأشعارهم تصويراً رائعاً لبعض هذه القصور والمعاهد : فهذا أبو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمي السكندى المعروف بابن قلاقس، أحد شعراء الاسكندرية العظام (ت ٥٦٧هـ) فى العصر الفاطمى يصف قصر بنى خليف، وهو قصر كان مقاماً فى منطقة الرمل بظاهر الاسكندرية من الجهة الشرقية ، وكان قصراً راسخ البنيان ، عظيم الارتفاع ، قد « رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما .... وحبته الرياض بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها،والرمل بفنائه قد نثر تبره فى زبرجد كرومه » (١)، فيقول :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت — فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه — وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية — وأقام فى أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه — فافتر عن نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس — تزهى بلؤلؤ طلها المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت — بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما — أبدى غصون سوالف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه — درع تشن بمعطفي مقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا — فى الأفق بين كواكب وبدور
وكذاك دهر بنى خليف لم يزل — يثنى المعاطف فى حبير حبور(٢)

---

(١) على بن ظافر الأزدى ، بدائع البدائه القاهرة ، ١٢٧٨ هـ، ص ١٧٥

(٢) ابن ظافر، المصدر السابق — المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٤٠ — أحمد النجار، الانتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية فى العصرين الفاطمىوالأيوبى ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٦٥ — عبد العليم القبانى ، شعراء الاسكندرية فى العصور الاسلامية ، مجموعة كتب « مذاهب وشخصيات » عدد ١٠١ ، ص ٥٣

وهذا ابن مكنسة أبو الطاهر اسماعيل أحد شعراء الاسكندرية فى العصر الفاطمى (ت ٥١٠ هـ) يصف متنزها من متنزهات الاسكندرية ذات غدير ، فيقـول :

ذات غـدير خلتـــه ... صـرح زجـاج مردا
ثـم انثنى منعطفـــاً ... مـرتعشـــاً مـردداً
خاف من الريح وقـد ... همـت بـه فارتعــدا
كأنما يـد الصبـــا ... مـدت عليـه زردا

وهذا ظافر الحداد (ت ٥٢٩) يصف روضة على خليج الاسكندرية فيقول :

والماء يبدو فى الخليج كأنـــه ... أيم لسرعة سـره محفـوز
والروض فى حلل النبات كأنما ... فـرشت عليه ديابج وخـزوز
والزهـــر يوهم ناظريه بأنه ... ظهرت بـه فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق وساقـط طلـه ... در ونور بهـاره إبـريــز
وكأنما القمرى ينشد مصرعــا ... من كل بيت والحمام يجيز(١)

ومن أشهر قصور الاسكندرية فى زمن الفاطميين قصر قاضيها مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد (٢) ، وقد

---

(١) عبد العليم القبانى ، المرجع السابق ص ٩٠

(٢) ورد ذكره من قبل ، ولعله أندلسى الأصل من أسرة ابن حديدى الطليطلية التى كان أفرادها يتولون الوزارة أيام الطوائف لبنى ذى النون ، وكان منهم القضاة ، وقد قام أحد أفراد هذه الأسرة واسمه أحمد بن حديدى بالشاء مسجد الباب المردوم بطليطلة فى سنة ٣٩٠ هـ (ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ١١٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٧ — السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور فى الأندلس ، ص ٥١ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى =

زودنا المقريزى بوصفه لجرن هذا القصر فقال : « وكان بالاسكندرية القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ، قد استولى على أمورها ، وصار قاضيها وناظرها ، ولم يبق لأحد معه فيها كلام ، وضمن أموالها بحملة يحملها ، وكان ذا مروءة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ، وممن مدحه ظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت وجماعة . وكان الأفضل ابن أمير الجيوش إذا أراد الاعتناء بأحد ، كتب معه كتاباً إلى ابن حديد هذا فيغنيه بكثرة عطائه . وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن(١) كبير من رخام قطعة واحدة ، ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يجد فى نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعيم ، ويباهى به أهل عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة (٢) ، فطلبته من الخليفة ، فأنفذ فى الحال باحضاره ، فلم يسع ابن حديد إلا أن قلعه من مكانه وبعث به ، وفى نفسه حزازة من أخذه منه ، وخدم البدوية وخدم جميع من يلوذ بها حتى

= الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٣٠٤) . وقد أمر القادر بالله يحيى بن ذى النون ملك طليطلة بقتل ابن حديدى المذكور ، وقد يكون القاضى احمد بن حديد من أعقاب هذا الوزير الشهيد ، نزح إلى الاسكندرية بعد سقوط طليطلة فى أيدى القشتاليين سنة ٤٧٨ ﻫ . ولا عجب فى ذلك إذ أن كثيراً من أهل الأندلس وفدوا إلى المشرق وبعضهم نزل بالاسكندرية .

(١) الجرن حوض من الرخام يتجمع فيه ماء النافورة .

(٢) أغرم الآمر بأحكام الله ببدوية فأحبها وتزوجها ، وابتنى لها قصرا فى روضة مصر سماه الهودج ، يقع بجوار البستان المختار ، وكان يتردد إليه كثيرا ، وقتل وهو متوجه إليه (راجع المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٨١ ، ج ٣ ص ٩١ — المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٥٨) .

قالت : هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا . فلما بلغه ذلك عنها قال : مالى حاجة بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها غير رد الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمهم إلى مكانه . فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه ، وأمرت برد الجرن . فقيل له : قد وصلت إلى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطعة حجر ؟ فقال : أنا أعرف ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه ، وقد بلغها الله أملها »(١) .

وإلى جانب هذا النوع من المنشآت نضيف مؤسسة علمية لها أهميتها فى هذا العصر وهى المدرسة ، فلقد شهدت الاسكندرية فى العصر الفاطمى ظهور مدرستين سنيتين وذلك قبل أن ينتشر نظام المدارس السنية فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية ، وأقدم هاتين المدرستين المدرسة العوفية (٢) التى أسسها الوزير رضوان بن ولخشى فى ثغر الاسكندرية فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨) فى خلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقيه أبو الطاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر (٣) ، وكانت تقع بشارع

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٩١ ، ٩٢
المقرى ، ج ٣ ص ٦٠

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٩ ا — وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالحافظية (القلقشندى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ — ابن حجر ، ج ١ ص ٣١٦) .

(٣) هو أبو الطاهر اسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندرانى، يرتفع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى ، تفقه على أبى بكر الطرطوشى ، وسمع منه ومن أبى عبد الله الرازى ، وبرع فى المذهب المالكى ، وكان صلاح الدين يتردد عليه ويسمع منه الموطأ ، وتوفى فى شعبان سنة ٥٨١ عن ٩٦ سنة (الذهبى ،=

المحجة (١) . أما المدرسة الثانية فهى المدرسة السلفية (٢) التى أسسها والى الاسكندرية على بن السلار فى سنة ٥٤٤هـ أثناء ولايته على الاسكندرية وقدم للتدريس فيها الحافظ أبا الطاهر أحمد بن محمد السلفى (٣) .

= العبر، ج ٤ ص ٢٤٢ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٤ — حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٣ — جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية ، ١١٢ — ١٢٥) .

(١) القلقشندى ، ج ١٠ ص ٤٥٨

(٢) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية فى التاريخ ، طبعة مصر ١٩٣٢ ، ج ١٢ ، ص ٣٠٧ — السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٥ — المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ ا . وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالمدرسة العادلية ، لنسبة لمؤسسها العادل بن السلار .

(٣) الحافظ السلفى هو أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهانى الجروانى ، سمع من أبى عبد الله الثقفى وأحمد بن عبد الغفار بن اشته ، ومكى السلار بأصفهان ، وحدث فى أصفهان فى سنة ٤٩٢ ، وكان قد بلغ من العمر سبع عشرة سنة ، ثم رحل إلى بغداد وحج ، وسمع بالكوفة والحرمين والبصرة وهمذان وأذربيجان والرى والدينور وقزوين وزنجان ، والشام ومصر ، و « تفقه ، فأتقن مذهب الشافعى ، و برع فى الأدب ، وجود القرآن بالروايات ، واستوطن الاسكندرية بضعا وستين سنة مكباً على الاشتغال والمطالعة والنسخ وتحصيل الكتب » (الذهبى ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٢٨) قدم إلى الاسكندرية فى سنة ١١ هـ وعاصر بها من تلامذة الطرطوشى أبا الطاهر بن عوف وسند بن عنان ، وكان السلفى أوحد زمانه فى علم الحديث ، وأعلمهم بقوانين الرواية ، وتوفى فى ٥ ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ ودفن بمقبرة وعلة (السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٤٥ — ابن كثير ، ج ١٢ ص ٣٠٧ — السيوطى ، ج ١ ص ١٦٥) ودفن داخل الاسكندرية بمقبرة وعلة قريباً من داره التى كان يسكنها ، وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، دفن فيها أيضاً جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره

(ج) المنشآت الدينيـــة :

وأعنى بها المساجد والأربطة والزوايا والأضرحة ، وللأسف الشديد لم تزودنا المصادر العربية إلا بأسماء ثلاثة مساجد ، أحدها مسجد جامع هو جامع العطارين ، والآخران مسجدان صغيران ، وبضريح واحد للطرطوشى .

١ — جامع العطارين :

تحدثنا فيما سبق عن جامع العطارين عندما تعرضنا لذكر ثورة الأوحد بن أمير الجيوش بدر الجمالى بالاسكندرية فى سنة ٤٧٧ ، وأشرنا إلى أن أمير الجيوش فرض على أهل الاسكندرية مبلغاً قدرة مائة وعشرون ألف دينار ، جدد بها بناء جامع العطارين المذكور ، وسجل ذلك فى اللوحة الرخامية المثبتة بأدنى المئذنة ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، مما أمر بانشائه السيد الأجل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغـــر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خراباً ، فرأى بحسن ولائه ودينه ، تجديده زلفا إلى الله تعالى ، وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة » (١)

وقد عرف هذا الجـــامع بجامع العطارين لوقوعه بالقرب من سوق

---

(١) Repértoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t.7, Le Caire, 1936, p 225

حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٦٧

العطارين (١) ، وبالجامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى تولى تجديده وعمارته (٢) . وبانشاء جامع العطارين أصبح للاسكندرية مسجدان جامعان : الجامع الغربى ، وهو الجامع العتيق ، الذى أسسه عمرو ابن العاص وعرف بجامع الألف عمود ، والجامع الشرقى ، الجديد . ويذكر النويرى السكندرى أن بانيه « من الشيعة الذين يقولون فى أذانهم حى على خير العمل ، فدام ذلك فى الأذان بالجامع المذكور إلى أن انقرضت دولة العبيديين من الشيعيين ، وأقبلت دولة السنيين ، فأبطلوا منه ما كانت الشيعة تقوله فى أذانهم ، ثم بطلت الخطبة والجمعة منه واستمرت بالجامع الغربى مدة سنين ، فلم يزل كذلك إلى أن ولى قضاء الاسكندرية فخر الدين أحمد بن مسكين الشافعي عوضاً عن المالكية لأمور يطول شرحها ، وذلك فى دولة السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون ، فأقام به الخطبة والجمعة ، فاستمرت به إلى الآن » (٣) .

وقد تعرض جامع العطارين لبعض الأضرار ، ففى ١١ من ذى القعدة سنة ٧٧٢هـ سقط عمود من أعمدته تكسر إلى قطع ، ولم يحدث بسقوطه أى ضرر ، وكان ناظره إذ ذاك قاضى القضاة كمال الدين ابن قاضى القضاة جمال الدين ابن شمس الدين سبط التنيسى ، فانتزع قاضى القضاة كمال الدين عموداً من الجانب البحرى من الجامع ووضعه مكان العمود المكسور ، وأخذ عموداً من فندق الموز الواقع بشارع المرجانيين ، « المهدم بفعل الفرنج حين الوقعة »

---

(١) النويرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، مخطوطة ص ١٦٣ ب — السيوطى ، ج ٢ ص ١٣١

(٢) النويرى ، المصدر السابق

(٣) نفس المصدر

ووضعه مكان العمود بسرعة، وفى المحرم سنة ٧٧٣ هـ رمم الجامع الشرقى أو الجيوشي وكسى بالبياض (١) . وكان لجامع الجيوشي فى صحنه روضة خضراء ، وفيه يقول النويرى :

حوى روضة خضراء فى وسط صحنه　　فأصبح ذاك الروض ريان مترعا (٢)

ومن المعروف أن غرس الصحن بالرياض كان تقليداً متبعاً فى مساجد المغرب والأندلس منذ أن أسس عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة سنة ١٦٩هـ، وعهد إلى عبد الله بن صعصعة بن سلام، صاحب الصلاة بالمسجد، بأن يغرس صحنه بالأشجار (٣) .

ويبدو أن هذا الجامع لم يلق العناية الكافية فى أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثمانى فتصدعت جدرانه ، وتهاوت سقفه ، ووصل إلينا فى أوائل القرن العشرين خرباً مهدماً ، فأمر عباس حلمى بتجديد عمارته فى سنة ١٩٠١ ولم يتبق للأسف من عمارته الأولى ما يدل عليه سوى البقعة التى أسس عليها واللوحة التذكارية .

٢ — مسجد الطرطوشى :

صاحب هذا الجامع هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الأندلسى نزيل الاسكندرية ، المعروف بابن أبى رندقة (٤) ، وكان الطرطوشى ، أثناء توديعه للوزير المأمون

---

(١) النويرى السكندرى ، الالمام ، ص ١٦٣ ب .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ، ص ١٩ — تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ، ص ٣٨٦

(٤) ولد أبو بكر محمد الطرطوشى فى بلدة طرطوشة بالأندلس فى ٤٥١ هـ وتلقى العلم —

ابن البطائحى، بعد انتهاء زيارته له، الزيارة التى أهداه فيها مصنفة سراج الملوك» سنة ٥١٦، قد أفضى إليه بما عزم عليه من انشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فلقى هذا الاقتراح اهتماماً خاصاً عند الوزير، وكتب إلى ابن حديد قاضى الاسكندرية « بموافقة الفقيه الطرطوشى على موضع يتخيره، وأن يبالغ فى إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال

= فى طرطوشة وسرقسطة، حيث أخذ على أبى الوليد الباجى وصحبه، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجاز له، ثم رحل إلى المشرق فى سنة ٤٧٦ هـ فحج، ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبى بكر الشاشى وأبى أحمد الجرجانى، وسمع بالبصرة من أبى على التسترى، وسكن الشام فترة درس خلالها بدمشق، ثم استقر به المقام فى الاسكندرية حيث تزوج بها خالة أبى الطاهر بن عوف، وألف كتابه سراج الملوك وانتهى من تصنيفه فى ٥١٦، فرحل إلى القاهرة فى شوال ٥١٦ وأهداه إلى الوزير المأمون البطائحى الذى أكرمه بعد أن تعرض الطرطوشى وخادمه لاضطهاد الوزير الأفضل. وكان الطرطوشى عالما زاهدا ورعا متقشفاً، وكانت وفاته فى شعبان سنة ٥٢٠ هـ وفقاً لبعض الروايات، وفى جمادى الأولى ٥٢٠ وفقاً لروايات أخرى، وذكر المقرى أنه زار قبره مراراً قبالة الباب الأخضر بالاسكندرية، ومازال ضريحه موجودا حتى يومنا هذا. (راجع فى ترجمة الطرطوشى: ابن بشكوال، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، مجلد ٢، مدريد ١٨٨٣ ص ٥١٨ الضبى، ص ١٢٥ — ١٢٨، الذهبى، العبر، ج ٤ ص ٤٨ — السيوطى، ج ١ ص ٢١٣ — المقرى، ج ٢ ص ٢٩٣ — وراجع أيضا:

Francisco Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico sobre Los historiadores Y Geografos arabigo - espanoles, Madrid, 1898, p.183.
Maximiliano Alarcon, Lamparade los Principes, Madrid, 1930 (el Prologo)

جمال الدين الشيال، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى، ص ٥٠ — ١٠٠ وكتابه أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر، فى سلسلة أعلام العرب عدد ٧٤ سنة ١٩٦٨

الدولة» (١)

ومضى الطرطوشي إلى الاسكندرية ، فبنى المسجد المذكور على باب البحر من خارج السور فى سنة ٥١٦ هـ (٢) . وقد ضاعت معالم هذا المسجد فى الوقت الحاضر ، وإن كان على مبارك باشا قد أثبت أنه كان متخرباً فى أيامه ، وأنه أصلح فى سنة ١٨٥٣ على يدى السيد ابراهيم مورو ، وأن والدة الخديوى إسماعيل أتمت تجديده (٣) . ولكن الظاهر أن على مبارك كان يقصد ضريح الطرطوشى

٣ — مسجد المؤتمن :

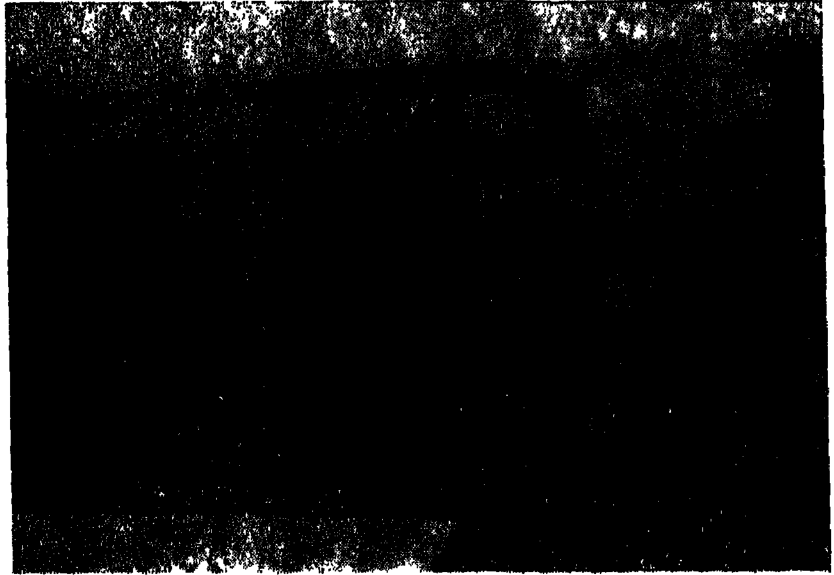
من المعروف أن المؤتمن سلطان الملوك ، نظام الدين أبا تراب حيدرة تولى أعمال الإسكندرية فى غرة سنة ٥١٧ هـ ، ولذلك فان المسجد الذى بناه بثغر الإسكندرية لم يبن قبل هذا التاريخ كما يذكر بعض الباحثين (٤) وإنما

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥ ب .

(٢) ذكر المرحوم الأستاذ الدكتور الشيال أن هذا المسجد أقيم فى خلافة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٠ هـ من مال الديوان السكندرى (الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، بالمجلة التاريخية المصرية ، ص ٢١٧) والواقع أن هذا المسجد بنى فى سنة ٥١٦ ، وفقاً لمخطوطة اتعاظ الحنفا التى استند عليها المرحوم الدكتور الشيال لفسه ، وقد تكرر ذكر هذا التاريخ (٥١٠) خطأً فى كتابه تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى الذي صدر فى سنة ١٩٦٧ ص ٤٣

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ص ٧٠

(٤) ذكر المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال أن المؤتمن أقام هذا المسجد فى سنة ٥١١ هـ أو ما بعدها وهى نفس السنة التى عين فيها والياً على الاسكندرية والأعمال البحرية (الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة ، ص ٢١٨ — تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ٤٤) ويبدو أنه حدث لبس فى تحديد تاريخ تولية المؤتمن على ثغر =



ضريح الشيخ الطرطوشى من الخارج



ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى من الداخل



اللوحة التأسيسية لجامع العطارين بالإسكندرية

أقيم على حد قول المقريزى عند مقام المؤتمن بالثغر أى بعد سنة ٥١٧هـ(١) ، أقامه بالمحجة العظمى .

٤ — ضريح الطرطوشى :

أقيم فى الطرف الغربى من الإسكندرية ، قبالة الباب الأخضر من داخل السور ، وهو الباب الشمالى الغربى من أبوابها(٢) وكانت هذه المنطقة تشغلها جبانة تعرف بجبانة وعلة ذكرنا أن الحافظ السلفى دفن فيها . ونشاهد آثار هذا الضريح اليوم بالقرب من نهاية شارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك ، لصق مسجد صغير . ويتكون الضريح من ستة أساطين ، ترتكز عقودها على عمودين مركزيين ، تاجاهما من الطراز الكورنثى ، ويبدو أنهما اتخذا من بناء قديم . ويربط بين العقود بعضها ببعض أوتار خشبية . أما المحراب فجوفة محفورة فى الجدار القبلى ، ووجهه على شكل عقد من الطراز الفاطمى .

ونود أن نصحح بهذه المناسبة خطئا كثيراً ما وقع فيه الباحثون ، وهو أن ضريح الطرطوشى أقيم فى موضع آخر غير مسجد الطرطوشى ، فبينما الضريح

= الاسكندرية ، فالمصادر الموثوق بها والتى يستند عليها المرحوم الأستاذ الدكتور الشيال تجمع على أن ولاية المؤتمن بدأت فى سنة ٥١٧هـ (المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ ب الخطط ج ٢ ص ٣٤٤). بل ان المأمون البطائحى الوزير لم يتول الوزارة الا بعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥ ب

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٩٣

يقوم بالقرب من الباب الأخضر فى قبالته ، نجد مسجد الطرطوشى كان مقاماً خارج باب البحر ، ولكن الباحثين يخلطون بين المسجد والضريح (١) .

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٧٠ — جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية ، ص ١٠٠ . وقد خلط بعض المؤرخين المحدثين بين مسجد الطرطوشى وضريحه ، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن ضريح الطرطوشى زود بمصلى صغير شأنه فى ذلك شأن الأضرحة والمشاهد فى العمارة الاسلامية ، كمشهد السيدة رقية ومشهد الجيوشى بالقاهرة من العصر الفاطمى وضريح السلطان حسن وضريح المنصور قلاوون وضريح سلار وسنجر الجاولى من العصر المملوكى .

الفصل الثامن

الاسكندرية فى العصر الايوبى

(١) أسباب اهتمام صلاح الدين وخلفائه بالإسكندرية .

(٢) مظاهر اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية .

(٣) عمران الإسكندرية فى العصر الأيوبى .

(٤) تجـــارة الإسكندرية

(٥) أهم أحداث الإسكندرية فى عصر الأيوبيين .

ا ــ حملة صاحب صقلية على الإسكندرية فى سنة ٥٦٩ هـ .

ب ــ أحداث الإسكندرية الداخليـــة .

الفصل الثامن

الاسكندرية فى العصر الايوبى

(١)

اسباب اهتمام صلاح الدين وخلفائه بالاسكندرية

ذكرت المصادر العربية أن صلاح الدين زار الإسكندرية أربع مرات فى أعوام ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ هـ ، أولاها خلالها كثيراً من عنايته ، واختصها برعايته : فمن عمارة لأسوارها ، وتمكين لدفاعها البرى والبحرى ، إلى تعمير لأسطولها وتقويته ودعمه ، ومشاركة فى أعمال الإنشاء والبنيان ، ورعاية لأولى العلم والتقوى من أهلها . كذلك تشير المصادر إلى أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين زار الإسكندرية مرتين . الأولى لتفقد أحوالها بعد وباء سنة ٥٩٢ ، والثانية للصيد فى سنة ٥٩٥ ، وأن الملك العادل أبا بكر زارها ثلاث مرات فى سنة ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦١٣(١) ، كما زارها الملك الكامل محمد بن العادل فى أيام سلطنته مرة فى سنة ٦٢٨ .

ويرجع اهتمام صلاح الدين وخلفائه من بعده بثغر الإسكندرية إلى العوامل الآتيـــة :

١ — كان للمشاعر النبيلة التى عبر عنها أهل الإسكندرية نحو صلاح الدين فى سنة ٥٦٢ هـ أثناء قيام شاور وحلفائه الفرنج بحصار الإسكندرية ،

(١) Cahen, La Chronique des Ayyubides d'al-Makin b. al Amid, 1957, p. 130

وما بذلوه له من تضحيات مادية وأدبية، وما قدموه إليه من أموال وأسلحة وآلات وأرواح ، أثر عميق فى نفس صلاح الدين ، أكده للمرة الثانية صمودهم الباسل ، وتفانيهم فى القتال أمام قوات صاحب صقلية وليام الثانى ابن وليم الأول بن روجر، التى نزلت على ساحل الإسكندرية فى ١٦ ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ ، ثم انتصارهم عليهم وتتبعهم لهم فى البحر (١) .

٢ — كان أهل الإسكندرية يميلون إلى المذهب السنى ، ويبغضون المذهب الإسماعيلى(٢) ، ويعبر عن هذا الشعور ثوراتهم العديدة ضد الفاطميين ، ومساعدتهم للثوار الخارجين على الحكومة المركزية . ويبدو أن سبب ذلك يرجع قبل كل شىء إلى تأصل جذور السنية ، على الأخص المذهبين المالكى والشافعى بها ، وساعد على هذا التأصل ما كان يبذله فقهاء الإسكندرية من جهود لمناهضة التشيع . ومن فقهاء الإسكندرية المالكية : الفقيه أبو بكر الطرطوشى الأندلسى نزيل الإسكندرية ، وأبو على سند بن عنان بن إبراهيم الأزدى تلميذه (ت ٥٤١) وأبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى السكندرى (ت ٥٨١) ، وأبو القاسم بن مخلوف المغربى الاسكندرى (ت ٥٣٣) ، وقاضى الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد المالكى (ت ٥٨٩) (٣) ، والحافظ السلفى (ت ٥٧٦) ،

---

(١) بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٨ ، ٤٩ — أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٥٩٨ — ٦٠٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١ — ١٦ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٦

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥١ — التاريخ الصالحى ، مخطوطه (صورة شمسية) .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤

وأبو الحسن على بن المفضل بن على المالكى (ت ٦١١)(١)، وأبو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة القرطبى المالكى (٢) . ومن فقهاء الشافعية أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمى الميورقى نزيل الإسكندرية (٣) (ت٥٢٣)، وشرف الدين أبوالمكارم محمد بن عبد الله بن الحسن السكندرى المعروف بابن عين الدولة (ت ٦٣٩) (٤) .

وقد كان لهؤلاء الفقهاء ، ومعظمهم من الوافدين على الاسكندرية من بلاد المغرب والأندلس ، أثر كبير فى تمسك أهل الاسكندرية بالمذهب السنى . ومن العجيب أن يسهم بعض هؤلاء فى تدريس الفقه فى المدرستين السنيتين اللتين أقامهما وزيران سنيان للخلفـــاء الفاطميين الاسماعيلية ، هما رضوان بن ولخشى وعلى بن السلار . وتعتبر الإسكندرية لذلك أول مدن مصر التى عرفت نظام المدارس السنية قبل أن تعرفها الفسطاط نفسها . كذلك ساعد على انتشار المذهب السنى فى الإسكندرية منذ النصف الأول من القرن السادس الهجرى خروج إفريقية وانفصالها عن الخلافة الفاطمية بمصر، وانتصار المذهب المالكى بها على المذهب الإسماعيلى، على يد أميرها المعز بن باديس فى سنة ٤٤٣ هـ (٥) ، واتصالها بالاسكندرية عن طريق الوافدين المغاربة بقصد طلب العلم أو الحج أو التجارة . وكانت كثرة المغاربة فى الإسكندرية ، وهى ظاهرة واضحة فى العصر الأيوبى ، واشتراكهم فى

(١) السيوطى، ج ص ١٦٥

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٩

(٣) السيوطى، ج ١ ص ١٨٩

(٤) نفس المصدر، ج ١ ص ١٩٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢ ص ٥٦٩ — ٦٦٥

أحداثها السياسية ونشاطها العلمى ، أكبر الأثر فى حمل صلاح الدين على إنشاء دار لهم بالإسكندرية ، ويذكر ابن جبير أن السلطان صلاح الدين « عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغا مابلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أمينا من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة أو الكثرة » (١) . وظل المغاربة ينزلون الإسكندرية فى طريقهم إلى الحج ، واستوطنها الكثير منهم ، واتخذوها دار رباط ، حتى نهاية عصر المماليك ، وقد لعب المغاربة فى وقعة القبارصة دوراً هاماً فى الدفاع عن المدينة (٢) ، وكان الأمير يلبغا الخاصكى يكثر من قيّاد المغاربة على المراكب « لأنهم فرسان البحر لاعتيادهم ذلك » (٣) ، بل إن رئيس دار صناعة الإسكندرية فى عهد السلطان الملك الأشرف شعبان ويدعى ابراهيم التازى (٤) ، كان مغربى الأصل من بلدة رباط تازى .

وهكذا كان ثغر الإسكندرية فى عصر صلاح الدين قد عم فيه مذهب السنة إلى درجة أنه أمكن للأهالى بسهولة الكشف عن داعية شيعى يسمى قديد القفاص ، والقبض عليه وقتله (٥) . وكانت الإسكندرية أول مدينة فى مصر قطعت الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد وسبقت بذلك مدينتى الفسطاط والقاهرة ، فقد ذكر أبو شامة فى الروضتين نقلا عن العماد :

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤٢

(٢) النويرى السكندرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، ص ٢٧٧ ب

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٦ ب

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٢ ب

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٥٦٦ — ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥٠ — ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٤٦ ب

« وصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان ، وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، وإقامة شعار بنى العباس فيها » (١) . ولا شك أن لهذا السبق مغزى له أهميته ، فهو يؤكد ما ذكرناه سابقاً من تأصل المذهب السنى فى الإسكندرية فى أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وبداية عصر الدولة الأيوبية .

٣ — لم ينس صلاح الدين لفقهاء الإسكندرية وعلمائها ، وعلى الأخص الفقيه أبى الطاهر بن عوف الذى كان قد امتنع هو وجماعة كبيرة من أنصار صلاح الدين بمنار الإسكندرية بعد دخول جيش شاور فى المدينة سنة ٥٦٢ ، ما بذلوه له من تأييد معنوى إلى جانب ما قدمه إليه الأهالى والأعيان والحكام من ضروب التأييد المادى ، فكان على كثرة مشاغله من توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام والجزيرة ، بعد وفاة نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق ، ومن مواجهته لقوى الصليبيين ، يغتنم فرصة وجوده بمصر ، فيزور الإسكندرية ، ويتردد على شيخيها ابن عوف والسلفى . فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ سار إلى الإسكندرية ، وهى أول رحلة يقوم بها إلى تلك المدينة فى أيام توليه وزارة العاضد ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وفيها « عم أهلها باحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها » (٢) . وفى ٢١ من رجب سنة ٥٦٧ خرج السلطان إلى الإسكندرية ، وكان سبب خروجه إليها فى هذه المرة « كثرة رجاله وقلة أمواله ، بحيث ضاق به التدبير ، فقيل له إن فى بلاد برقة أموالا متسعة ، وليس بها إلا عربان غير مانعة ، فخرج لذلك ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٥٠٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨٦

« عقد بالإسكندرية مشوراً ، حضره أبوه نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمي ، وتقى الدين عمر ، بسبب المسير إلى بلاد المغرب ، ومبادرة زرعها قبل حصاده ، وكوتب من بمصر والقاهرة من الجند بالحضور ، وتجهيز الأسواق من السقطيين والبياطرة وغيرهم ، وكوتب العربان بطلب الزكوات والإنكار عليهم فى قطع الطريق على الجلابين ، واتضح أنه عدم فى هذه السنة مائة ألف رأس من الغنم . واستقر الرأى على أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب يتوجه بعسكره ومعه خمسمائة فارس آخر ، وتقررت حوالتهم فى النفقة عليهم على كورة البحيرة » (١) .

وفى سنة ٥٧٢ ﻫ زار صلاح الدين الإسكندرية للمرة الثالثة واصطحب معه فى هذه المرة ولديه الأفضل والعزيز عثمان ، فصام بهما قسما من شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر السلفى ، وروى عنه أحاديث كثيرة (٢) . وذكر أبو شامة نقلا عن العماد الذى صحب صلاح الدين وولديه إلى ثغر الإسكندرية فى ٢٥ شعبان من تلك السنة ، أخبار هذه

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٤٨ . يبدو أن صلاح الدين كان متأثراً بموقف العباسيين المعادى للموحدين ، وربما يكون لنشاطه فى برقة وافريقية بعد ذلك ناشئاً من تحريض الخليفة العباسى ضد الموحدين الذين كانوا يتطلعون إلى السيطرة على العالم الاسلامى (مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٤ أحمد طه ابراهيم تونس من سقوط الدولة الصنهاجية إلى قيام الدولة الحفصية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى الآداب بجامعة الاسكندرية فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٨ ، ص ١٢٢).

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩ — المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ١٦٨ — السلوك ، ج ١ ص ٦٣

الرحلة بشيء من التفصيل فقال : « ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان ، واغتنمنا الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر ، فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر » (١) . غير أن ابن واصل يذكر أن صلاح الدين كان يتردد إلى الشيخ الحافظ السلفى « فى كل جمعة ثلاثة أيام هى الخميس والجمعة والسبت »(٢) بمعنى أن تردده إلى الشيخ المذكور لم يقتصر على الأيام الثلاثة التى أشار إليها أبو شامة .

وفى ١٧ شوال سنة ٥٧٧ خرج السلطـــــان صلاح الدين إلى زيارة الإسكندرية ، فدخلها فى ٢٥ من شوال ، وشرع فى قراءة موطأ مالك يوم الخميس ثانى يوم دخوله على الفقيه أبي طاهر بن عوف (٣) . ثم قفل عائداً إلى القاهرة عن طريق دمياط فى أول ذى القعدة . وأورد ابن واصل خبر هذه الزيارة بشيء من التفصيل فأشار إلى أن صلاح الدين خرج لزيارة الإسكندرية فى هذه السنة عن طريق البحيرة ، « فخيم عند السوارى (٤) ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦٨٩ — ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٦

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٦

(٣) السلوك ، ج ١ ص ٧٦ . وذكر المقريزى فى الخطط أن صلاح الدين خرج إلى الاسكندرية فى ١٣ من شعبان (الخطط ، ج ٣ ص ١٦٩)

(٤) يعنى بذلك منطقة أطلال معبد السيرابيوم الواقعة خارج الأسوار الجنوبية لمدينة الاسكندرية .

وشاهد الأسوار التي جددها ، وأمر بالإتمام والاهتمام . وقال : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف ، فحضر عنده . وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمة الله عليه — بروايته عن الطرطوشي ، في شر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع » (١) .

٤ — كان العزيز عثمان بن صلاح الدين يؤثر مدينة الإسكندرية ويوليها اهتماماً خاصاً، إذ لم يكن قد نسي بعد، زياراته لها في صحبة أبيه صلاح الدين ، وسماعه الحديث على شيخيها الكبيرين السلفي وابن عوف . ولا شك أن الإسكندرية كانت ، بحكم اعتبارها ثغر مصر الأول ، ودار رباط وجهاد ، وقاعدة بحرية للغزو ، وإمداد ثغور الشام بالسلاح والعتاد والرجال ، تجتذب أمراء البيت الأيوبي وسلاطينهم إليها ، إما لتفقد أحوالها أو الإطلاع على وسائل الدفاع فيها . ويذكر المقريزي في السلوك أن المظفر تقي الدين عمر خرج إليها في سنة ٥٨١ للكشف عن أحوالها بعد فتنة العوام التي وقعت في شهر ربيع الأول من تلك السنة ، ونهبوا فيها المراكب الرومية (٢) . كذلك يروى المقريزي ما يشير إلى أن الإسكندرية كانت أقرب إلى قلب العزيز عثمان من أي مدينة أخرى ، وأنه ضحى بمبلغ ضخم قدره أربعون ألف دينار قدمه إليه عبد الكريم بن علي البيساني (٣) للظفر بولاية قضاء الإسكندرية ،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٢ — تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٧٥ أ

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٩٠ .

(٣) هو أخ القاضي الفاضل ، وكان واليا على اقليم البحيرة ومشرفا على شؤونه المالية ، فترة طويلة ، فتجمعت لديه أموال كثيرة وأثرى ثراء فاحشاً ، ثم صرف عن عمله ، وسكن هو وزوجته الموسرة في ثغر الاسكندرية ، وهناك أسلم

ورده إلى صاحبه رغم شدة حاجته إليه ، بسبب ما عرف عن عبد الكريم من سوء الخلق ، وقال العزيز عثمان إلى الأمير فخر الدين جهاركس الذى حمل إليه المال : « أعد المال إلى صاحبه ، وقل له إياك والعود إلى مثلها ، فما كل ملك يكون عادلا ، وعرّفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية ، وهذا مالا أفعله أبداً » (١) .

وعندما تعرضت الإسكندرية للوباء فى سنة ٥٩٢ هـ ، وارتفع بها الموتان سار إليها الملك العزيز عثمان بعد أن استخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش وفخر الدين جهاركس (٢) . ويذكر المقريزى أنه زارها مرة ثانية فى آخر ذى الحجة سنة ٥٩٤ هـ ، وأنه تصيد بها إلى سابع المحرم سنة ٥٩٥هـ، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه ، ثم ركب وهو محموم ، فدخل القاهرة فى عاشوراء ، وتوفى فى منتصف ليلة ٢٧ منه (٣) ، ولكننا نستبعد وصوله إلى الإسكندرية فى هذا التاريخ ، فلم تكن بالاسكندرية أحراش أو غابات للصيد ، والأرجح أن نأخذ برواية ابن واصل الذى يذكر أن الملك العزيز

= عشرتها لسوء خلق كان فيه، فاضطر أبوها إلى الالتجاء إلى قاضى الاسكندرية لأخذها بعد أن أثبت للقاضى عظم الضرر الذى لحق بابنته ، وكان عبد الكريم بن على البيسانى قد أغلق عليها الدار من داخله ، فأمر القاضى بنقب أحد جدرانه ، وأخرج المرأة وسلمها إلى أبيها ، وأعاد بناء الثغرة ، فغضب عبد الكريم لتصرف القاضى ، وعزم على السعى لعزله الظافر بمنصب قاضى الاسكندرية مكانه ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، نكاية فى قاضى الاسكندرية ، فعرض هذا المبلغ ثمناً للمنصب فى وقت كان الملك العزيز عثمان فى مسيس الحاجة إليه .

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ — السلوك ، ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٤

كان قد عزم فى ذى الحجة من سنة ٥٩٤ « على التوجه إلى اسكندرية ودمياط للنظر فى مصالحهما ، فبرز فى السادس والعشرين من الشهر إلى ذات الصفا بالفيوم ، وأقام بها متصيداً إلى سابع المحرم من هذه السنة ، فاعترضه ذئب فركض خلفه ، فعثر به فرسه ، فسقط إلى الأرض : فحم من ساعته ، ثم ركب وهو محموم ، وعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه . ثم توجه إلى القاهرة » (١) . ويؤكد هذا الرأى ما ذكره ابن خلكان إذ أشار إلى أنه توجه إلى الفيـــوم للصيد (٢) . أما السلطان الملك العـــادل فقـــد زار الإسكندرية ثلاث مرات : مرة فى سنة ٦٠٨ هـ للكشف عن أحوالها (٣) ، ومرة ثانية فى ٦١٢ هـ للقبض على التجـــار الفرنج الذين ثاروا بها (٤) ، ومرة ثالثة فى سنة ٦١٣ هـ لترتيب أمورها (٥) . أما الملك الكامل فقد زارها فى أيام سلطنتـــه مرتين : الأولى فى سنة ٦٢٨ هـ (٦) ، والثانية فى ٦٣٤ (٧) .

---

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٨٢

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة القاهرة ١٢٧٥ هـ ، ج ١ ص ٤٤٧

(٣) السلوك ، ج ١ ص ١٧٤

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٦ . على أن المقريزى فى السلوك يؤرخ حركة الفرنج فى الاسكندرية فى جملة أحداث سنة ٦٠٨ (راجع السلوك ، ج ١ . ص ١٧٥)

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ١٨٥

(٦) السلوك ، ج ١ ص ٢٤١

(٧) المكين جرجس ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٢

(٢)

مظاهر اهتمام صلاح الدين بالاسكندرية

١ – تدعيم الدفاع البرى والبحرى :

يذكر المؤرخون أن صلاح الدين زار الإسكندرية فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ ، وأنه أمر أثناء زيارته لها بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها (١) ، وأغلب الظن أن أعمال الترميم والتجديد كان يعنى بها الأسوار الجنوبية. وعند زيارته الثانية سنة ٥٧٢ كملت عمارة السور على البلد (٢) . وعندما قدم صلاح الدين فى سنة ٥٧٧ هـ خيم عند السوارى وشاهد الأسوار التى جددها (٣) ، وذكر أبو شامة نقلا عن العماد . أنهم شاهدوا « ما استجده السلطان من السور الدائر وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر » (٤) .

وفى هذه الزيارة أمر السلطان صلاح الدين بتعمير الأسطول (٥) ، ونقل أبو شامة عن أبى طى أن السلطان لما نوى المقام بالإسكندرية ليصوم فيها

---

(١) أبو شامة ، ج ٢ ص ٤٨٦ – ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٩٩ – المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٧١ . والأبدان جمع بدنة وهى الستارة البنائية من السور الواقعة بين برجين .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٢٩٦

(٣) ابن واصل ، ج ٢ ص ١١٢

(٤) أبو شامة ، ج ٢ ص ٦٨٩

(٥) نفس المصدر ص ٦٨٩ – السلوك ، ج ١ ص ٦٣

« رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقـوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول وقد اخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة . ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعا مخصوصاً وديوانا مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليـه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ويغزى إلى جزائر البحر » (١) . ولم يمض عام واحد على تعمير الأسطول حتى أصبح للإسكندرية أسطول ضخم ، أضيفت إليه قطع جديدة صنعت بدار صناعة الاسكندرية بأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وأسهم هذا الأسطول فى مهاجمة أيلة ، ثم تتبع مراكب الفرنج عند عيذاب (٢) ، كذلك أسهم هذا الأسطول السكندرى فى حمل كميات ضخمة من الغلات وأصناف الأقوات إلى عكا ، حملتها ثلاث بطس كبار فى سنة ٥٨٦ (٣) .

وانتهز صلاح الدين فرصة زيارته للاسكندرية فى سنة ٥٧٧ ، وأمر بتقرير ديوان الأسطول ، وعين له نواحى عديدة من الخراج ، حتى ضمن الخراج بثمانية آلاف دينار (٤) ، فمن هذه النواحى الفيوم بأعمالها والحبس الجيوشى

(١) ابن واصل ، ج ١ ، ص ٦٩٠ .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٧٩

(٣) العماد الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق الأستاذ محمد محمود صبيح ، ص ٤١٩

(٤) السلوك ، ج ١ ص ٧٣

فى البرين الشرقى والغربى والبساتين خارج القاهرة ، وذكر المقريزى أنه عين لديوان الأسطول الحراج ، « وهو الأشجار من سنط لا تحصى كثرة فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والإخميمية والقوصية لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار » (١). ثم أفرد لديوان الأسطول، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه، الزكاة التى كانت تجبى بمصر وقد تجاوزت فى إحدى السنين خمسين ألف دينار . ثم سلم صلاح الدين هذا الديوان إلى أخيه الملك العادل أبى بكر ، فأقام على مباشرته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر (٢) .

وفى أيام صلاح الدين كسر قراجا ، والى الإسكندرية ، أربعمائة عمود كانت تحيط بعمود السوارى ، ورماها بشاطىء البحر ، ليوعر على العدو سلوكه إذا قدم (٣) ، أو ليكسر سورة الأمواج ، ويخفف من حدتها على سور المدينة ، أو ليمنع مراكب العدو أن تسند إلى هذا السور (٤) . وقد شاهد الرحالة عبد اللطيف البغدادى هذه الأعمدة المتكسرة ، وحكم على هذا العمل بأنه « من عبث الولدان ، ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة » (٥) . ومن المحتمل أن يكون قراجا المذكور قد أقام هذا الحاجز من الأعمدة المتكسرة بعد سنة ٥٧٧ هـ ، لأن السوارى كانت ما تزال قائمة

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٠

(٢) نفسه

(٣) نفسه ، ج ١ ص ٢٨٠

(٤) عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار ، طبعة القاهرة ١٢٨٦ ص ٢٨

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٨

عنـــد زيارة صلاح الدين للاسكندرية فى هذه السنة ، ثم إن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أخا صلاح الدين ، والذى تولى حكم هذا الثغر فى ٥٧٥ (١) ، كان قد توفى فى سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن بقصر الإمارة بالإسكندرية ، وأقام السلطان على ضريحه بها مدرسة سنة ٥٧٧ هـ (٢) ، ثم نقلت جثته إلى دمشق فى سنة ٥٧٨ حيث دفنت فى المدرسة الشامية بدمشق فى سنة ٥٨٢ (٣) .

ب — إنشاء المدرسة والبيمارستان ودار المغاربة وعمارة الخليج :

ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٥٧٧ ، أن صلاح الدين أنشأ بالاسكندرية عند زيارته لها مارستاناً وداراً للمغاربة ، ومدرسة على ضريح المعظم تورانشاه ، وأنه شرع فى عمارة الخليج ، ونقل فوهته إلى مكان آخر (٤). والظاهر أن موضع هذه المجموعة من الأبنية كان يقع قريباً من الباب الغربى حيث يقوم القصر الذى أقيم عنده ضريح تورانشاه المذكور . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذه المجموعة من الأبنية فقال : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، وإجراء يقوم به فى جميع أحواله واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات

(١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٥ ص ٨٣ — ابن كثير الدمشقى ج ١٢ ص ٣٠٦

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٧٦

(٣) Repértoire : R.C.E.A. t. 9, p. 147

(٤) السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦ — الخطط ، ج ٣ ص ١٦٩ . وذكر المقريزى فى الخطط أنه جدد حفر الخليج بدلا من «وشرع فى عمارة الخليج» والمقصود بالخليج ، ترعة الاسكندرية



قلعة قايتباى كما كانت فى سنة ١٧٨٥

(عن لوى فرنسوا كاساس)

يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء ، وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصـــول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهـــون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم (١)» .

ويرجح الأستاذ حسن عبد الوهاب أنه كان يدرس فى هذا البيمارستان علم الطب (٢) . وقد عثر على لوحة انشائية بالاسكندرية نعتقد أنها تؤرخ لبناء هذه المدرسة نطالع فيها ما يلى : (مما أمر بعمله السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الايمان ، قامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو المظفر يوسف بن السيد الأجل الأ....... أيوب أدام الله قدرته ، وأعلى أبداً كلمته ، ونشر فى الخافقين أعلامه ، (أتم) عمارتها وانشائها الأمير الأسفهسلار الكبير ..... زين الدين ..... جلال الأمراء، مملوك أمير المؤمنين أبو سعيد قراجا سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)(٣)

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ٢ ص ٤٢

(٢) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٧

(٣) Repertoire Ch. d'Ep. Arabe, t. 9, p. 156

(٣)

عمران الاسكندرية فى العصر الأيوبى

ازدهر عمران الإسكندرية فى هذا العصر ازدهارا لاسيما بسبب عناية السلاطين والأمراء بها وبمنشآتها ، ويبدو أن منطقة الرمل أصبحت عامرة بالقصور والمتنزهات فى زمن الأيوبيين(١). كذلك عمرت ترعة الخليج بالمتنزهات والبساتين التى أصبحت معلما من معالم الإسكندرية ، يقصدها أهل الثغر للفسحة والتنزه ، وقد مدح الشاعر الجمال أبو الحسين الجزار (ت ٦٧٩) الإسكندرية ، ووصف محاسنها فى قوله :

أرى الإسكندرية ذات حسن .·. بديع ما عليـــه من مزيـــد
هى الثغر الذى يبدى ابتساماً .·. لتقبيل العفـاة من الوفـــود
إذا وافيتها لم تبـــق همـــا .·. بقلبك مذ تراها من بعيـــد
حللت بظـاهر منهـا كأنى .·. حللت هنـاك جنات الخلود
فلا بئر معطلة وكـــم قـــد .·. رأيت هنـاك من قصر مشيد
بيـــاض يمـلأ الآفاق نوراً .·. يبشر برقـــه بسحاب جود
وأقسم لو رأتهـا مصر يوماً .·. لكادت أن تغيب من الوجـود
وكم قصر بها أضحى كحصن .·. منيـع لا كزرب من جريد
يرص فصوصه بانيه رصـــا .·. يفصله على نظم العقـــود
لها سور إذا لاقى الأعادى .·. يقابلهم بوجه من حـــديد

---

(١) وذكر النويرى أن بظاهر الاسكندرية موضع يعرف بالقصرين فى أرض رمل ، =

هو الفلك استدار بها وكم قد .. رأينا فيه من برج سعيد
أحاط بسورها بحر أجاج .. ومنهل أهلها عذب الورود (١)

ويعبر عن ازدهار الإسكندرية فى العصر الأيوبى ما وصفها به الرحالة المغاربة والمشارقة الذين زاروها فى تلك الفترة ، فهذا ابن جبير يمتدح عمران الإسكندرية ويصف مسالكها بقوله : « فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً ، ومن العجب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضا » (٢) .

ووصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله : « والإسكندرية تعجب

= وهو مكان نزه يجتمع به فى زمن الصيف أهل الاسكندرية يتنزهون به ، وفى هذا الموضع يقول بعض الشعراء :

سلام على القصرين من جانب الرمل .. سلام مشوق للديار وللاهل
نحن إليها كلما هبت الصبا .. ولشتاقها شوق المحب إلى الوصل

(النويرى السكندرى ، ص ٢٦٥ أ) ، ويحدد الأستاذ كومب موضع القصرين عند مصطفى باشاحالياً ويعنى به موضع المعسكر الذى ضربه قيصر خارج الاسكندرية ، وكان يقوم فيه قصر رومانى . وكان الناصر محمد بن قلاوون قد استغل هذا القصر والجسر الرومانى فى اعادة حفر خليج الاسكندرية المعروف بالخليج الناصرى على يد الأمير بكتوت (إرجع إلى : Combe, Notes de Topographie Alexandrine, B.S.R.A.A., No. 34, Alexandrie, 1944, pp. 66-67)

(١) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ص ٣١٢

(٢) ابن جبير ، ص ٤٠ ، ٤١

كل من رآها لبهجتها وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها » (١) .

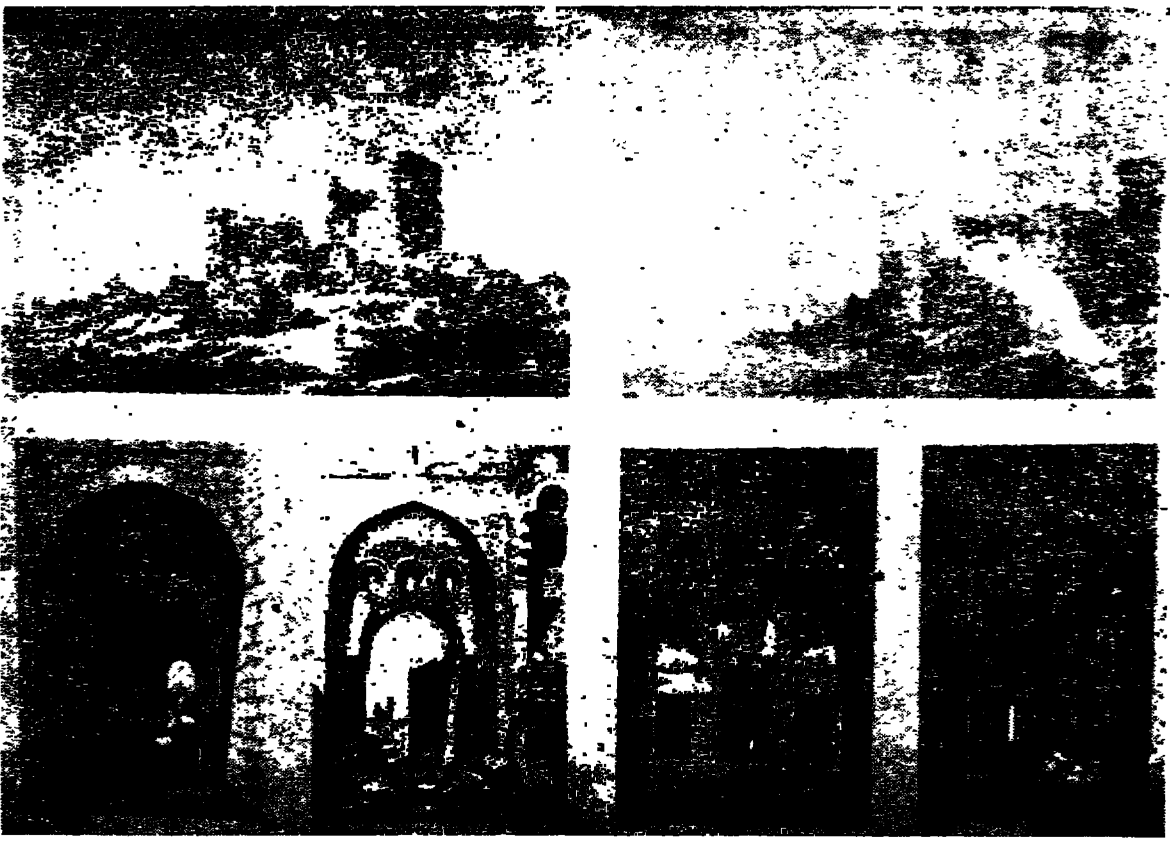
وكان خليج الإسكندرية يخترق أسوار الإسكندرية الجنوبية ، من جهة السوارى ، وكانت تعلوه عند دخوله المدينة قنطرة تعرف بقنطرة السوارى ، يعبر عليها الخارجون إلى ظاهر المدينة للنزهة على شاطىء الخليج ، حيث تكثر الرياض والبساتين ، وتحف بالخليج على جانبيه(٢). وكان الناس يقصدون خليج الإسكندرية أيضاً لصيد السمك ، فالصيد فيه كان مطلقاً للرعية ، وكان السمك « يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الأطفال بالخرق ثم حجره الوالى ، ومنع الناس من صيده » (٣) .

وكان لقاضى الإسكندرية الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحباب (ت ٥٩٢) دار فى الطريق المؤدية إلى باب البحر ظلت قائمة حتى أيام الأشرف شعبان ، ورد ذكرها فى مخطوطة

(١) كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ١٠٠

(٢) أحمد النجار ، الانتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية ، ص ١٨٨

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ . ذكر عثمان بن ابراهيم النابلسى أن خليج الاسكندرية كان لا يمتلىء بمياه النيل الا فترة يسيرة زمن الفيضان بسبب السداد برابخ الرصاص فى آخره من جهة النيل بالرمل . ولما حاول الملك العادل أخو صلاح الدين أن يفتح مجرى آخر للخليج عند موضع يعرف بالنقيدى صرفه أهل الخبرة عن هذا المشروع خوفاً من أن يغرم فيه أموالا كثيرة دون أن يدرى هل يحصل به نفع أم لا . ثم اهتم ابنه الملك الكامل بفوهة الخليج ، وغرق أمامها مراكباً فانصلحت مدة ، ثم عادت إلى ما كانت عليه راجع (النابلسى ، كتاب لمع القوانين ، تحقيق كلود كاهن ، فى مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسى بدمشق ، ج ١٦ ، ١٩٦١ ، ص ٥٦)



صور من قلعة قايتباى مأخوذة من كتاب وصف مصر

الإلمام للنويرى السكندرى عند تعرضه لوصف موكب السلطان . وقد ذكر المقريزى أن ابن الحباب المذكور أقيم حاكما بالإسكندرية فترة طويلة يقدرها بثمانية وعشرين عاماً (١)، فهو فى ظنى صاحب الدار التى ذكرها النويرى السكندرى ، وأورد السيوطى اسم أحد قضاة مصر وهو القاضى ابن الحباب أبو البركات عبد القوى بن القاضى الجليس عبد العزيز ، (٢) ونستبعد أن يكون هو صاحب تلك الدار .

وعمرت الإسكندرية بالمساجد العديدة التى بالغ الرحالة فى عددها ، فابن جبير يذكر أن الإسكندرية « أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل ، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهى كثيرة جداً ، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع » (٣) . وذكر الهروى ، أن ابن منقذ أخبره أن بها اثنى عشر ألف مسجد ، فسأل الهروى القاضى الكاتب عن ذلك ، فقال « إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك ، فوجدوا بها عشرين ألف مسجد ، وأنا فما عددتها ، والله أعلم بصحة ذلك » (٤) .

---

(١) السلوك ، ج ١ ص ١٣٩

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ١٧٦

(٣) ابن جبير ، ص ٤٣

(٤) الهروى ، كتاب الاشارات ، ص ٤٧ ، ٤٨

وعلى الرغم من وضوح عنصر المبالغة فى هذه الأرقام (١) إلا أننا نخرج مما ذكره كل من الهروى وابن جبير بكثرة مساجد الإسكندرية فى العصر الأيوبى ، وهو أمر يعبر عن غلبة النزعة الدينية فى الإسكندرية فى عصر سيطرت فيه الرغبة فى الجهاد والرباط.

(١) يذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب استناداً على وصف محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذى قدم الأسكندرية فى سنة ٥٠٦ هـ وأقام بها أربعين سنة أن الاسكندرية كان بها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ مسجدا للخطبة وكان بها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم (حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٧)

(٤)
تجارة الأسكندرية

أصبحت الإسكندرية فى العصر الأيوبى سوقاً هامة للتجارة العالمية ، فاليها كانت تتدفق معظم منتجسات الشرق من طيب ويواقيت وعطور وتوابل وغير ذلك من المنتجات الشرقية ، وقد ذهل بعض الرحالة الأوروبيون أمثال بنيامين التطيلى ، وبرخارد الذى قــدم إلى مصر فى سنة ١١٧٥ م سفــيراً للأمبراطور فردريك بربا روسة ، لكميات التوابل الهائلة التى كانت تحملها السفن فى النيل إلى ثغر الإسكندرية (١) . وذكر ابن سعيد أن ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى يفوق الوصف (٢) ، ونتج عن ازدهار التجارة فى الإسكندرية أن كثر عدد التجار الافرنج فى ثغر الاسكندرية ، فقد ذكر المقريزى أنه اجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف فى سنة ٦٠٨ هـ فى سلطنة الملك العادل (٣) ، كذلك أقامت الجمهوريات الإيطالية فنادق لها بالإسكندرية ، وذكر بنيامين التطيلى أسماء دول كثيرة كانت تتعامل مع الإسكندرية لكل منها فندق : فيقول : « وهذا البلد تجارى ، يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية ، فمن بلاد الغرب : البندقية ، ولمبارديا ، وتسكانه ، وأبو لية ، وأمالفى ، وصقلية ، وكالابريا ، ورومانيا ، وكازاريا

---

(١) Heyd, Histoire du commerce du Levant, p. 384

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ١٠٦

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — السلوك ، ج ١ ص ١٧٥

وباتزيناكيا، وهنغاريا، وبلغاريا، ووراكوفيا، وكرواتيا، واسكلافونيا، وروسيا والمانيا، وسكسونية ، ودنمركة، وكرلانديا، وايسلندا، والنرويج ، واسكتلندا وفرنسا، وانجلترا، وفلاندرز، ونورمانديا وأنجو، وبواتو، وبورجونية، وبروفنس وجنوة، وبيزة، وغسقونية، وأرغون، زنبارة . ومن بلاد الشرق الإسلامى : الأندلس، والمغرب، وإفريقية، وبلاد العرب، والهند، والحبشة، وليبيا، واليمن، وبابل وسوريا، واليونان، وتركيا. وتأتيها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التى يشتريها التجار المسيحيون . وهى مدينة عامرة بالمتاجر ولكل بلد فندق » (١).

وكانت المراكب تصل إليها من الفسطاط ، عبر خليج الإسكندرية وتدخل من باب البهار وهو باب العمود ، ويذكر ابن مماتى أن المراكب كانت تسير بخليج الإسكندرية، وتحمل إليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف ، كما تحمل من الإسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك فى شهر مسرى الموافق لشهر آب ، (أغسطس) حيث ترتفع مياه النيل ، ويمتلىء خليج الإسكندرية بمياه النيل (٢) .

وكانت للبندقية بوجه خاص جالية كبيرة بثغر الإسكندرية يدير شؤونها قنصل ، وكان فى الحى البندقى فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (٣) .

وجرت العادة فى الإسكندرية بألا تبحر أى سفينة من السفن التجارية

(١) Benjamin de Tudela, Viajes, p. 115

(٢) ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه ، الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٥٧

(٣) شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٩



منظر يمثل مسجد قلعة قايتباى مأخوذ من كتاب وصف مصر

الإيطالية إلا إذا دفعت ما كان مقرراً عليها من الرسوم (١) ، وكانت هذه الرسوم تصل إلى الخمس ، فما زاد على العشر رتبه صلاح الدين لفقهاء الثغر ، وعرفت هذه الرسوم الإضافية بصادر الفرنج (٢) . وكان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل بر الإسكندرية من سلع أو مال ، وذلك ليفرضوا عليهم ضريبة جمركية ، وفى سبيل ذلك كانوا يقومون بتفتيش المسافرين . وقد أبدى كثير من الرحالة امتعاضهم لهذا الاجراء ، وانتقدوه ، فابن جبير عند نزوله بالإسكندرية يقول : « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لـــديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل ، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا ، واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفى كل يستفهم ، ثم يقيد قوله ، فخلى سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ،

(١) الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢٠٣

(٢) ابن مماتى ، ص ٣١٥ — ٣٢٦ — السلوك ، ج ١ ص ٦٣ — الخطط ج ١ ص ١٩٤

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . . . » (١) . كذلك انتقد العبدرى ما فعله رجال الديوان وأمناء السلطان من تعسف وإذلال للمسافرين فقـــال بعد وصفه الإسكندرية : « ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحـــر الإهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق الفجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى ، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحـرس ، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدوا فى الحجـــاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعاً من المظالم ، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العـــادة الذميمة ، والشتيمة اللئيمة فى بلد من البلاد ، ولا رأيت فى الناس أقسى قلوباً ، ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه ، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد » (٢) .

---

(١) ابن جبير ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) ابن جبير ، مقدمة الناشر ، ص ٢٧ — زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى القاهرة ، ١٩٤٥ ص ١٣٣ — سعد زغلول عبد الحميد ، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس =

ومن العجيب أن هذه القاعدة التى جرى عليها ديوان الثغر السكندرى ، استمرت حتى نهاية عصر المماليك ، وكانت الحكومة تفرض على التجار الرسوم الباهظة بعد إجراء تفتيش شامل على ما يحملونه معهم ، وقد وصف فريسكو بالدى (القرن ١٤ م) ما لاقاه على أيدى حراس الديوان والمفتشين ، وقال فى جملة ما قاله : « فاستلمنا بعض الضباط ، وأخذوا فى عدنا كالبهائم ، ثم أثبتوا العدد فى دفاترهم ، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشاً دقيقاً وتركونا فى حراسة قنصل فرنسا ، ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان ، وأعيدت ، وفحصت فحصاً شديداً » (١) . وقد علل الأستاذ فييت تشدد ديوان الإسكندرية فى التفتيش منذ عصر الدولة الأيوبية ، بأن مصر كانت فى حرب مع الصليبيين فى بلاد الشام (٢) .

وكانت للديوان الجمركى عيوب من طابع آخر ، منها عيب الإهمال ، فقد كان الديوان يبتـاع كل خشب وحديد ورصاص وغير ذلك مما يرد على موانىء مصر ، ومن الديوان يبتـاعه الناس بكسب يسير للديوان ، فاذا دعت الحاجة لمهات الدولة من عمل الشوانى وغيرها من السفن وإقامة منشآت حربية وتحصينات ، يبتاع الديوان من التجار الذين اشتروا هذه المواد من الديوان بضعفى الثمن ، فاذا كان الديوان قد ربح فى بيعه لقرمة الخشب ديناراً ، يكسب التاجر على الديوان خمسة أو ستة ، ومن أمثلة ذلك

= والسابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، مجلد ٨ ، ديسمبر ١٩٥٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩

(١) فييت ، المواصلات فى مصر ، مقال فى كتاب (فى مصر الاسلامية) ، ص ٤٠

(٢) نفس المرجع .

أن جماعة من التجار اشتروا قرمة الخشب بخمسة دنانير ، واشتراها الديوان بتسعة دنانير وبعشرة ، واشترى ديوان خزائن السلاح قرمة بأحد عشر ديناراً لتعمل نشابا (١) :

(١) عثمان بن ابراهيم النابلسى ، كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، تحقيق بيكر وكلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسى بدمشق ج ١٦ دمشق ١٩٦١ ، ص ٤٦

(٥)

أهم أحداث الأسكندرية فى عصر الأيوبيين

١ ـ حملة صاحب صقلية على الإسكندرية فى سنة ٥٦٩ :

شهدت الإسكندرية فى السنة الثالثة من قيام الدولة الأيوبية غزوة قام بها وليم الثانى النورماندى ملك صقلية كذيل لمؤامرة واسعة النطاق دبرها جماعة من أنصار الفاطميين فى مصر لإحياء الخلافة الفاطمية بالإتفاق مع أعداء صلاح الدين من الفرنج والإسماعيلية الحشيشية فى جبال الدعوة بالشام ؛ واتفق هؤلاء المتآمرون فى مصر وعلى رأسهم عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر بعد أن بذلوا لهم شيئا من المال والبلاد ، وكاتبوا راشد الدين سنان بن سلمان مقدم إسماعيلية الشام . وكان فى نيتهم أنه إذا قدم الفرنج ، وخرج صلاح الدين لردهم ثاروا هم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة الإسماعيلية ، ولكن واحداً من الفقهاء الذين أدخلوهم معهم فى مؤامرتهم ، واسمه زين الدين على بن نجا ، داخلهم وأفضى إلى صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة (١) ، فأمر بالقبض عليهم ، وصلب ثمانية من رؤسائهم بين القصرين فى ٢ رمضان سنة ٥٦٩ . ولم يكن وليم الثانى ملك صقلية قد علم بعد بفشل الشق الثانى من المؤامرة ، ولم يعلم أن صلاح الدين وضع يده على المتآمرين ، ولذلك سير

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٦ ، ابن واصل تاريخ الواصليين ، ج ١ ص ٤٤ ب

وليم أسطولا ضخما إلى الإسكندرية بقيادة رجل من دولته يسمى أكيم موذقة(١) ، تنفيذاً لما تم الإتفاق عليه مع المتآمرين فى الداخل . ويذكر المؤرخون أن أسطول صقلية وصل بغتة إلى ثغر الإسكندرية ، قبل ظهر الأحد ٢٦ ذى الحجة(٢) على غفلة من المتوكلين بالنظر « لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر » (٣) ، ورست قطعه على البر مما يلى البحر والمنارة ، وكان يتألف على حد قول ابن شداد من ستمائة قطعة ما بين شينى وطرادة وبطسة وغير ذلك (٤) ، منها ٣٦ طريدة تحمل من الخيل ١٥٠٠ فرس ، ومائتا شينى تحمل من المقاتلة ثلاثين ألف مقاتل ، فى كل شينى ١٥٠ رجلا (٥) ، وست سفن تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب كالمجانيق والدبابات والأبراج ، وأربعون مركباً حمالة تحمل مؤونة الجيش والأزواد والخدم وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنيقية ، بحيث أصبح مجموع من اشترك فى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص٥٦ ، ذكر شهاب الدين النويرى أنه كان ابن عم لصاحب صقلية (نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ١١٩)

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، هى ٥٩٨ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٥

(٣) نفس المصدر . وأورد أبو شامة فى الروضتين رسالة موجهة من صلاح الدين إلى الخليفة العباسى نستنتج منها أن الامبراطور البيزنطى هو الذى أنذر صلاح الدين بقدوم الحملة النورماندية رغبة منه فى كسب وده وصداقته (راجع مفرج الكروب ج ٢ ملحق ١٥)

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٩

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص١٢ ، ١٣—ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٦١ ب — السلوك ، ص ٦٦

هذه الحملة من الفرنج خمسين ألف مقاتل (١) ، من بينهم ألف فارس(٢).

وما أن اكتمل نزول الفرنج على البر حتى خرج إليهم أهل الثغر بعددهم وأسلحتهم ، فمنعهم المتولى عليهم ، وأمرهم أن يقاتلوا من وراء السور ، فلما نزل الفرنج إلى البر ، نصبوا الدبابات ، وقاربوا السور ، فقاتلهم أهل الإسكندرية قتالا شديداً(٣) ، ثم حمل الفرنج على المسلمين حملة عنيفة دفعتهم إلى أسوار الإسكندرية ، وقتل فى هذا الهجوم من أهل الثغر فى قول سبعمائة شخص (٤) وفى قول آخر سبعة فقط (٥) ، أورد أبو شامة اسم واحد منهم هو محمود بن البصار ، وكان قد أصيب بسهم (٦) ، وأعتقد أن هذا القول الثانى أصح من الأول لأنه لم تحدث موقعة حاسمة بين الفرنج والمسلمين ، تؤدى إلى مثل هذا العدد الهائل من القتلى ، بالاضافة إلى أن أهل الإسكندرية كانوا يتوقعون طروق الفرنج لمدينتهم حتى على الرغم من قدوم هؤلاء بغتة أو غفلة من المتوكلين بنظرها . ثم إن الفرنج لم يكونوا قد اقتربوا بعد من المدينة ، وإنما نزلوا بالقرب من ساحل المنار أى فى المنطقة المعروفة ببحر السلسلة ، ثم جذفت مراكب الفرنج بقصد دخول الميناء الغربية ، وكان بهذا الميناء مراكب مقاتلة وأخرى معدة للإقلاع راسية ،

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ، ص ١٢ — السلوك ، ص ٥٦

(٢) السلوك ، ص ٥٦

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ١١٩

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٣ — ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٦٢ أ

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٥٩٩ — السلوك ، ص ٥٦

(٦) نفس المصدر

فعندما فطن المسلمون إلى قصد الفرنج من دخولهم الميناء خافوا أن تقع السفن بما فيها فى أيدى الفرنج وتصبح غنيمة باردة لهم ، فسبقوهم إليها ، وغرقوها وأحرقوا بعضاً منها (١) .

ثم اشتبك الفرنج مع المسلمين فى قتال عنيف دام حتى المساء ، وعندئذ ضرب الفرنج خيماتهم بالبر ، وكانت عدتها ثلثمائة خيمة ، ولما أصبحوا نصبوا « ست دبابات بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة أثرها وعظم حجرها » (٢) . وكانت دبابات الفرنج مصنوعة من خشب شديد الصلابة ، تشبه الأبراج فى عظم الإرتفاع والضخامة والإتساع وكثرة المقاتلة فيها ؛ ثم زحف الفرنج بهذه الآلات واقتربوا من السور ، وبدأوا يحكمون الحصار حول سورالإسكندرية من جهة البحر ، وقضوا نهار ذلك اليوم فى قتال مع المسلمين .

ولم تكد أخبار نزول الفرنج بالإسكندرية تصل عن طريق الطير إلى صلاح الدين حتى بادر بتسيير العسكر على الفور إلى ثغر الإسكندرية ، كما أمر بتجهيز عسكر آخر إلى دمياط ، إذ كان يتوقع قدوم حملة أخرى إلى هذا الثغـــر .

وفى هذا الأثناء اشتد القتال ، واستبسل أهل الإسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم مع قلة ما كان لديهم من العساكر ، ولكن الإمدادات بدأت تتلاحق

(١) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٦٢ أ

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤ — ويذكر كل من ابن واصل فى تاريخ الواصلين وأبى شامة والمقريزى أنهم نصبوا ثلاث دبابات ، لاست .

من القاهرة ، فاشتد بها أزرهم ، وتقوت نفوسهم . وفى اليوم الثالث من الحصار ، فتح أهل الإسكندرية فجأة أبواب مدينتهم ، وانحطوا كالبواشق على أعدائهم ، وكثر الصياح من كل جانب ، وتكاثروا على الفرنج فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، ومزقوا أعداءهم شر ممزق . وفى اليوم الرابع واصل المسلمون القتال بضراوة وعنف ، وأحرقوا معدات الحصار التى كان قد نصبها الفرنج ، ثم تظاهروا بالكف عن القتال ، ودخلوا مدينتهم لقضاء فريضة الصلاة ، وهم ينوون المباكرة ، فانخدع الفرنج بذلك وظنوا أن القتـال فى ذلك اليوم قد توقف ، وما كادوا يخلعون جواشنهم ، ويلقون بدروعهم ، ويأوون إلى خيامهم التماسا للراحة بعد القتال ، حتى كر عليهم المسلمون ، وخيوط الظلام قد بدأت تنتشر فى الأفق ، ففتكوا بهم فى داخل خيامهم ، وقتلوا منهم أعدادا هائلة ، ولم يسلم من خياله الفرنج إلا من « نزع عنه لباسه ورمى نفسه فى البحر » ، وقبض المسلمون على الباقين باليد ، واقتحموا البحر على من فر بالمراكب فخسفوها وأغرقوها ، أما بقية مراكب الفرنج فقد ولت هاربة (١) .

ثم أقلع الأسطول الصقلى بالناجين منهم عن الثغر فى اليوم الخامس من حصارهم للاسكندرية ، أى فى مستهل المحرم سنة ٥٧٠ هـ .

ب — أحداث الإسكندرية الداخلية :

كان من الصفات البارزة فى صلاح الدين تقواه وورعه ، وشدة تعظيمه لشعائر الدين ، وكان من مناقبه أيضاً غيرته على الإسلام ، ويبدو أنه — فى

---

(١) أبو شامة ، ص ٦٠٠ — ابن واصل ، ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ — السلوك ، ج ١ ص ٥٧

أول سلطنته — قد أمر بغلق حانات الاسكندرية، ومنع أهلها من تعاطي الخمور تطهيراً لهذه المدينة مما يدنسها ، ولكن قرار المنع لم يطبق طويلا، إذ لم تلبث الحانات أن فتحت بالإسكندرية في سنة ٥٦٧ « ببذل مال للديوان نجم الدين أيوب ، ففتحت مواضعها، وظهرت مناكرها » (١)، وكثرت بيوت المزر (أي الجعة) بالإسكندرية إلى حد أنه أمر بهدم مائة وعشرين بيتاً لها في سنة ٥٧٧ هـ (٢) .

وساد الهدوء مدينة الإسكندرية طوال العهد الأيوبي ، فلم تقع فيها فتن خطيرة كما كان يحدث من قبل في العصر الفاطمي ، باستثناء حركتين لا أهمية لها : إحداهما وقعت في سنة ٥٨١، عندما قام العوام بنهب ما كان راسياً بالميناء من المراكب الرومية ، وقد تمكن المسئولون من القبض على عدد منهم ، وقدم المظفر تقي الدين عمر خصيصاً لتفقد الحالة في المدينة بعد هذا الاضطراب (٣) . والثانية حدثت في سنة ٦٠٨ عندما اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف تاجر من تجار الفرنج وقاموا بثورة ضد أهل المدينة ، مستغلين في ذلك قدوم بطسة إلى الميناء بها ملكان من ملوك الفرنج ، وحاولوا أن يقتلوا الأهالي ويستولوا على المدينة ، وعندئذ توجه الملك العادل أبوبكر إلى الإسكندرية ، وقبض على التجار المذكورين وعلى ركاب البطسة ، واستصفى أموالهم وزج بهم في السجن (٤) .

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في الإسكندرية الوباء الذي انتشر

(١) السلوك، ج ١ ص ٤٥
(٢) نفس المصدر، ص ٧٣
(٣) نفس المصدر، ص ٩٠
(٤) المقريزي ، الخطط، ج ١ ص ٣٠٦ — السلوك، ج ١ ص ١٧٥

بمصر والإسكندرية نتيجة للمجاعة وما نتج عنها من الغلاء وارتفاع السعر ، وتذكرنا هذه المجاعة الخطيرة بالشدة العظمى التى تعرضت لها مصر فى زمن الخليفة المستنصر الفاطمى ، فقد كثرت « الأموات بالإسكندرية وتزايد وجود الطرحى بها على الطرقات . وعدمت المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال . وشوهد من يبحث المزابل القديمة على قشور الترمس ، وعلى نقاضات الموائد وكناسات الآدر ، ومن يقفل بابه ويموت ، ومن عمى من الجوع ويقف على الحوانيت ويقول : أشمونى رائحة الخبز » (١) . واشتد الغـــلاء والوباء بمصر فى سنتى ٥٩٦ ، ٥٩٧ فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، ويذكر المؤرخون أنه صلى أمام جامع الإسكندرية فى يوم واحد على سبعمائة جنازة(٢) . ويؤكد هذا القول الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى حضر بنفسه هذه المحنة وكان معاصراً لهـا ، إذ قال « وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ، وأن تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر إلى أربعة عشر وارثاً ، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفاً انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها » (٣) .

(١) السلوك ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، وراجع التفصيلات فى كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٩ — ٣٢

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ص ١٧٤ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٥

(٣) عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار ، القاهرة ١٢٨٦ ص ٥٨

الفصل التاسع

الاسكندرية فى ازهى عصورها الإسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

(١) مظاهر عناية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالإسكندرية .

١ — الزيارة الأولى فى سنة ٦٦١ هـ .

٢ — ما أجرى فى الإسكندرية من أعمال إصلاحية فيما بين زيارتى السلطان الأولى والثانية .

٣ — الزيارة الثانية فى سنة ٦٦٤ هـ .

٤ — الزيارة الثالثة فى سنة ٦٦٨ هـ .

٥ — حركة الأسطول فى سنة ٦٦٩ هـ .

٦ — الزيارة الرابعة فى سنة ٦٧٣ هـ .

(٢) الإسكندرية فى عصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وخلفائه حتى الأشرف شعبان .

ا — أعمال الناصر محمد بالإسكندرية .

١ — ترميم منار الإسكندرية .

٢ — حفر خليج الإسكندرية الجديد أو الخليج الناصرى .

ب — ازدهار الإسكندرية فى عصر الناصر محمد .

ج — أحداث الإسكندرية الهامة فى عصر الناصر محمد وخلفائه .

١ — وقعة أهل الذمة فى رجب سنة ٧٠٠ هـ وربيع الآخر سنة ٧٢١

٢ — حركة تجار الفرنج بالإسكندرية فى سنة ٧٢٧ هـ .

٣ — سنة الفناء أو الوباء الأعظم فى سنة ٧٤٩ هـ .

٤ — الاحتفال بزيارة الأمير شيخو العمرى للأسكندرية فى سنة ٧٥٠

الفصل التاسع

الاسكندرية فى أزهى عصورها الإسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

(١)

مظاهر عناية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالاسكندرية (٦٥٨ ـ ٦٧٦ ﻫ)

يعتبر السلطان الملك الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكى يولى ثغر الإسكندرية اهتماما خاصا وعناية فاقت عناية من سبقه من الملوك والسلاطين ومن خلفه منهم على السواء ، على الرغم من المشاكل الخطيرة التى كانت تهدد دولته ، وتتمثل فى الخطرين الصليبى والمغولى ، بل إن هذين الخطرين كانا حافزاً له على زيادة الاهتمام بتحصينات الثغور المصرية بوجه عام والإسكندرية بوجه خاص ؛ ففى عام ٦٥٩ ﻫ ، وهو العام الثانى من سلطنته ، أمر بعمارة أسوار الإسكندرية (١) ، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر ، وبنى بثغر رشيد مرقباً لكشف البحر ورؤيته ، كما أمر بردم فم بحر دمياط ، وسير لذلك الغرض من القاهرة عدداً من الحجارين قاموا بقطع كثير من القرابيص ، وهى كتل الحجارة ، وإلقائها فى نهر النيل عند مصبه فى البحر شمالى دمياط ،

---

(١) راجع محيى الدين بن عبد الظاهر ؛ الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر — المقريزى ؛ السلوك ، ج ٢ ص ٤٤٦

حتى ضاق فمه ، وتعذر بذلك دخول المراكب منه إلى دمياط (١) .

وفى نفس الوقت خص البحرية بنصيب كبير من عنايته ، بعد أن أهملت إهمالا شديداً فى أواخر عصر الدولة الأيوبية (٢) ، فنظر فى أمر الشوانى الحربية ، واستدعى رجال الأسطول وندبهم للغزو ، وأمر بتزويد الأسطول بالشوانى ، وقطع الأخشاب لعمارتها وإنتاج عدد منها يماثل على الأقل عدد قطع الأسطول فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فى دارى صناعة الإسكندرية ودمياط (٣) ، ونزل بنفسه إلى دار صناعة مصر لترتيب صناعة الشوانى ، وزيادة اهتمام الصناع بالإنتاج ، وبالفعل زاد عدد السفن على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد .

وزار السلطان الملك الظاهر بيبرس ثغر الإسكندرية فى أيام سلطنته أربع

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٦ — الخطط ، ج ١ ص ٣٩٣ .

(٢) يذكر المقريزى فى الخطط أن الاهتمام بالأساطيل قل بعد عصر صلاح الدين وأصبح السلاطين لا يهتمون بها الا عند حاجاتهم إليها ، فاذا دعت الضرورة إلى تجهيز الأسطول كان المسؤولون يلقون القبض على الرجال فى الطرقات ، ويقيدونهم بالسلاسل نهاراً ويسجنونهم فى الليل حتى لا يتيسر لهم السبيل إلى الهرب ، وكانوا لا يوزعون عليهم الا شيئاً قليلا من الخبز ويعاملونهم معاملة أسرى العدو ، فأصبحت خدمة الأسطول « عارا يسب به الرجال ، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى ، غضب غضبا شديداً بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس » . ولما قامت دولة المماليك زاد إهمال السلاطين للاسطول ، حتى كانت أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذى تمت على يديه حركة الاحياء البحرى (راجع ، المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ١١١) .

(٣) المقريزى السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٧ — الخطط ، ج ٣ ص ١١١

مرات ، ترك فيها من الآثار فى كل زيارة ما نوه به المؤرخون وأشادوا بذكره ، وفيما يلى تفصيل بالأعمال الإنشائية والإصلاحات التى قام بها بيبرس أثناء زياراته للإسكندرية وفى الفترات التى تتخلل هذه الزيارات :

١ — الزيارة الأولى فى سنة ٦٦١ ﻫ :

عزم السلطان على زيارة ثغر الإسكندرية ، وإجراء بعض أعمال الإصلاح والتعمير بهذا الثغر الهام من ثغور دولته فى سنة ٦٦١ﻫ . ففى ٦ شوال من هذه السنة خرج من القاهـرة متوجها إلى الإسكندرية ، فوصل إلى تروجة ، وقضى بها أياماً للصيد فى بريتها فى صحبة أوليائه ، واهتم السلطان أثناء مقامه بتروجة بتزويد هذه المنطقة بمياه الشرب ، وأسند هذه المهمة إلى أحد حجابه وهو الأمير شجاع الدين الزاهدى ، وأحضر من الإسكندرية الرجال لحفر الآبار ونزحها من الأكدار ،وكان قد سبقه إلى ثغر الاسكندرية الصاحب بهاء الدين حنـا أحد وزرائه ، فحصل له من الإسكندرية مبلغاً كبيراً من المال قدره ٩٥ ألف درهم ، كما استقدم له عدداً من الهدايا منها ٩٥ لفة من القماش السكندرى من الحلل والبندق الرفيع والجوخ الأحمر . ويذكر المؤرخون أنه لم يعامل أهلها بغير العدل ، ولم يضرب أحداً فيها بمقرعة (١) .

وعلى هذا النحو مهد الوزير بهاء الدين بن حنـا الطريق أمام السلطان لزيارة الإسكندرية ، ثم تحرك موكب السلطان ، وضرب مخيمه بظاهر المدينة ، التى زينت له أحسن زينة ، ونصبت فيها الأبرجة ، وأخرج أهل

(١) ابن واصل ، تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين المعروف بتاريخ ابن واصل وهو نفس مفرج الكروب، صورة شمسية من مخطوطة باريس محفوظة بمكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ٦٤ مخطوط ، ص ٤٢٤ أ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ — ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٨٤ من النص المنشور

الإسكندرية ما عندهم من العـدد الخاصة بالجهاد من القسى والعماريات والزرد والخوذ والطوارق والجوبان والكزغندات ، وزينوا بها الشوارع والأسواق ،وأمر السلطان بألا يقيم بالثغر جندى ، وألا ينزل أحد فى دار(١).
ثم دخل بيبرس الإسكندرية فى مستهل ذى القعدة من باب رشيد ، فتلقاه الناس بالسرور والفرح والدعاء والابتهال إلى الله تعالى بدوام ملكه ودوام عزه ، « واستدعى السلطان بالخزائن والأمتعة ، وشرع فى تعبئة ما يعبيه للأمراء على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب برد مال السهمين وصلة أرزاق الفقراء ، وسامح بما كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار عن كل قنطار يباع من (البهار) ، ولعب بالكرة ، وخلع على جميع الأمراء ، وأعطى الأتابك (٢) ثلاثة آلاف دينار ، وأعطى الأمراء على حسب مراتبهم » (٣) .

وانتهز السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فرصة وجوده بثغر الإسكندرية لزيارة شيخين من كبار شيوخها فى هذا العصر كانا موضع إجلال أهـــل الإسكندرية وتعظيمهم ، هما الشيخان القبـــارى (٤)

---

(١) ابن واصـــل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ أ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ — العينى ، عقد الجمان ، صورة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، القسم الثالث من الجزء الأول ، ص ٤٩٦ .

(٢) يقصد به الأتابك الأمير فارس الدين أقطاى

(٣) السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ — العينى ، ص ٤٩٦ . وقد ورد النص سطولا فى تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ ب — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٤

(٤) هو الشيخ الزاهد الصالح أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى المالكى الاسكندرى المعروف بالقبارى أحد العباد المشهورين بكثرة الورع والتحرى فى المأكل=

والشاطبي (١) مقلداً في ذلك ما كان يفعله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب عندما كان يزور الشيخين ابن عوف والحافظ السلفي أثناء زياراته للثغر، بقصد التبرك بدعائهما، والتقرب إلى قلوب أهل الاسكندرية . ف.كب السلطان لزيارة الشيخ القباري في خلوته من جبل الصيقل غربي الإسكندرية فاشترط عليه الشيخ المذكور لرؤيته أن يكلمه من البستان ويبقى الشيخ في عليته (٢)

=والمشرب والملبس، معروف بالانقطاع والتخلي وترك الاجتماع بأبناء الدنيا، والاقبال على ما يعينه من أمر نفسه، وقد اختار لنفسه طريقاً صعبا من العسير على أحد من معاصريه وأبناء زمانه أن يسلكه، لخشونة عيشه، والوحدة مع الجد والعمل والاحتراز من الرياء . وتوفى الشيخ القبارى في ليلة الاثنين ٦ من شعبان سنة ٦٦٢ هـ ببستانه بجبل الصيقل من ظاهر الاسكندرية، ودفن به بوصية منه . وبعد وفاته بيع أثاث بيته وقيمته دون الخمسين درهما ورقا بما يزيد على عشرين ألف درهم تزايد الناس فيه التماساً للتبرك به حتى بلغ الابريق الذى كان يستعمله ويتوضأ فيه للصلاة مبلغاً عظيما من المال . وكان رفيق القلب يشفق على الناس من الظلم، فعندما رأى ما ينالهم من من العسف والظلم في حفر خليج الاسكندرية في سنة ٦٦٢ هـ أعرض عن ماء الخليج، وحمله التناهى فى الورع على أن يحفر لنفسه بئرا، كان يشرب منها، وينقل منها الماء بالجرار على دابة ليسقى بستانه. (راجع : اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج ٢ ص ٣١٥ — السيوطى، ج ٢ ص ٢٤٨ — جمال الشيال، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى، ص ٢٢٥ — ٢٣٠).

(١) هو الفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبو عبد الله بن محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى أحد أولياء الله الصالحين المشهورين فى الثغر بالعبادة، وكان يجمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلى عن الناس، والتمسك بطريقة السلف . وقد انقطع لعبادة الله فى رباط سوار بالاسكندرية، بتربة أستاذه أبى العباس الراسى، وتوفى فى الاسكندرية فى رمضان سنة ٦٧٢ هـ . ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته (المقرى، نفح الطيب، ج ٣ ص ٣٤١).

(٢) العلية، هى غرفة عليا بارزة عن سمت جدار الدار، تطل على الطريق بواسطة نافذة مشبكة .

دون أن يتكلف السلطان مشقة الصعود ، والشيخ مشقة النزول (١) ، فنزل السلطان على شرط الشيخ ، وقابله ، وجرى فى أثناء المقابلة حديث ثغر الإسكندرية وعمارته ، « فللوقت تقدم السلطان باستتابة إشارة الشيخ ، ووقع بعد ذلك التعيين على القاضى ناصر الدين أحمد (٢) ، ففوض إليه الخطابة والقضاء ، ورسم له بالخلع وكتابة التقليد ، وأمر بالوصية على القاضى بدر الدين بن أبى الفرج القاضى المعزول ، وكف الأذى عنه ، وأبقى جامكيته ، وما كان له عليه ، وأن تزاد حرمته وإكرامه ، وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ أعاد الله بركته » ، ثم طاف على أسوار المدينة ونظر فيها ، وأمر بما يجب فى أمرها . ثم زار الشيخ الشاطبى ، واستعرض حوائجه ، فقال الشيخ : « ليست لى حاجة لأن راتب السلطان علينا ونحن فى نعمته فى إنعام يفضل علينا وعنـا » ، ثم زار السلطان بعد ذلك قبور مشايخ الثغر (٣) .

وفى أثناء مقام السلطان بالإسكندرية حضر إليه رجلان من أهل الثغر ، أحدهما يقال له زين الدين بن البورى ، والثانى يعرف بالمكرم بن الزيات ،

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ص ٤٩٩ — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٥

(٢) هو القاضى المشهور أبو العباس أحمد بن المنير أحد الأئمة المتبحرين فى العلم ، ولاه السلطان مكان قاضى الاسكندرية زين الدين أبى الفرج الاسكندرانى ، ولكن ما كاد السلطان يرحل من الاسكندرية فى ١٨ ذى القعدة إلى قلعة الجبل حتى عزل ابن المنير وفوض قضاء الثغر لأحد فقهاء القاهرة الزاهدين وهو الفقيه برهان الدين بن ابراهيم بن محمد بن على البوشى المالكى ، بينما فوض الخطابة للقاضى زين الدين أبى الفرج (اليونينى ، ج ٢ ص ١٩٦ — ابن عبد الظاهر ، ص٨٦ — السلوك ، ص ٥٠٠).

(٣) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٥ أ

ادعيا أمامه أن بالثغر أموالا ضائعة وكتبا بها أوراق ، فاستدعى السلطان فى ٦ من ذى القعدة الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء ، وأمر بقراءة الأوراق ، فقرئت ، « وصار كلما ذكر له باب مظلمة سده ، ويعود على المذكورين بالانكار . حتى انتهت القراءة ، فقال : اعلموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار من التصقيع والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النخل ، فعوضنى الله من الحلال أكثر من ذلك ، وطلبت جرائد الحساب ، فزادت بعد حط المظالم جمله ، من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً »(١) ، وأمر السلطان باشهار ابن البورى ، فأشهر وأنعم على الأمراء الذين معه بالقماش والخلع .

وفى اليوم الثامن من ذى القعدة جلس السلطان بدار العدل بالاسكندرية ، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات (٢) . وفى أثناء مقام السلطان بالثغر أمر بكسوة الجامع الغربى وعمل قناديله وعمارته من ماله ، وفى يوم الجمعة « ركب الملك الظاهر وحضر إلى الجامع ، وبسط المقصورة التى جرت عادة الملوك أن تصلى فيها لسماع الخطبة ، فجلس تحت المنبر ، وخطب الخطيب ، فأمره بالدعاء لولى العهد بعده الملك السعيد بركة خان وللملك بركة »(٣)

---

(١) السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ — عقد الجمان ، ص ٤٩٧

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٥٠٠ . والمقصود بالخواطى ، الداعرات من النساء اللاتى يحترفن البغاء. وقد أمر السلطان فى سنة ٦٦٧ هـ باراقة الخمور وابطال المفسدات والخواطى من الديار المصرية والشامية ، وحبست الخواطى حتى يتزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بذلك ، وأسقطت الضرائب التى كانت مرتبة على الدعارة (السيوطى حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٦)

(٣) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ ب — ابن عبد الظاهر ، ص ١١٦

٢ — ما أجرى فى الاسكندرية من أعمال إصلاحية فيما بين زيارتى السلطان الأولى والثانية :

كان خليج الإسكندرية عند فوهته قد امتلأ بالرواسب الطينية ، الأمر الذى أدى إلى قلة وصول مياه النيل إلى ثغر الاسكندرية ، فعزم السلطان على إزالة هذه الرواسب ، واعادة حفره ، فسير الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار ، فابتدأ بالحفر من النقيدى تحت مباشرة المعلم تعاسيف ناظر الدواوين ، إلى أن طهر فم الخليج مما كان راسبا فيه من الطين ، وأنشأ هناك مسجداً (١) .

وفى هذه الآونة رسم الظاهر فى شعبان من هذه السنة بتكملة عمارة بئر الليونة الواقع غربى الاسكندرية وإنشاء بستان فيها حتى تكون منزلا من المنازل التى يخيم بها السلطان عند توجهه إلى منطقة الحمامات للصيد(٢) .

٣ — الزيارة الثانية فى سنة ٦٦٤ ه :

وفى صفر سنة ٦٦٤ ه رحل السلطان إلى الاسكندرية للمرة الثانية عندما بلغه شكوى أهل الاسكندرية من عدم وصول الماء إليها فى سائر شهور السنة ، بسبب ما تكدس من الرمال فى المجرى الممتد من النقيدى إلى فم الخليج فسير لحفره الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، ثم خرج من قلعة الجبل وبصحبته عامة الأجناد والأمراء ، وباشر الحفر بنفسه ، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس حتى زالت الرمال .

(١) المقريزى ، السلوك ، ص ٥١٠ — الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ — العينى ص ٥٠٢

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٩٣ — العينى ، عقد الجمان ، ص ٥٠٢

ويذكر عمر طوسون أنه طهر الترعة ما بين النقيدى وشابور ، كما طهر المرحلة ما بين منية ببيج ودمنهور ، واستدل على ذلك من وجود قرية تسمى الضهرية ، إحدى قرى مركز إيتاى البارود (وصحة الإسم الظاهرية نسبه إليه) بدلا من الاسم القديم منية ببيج ، كذلك يستند فى رأيه على أن ترعة الضاهر الحالية تحمل اسم الظاهر بيبرس مما يدل على أنه أجرى فيها بعض الأعمال(١). وعلى الرغم من ذلك فقد توقف جريان الماء فى خليج الاسكندرية فى معظم شهور السنة ، واضطر الأهالى إلى الاعتماد على الصهاريج فى السقاية والشرب(٢). ويذكر أبو المحاسن أنه بنى على خليج الاسكندرية بالقرب من قنطرتها القديمة قنطرة عظيمة بعقد واحد (٣) .

٤ — الزيارة الثالثة فى ٦٦٨ هـ :

بينما كان الظاهر بيبرس يحاصر حصن الأكراد حتى ٢٨ من رجب سنة ٦٦٨ هـ ، بلغه أن مراكب الفرنج دخلت ميناء الاسكندرية ، واستولت على مركبين للمسلمين ، فأزعجته هذه الأنباء ، وبادر بالرحيل من فوره إلى الديار المصرية ، فوصل إلى القاهرة فى ١٢ شعبان من نفس السنة ، وهناك ورد الخبر بأن « اثنى عشر مركباً للفرنج عبروا على الاسكندرية ودخلوا ميناءها وأخذوا مركباً للتجار واستأصلوا ما فيه وأحرقوه ، ولم يجسر والى الاسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبة رئيسها فى مهم استدعاه الملك الظاهر بسببه » ، فخشى الظاهر بيبرس أن يكون هذا الاعتداء مقدمة لحملة صليبية واسعة

(١) عمر طوسون ، تاريخ خليج الاسكندرية القديم ، ص ٢٣ ، ٢٤

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٣

النطاق ، وكان قد بلغه أن عدداً من ملوك الفرنج قد اجتمعوا بصقلية ، وشرعوا فى تجهيز الأساطيل دون أن تحدد وجهتهم ، فاهتم السلطان بتحصين الثغور ، وإعداد الشوانى ، وحفظ السواحل ، وعمر الجسور إلى دمياط (١) ولكن بدلا من أن تتوجه الحملة الصليبية المتوقعة إلى مصر ، توجهت إلى تونس فى عصر المستنصر الحفصى ، فكتب بعض أدباء المستنصر واسمه احمد بن اسماعيل الزيات يقول :

أفرنسيس تونس أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

فقضى الله أن يموت لويس التاسع فى هذه الحملة وهو على أبواب قرطاجنة سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠م) (٢).

وكان الظاهر قبل أن تصله هذه الأنباء قد اتخذ حذره ، وبالغ فى الاحتياط والاستعداد ، فأمر بقتل الكلاب بالاسكندرية ، ومنع الناس من فتح حوانيتهم بعد المغرب ، ومن إيقاد أى نار بها أثناء الليل (٣) ، كما أمر بالاهتمام بتحصين الاسكندرية . وفى ذى الحجة أمر بعمل جسرين على مراكب أحدهما يصل بين مصر وجزيرة الروضة ، والآخر بين الجزيرة والجيزة ، ليسهل لعسكره العبور عليها نحو الاسكندرية إذا طرقها العدو .

ثم خرج السلطان إلى الاسكندرية فى ٢١ صفر سنة ٦٦٨هـ وبصحبته

(١) العينى ، ص ٥٥٨

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٩٣ — المقرى ج ٤ ص ٩٠ — مذكرات جوانفيل ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣١٣ — جوزيف نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٣٥٨

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٨ ، ١٤٩

ولده الملك السعيد وسائر الأمراء ، وكان الصاحب بهاء الدين بن حنا قد سبقه إليها ، وحصل الأموال والقماش للخلع ، فخلع السلطان على الأمراء ، وحمل إليهم التعبية والنفقة ، ولعب الكرة بظاهر الاسكندرية (١) ، ثم توجه إلى الحمامات بغربى الاسكندرية ، ونزل بالليونة وابتاعها عن وكيل بيت المال (٢)..

٥ — حركة الأسطول سنة ٦٦٩ هـ :

اهتم الظاهر بيبرس بانشاء أسطول حربى قوى يحمى سواحل مصر والشام من غارات الفرنج ويسهم فى العمليات الحربية ، فبذل جهوداً ضخمة لتجميع عدد من السفن بقصد غزو جزيرة قبرص ، وذلك عندما علم بخروج صاحب قبرص للاغارة على عكا ، مستغلا فى ذلك خلوها من سفن القبارصة ، فسير لهذا الغرض سبعة عشر شينيا فى شوال سنة ٦٦٩ هـ ، قود على سفن مصر الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور ، وعلى سفن الاسكندرية شهاب الدين محمد بن ابراهيم بن عبد السلام رئيس البحر بالاسكندرية ، وعلى أسطول دمياط شرف الدين علوى بن أبى المجد علوى العسقلانى ، ثم قدم الرئيس جمال الدين مكى بن حسون على جميع قطع هذا الأسطول ، وأبحرت السفن نحو قبرص ، وعندما اقتربت منها عمل ابن حسون على مباغتة الفرنج بالهجوم ، فنصب على أعلام الشوانى صلبانا (٣) حتى يوهم القبارصة بأنها سفن مسيحية

(١) يبدو أن المنطقة الواقعة خارج باب البحر كانت تتخذ ملعباً للكرة لاتساع الفضاء هناك واستداده ، وصلاحيته لهذه اللعبة .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٥٨٤ — اليونينى ، ج ٢ ص ٤٣٣ — النجوم ، ج ٧ ، ١٤٧

(٣) النجوم ، ج ٧ ص ١٥٤ — سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٨

ثم وصلت السفن المصرية إلى الجزيرة ليلا ، ولكنها تعرضت لعاصفة عاتية أبعدتها عن مرسى ليماسوس (ليماسول) ، واصطدم الشيني المتقدم في الطليعة ببعض الشعب فانكسر ، واصطدمت به بقية الشواني ، فتحطم من السفن ما يزيد على إحدى عشرة سفينة ، وقيل تحطمت كلها ، وأسر الفرنج من فيها من الرجال والصناع ، وكانوا زهاء ألف وثمانمائة نفس ، ونجا الرئيس ابن حسون في الشواني السالمة (١) ، فعظم ذلك على الظاهر بيبرس (٢) ، وعزم على إنشاء شواني جديدة عوضاً عن الشواني المفقودة ، وأمر بإنشائها في دور صناعة مصر والاسكندرية ودمياط ، وانتهى العمل منها في ١٤ من المحرم سنة ٦٧١ هـ (٣) ، وشاهدها في ٢٧ من جمادى الآخرة ، واحتفل باستكمالها وإعدادها للسفر . كذلك احتفل بيبرس بنصب ١٠٠ منجنيق على أسوار

---

(١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٧ ص ١٠ — النجوم ، ج ٧ ص ١٥٤

(٢) يجعل المرحوم الدكتور الشيال هذه الغزوة البحرية في سنة ٦٥٨ أي في نفس السنة التي تولى فيها بيبرس السلطنة بعد أن اغتال قطز . والواقع أن بيبرس لم يبرح مصر قبل سنة ٦٥٩ ، كما أن حادثة مراكب الفرنج التي أبلغ بيبرس بدخولها في ميناء الاسكندرية لم تقع في سنة ٦٥٨ ، وقد أشرنا إلى التاريخ الصحيح عند دراستنا لزيارة بيبرس الثانية للاسكندرية . كذلك لا يمكننا أن نرجع حملة لويس التاسع على تونس إلى سنة ٦٥٨ كما يشير المرحوم الدكتور الشيال لأن هذه الحملة وجهت إلى تونس في سنة ٦٦٨ . والظاهر أن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد خطأ مطبعي . (راجع جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ١١٣ ، ١١٤) .

(٣) الخطط ، ج ٣ ص ١١٤ — النجوم ج ٧ ، ص ١٥٥

الاسكندرية ، لكثرة ما تردد عن حركة الفرنج لقصد ثغور الديار المصرية(١)

أما أسرى المسلمين بقبرص ، فقد أرسل السلطان الأمير فخر الدين المقرى الحاجب إلى صور لافتدائهم ، فتغالى الفرنج فى الرؤساء ، وتمسكوا بستة ، منهم رئيس الاسكندرية ،ورئيس دمياط وأبو العباس المغربى وغيره ،وضعهم الفرنج بسجن حصين فى قلعة عكا ، فأرسل السلطان إلى الأمير سيف الدين خطلبا أحد نواب السلطنة بصفد ، يأمره بالتحايل على إخراجهم من السجن ، وبفضل إرشاء المتوكلين بهم ، تمكن من إدخال بعض المبارد والمناشير إليهم ، وبهذه الطريقة نجحوا فى كسر أعمدة الحديد وخرجوا من جب القلعة ، وركبوا سفينة ، حملتهم إلى مصر دون أن يدرى أحد فى عكا بخبرهم إلا بعض رحيلهم ، وسبب ذلك قيام فتنة كبيرة بعكا (٢) .

٦ — الزيارة الرابعة فى ٦٧٣ ه :

كانت بعض أركان منار الاسكندرية قد تصدعت ، وسقط جانب كبير منها على مر السنين ، فعزم السلطان بيبرس على زيارة الاسكندرية للتصديد وترميم ما وهى من بنيان المنار . ففى سنة ٦٧٣ دخل السلطان الاسكندرية ، وأمر ببنيان ما تهدم من المنار ، ورتب البناء على الممشى الذى حوله من أسفل عند المطلع (٣) ، ثم أقام مسجداً فى أعلى المنا ر (٤) . وذكر السيوطى أن وجه

(١) المقريزى ، السلوك ، ص ٦٠٨ — الخطط ج ١و٣٠٦ ، ج ٣ ص ١١١

(٢) ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٣ — السلوك ، ص ٦١٥

(٣) ابن الفرات ، ص ٢٥ — السلوك ، ص ٦١٦

(٤) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٩٧ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٧

المنارة البحرى تداعى وكذلك الوجه الذى يتقدمها من جهة البحر ، وكادا ينهدمان ، فرممهما بيبرس وأصلحهما (١) .

وكانت هذه الزيارة هى خاتمة زيارات بيبرس للاسكندرية ، وقد رأينا مدى ما خص به هذا السلطان الثغر السكندرى من عناية واهتمام ، بحيث أصبح هذا الثغر بحق أعظم ثغـور مصر كما كان موضعا للنزهة والفرجة ، بدليل أن المنصور صاحب حماة طلب من بيبرس أن يأذن له بزيارة الاسكندرية فأذن له ، فخرج إليها فى سنة ٦٦٥ هـ للفرجة (٢) ، وفى الاسكندرية أقام الشيخ خضر أبو بكر بن موسى المهرانى مسجداً سماه المدرسة الخضراء على أنقاض كنيسة للروم (٣) ، وأنفق على بناء المدرسة المذكورة مالا كثيراً من بيت المال ، وتعرف هذه المدرسة اليوم بزاوية سيدى خضر ، وتقع اليوم بشارع مسجد تربانة برأس التين (٤) .

---

(١) السيوطى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٧ — العينى ، ص ٥٣٢ — السلوك ، ص ٥٥٦

(٣) ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٠٣ — أبو المحاسن ، ج ٧ ص ١٦٢

(٤) أبو المحاسن ، ج ٧ ص ١٦٢ هامش رقم ٣

(٢)

الأسكندرية فى عصر السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وخلفائه حتى الأشرف شعبان

(١) أعمال الناصر محمد بالاسكندرية :

تابع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ – ٦٩٤ ، ٦٩٨ – ٧٠٨ ، ٧٠٩ – ٧٤١ هـ) سياسة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى العناية بثغر الاسكندرية ، على الرغم من عدم قيامه بزيارتها(١). ويتمثل اهتمام الناصر محمد بثغر الاسكندرية فى إصلاحين عظيمين قام بهما : الأول ترميمه لمنار الاسكندرية ، والثانى حفره للخليج الناصرى .

١ – ترميم منار الاسكندرية :

شهدت مصر فى يوم الخميس ٢٣ من ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ زلزالا عنيفاً عند طلوع الشمس ، اهتزت له أرض مصر كلها إلى القاهرة وأعمال الديار المصرية ودمشق والسواحل ، وإن كان أثره فى مصر أشد وأعظم من الشام ، إذ تساقطت له الدور ، وتشققت الجدران ، وانهارت مآذن

(١) لم يخرج السلطان الناصر محمد إلى نواحى الاسكندرية إلا للصيد مرتين ، احداهما فى سنة ٧٠٣هـ، نزل فيها بتروجة (السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٥٥) ، والثانية فى سنة ٧٢١ عندما خرج إلى البرية متصيداً حتى وصل إلى الحمامات بغربى الاسكندرية (أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٧ ص ١٠٦)

المساجد والمدارس ، وأحدث هذا الزلزال بالاسكندرية أضراراً جسيمة ، فكان تأثيره فيها أعظم من غيرها ، فقد « طلع البحر الى نصف البلد ، وأخذ الجمال والرجال ، وغرقت المراكب »(١) . وذكر المقريزى أن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة ، والبحر هاج [illegible] الرياح العاتية أمواجه حتى باب البحر ودار الصناعة، فغمرتهما، وحملت المراكب الافرنجية الراسية بالميناء الشرقية إلى البر ، ولطمت الأسوار بشدة ، فتهاوى من السور ست وأربعون بدنة وسبعة عشر برجاً (٢) ، وأتلف مد البحر قماش التجار بالقصارين (٣) ، وهلك بسببه عدد كبير من أهل الاسكندرية تحت الأنقاض (٤). فاهتم السلطان بعمارة ما تهدم فى الاسكندرية (٥) ، وتم ذلك فى شهور سنة ٧٠٣ هـ على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٦).

ولكن يبدو أن إصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم التى أجراها الأمير بيبرس ، فسقط جانب كبير منه ، وشاهده الرحالة ابن بطوطة فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) أثنـــاء مروره بالاسكندرية فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فقال : « قصدت المنار فى هذه الوجهة ، فرأيت أحد جوانبه متهدما » ، ولما زاره بعد ذلك بخمس وعشرين عاماً ، أى فى سنة

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٦٠ — السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٤٣ ، ٩٤٤

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، أحداث سنة ٧٠٢ هـ

(٤) أبو الفداء ، ج ٧ ، ص ٦٠ — السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٤٣

(٥) السلوك ، ص ٩٤٤

(٦) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

٧٥٠ هـ (١٣٤٩–١٣٥٠ م) فى طريق عودته إلى المغرب رآه « قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود (١) إلى بابه » ، ويشير إلى أن السلطان الملك الناصر محمد كان قد شرع فى بناء منسار مثله بازائه (٢) فعاقه الموت عن إتمامه (٣).

ونقل السيوطى عن ابن فضل الله العمرى أن هذه المنارة خربت وبقيت أثراً بعد عين ، فى أيام قلاوون أو ولده (٤) ، وذكر النويرى السكندرى أنه لم يكن

(١) أورد الأستاذ ليفى بروفنسال وصفاً للمنـــار فى بداية الرابع الهجرى لابن عبد المنعم الحميرى ، ذكر فيه أن هذا المنار من دخله ولم يعرف مسالكه تاه فيه وضل لأن طرقه تؤول إلى أسفله وإلى البحر ، وروى أن صاحب المغرب حين وصل إلى الاسكندرية فى خلافة المقتدر العباسى دخل جماعة من المغاربة المنار على خيولهم ليروا ما فيه من الغرائب ، فتاهوا وضلوا الطريق ، وفقد منهم عدد كبير . (راجع Lévi-Provençal, une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie, dans "Mélanges Maspero, III, Orient Islamique", Le Caire, 1940, p. 166)
و روى صاحب الاستبصار أنه يرق إلى الباب من أسفل المنارة إلى أعلى الحزام الأول فى طريق يمشى فيه فارسان متناكبان فى أرض سهلة لا يكاد الراقى يعلم فيه هل هو راق أو ماش (الاستبصار ص ٩٦)

(٢) أتم الأمير صلاح الدين خليل بن عرام والى الاسكندرية فى سلطنة الأشرف شعبان بناء حصن دائر حول أساس هذا المنار الجديد الذى لم يكن العمل قد استكمل فيه ، وركب لهذا الحصن بابا ضخماً ، اقتلعه القبارصة بعد ذلك فى أثناء غزوتهم فى سنة ٧٦٧ هـ . (النويرى السكندرى ، الالمام ، ص ٨٣ ب)

(٣) ابن بطوطة ، ص ٢١

(٤) السيوطى ، ج ١ ص ٤٤

قد تبقى من المنارة فى سنة ٧٧٥ ﻫ إلا بقعة أساسها (١) . وظلت أسس المنار قائمة حتى أيام المقريزى ، إذ أشار إلى أن المنار « باق إلى يومنا هذا » (٢) يقصد إلى أيامه . أما المنار الجديد الذى أشار إليه ابن بطوطة ، فهو معلم جديد من معالم الاسكندرية الاسلامية شرع فى بنائه فى زمن الناصر محمد عند نهاية الصخور المتصلة برأس السلسلة ، وتم فى عهود من خلفه من السلاطين (٣) . ويعرف فى الوقت الحاضر بطابية السلسلة (٤) .

٢ — حفر خليج الاسكندرية الجديد أو الخليج الناصرى :

ومن أعظم مآثر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الاسكندرية حفره لترعة جديدة هى الخليج الناصرى فى سنة ٧١٠ ﻫ (١٣١٠م) وذلك بعد أن طمرت الرمال الترعة القديمة ، وتعطل جريان الماء فيها بطول السنة منذ سنة ٦٦٤ ﻫ حتى سنة ٧١٠ ﻫ . وفى هذه السنة تقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخازندارى (٥) إلى السلطان الملك الناصر محمد بالقلعة ، وعرض عليه فكرة

(١) النويرى السكندرى ، الالمام ، نسخة دار الكتب ، ص ١٠١ أ

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

(٣) جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، ص ٢٣٣

(٤) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص ١٤٧

(٥) هو الأمير بكتوت أمير شكار الخازندارى أحد مماليك الأمير بيايك الخازندار نائب السلطنة بمصر فى أيام الظاهر ، ثم تدرج بكتوب فى المناصب حتى ذاع صيته فى أيام العادل زين الدين كتبغا ، فولاه أمير شكار ، ثم تولى على الاسكندرية وكثر ماله . وعظم قدره فى أيام سلار وبيبرس الجاشنكير ، وتوفى بعد أن عزله عنها فى ٨ رجب سنة ٧١١ ﻫ (راجع المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ١١١ — الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٢ — النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢١٧)

إعادة حفر الخليج المذكور ، وحسن له وضعها موضع التنفيذ لضمان استمرار وصول الماء إلى الاسكندرية صيفاً وشتاء ، وذكر له ما فى ذلك من المزايا والفوائد التى لخصها المقريزى فيما يلى : « أولها حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الاسكندرية فى المراكب ، وفى ذلك توفير للكلف وزيادة فى مال الديوان ، وثانيها عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بانشاء الضياع والسواقى ، فينمو الخراج بهذا نموا كثيراً ، وثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم وشرب مائه دائماً » (١) .

واستحسن السلطان ما عرضه عليه الأمير بدر الدين بكتوت ، وأعجب برأيه ، فعهد إليه بحفر خليج الاسكندرية ، وندب لمساعدته فى ذلك الأمير بدر الدين محمد بن كيدغدى المعروف بابن الوزيرى ، وأمر جميع أمراء الدولة باخراج مباشريهم وأستاداريهم لحشد الرجال اللازمين للحفر من النواحى التابعة لاقطاعاتهم. فاجتمع لذلك ما يقرب من أربعين ألف رجل جمعوا فى نحو عشرين يوماً . وبدأ العمل فيه فى شهر رجب سنة ٧١٠ هـ ، وخصص لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل . وبلغ قياس المجرى الجديد المحفور من فم نهر النيل إلى شنبار (أبو حمص الحالية) ثمانية آلاف قصبة حاكمية ، ومن شنبار إلى الاسكندرية مثل هذا العدد ، وبلغ عمق المجرى ست قصبات فى حين بلغ عرضه ثمانى قصبات . وكان الخليج الأصلى يدخل الماء إليه من حد شنبار . فلما انتهى الحفر إلى حد الخليج الأول ، أزادوا فى عمقه وفى عرضه بحيث أصبح المجرى فى الخليج المستحدث والقديم بحرا واحداً . ثم ركبت عليه السدود والقناطر (٢) . . وعثر فى الخليج القديم عند تعميق

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١ — السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ — النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢١٨

مجراه على شيء كثير من الرصاص المبنى تحت الصهاريج ، فأنعم به السلطان على الأمير بكتوت . ونتج عن حفر هذا الخليج أن كثر الماء ، وأصبحت السفن تجرى فيه طوال العام ، واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج ، وبادروا بالعمارة على جانبيه وأقاموا قرية جديدة عرفت بالناصرية (١) .

ويذكر المؤرخون أنه لم يمض غير قليل على حفر هذا الخليج حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان زرعت بعد أن كانت سباخاً ، وما يزيد على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم ، وما يزيد على الأربعين ضيعة ، وأكثر من ألف غيط بالاسكندرية ، وعمرت بفضله عدة بلاد ، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد عليه (٢) بعد أن كان سباخاً . وعندما انتهى العمل فى الخليج ، شرع الأمير بكتوت فى عمل جسر من ماله استمر العمل فيه ثلاثة أشهر ، وهو عبارة عن رصيف دك أساسه بالحجر والرصاص وكساه بالحجر والكلس ، وأقام له ثلاثين قنطرة ، وأنشأ بجواره خانا وحانوتاً ينزله الناس ، رتب فيه الخفراء ، ووقف على مصالحه رزقه . وقد بلغ جملة ما أنفقه عليه نحو ٦٠٠ ألف دينار مصرية ، إذا أخرج من هذا المبلغ ما أخذه من حجارة قصر قديم كانت أطلاله ما زالت قائمة خارج الاسكندرية(٣)

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ — النجوم ، ج ٩ ص ٢١٨ . ويذكر المقريزى أن هذه القرية عمرت بعد ذلك بفضل نزول زعيم العربان سقداد بن شماس بها ، فأقام هناك وأنشأ البيوت والسواقى والدواليب ، وعمر تلك الجهات ، وبقى عقبه بها من بعده (السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ٥٣٨) .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٣) لعله آثار القصر الرومانى الذى أشرنا إليه سابقاً ، وسماه الادريسى القصرين =

وما عثر عليه من الرصاص فى سرب كان يقوم عليه هذا القصر يمتد من جنوب المدينة إلى ما يقرب من البحر ، وما أنعم السلطان به عليه من الرصاص الذى عثر عليه فى مجرى الخليج القديم (١) .

ومنذ ذلك الحين لم يتوقف ماء الخليج عن الوصول إلى الاسكندرية حتى ما بعد سنة ٧٧٠ هـ عندما انقطع الماء بعد ذلك فى أغلب شهور السنة ، ولم يعد يصل إلى الاسكندرية إلا فى أوقات الفيضان ، على النحو الذى سنشير إليه فيما بعد .

وما أن تم الفراغ من حفر الخليج الجديد حتى أصبح الاتصال فى النيل بين الاسكندرية والقاهرة أمراً ميسوراً ، فعن طريق الخليج الناصرى خرجت حراقتان تحملان أبا الفداء المؤرخ مع صحبه (٢) ، كذلك ركب فيه الأمير شيخو بعد خروجه من سجن الاسكندرية فى حراقة حملته إلى القاهرة فى سنة ٧٥٢ هـ(٣) .

(ب) ازدهار الاسكندرية فى عصر الناصر محمد :

ازدهرت الاسكندرية فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ازدهاراً كبيراً ، وكثرت فيها الثروات بسبب اشتغال أهلها بالتجارة البحرية ، ويكفى

= وكانت أطلاله قائمة فى الموضع المعروف حالياً بمصطفى باشا .

Combe, Notes de Torographie Alexandrine, p 66

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٢ — السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ — النجوم ، ج ٩ ص ٢١٩

(٢) أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٩٨

(٣) السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٤٨

للدلالة على ذلك أن نذكر أنه عندما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن العلم بن هبة الله ناظر الخاص ، فى ١٤ ربيع الآخر سنة ٧٢٣ هـ وصودرت أملاكه ، أحصى ماله فى الاسكندرية ، فثبت أنه كان لديه خمسون ألف دينـار ، « ومن أصناف المتجر شيء كثير جداً ، منه ثمانون ألف قطعة خشب ، ومائة وستون ألف قنطار رصاص ، وبلغت قيمة الأصناف التى له فى الاسكندرية خمسمائة ألف دينار »(١) .

وعندما عزل الأمير بيبرس الحمدار الركنى عن ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة ٧٤٠ هـ ، وصودرت أملاكه بها ، ثبت أنه كان يربح من بيع الخمور وحدها ثلاثين ألف دينار ، ووجدت له بالاسكندرية جملة عقارات ، منها ثلاثون بستانا أقلها بألف دينار (٢) ، ووجدت له عدة دور وحوانيت وبساتين ، باعها جمال الكفاة ناظر الخاص بخمسمائة ألف وستين ألف درهم(٣)

ويبدو أن تجارة الخمور كانت من التجارات الرائجة المربحة بثغر الاسكندرية بسبب توافـر الكـروم فى منطقـة الرمل وكثرة تردد تجار الفرنج على الثغـر ، وكان بعض نواب الاسكندرية يحتكرون بيعها ، بينما كان بعضهم الآخر يتظاهـر بالتمسك بالدين ويسعى للتحبب إلى الفقهاء عن طريق إراقتها ، كما حدث عندما ولى الأمير بكتمر الحسامى ثغر الاسكندرية فى سنة ٧٢٣ هـ ، فأراق الخمور بها ، ومنع بيعها (٤) . ويروى المقريزى حادثاً يدل على عظم ما كان لدى تجار الاسكندرية من أموال

(١) السلوك ، ج ٢ ص ٢٤٤

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٨٨

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥٠

فيذكر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون خرج إلى منطقة البحيرة للصيد ، ونزل ببلدة تروجة ، وطلب من شهاب الدين أحمد بن عبادة ، وكيل جباية أموال أملاك السلطان دراهم يشترى بها جملة هدايا ، فلم يجد عنده من مال السلطان ما يكفيه ، فبعثه ليقترض من تجار الاسكندرية مبلغاً من المال ، فاجتمع ابن عبادة بالوزير ناصر الدين محمد بن الشيخى الذى كان موجوداً يومئذ بالاسكندرية وشكا له ما يعانيه السلطان من الضيق والحاجة ، وأنه قدم بقصد الاقتراض له من التجار مبلغاً من المال يكفى لشراء هدايا لجواريه ونسائه ، فوعده الوزير بأن سيقدم إلى السلطان ألفى دينار من الرسوم التى دفعها تجار من الفرنج قدموا إلى الثغر بتجارتهم فتحصل منهم على أربعين ألف دينار(١)

(ج) أحداث الاسكندرية الهامة فى عصر الناصر محمد وخلفائه :

ومن الأحداث الهامة فى الاسكندرية فى عصر الناصر ومن تلاه من السلاطين حتى أيام السلطان الأشرف شعبان ما يلى :

١ — وقعة أهل الذمة فى رجب سنة ٧٠٠ ، وربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ :

اجتمع قضاة القاهرة فى المدرسة الصالحية ، وقرروا بتحريض من أحد وزراء سلطان المغرب ، وجوب تمييز النصارى بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ، وإلزامهم بما شرطه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وذلك بعد أن تزايد ترفهم فى مصر والقاهرة ، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة والبغلات المزينة بالحلى الفاخرة ، وفى ارتداء الثياب الرقيقة والعمائم البيض . وفى يوم خميس العهد

(١) السلوك ، ج ١ ص ٩٥٥

الموافق ٢٠ من رجب جمع النصارى واليهود فى القاهرة ومصر وظواهرهما ، ورسم بألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء ، وألا يركبوا خيلا ولا بغالا ، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ، ونودى بذلك فى القاهرة ومصر ، وهدد من خالفه بسفك دمه .

فتألم النصارى من ذلك الاجراء ، وسعوا بالأموال فى إبطال ما تقرر ، « فاضطر النصارى إلى الإذعان ، وأسلم بعضهم أنفة من لبس العمائم الزرق وركوب الحمير » . فلما ورد على أهل الاسكندرية مرسوم السلطان فى أمر أهل الذمة ، هاجوا عليهم ، وهدموا كنيستين للنصارى بها ، كما هدموا دور اليهود والنصارى التى تعلو على دور جيرانهم المسلمين ، ودمروا مساطب حوانيتهم حتى أصبحت أدنى مستوى من مساطب المسلمين (١) .

ثم تجددت الحركة ضد النصارى فى الديار المصرية كلها فى ٩ ربيع الآخرة سنة ٧٢١ هـ ، وامتدت إلى الاسكندرية فى ١١ ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة ، إذ تجمع العامة ، وهاجموا الكنائس الأربعة بها وهدموها ، فركب الأمير بدر الدين المحسنى متولى الثغر ليدركها قبل أن تهدم ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان (٢). ويبدو أن هذا الاجراء أثار جماعة من النصارى على المسلمين ، فقاموا بحرق بعض المساجد والحواصل السلطانية بالقاهرة بالنفط والقطران ، فقبض عليهم ، وأحرق عدد منهم (٣) ، ثم نودى فى الاسكندرية بالزام النصارى بلبس العمائم الزرق ومنعهم من المباشرة

---

(١) السلوك ، ص ٩١٢

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ٢١٩ — الخطط ، ج ١ ص ٨٦

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٩

بالديوان (١) .

٢ — حركة تجار الفرنج بالاسكندرية فى سنة ٧٢٧ هـ :

وسبب هذه الفتنة الجديدة أن أحد تجار الفرنج خرج إلى ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامة للفرجة، وتعرض إلى صبى بقصد سيء، فأنكر عليه بعض المسلمين ذلك ، فتناول الفرنجى خفه وضرب به وجه الرجل ، فعظمت الفتنة ، وتجمع أهل الاسكندرية على الإفرنجى وحاولوا قتله ، فثار الفرنج لحماية صاحبهم ، فاشتبك المسلمون والفرنج فى قتال عنيف بالسلاح بظاهر الاسكندرية (٢) ، وقيل فى موضع بين الباب الأخضر وباب البحر (٣) . فركب الأمير ركن الدين الكركى متولى الثغر لفض المعركة ، ولكن القوم تعصبوا على الافرنجى ، وشهدوا عليه بما يوجب قتله ، وحملوه إلى القاضى ، فأمر الوالى عندئذ باغلاق أسواق المدينة وأبوابها ، وذكر ابن بطوطة أن والى المدينة حصر المسلمين بين فصيلى باب المدينة (٤) ثم فتحت الأبواب فى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ليدخل المدينة من كان بخارجها ، خاصة بعد أن ضجوا بالصريخ لتفتح لهم الأبواب ، فلما فتحت تدافعوا فى الدخول ، وازدحموا ازدحاما أدى إلى وقوع بعضهم على الأرض ، فهلك بسبب ذلك عشرة أشخاص ، ونهبت عمائم وثياب بعض الأهالى . ثم تبين للكركى تحامل العامة على الفرنج ، فقام بنفسه فى مقدمة جنوده لدفع الناس عنهم ، فهاج

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية فى التاريخ ، ج ١٣ ص ١٢٨ — ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى المسمى تتمه المختصر فى أخبار البشر ، مصر ١٢٨٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٨١ — السلوك ، ج ٢ ص ٢٨٤

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ص ٧٨

(٤) ابن بطوطة ، ص ٢٧

الناس وقاتلوه وتغلبوا على عسكره ، وأحرقوا داره ، وقيل أحرقوا باب قصره المعروف بباب اليهود ، كما أحرقوا ثلاثة دور أخرى لبعض الظلمة من أصحابه ، ومضوا فى غضبهم إلى سجن الوالى بالثغر ، فكسروا بابه وأطلقوا من كان محبوساً فيه ، فاعتقد الوالى أن ما كسروه هو سجن الأمراء ، وفى تلك الحالة يعتبر عملهم هذا ثورة داخلية ضد السلطان ، فأمر على الفور بوضع السيف فى البلد وتخريبه ، وبادر بابلاغ السلطان ، فسير السلطان الوزير مغلطاى الجمالى وطوغان شاد الدواوين وسيف الدين الدمر الركنى أمير جندار فى جماعة من مماليك السلطان وبصحبتهم ناظر الخاص إلى الاسكندرية لوضع حد للفتنة وتتبع أهل الفساد وقتلهم ، ومصادرة قوم من أعيانهم ، وتغريم أهل الثغر الأموال ومصادرة الأسلحة والقبض على القاضى والشهود . فجلس الوزير والناظر بديوان الخمس بالاسكندرية. وهناك فرض الوزير على المدينة خمسمائة ألف دينار ، وأمر بعزل الوالى ،وقبض على جماعة من أهل الشغب ، ووسّط نحو ثلاثين رجلا بالسيف ، وقطع أيدى بعض الثوار وأرجلهم ، وبحث عن ابن رواحه كبير دار الطراز بالاسكندرية وكان من زعماء الفتنة الذين أغروا العامة بالتعدى على الفرنج ، وأمدهم بالسلاح والنفقة ، فوّسطه ، وقيل أخرجه من الاسكندرية ، كذلك أمر بضرب القاضى ونائبيه وعزلها ، ووضع السلاسل فى أعناقهم ، ثم ولى على القضاء بهاء الدين علم الدين الإخنائى الشافعى . ومنذ ذلك الحين أصبح لايتولى قضاء الاسكندرية إلا قاض شافعى(١).

وبلغ عدة السلاح المصادر نحو ستة آلاف وضعت كلها فى حاصل ختم عليه ، وأقام الوزير نحو عشرين يوماً يسفك فيها دماء الجناة ، ويصادر أموالهم

(١) ابن كثير ، ج ١٤ ، ص ١٢٨ — ابن الوردى ، ج ٢ ص ٢٨٢

حتى جمع ما يزيد على مائتى وستين ألف دينار (١). وظل الأمر كذلك حتى قدم تاج الدين أبو اسحق وكيل السلطان، فسكنت المدينة ، وهدأت الفتنة ، وكان الناس ممنوعين من الدخول والخروج .

وفى هذه الفتنة كتب أبو يحيى زكريا الطرابلسى كتابا من الاسكندرية يقول فيه : « إنا لله وإنا إليه راجعون فيما أصاب المسلمين بثغر الإسكندرية من الإحراق والضرب وأخذ الأموال وسفك الدماء ، فالله يعظم لنا ولكم الأجر ». وقال ابن الوردى :

تبارك الله ذو الجلال لقد   أدهش عقلى زماننا الفاسد
مصادرات جرت وسفك دما   وأصلها ضرب كافر واحد(٢)

٣ — سنة الفناء أو الوباء الأعظم فى سنة ٧٤٩ :

نكب العالم أجمع فيما بين عامى ٧٤٢ ، ٧٥١ بوباء خطير اجتاح المشرق والمغرب لم يعهد مثله فى التاريخ من قبل ، وكان أول ظهوره فى سنة ٧٤٢ فى بلاد مغول القبيلة الذهبية، وانتقل من هناك إلى بلاد الخطا والمغول، واتصل ببلاد الشرق كلها ، ثم امتد من هناك إلى إيران والعراق وكردستان وبلاد قرمان وقيصرية الروم وسيس وأنطاكية فى أمد قصير . وفى أول جمادى الأولى ظهرت أولى الاصابات بهذا الطاعون فى مدينة حلب ، ومن هناك عم جميع بلاد الشام والساحل والبوادى والجبال، ثم انتقل إلى مصر فى خريف سنة ٧٤٨ هـ ، وانتشر فى القرى والمدن فى شعبان ورمضان وشوال سنة ٧٤٩ هـ . وشمل الوباء بلاد الفرنج وقبرص ، وعم فى الأندلس وإفريقية

(١) ابن الوردى ، ص ٢٨١ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٧ — السلوك ، ج ٢ ص ٢٨٦ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ص ٧٩

(٢) ابن الوردى ، ص ٢٨٢

جبالها وصحاريها ومدنها (١) .

ويعتقد الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه حل بايطاليا قبل أن يحل بمصر باعتبار أنه ظهر بفلورنسة حسب رواية بوكاشيو الذى كان معاصراً للوباء ، فى شهر مارس سنة ١٣٤٨ (٧٤٨هـ) وذلك بعد ظهوره فى جنوب إيطاليا(٢). ولكننا نعتقد أن هذا الطاعون ظهر فى الشرق الأدنى الاسلامى أول ما ظهر فى إيران فالأناضول ، ثم انتقل من آسيا الصغرى إلى قبرص عن طريق السفن بدليل أن أول أخبار الطاعون وردت منها فيما ذكره المقريزى إذ يقول : «وفيه قدم الخبر من طرابلس بأن قبرص وقع بها فناء عظيم هلك فيه خلق كثير »(٣) ونستنتج من ذلك أن هذا الوباء ظهر فى قبرص قبل أن يظهر فى الشام ، ثم عم بعد ذلك بلاد الشام وانتقل منها إلى مصر (٤) .

ويبدو أن الوباء انتقل إلى الاسكندرية عن طريق مركب قدم إلى هذا الثغر كان يحمل ٣٢ تاجراً وثلاثمائة رجل ما بين بحار وعبيد ، فماتوا كلهم باستثناء أربعة تجار وعبد واحد ، ونحو أربعين من البحارة (٥) . ويبدو أيضاً أن والى الاسكندرية لم يحجر على المرضى الباقين ، فلم تكن هناك وقتئذ قواعد لحصر الاصابات وعلاجها ، ومن هنا تفشى الوباء بالاسكندرية ،

---

(١) راجع أخبار هذا الوباء المعروف بالفناء الأسود فى : المقريزى ، السلوك ، ص ٧٧٢ — ٧٩٧ — النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٩١ — ٩٢

(٣) السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ص ٧٥٩

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، الاسكندرية ، ١٦٩٧ ص ٣٣٦

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٩

فصار يموت بها وبما يليها من أرض برقة فى كل يوم مائة ، ثم استفحل الوباء بعد ذلك بالثغر ، حتى أصبح يموت بها كل يوم مائتان ، ثم تفشى فى أنحاء المدينة تفشياً خطيراً إلى حد أنه صلى فى يوم الجمعة بالجامع السكندرى (الجامع الغربى) دفعة واحدة على سبع مائة جنازة (١) ، وكانوا لكثرة الموتى يحملونهم على الجنويات والألواح . ونتج عن كثرة الوفيات أن تعطلت دار الطراز لعدم توفر الصناع ، فأغلقت ، كما تعطلت دار الوكالة لعدم وصول التجار إليها ، وأقفلت الأسواق وديوان الخمس (٢) . ويعبر الأديب زين الدين عمر ابن الوردى عن بشاعة ما أحدثه الوباء فى الاسكندرية بقوله :

اسكنـدرية ذا الوبا　　سبع يمد إليـك ضبعه
صـبراً لقسمتك التى　　تركت من السبعين سبعه (٣)

ومات بهذا الوباء كثير من عظماء الثغر السكندرى ، منهم الأمير قطليجا السيفى البكتمرى متولى الاسكندرية ، وعماد الدين محمد بن اسحق بن محمد البلبيسى الشافعى ، قاضى الاسكندرية فى سلطنة الناصر محمد (٤) .

وتجدد وباء الطاعون بالثغر السكندرى مرة ثانية فى الاسكندرية والوجه البحرى كله والقاهرة فى سنة ٧٥٤هـ ، ومات بسببه فى كل يوم ما بين الخمسين والستين (٥)

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٧ — النجوم ، ج ١٠ ص ٢٠٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٧٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٨٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٩٦

(٥) نفس المصدر ، ص ٩٠٣

وفى سنة ٧٦٣ هـ تفشى الطاعون بمصر والاسكندرية ومات بسببه من الناس فيها خلق كثير ، وهو الوباء المعروف فى المصادر العربية بالوباء الوسطى لأنه وقع بين وباءين (١) ، وباء سنة ٧٦١ ، ووباء ٧٦٤ هـ . وفى سنة ٧٧٥ هـ قصر النيل عن الوفاء ، فغلت الحبوب بمصر والاسكندرية وسائر بلاد مصر ، ومات بالاسكندرية عدد كبير من الناس بسبب الطاعون ، أغلبهم من الأطفال والعبيد . وممن توفى بهذا الطاعون ملك الأمراء أرغون الأحمدى الذى تولى الثغر مدة أربعين يوماً ، كما توفى فيها قاضى القضاة شهاب الدين الحنفى الحلبى ، وقاضى القضاة كمال الدين الربعى المالكى فى حدود صفر سنة ٧٨٠ هـ ، ومات ولده عز الدين (٢) .

٤ — الاحتفال بزيارة الأمير شيخو العمرى للاسكندرية فى سنة ٧٥٠ هـ :

كان الأمير شيخو العمرى ، أحد كبار أمراء المماليك ، قد تقدم فى أيام المظفر حاجى ، وارتفعت منزلته فى بداية دولة الناصر حسن (٣) . وفى سنة ٧٥٠ خرج إلى الاسكندرية ، فاستقبل بها أحسن استقبال ، وتلقته الغزاة فيها بآلات السلاح ، ورموا بالحرخ بين يديه ، ونصبوا المنجنيق ورموا به ، واستغل الناس فرصة وجوده بالاسكندرية ، وشكوا له ما كانوا يعانونه من احتكار التاج اسحق دكاكين العطر والنشا والأشربة ، فأمر بابطال ذلك ، وأطلق للناس البيع حيث أحبوا (٤) . وقد أحبه أهل الاسكندرية لذلك حبا

---

(١) النجوم ، ج ١٠ ص ٣١١

(٢) النويرى السكندرى ، الالمام ، ص ١٧٦ أ

(٣) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٩٣

(٤) السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٩

شديداً . ثم نكب وأودع السجن بالاسكندرية فى ذى القعدة سنة ٧٥١ هـ ، ولم يفرج عنه الا بعد أن التمس الأمير طاز ذلك من السلطان الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر فى سنة ٧٥٢ هـ ، فأرسلت حراقة لاحضاره من الاسكندرية ، وركب شيخو الحراقة فى الخليج وأهل الاسكندرية يودعونه فرحين لخلاصه (١) .

(١) السلوك ، ص ٨٤٨ — النجوم ، ج ١٠ ص ٢٥٥

الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

(١) أسباب قيام بطرس لوزنيان بالحملة .

(٢) حملة بطرس القبرصى على الاسكندرية .

(ا) أحوال الاسكندرية عند وصول الحملة .

(ب) موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين .

(ج) موقف جنغرا بعد الهزيمة .

(د) اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وعيثهم فى المدينة .

(ه) استرجاع المماليك للاسكندرية .

(و) صدى غزوة القبارصة فى العالم الاسلامى والعالم الأوروبى المسيحى

٣ — الأحداث التى أعقبت وقعة القبارصة .

(ا) تحويل الاسكندرية إلى نيابة .

(ب) سياسة الضغط على مصر لعقد الصلح مع قبرص .

(ج) غزوة القبارصة للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ ه .

٤ — تحصين الاسكندرية وتعمير منشآتها العامة بعد الوقعة .

(ا) فى نيابة سيف الدين الأكز .

(ب) فى نيابة صلاح الدين خليل بن عرام :

المرحلة الأولى سنة ٧٦٩ ه — المرحلة الثانية فى سنة ٧٧١ ه — المرحلة الثالثة فى سنة ٧٧٧ ه .



الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

(١)

أسباب قيام بطرس لوزنيان بالحملة

كانت قبرص قبل سقوط عكا فى أيدى المسلمين فى سنة ٦٩١ هـ ، بحكم موقعها فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط تجاه الساحل السورى ، معقلا هاما من معاقل المسيحية اللاتينية بالشرق ، توجه منها الحملات على السواحل الاسلامية ، ثم أصبحت بعد سقوط عكا وسواحل الشام فى أيدى المسلمين قاعدة للاتين فى الشرق ، والجبهة الرئيسية للحركة الصليبية المتأخرة (١) . وكان يتولى حكم قبرص أسرة لوزنيان المشهورة ، ومؤسسها جاى دى لوزنيان ملك بيت المقدس الذى تنازل عن حقه فى مملكة بيت المقدس فى مقابل امتلاك جزيرة قبرص فى سنة ١١٩٢م (٥٨٨ هـ). وتتابع على ملك قبرص من بعده ، أى منذ وفاته فى سنة ١٩١٤ ، ملوك من البيت اللوزنيانى الفرنسى ، أولهم أخوه عمورى المؤسس الحقيقى لمملكة قبرص ، ثم هيو الأول بن عمورى ، وهنرى الأول بن هيو ، وهيو الثانى بن هنرى ، وهيو الثالث الأنطاكى ، وحنا الأول بن هيو الثالث ، وهنرى الثانى بن هيو الثالث ، وهيو الرابع

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٣ — الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٠٦

فبطرس الأول . وكان هنرى الثانى يتولى حكم جزيرة قبرص فى الوقت الذى سقطت فيه عكا ، فانتقل إلى جزيرته جماعة من فرسان الإسبتارية الذين كانوا يتولون الدفاع عن عكا ، فأنزلهم فى ليما سول ، وتمكن الإسبتارية فى عام ٧١٠ (١٣١٠م) من الاستيلاء على جزيرة رودس ، واتخذوها قاعدة للاعتداء على سواحل المسلمين بغية استرجاع الأراضى المقدسة (١) . وأصبح القيام بحرب صليبية ذريعة لتبرير ابتزاز الأموال من الكنيسة، ولهذا فان فيليب الرابع ملك فرنسا نذر نفسه للحرب المقدسة منذ أن تمكن من السيطرة على البابا بعد انتقال كرسى البابوية إلى أفنيون فى سنة ١٣٠٥ م ، وقوبل ذلك بترحيب بالغ من رجالات الطبقات المختلفة فى مجتمع العصور الوسطى الذين نظروا إلى موضوع الحرب المقدسة على أنه أمر جدى ، وعرضت على البابا وملك فرنسا والمجلس الكنسى المنعقد فى فينا فى سنة ١٣١١ — ١٣١٢ العروض المختلفة والمشروعات الهامة من رجال قضوا سنين عديدة فى الشرق ، وآخرين لم يخرجوا قط إلى ما وراء البحر(٢) . وأنعشت فكرة القيام بحرب صليبية أدب الدعاية للحرب المقدسة ، فاقترح بيير ديبوا فى كتاباته استرجاع الأراضى المقدسة ، واستعادة أملاك الامبراطورية البيزنطية وغزو مصر ، كما اقترح وليم دى نوجاريت ، صديق ملك فرنسا المخلص ، الحد من قوة المماليك الذين يساندهم كاثوليك مزيفون ، يزودونهم بالأخشاب وآلات الحرب ، ويبيعون لهم الأطفال الذين ينشئهم المماليك فى الطباق أو المدارس العسكرية

(١) Aziz Surial Atia, The Crusade in the later middle ages, p. 288

(٢) Atiya. op. cit, p. 48 — محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٤٤

نشأة حربية ويعرفون بالجلبان أو الأجلاب (١) .

وبينما كان المجلس الكنسى منعقداً فى فينا فى سنة ١٣١١ للنظر فى مشروع القيام بحملة صليبية ، كتب فولك دى فياريه مقدم فرسان الاسبتارية برودس إلى فيليب الرابع المعروف بالجميل معبراً عن رغبته فى الاشتراك فى الحملة وأنهى إليه بأنه — مبالغة فى إثبات جديته — قد أمر بانشاء سبع بطسات فى قطلونية ، وثلاث فى أربونة ، و ١٦ فى مرسيليا ، و١٢ فى جنوة ، بالاضافة إلى سفن أخرى كبيرة منها ٤ راسية فى بيزة ، وستة فى البندقية . كذلك جهز الإسبتارية خمس سفن فى جنوة واثنتين فى البندقية،سلحت بمختلف أنواع الأسلحة ، وجهزت بالعدد، بحيث أصبحت جميعاً تحت أهبة الاستعداد للابحار قبل أن يحل ربيع ١٣١١ (٢) . وفى أثناء ذلك بعث هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرص رسولين إلى البابا كليمنت الخامس والمجلس الكنسى لعرض وجهة نظره عن الحملة ، وهدفها إضعاف قوى المماليك الحربية بحصار بحرى يمارسه الصليبيون ضد مصر والشام ، ومنع الخونة النصارى من إمداد المماليك بعناصر جديدة ، وبمواد الحرب والسلاح . ولضمان إنجاح هذا الحصار رأى ضرورة إشراك قومونيات البندقية وبيزة وجنوة وغيرها من الجمهوريات الإيطالية التى يتشكك فى إخلاصها للحركة الصليبية بسبب ارتباط مصالحها بالاسلام ، فاذا ما نجح الصليبيون فى احكام هذا الحصار لمدة سنتين

---

(١) Ibid. p. 54 . وفيما يختص بالمماليك الجلبان ، راجع : عبد المنعم ماجد نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٥ وما يليها .

(٢) Atiya. p. 57

أو ثلاث فان ذلك من شأنه أن يقضى حتما على قوة البحرية المصرية وموارد‌ها(١) ونصح هنرى القبرصى باتخاذ قبرص قاعدة للحملة المزمع تسييرها حتى إذا ما جاءت اللحظة المناسبة يتهيأ للحملة أن تنفذ خطة في مهاجمة مصر أولا ، باعتبارها المصدر الرئيسى لجميع الكوارث التى لحقت بالصليبيين ، ثم الشام بعد ذلك (٢) .

ثم كان اعتلاء بطرس الأول عرش قبرص فى سنة ١٣٥٠ م (٨٥١ ﻫ) فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة ، واتفق عهده مع فترة من الضعف والاضمحلال كانت تجتازها مصر عقب وفاة السلطان الناصر محمد وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده العرش ، مما هيأ المجال لكبار أمراء المماليك للاستبداد بشؤون الدولة ، وقام النزاع بين هؤلاء الأمراء من أجل الاستئثار بالسلطة ، وشغلوا بذلك الصراع عن العناية بشؤون البلاد الداخلية والاهتمام بالبحرية ، ولما تولى بطرس الأول (٣) دى لوزنيان حكم قبرص فى الفترة من ١٣٥٠ إلى ١٣٦٩ م ، عمل على استغلال حالة الضعف والانحلال التى آلت إليها مصر ، وكان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبية تعصباً ، وكانت حماسته البالغة للحركة الصليبية مثلا رائعاً للفارس المتدين فى أوروبا فى العصور الوسطى ، فقد جعل بطرس من نفسه بطلا مدافعاً عن المسيحية ، وكرس حياته لخدمة الحركة الصليبية عن طريق محاربة المماليك الذين طردوا الصليبيين نهائياً من الشام ، وهزموا التتار ، وأصبحت لهم قوة يعمل الغرب

---

(١) Ibid. p. 58

(٢) Ibid. p. 60

(٣) يسميه النويرى السكندرى « ريير بطرس صاحب قبرس » .

المسيحى لها حسابا كبيراً . ويعتبر استيلاؤه على الاسكندرية فى المحرم سنة ٧٦٧ هـ ونهبها خلال أربعة أيام أعظم حدث وقع فى تاريخ الحركة الصليبية فى القرن الثامن الهجرى .

كان بطرس يرى المبادرة باستغلال حالة ضعف السلطنة المملوكية ، وهى فرصة مواتية قد لا تتاح له بعد ذلك لتسديد ضربته إلى مصر مصدر المتاعب للصليبيين ، ولكن مثل هذه الضربة كانت تحتاج إلى استعداد مسبق ، وقدرات وإمكانيات وفيرة مادية وأدبية ، فقام برحلة طويلة استغرقت ثلاث سنوات إلى دول غرب أوربا لاقناع ملوكها وأولى الأمر فيها بضرورة مساعدته ، فزار البندقية وأقنع أميرها بإمداد حملته التى يزمع القيام بها بالسفن اللازمة ، ثم قصد جنوة ، ورحل منها إلى أفنيون حيث قابل البابا أربان الخامس ، ثم قابل حنا الثانى ملك فرنسا ، وطاف بعد ذلك بعدد من الامارات والدول مثل فلاندر ونورماندى وبريتانى وانجلترا ، وعاد إلى باريس مرة ثانية حيث قابل شارل الخامس ملك فرنسا الجديد . ثم اجتمع بالامبراطور شارل الرابع فى براغ ، وبملكى بولندا وهنغاريا فى كراكاو . وفى كل هذه الأقطار حظى بطرس بتأييد بالغ . وأبدى الملوك والأمراء استعدادهم التام لمساعدته فى حملته . وقبل أن يعود بطرس لقيادة الحملة كتب إلى أخيه حنا بقبرص يطلب منه أن يعد السفن والرجال والميرة ويسيرها إلى رودس وينتظر قدومه هناك . ومر بطرس بالبندقية ، ثم غادرها إلى رودس فوصلها فى أغسطس سنة ١٣٦٥ (١) . وهناك تباحث مع رجاله وخاصته فى هدف الحملة ، فنصحه بارسيفال دى كولونى بتوجيهها إلى الاسكندرية ومهاجمتها فى يوم جمعة

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٧ ، ٥٨

والمسلمون فى مساجدهم . واقتنع بطرس بنصيحته ، ولكنه عمل على كتمان هذا السر حتى لا يتسرب خبر الحملة إلى المسلمين فيستعدون له . وكان قد مهد لحملته على الاسكندرية بغزوة تمهيدية من قبيل التمويه والإيهام على سواحل الشام ، لإيهام المماليك بنيته فى مهاجمة الشام لاسترجاع بيت المقدس ، واشترك فى هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة ، ونجح فى دخول طرابلس الشام فى نيابة منجلك اليوسفى فى أول سنة ٧٦٧ هـ ، وأضرم النيران فى أبنيتها كما هاجم اللاذقية وأنطرطوس بعد ذلك (١) ، وأشاع عقب هذه الغزوة بعزمه على معاودة الكرة على سواحل الشام (٢) .

ومع تكتمه الشديد ، وصلت أخبار الحملة إلى المصريين قبل أن تقوم من رودس بوقت طويل (٣) . فقد ذكر النويرى السكندرى أن الأخبار كانت تأتى الاسكندرية « بأن العمارة عند القبرسى ، فاستهم نائب السلطان وهو الأمير زين الدين خالد ، فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتهد فى العمارة ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكى مقدم الجيوش المنصورة الإعانة على عمارة السور ، ويخبره بخبر عمارة القبرسى للمراكب الحربية ، فيقول : إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الاسكندرية »(٤). ولكن الأمير يلبغا الخاسكى استهان بالقبارصة ولم يهتم للأمر . ويعلل

(١) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ص ٣٩٥

(٢) Leontios Makhairas, Recital concerning the sweet Land of Cyprus, entitled "Chronicle". ed. by Dawkins, vol. I. Oxford, 1932, P. 151

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ص ٤٦ ب (مخطوط) .

(٤) النويرى السكندرى ، الالمام ، ص ٧٤ أ

النويرى السكندرى غزو القبارصة للاسكندرية بالأسباب الآتية :

١ — أن السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد كان قد منع دواوين النصارى الذميين فى سنة ٧٥٥ من الديونة، أى أنه حرم عليهم تقييد أنفسهم فى الديوان ، باستثناء ، من أسلم منهم . أما من بقى على نصرانيته فكان عليه أن يلبس خشن الثياب ، وتقصر أكمامه وأذياله وتصغر عمامته الزرقاء، ويركب الحمار على شق واحد . كذلك فعل الملك الصالح مع اليهود من تصغير العمائم الصفر . وقد دعا ذلك الفرنج إلى السفر إلى بلادهم، فكان ذلك سبباً من أسباب هياج القبرسى « وطوافه بأرض الرومانية وجمعه اللصوص أهل المعمودية وحشره بهم إلى الاسكندرية » (١) .

٢ — أن ربير بطرس لما خلف أباه على العرش أرسل إلى الناصر حسن ابن الناصر محمد يستأذنه فى التوجه إلى صور « ليجلس على عمود بها كجارى عادةمن تملك جزيرة قبرس » ، فاحتقره السلطان حسن ومنعه من دخول صور.

٣— أطمع ضعف القوة البحرية الإسلامية فى الاسكندرية بطرس على غزوها ، إذ بلغه أن قراصنة من الفرنج قدموا فى غراب إلى ميناء الاسكندرية فى شوال سنة ٧٥٥ هـ ، وأغاروا على مينتها ، ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها ، كما أغاروا على سفينة تجارية قادمة من بر التركية ، وأخذوا يتجولون فيما بين المينتين ، فأرسل الأمير سيف الدين بلاط نائب السلطنة بالاسكندرية قناصلة الفرنج المقيمين بها يستخبرون أصحاب الغراب عن أمره ، فأجابوهم بأنهم يريدون طعاماً وشراباً ثم يرحلون . فأرسلوا إليهم ما طلبوه ، ولكنهم بدلا من أن يرحلوا شاكرين للمسلمين ما قدموه لهم ، هاجموا مركباً تجارياً قادماً من الشام ،

(١) النويرى السكندرى ، ص ٧١ ب

فوثبوا عليه، واستولوا على بضائعه، وقذفوا برجاله فى ميناء أبى قير (١). ويأتى النويرى بأمثلة أخرى تعبر عن ضعف البحرية المملوكية ، وخلو ساحل الاسكندرية من الغربان المعمورة بالرجال والسلاح ، ومن ذلك أن غرابا هاجم الجزيرة المقابلة لرشيد وأسر من المسلمين ٢٥ رجلا وامرأة . ومنها أن ثلاثة أغربة قدمت إلى ميناء أبى قير فى فجر يوم ٢٧ شعبان سنة ٧٦٥ هـ ، وأسر أصحابها من قصور البساتين ٧٦ من المسلمين بين رجال ونساء وصبيان ، ومضوا بهم إلى ساحل صيدا فافتداهم المسلمون منهم وردوهم إلى أوطانهم . ولما علم بطرس بأن أصحاب هذه الغربان الثلاثة كانوا لا يزيدون على مائة رجل مسلحين بسيوف خشبية مطلية بالقزدير الأبيض لايهام من بها أنهم يحملون سلاحاً، أدرك مدى الضعف الذى وصل إليه الدفاع البحرى الاسلامى .

٤ — قدم إلى جهة أبى قير ليلا ٦ غربان من البنادقة ضلوا الميناء ، فبدلا من الإرساء بأبى قير أرسوا برشيد ، ونزل من ثلاثة من هذه الغربان جماعة إلى الساحل، ففطن إليهم المسلمون، فهرب الفرنج طالبين غرابا من الثلاث، فسبقهم أحمد الحداوى المعروف بالباشق إلى الغراب ، وأخذ المسلمون يرمونهم بالسهام ، فترامى الفرنج فى البحر ليعوموا إلى الغراب فغرقوا ، وكان عددهم ثمانين رجلا ، قذف البحر بجثثهم ، فأحرقها أهل رشيد ، فلما بلغ البنادقة مافعله أهل رشيد بأصحابهم ساعدوا القبرصى على غزو الاسكندرية .

٥ — لما عزم بطرس لوزنيان على غزو الإسكندرية استنجد بملوك النصرانية باشارة البابا ، فلما أعان ملوك النصرانية صاحب قبرص بالمال والغربان والرجال ، تعمرت المراكب له برودس لأنها كانت

---

(١) لنويرى السكندرى ، ص ٧٢ ب

دار صناعة الفرنج . واستغرق تجهيزها على ما قيل أربعة سنين (١) .

ويعتقد الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن تفكير بطرس لوزنيان فى غزو الإسكندرية لم يكن بالأمر الجديد ، فقد سبقه إلى هذا التفكير عدد من دعاة الحروب الصليبية ، بل إن هنرى الثانى دى لوزنيان قدم إلى البابا كليمنت الخامس قبل ذلك مشروعا لفتح مصر كخطوة تمهيدية لاستخلاص الأراضى المقدسة يقال إن بطرس تأثر به إلى حد كبير فى حملته على الإسكندرية (٢) . وأعتقد أن حملة بطرس لم يكن الهدف منها فتح مصر ، لأن القبارصة مهما بلغت درجة انتصارهم فى الاسكندرية ، ومهما حققوا من مكاسب فى هذه الوقعة لم يمكثوا بها أكثر من بضعة أيام ثم جلوا عنها بعد أن نهبوا الفنادق والحوانيت والخانات ، وجردوا المدينة من تحفها ، واعتدوا على النساء والبنات ، وخربوا الدور والمساجد ، وقتلوا وأسروا أعداداً هائلة من السكان . وأعتقد أنهم استهدفوا من وراء ذلك إرهاب سلاطين المماليك ، وإشعارهم بالخزى والعار أمام الرأى العام الإسلامى ، وإضعاف هيبة مصر فى الداخل والخارج ، وبث روح الهزيمة فى قلوب المسلمين ، وممارسة نوع من الضغط على أولى الأمر فى البلاد عن طريق المساومة بالأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم إلى قبرص ، يملون بهم شروطهم على المماليك ، والإطاحة بالإقتصاد المملوكى بنهب السلع والبضائع المكدسة بمخازن الصادر أو بالفنادق (٣) ، وعن طريق إثارة أعداء المسلمين

---

(١) النويرى السكندرى ، الالمام ص ٧٣ أ — ٧٤ أ

(٢) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٠

(٣) لا شك أن نهب بهار الاسكندرية وحليها وثرواتها وشحنه بسفن القبارصة منذ اللحظة الأولى لدخولهم بها يدل دلالة واضحة على نيتهم فى الاقلاع بهذه الشحنات ،=

للبنادقة ودفع المسلمين إلى عدم السماح لهم بالمتاجرة فى البلاد الإسلامية . ولم يكن هدف القبارصة الاستيلاء على الاسكندرية والتحصن داخل أسوارها على الرغم من قول النويرى أنه « لولا لطف الله تعالى بعباده المسلمين بحرقهم باب رشيد وباب الزهرى كانت الفرنج ملكت البلد ، وحصل التعب فى خلاصها منهم كما حصل فى طرابلس الغرب ومدينة أنطاكية ببر التركية »(١) فلو أن هدفهم كان الاستيلاء على الاسكندرية لكانوا قد سدوا بابى رشيد والزهرى المذكورين وحصنوهما بالبناء فى الأيام الأربعة التى مكثوها فى الثغر ، وحتى لو كانوا قد فعلوا ذلك لكان مقضيا عليهم عاجلا أو آجلا بالطرد ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ثلاثين ألفا ، فكيف يستطيع هذا العدد الصمود فى مدينة سكانها جميعاً أعداء ألداء للقبارصة ؟ يضاف إلى ذلك أن نائب السلطنة لم يكن يعجزه استرداد الإسكندرية بما لديه من قوات وسلاح ، ولم يكن الأمر فى الإسكندرية هذه المرة مثلما كان فى خلافة عثمان عندما انتقض سكانها الروم وكاتبوا قنسطانز ، فسير حملته المشهورة فى سنة ٢٥ هـ بقيادة مانويل ، ومع أن الروم استطاعوا الإستيلاء على الإسكندرية بفضل وجود فريق مؤيد من السكان ، وزحفوا فوراً إلى الفسطاط ، فان الحملة أخفقت ، ولقت مصيراً تعساً ، ومنيت بكارثة لم يشهد الروم لها مثيلا من قبل .

وأعتقد أن حركة القبارصة هذه — وقد تجددت بعد ذلك بعامين فى

= وهذا يرجح رأينا فى أنه لم تكن لديهم النية فى البقاء بالاسكندرية ، وأن حملتهم على الاسكندرية كانت لها أهداف أخرى ذكرتها بأعلى الصفحة .

(١) النويرى ، الالمام ، ص ٨٣ ب . وذكر النويرى فى موضع آخر أن المسلمين أحرقوا هذه الأبواب لتجد النجدة من مصر مواضع تدخل منها إلى المدينة .

طرابلس الشام (١) — لم تكن تعدو نوعا من القرصنة البحرية ، وهى الصورة الحقيقية لوجه القبارصة الذى كانوا يخفونه تحت قناع دينى زائف ، وقد أكد النويرى هذه الصورة فى مواضع كثيرة بقوله : « والقبرسى الملعون جمع من اللصوص النصرانية وأتى إلى الإسكندرية سرقوا أثاثها على حين غفلة من حماتها ... » (٢) ، وقوله : « فماذا عسى فعل القبرسى الملعون ، الكلب الدون ، بالإسكندرية التى دخلها لصاً وخرج منها لصاً » (٣) ، وقوله : « بل كان فعل القبرسى الملعون كفعل اللصوص السراق الذين هم بسبب فعلهم لما اقترفوه خائفين ، فثبتت لصوصيته بهربه بسرعة ، وظهر عليه بين ملوك النصرانية أكبر فضيحة وأعظم مشنعة » (٤) .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٣٤٨

(٢) النويرى ، الالمام ص ١١٣ ب (نسخة الهند) ، ١١ ب (نسخة برلين)

(٣) النويرى ، ص ١١ أ ، ٥٦ ب (نسخة الهند) .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٦ ب

خريطة الأسكندرية في عصر السلطان الأشرف شعبان

(٢)

حملة بطرس القبرصى على الاسكندرية

ا ـ أحوال الإسكندرية عند وصول الحملة :

وفق بطرس دى لوزنيان كل التوفيق فى اختيار الوقت المناسب لغزوته ، فقد كانت الظروف السياسية الداخلية فى دولة المماليك وقتئذ فى غاية السوء للأسباب الآتية :

١ ـ كان السلطان الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين (٧٦٤ ـ ١٣٦٣/٧٧٨ ـ ١٣٧٦ م) وقت وصول الحملة ما يزال طفلا لا يتجاوز عمره ١٣ سنة ، فقد ارتقى عرش السلطنة فى سنة ٧٦٤ هـ وعمره عشر سنين ، وكانت السلطة الفعلية فى يد الأتابك يلبغا العمرى الخاصكى الذى استبد بشؤون الدولة ، وارتكب من الفظائع وضروب العسف والاستبداد ما أشاع الفوضى فى البلاد ، وأصبحت القاهرة مسرحاً للمعارك ، ومرتعاً للفساد (١) .

٢ ـ قاست مصر كثيراً من وباء الطاعون الذى تفشى فى ديارها فى

(١) وليم موير ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة الأستاذين محمود عابدين وسليم حسن ، القاهرة ١٩٢٤ ص ١٠٦ ـ سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٧٢ ـ جمال الدين الشيال الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، ص ١٠٠ ـ طبوغرافية المدينة (المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٣٥

سنى ٧٤٩ ، ٧٥٤ ، ٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ هـ ، واستنفذ هذا الوباء قوى مصر ومات بسببه أعداد هائلة من السكان .

٣ — كان نائب السلطان على ثغر الاسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام يؤدى فريضة الحج فى الحجاز الشريف ، وكان ينوب عنه فيها أثناء غيبته أمير يسمى جنغرا ، أقيم نائباً باشارة من الأتابكى يلبغا ، ولم يكن جنغرا هذا أهلا للولاية لجهله بتدبير الأمور ، وعدم معرفته بمواقع الحروب وقلة جنده . وقد أساء جنغرا إذ ولى ضعاف الرجال كبار الأعمال (١) .

٤ — كانت الأنباء تصل إلى بطرس بجزيرة قبرص قبل قيامه بحملته على الاسكندرية بأن بهذه المدينة طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها، لا خبرة لهم بالقتال ، ولا هم لهم إلا التأنق فى الزى وارتداء فاخر الثياب ، ويصفهم النويرى السكندرى بأنهم « لم يعرفوا الحرب ولا باشروه أبداً ، بل يخرجون منها إلى البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزينون ، قد تطيلسوا من فوق العمائم التى على الرؤوس أحسن زى وملبوس ، يتبخترون فى مشيتهم كالمشى فى زفة العروس ، وروائحهم بالطيب تفوح ، يحيى بشمها كل روح ، فتزرغت لهم النسوان ، ويصير كل واحد بزينته فرحان ، ومعهم الأسلحة الثقال ، ولكن ليس تحتها لوقت الحرب رجال، مع كل واحد سيف تقلده، بجوهر النصل جيده ، حفيره مزخرف بالذهب كجمرة نار ملتهب ، ومع ذلك صاحبه جبان ، يفزع من نعيق الغربان ، فلما علم القبرسى حالهم طمع فيهم » (٢) .

---

(١) النويرى ، ص ١١٣ ب (لسخة الهند) .

(٢) النويرى ، ص ٧٤ ب

وكان جنغرا يرى طوائف الحرس المتطوعة تجوب الميناء « بقسيهم الجرخ الموترة ، وأعلامهم الحرير المنشورة مع ما بأيديهم من المزاريق والرماح ، والدرق والصفاح ، والزرد النضيد ، وصفحات الحديد ، والنفط الطيار الصاعد منه لهب النار ، وهو بملبوسهم المختلف الألوان ، كالزهر فى البستان » ، فيغتر بمظهرهم ، وينخدع بما عاينة من بريق خاطف ، ويتراءى له أنهم قوة هائلة ، بإمكانهم البطش بالأعداء ، وأنهم قادرون على رد أى عدوان . ويذكر النويرى أنه عندما عاينهم جنغرا بكى وقال : « هؤلاء أهل الجنة لرباطهم وجهادهم فى سبيل الله ، قد طاب والله العيش بقوة هذا الجيش ، لو أتى إلى الاسكندرية جميع نصارى الرومية ، ما قدروا مع هذا الجيش على الاسكندرية ، بل يكسرون النصارى ويصيرونهم قتلى أسارى »(١) . ويضيف النويرى قائلا : « فأقام جنغرا بالإسكندرية من شوال سنة ٧٦٦ إلى شهر المحرم ينظر لتلك الطوائف التى لكل طائفة منها ليلة فى الأسبوع تبيت تحرس بساحل المينة ، وربما بات ليالى فى الغرفة التى على باب تربة الامير طغية (٢) ، يوقد قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور ، وتأتى طائفة الزراقين يطلقون النفط وهو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرائر الطائرة ، والكواكب الدائرة ، بالألوان النارية ، من الخضرة والصفرة ، والبياض والحمرة فيحصل له بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ، ويبتهج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام ، وقد نصب لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشترون منه ويأكلون ، ومن ماء الروايا والقرب

---

(١) النويرى ، ص ٧٧ أ

(٢) كانت تربة ورباط الأمير طغية تقع خارج باب البحر فى مقبرة الميناوين بشبه جزيرة المنار .

التى تحمل من البلد إليهم يشربون . فاذا أصبحوا انتظمت الطائفة التى باتت تحرس ، ودخلت البلد فى همة وجلد وكثرة مدد ، فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ، من حسن الملابس ، وبياض تلك الطيالس ، فتزرغتن لهم النسوان إعلاناً ، عند مشاهدتهن لهم عياناً ، والأبواق حينئذ تصرخ ، والكوسات تدق ، والمزامير تزمر ، والأعلام منشورة ، والمباخر بالطيب معمورة ، ودخانها يفوح ، فتنبسط لتلك الروائح الأرجة كل روح ... والناس مع ذلك فى فرح وسرور ، لرؤية ذلك الجيش المنصور ، المهتز له الشوارع والدور » (١) .

٥ — كان الدفاع عن الاسكندرية قاصراً ، إذ أن الأسوار الواقعة من جهة الميناء الشرقية لم يكن عليها مدافعون لحمايتها ، ولم يكن يتقدمها خندق يمنع العدو من الصعود إلى السور (٢) ، وكان الخندق الوحيد الذى يدور بالسور يمتد من الباب الأخضر حتى قلعة ضرغام فى مسافة قصيرة ، فاكتفى شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين بن أبى عذيبة الناظر بغلق باب الديوان الذى يطل على داخل المدينة حتى لا يتمكن أحد من نهب البضائع المكدسة . وعلى هذا الأساس اطمأن متولى الثغر إلى تلك الناحية ، فامتنع الرماة عن حراسة السور فيها (٣) .

---

(١) النويرى ، ص ٧٧ أ

(٢) النويرى ، ص ٨١ أ

(٣) لفس المصدر ، ونلاحظ أنه كان من اليسير أن يفحص القبارصة بنظرة شاملة مواضع الضعف فى الدفاع عن المدينة لأنهم يستطيعون إدراك ذلك عند قدومهم إلى بحر الاسكندرية ، وبالفعل فطنوا إلى تلك المنطقة الضعيفة ، فاستغلوها فى اقتحام المدينة .

وهكذا كان الدفاع السكندرى فى غاية السوء عندما ظهرت فى البحر مراكب القبارصة فى يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة ٧٦٧ هـ ، وعندما أقبلت هذه السفن ظن أهل الاسكندرية وقد لاحت شرعها من بعيد أنها لتجار البنادقة ، وكانوا يتوقعون قدومهم بمتاجرهم على جارى عادتهم فى كل سنة ، وكان تجار المسلمين « قد جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ، ويتعوضون عنها من متاجرهم ، فلما لم يدخلوا الميناء ، باتت الناس فى قلق شديد بسببهم »(١).

وفى صباح يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧ هـ (٩ أكتوبر ١٣٦٥) أقبل أسطول القبارصة فى سبعين قطعة ما بين غربان وقراقر (٢) نحو ساحل شبه الجزيرة ، وقد نشرت قلاعها ، وملأت البحر من كل ناحية ، ثم حطت قلاعها ببحر السلسلة ، وهو المينة الغربية (٣) ، مبرزة عن الساحل ، وعندئذ تبين لأهل الاسكندرية أن هذه السفن إنما قدمت من قبرس بقصد مهاجمة

---

(١) النويرى ، ص ٧٨ أ

(٢) ذكر المؤرخون أن هذه السفن كانت تحمل ثلاثين ألف رجل (النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٨ — ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ص ٢٩) . وذكر النويرى السكندرى أنه اشترك من مراكب البنادقة ٢٤ غراباً ، ومن الجنوية غرابان والروادسة عشرة غربان (الالمام بما قضت به الأحكام ، ص ١٢٣ أ نسخة برلين) وأن مجموع السفن كانت تزيد على سبعين مركبا (نفس المصدر ، ص ٨٣ ب مخطوطة الهند) .

(٣) النويرى ، ص ٧٨ ا . وقد أكد النويرى أن بحر السلسلة هو المينة الغربية فى عدة مواضع (ص ١٢ ب ، ص ٢٧٥ ب ، ص ٢٧٨ ب من مخطوطة دار الكتب) . ويذكر أن السفن القبرصية رست من جهة الباب الأخضر أى تجاه الميناء الغربية ، فى حين يعتقد الدكتور عزيز سوريال عطية أن المقصود ببحر السلسلة هو الميناء الشرقية =

ثغر الاسكندرية ، فتأهب أهل المدينة للقتال والنزال ، فتعمرت القلاع التى من جهة البحر والجزيرة بالرماة الكثيرة ، وانتشرت الناس على السور ، وصار برماة الجرخ معمور »(١) . فتقدم من سفن القبارصة قارب بقصد استطلاع منطقة الميناء ، فبادر المسلمون بقذفه بالسهام ، فولى هارباً ، وظل الوضع على هذا النحو طوال يوم الخميس حتى المساء ، ثم نصبت الفوانيس على السور لاضاءته ، «وبات المسلمون متأهبين (٢) ، وبالسور محدقين ، والعدو خانس لم يتحرك من الموضع الذى أرسى به ، وصارت تلك المراكب الكثيرة منضمة بعضها إلى بعض كالطوف الصغير فى البحر الكبير ، فاستهونت المسلمون أمره ، وقالوا ما يقدر هذا على هذه المدينة المسورة الحصينة ، والقلاع المشيدة المتينة ، فعل الملعون ذلك خديعة »(٣) .

وفى صباح يوم الجمعة بعد شروق الشمس ، انتشر على الساحل بشبه جزيرة الاسكندرية عدد كبير من المسلمين ، قد تسلحوا بكل ما استطاعوا حمله ، فنهم من تسلح بالسيف والترس ، ومنهم من حمل النبل والقوس ، وفريق تسلح بالرمح والخنجر أو لبس الزرد ، بينما كانت هناك طائفة من أهل المدينة لا يحملون عليهم سوى ثيابهم ، وأقبلت إلى الاسكندرية حشود من فرسان العربان للمشاركة فى الدفاع عن المدينة .

استخف أهل الاسكندرية بالقبارصة ، وقد خدعهم ما ردده المسؤولون

= (Atiya. p. 353) ويؤيده فى ذلك الدكتور سعيد عاشور (قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٣ ، هامش رقم ١) .

(١) النويرى ، ص ٧٨ أ

(٢) كان مبيت طوائف القاعات والمقاتلة بين ربط الجزيرة ومقابرها .

(٣) النويرى ، ص ٧٨ أ

من التأكيد باحكام الدفاع وقوة الجيش ، وتوافر السلاح ، وصمود الأسوار وانتهز الباعة المتجولون فرصة تجمع الجند واحتشادهم خارج باب البحر فى المنطقة الواقعة بين المينتين بشبه الجزيرة ، لبيع أطعمتهم وأشربتهم دون أن يعتريهم خوف من مرابطة أسطول العدو بالميناء ، فخرج الباعة « بطبالیهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام ، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام ، وذلك فى ليلة الخميس ، ليكسبوا معاشهم ، وهم معلنون بلعن كل راهب وقسيس ، وذلك من غير خوف من المراكب التى رؤيت يوم الأربعاء فى البحر ، ثم إنهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم (١) يوم الخميس ، بل صاروا يلعنون القبرسى كلعنهم لابليس لأمنهم، فيما تقدم لهم من بيعهم على الطوائف المتقدم ذكرهم »(٢) .

وهكذا كان القوم على سجيتهم ، العامة و الحرافيش يسبون القبرصى بكل ألفاظ السباب القبيح ، والباعة يبيعون ما لديهم على طوائف العسكر والمتطوعة ورماة قاعة القرافة ، والجميع لا يعبأون بالأسطول القبرصى المرابط فى مياه الاسكندرية .

ويبدو أن بطرس دى لوزنيان سير جماعة من عيونه المستعربين ، وقد تنكروا فى زى المسلمين ، أثناء الليل إلى البر ، فاختلطوا بالمسلمين ، واطلعوا على ضعف الدفاع ، وفطنوا إلى استخفاف الأهالى بسفن القبارصة ، واشتغال العسكر بالأطعمة والأشربة ، وتخليهم عن أردية الحرب ، وتعرى الكثير منهم من اللباس . وقبل أن تشرق شمس الجمعة أقبلت حشود العربان من كل

---

(١) الأفروطة هى الأسطول ، ولعلها لفظة لاتينية الأصل محرفة من لفظة flotte

(٢) النويرى ، ص ٧٨ أ

مكان ، وقد ركبوا الخيول ، ومروا بالكيمان الواقعة بغرب الاسكندرية ، وانطلقوا خارجين عرايا من الباب الأخضر ، لا يحمل الواحد منهم سوى سيفه ورمحه ، والناس موقنون بأنهم من القوة والبأس منتصرين ، وأن نتيجة المعركة المقبلة معروفة بدون مجرد الحدس والتخمين . ولكن أحد تجـــار المغاربة ، ممن له خبرة بالحروب ، نصح الأمير جنغرا بأن يأمر هؤلاء القوم بالتحصن داخل أسوار المدينة ، والقتال خلف هذه الأسوار إلى أن تصل النجدة من مصر ، فاعترض عليه أصحاب الأربطة والمقابر المقامة بين الميناوين خوفاً عليها أن تترك بدون حراسة فتتعرض للتخريب والتدمير ، وقالوا : « ما نترك هؤلاء الفرنج الذين كل منهم رجل مغامر يطأن بأرجلهم ترب المقابر »(١) . وعاود التاجر المغربي ، واسمه عبد الله المعروف بالبنا ، إسداء نصيحته لجنغرا ، فقال له : « ادخلوا المسلمين البلد أصلح لهم » فاعترض أرباب الربط على قوله قائلين : « أنتم يا مغاربة أخربتم بلدكم طرابلس بأخذ الفرنج لها (٢) ، وتريدون أن تخربوا ربط المسلمين بدخول الناس البلد ؟ لا كيد لكم ولا كرامة ، بل نمنعهم النزول من المراكب ، ونذيقهم بالسهام العذاب الواصب » . ورد جنغرا أخيراً على التاجر المغربي ، وقد مال إلى تأييد أصحاب الربط : « لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ، ولو قطعت مني الأوداج ، ونفذت المقاتل » .

---

(١) النويري ، ص ٧٩ أ

(٢) يقصد بذلك دخول الجنويين طرابلس الغرب في ربيع الأول سنة ٧٥٥ ، بعد أن قدموا إليها في عدة مراكب واحتالوا على أهلها ، وتظاهروا أنهم تجاراً ، فأطمأن أهل طرابلس لهم ، فتسور الجنوية السور ليلا واقتحموا البلد واستولوا عليها ، ولم يشعر الأهالي إلا والعدو في الشوارع وعلى أبواب البيوت ، وقد حيل بين الأهالي وبين =

ويعلق النويرى السكندرى على ذلك بقوله : « ولو كانت المسلمون تركوا للعدو الجزيرة وحصنوا السور وقاتلوا من ورائه كل رجس نفور إلى أن تصل النجدة فى أقرب وقت ، لكان المسلمون بتحصنهم بالثغر سلموا من القتل والنهب والأسر ، وما كان عليهم من إخراب الفرنج للربط المبنية لسلامة الاسكندرية من أذى الملة النصرانية ، فالذين خافوا على ربطهم تخربت ودورهم التى بالبلد نهبت ، وذلك بالرأى الغير صائب ، حتى حلت بهم المصائب »(١) .

(ب) موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين :

كان القبارصة يترقبون عملا حاسماً من جانب المسلمين ، فلما أدركوا عدم اكتراثهم للأمر ، قدموا غرابا إلى الساحل ، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين (٢) ، خاضوا فى الماء ، وناوشوا من فيه القتال ، وتمكنوا

= أسباب الدفاع ، فنهب الجنوية كل ما فى المدينة من متاع وأموال ، وأسروا عدداً كبيراً من سكانها ، وفر محمد بن ثابت إلى قبيلة الجوارى خارج السور ليحتمى فيها ، بينما فر أخوه إلى مصر . ولم يترك الجنويون طرابلس إلا بعد أن دفع لهم أحمد بن مكى حاكم قابس خمسين ألف مثقال من الذهب العين (راجع الطاهر أحمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٢٦٢ — ٢٦٤) .

(١) النويرى ، ص ٧٩ أ

(٢) أسهم المغاربة مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى المرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر ، فقد اشترك جماعة منهم فى الجهاد مع عساكر نور الدين محمود بن زنكى ضد الصليبيين (ابن جبير ، الرحلة ص ٣٠١) ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة (نفس المصدر ، ص ٢٨٥) . كذلك كان يبذل جهده لافتداء الأسرى منهم لأنهم =

من الامساك بالغراب فى أيديهم ، ثم طلبوا من الزراقين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه ، ولكن للأسف لم يهتم أحد بذلك، لقلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم. وما زال المغاربة ينادون فى طلب النفط والنار ، وأمام صراخهم المتواصل رمى الزراقون بمدفع فيه نار «كنار الحلفا ، فوقع فى الماء فانطفا » ، وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيوف ، وسقط منهم عدد كبير صرعى . ولما لم يجد بحارة الغراب من يمنعهم من المضى فى مسيرهم نحو الساحل ، تابع سيره وتبعه آخر من خلفه يحميه برمى السهام على المسلمين ، فلما وصل الغرابان إلى البر تتابعت الغربان من مناطق متفرقة حتى يرتبك المسلمون ، ويستعصى عليهم تركيز قذفها بالنار والحجر . وسرعان ما نزل الفرنج إلى البر ضحى يوم الجمعة ، وأخذ خيالتهم يرمون على المسلمين بالسهام ، وقد زحف فى مقدمتهم

= غرباء لاأهل لهم. واشترك المغاربة فى الجهاد بالاسكندرية فى بداية قيام الدولة الأيوبية ، وقد رأينا كيف أسس لهم صلاح الدين مدرسة وداراً وبيمارستانا ، واشترك كثير من المغاربة فى موقعة القبارصة بطرابلس الشام ، وقتل منهم فى أول لقاء مغربيان (طرابلس الشام ، ص ٤٦٠) . وكان الأمير يلبغا الخاصكى يكثر من قوادهم فى البحر لاعتيادهم على ذلك (النويرى السكندرى ، ص ١١٦ ب)، وقد اشترك كثير منهم فى الدفاع عن الاسكندرية فى وقعة الاسكندرية ، واستشهد منهم عدد كبير . وكان يلبغا الخاصكى يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر ، وذكر النويرى معلقاً على بطولة ابراهيم التازى المغربى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية : « لأن الفرنج ليس يقهرهم سوى المغاربة ، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم فى بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً بجوانك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخربوا جزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم فى جزيرة » (النويرى ، ص ٢٧٧ ب) .

أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام ، مسربلين بالزرد وصفائح الحديد وعلى رؤوسهم الخوذ ، وبأيديهم السيوف . وقد تنكبوا القسى ، ورفعوا أعلام الصلبان . وأحدث نزول القبارصة على الساحل موجة من الذعر والهلع فى نفوس المسلمين ، فترك الباعة موائدهم وأطعمتهم وفروا خائفين . والفرنج يضربون أقفيتهم بالسهام ، ويوجهونها على خيل العربان ، فهاجت الخيل وجفلت ، وتفرقت على غير هدى ، وطار العربان من رمى السهام « طيران الحمام » ، وانهزموا إلى ناحية السور ، وتدفقوا على أبواب المدينة فدخلوها . ويعلق النويرى على هذه الهزيمة الأولى بقوله : « وكان الفرنج لا بسين الحديد من الفرق إلى القدم . والمسلمين كلحم على وضم ، فكيف يقاتل اللحم الحديد؟ وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد »(١) .

ولما رأى أهل الاسكندرية ما أصاب طلائع العربان من القتل والذبح ، فروا بأنفسهم إلى الأبواب ، وتزاحموا فى الدخول ، فهلك منهم كثيرون ، وآثر آخرون القتال والموت فى ساحة المعركة ، وفضلوا الاستشهاد ، ويورد النويرى أمثلة من بطولات فردية أبداها جماعة من المصريين ، فيذكر أن محمد الشريف الجزار « هجم على الفرنج بساطور المجزرة جعل عظام جماعة منهم مكسرة ، وهو يقول : الله أكبر قتل من كفر ، إلى أن تكاثر عليه منهم جماعة كثيرة ، فاستشهد رحمه الله بالجزيرة ، وروئى بعض فقهاء المكاتب ويعرف بالفقيه محمد بن الطفال وهو قاصد الفرنج بسيفه ، فقيل له : تموت يافقيه محمد . فقال إذن أسعد وأصير مجاوراً للنبى محمد ، وأى موتة أحسن من الجهاد فى سبيل الله لأصير إلى الجنة . وهجم فيهم فصار يضربهم ويضربونه

---

(١) النويرى ، ص ٧٩ ب

إلى أن رزق الشهادة ، وختم له بالسعادة » . ولما حوصر جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعين ، فى الرباط الذى عمـــــره لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه ، وصلاتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم لترابط به ، وكان قد أسس قبل الوقعة بما يزيد على سنة ، وأنفق على عمارته نحو ثمانمائة دينار ، فلما تكاثر الفرنج حول الرباط المذكور أخذ رماة المسلمين فى أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم ، فقتلوا منهم جماعة ، فلما نفذت سهامهم عمدوا إلى شرفات الرباط ، وأخذوا يهدمونها ، ويرمون الفرنج بأحجارها ، إلى أن نفذت شراريف الرباط المذكور ، فانقطع رميهم . وعندئذ كسر الفرنج شبابيك الرباط ، وصعدوا إليهم ، فلما شاهدهم المرابطة صاحوا جميعاً : يامحمد « وصمتوا ، فلم يسمع بعد ذلك صوت ، أخبر بذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر قيم مسجد القشميرى ، وكان مختفياً بصهريج الرباط المذكور ، فذبحتهم الفرنج عن آخرهم بخناجرهم ، فصارت أدميتهم تجرى من ميازيب الرباط المذكور كجرى الأمطار إبانها منها . وقيل كان عدد المذبوحين فوق سطح الرباط من المسلمين الزيادة على الثلاثين ... » (١) . ولم ينج من رماة الرباط المذكور سوى اثنان ، أحدهما يدعى محمد الخياط ، أبقى القبارصة على حياته لصغر سنه ، والآخر ، ويدعى حسين البياع ، أبقوا عليه لأنه لم يجزع حين أقبلوا عليه ليذبحوه .

(ج) موقف جنغرا بعد الهزيمة :

رأى جنغرا ، وهو مشرف على المعركة من ظاهر باب البحر ، ما أصاب

(١) نفس المصدر، ص ٨٠ أ

المسلمين على أيدى القبارصة ، وشاهد فرارهم ، وسهام العدو تصيب ظهورهم فتردِيهم ، وكان قد أصيب بسهم سال منه دمه ، فندم على مخالفته لنصح المغربى ، وأسف على سماحه للمسلمين بالخروج إلى الجزيرة ، والتعرض لسهام العدو ، بدلا من التحصن داخل أسوار المدينة ، ومقاتلة الفرنج من كوى هذه الأسوار حتى تصل النجدة من القاهرة . وكان أهل الاسكندرية وقد أصابهم الذعر قد شرعوا فى الفرار من أبواب البحر إلى بلد البسلقون (١) ، والكريون وغيرهما من القرى الدانية والقاصية ، ويبدو أنه لم يستطع دخول المدينة من باب البحر لكثرة تزاحم الناس على الدخول ، فاضطر إلى السير ناحية المطرق المحاذى لدار السلطان غربى الاسكندرية من ظاهر سورها ، خائضاً بفرسه فى الماء ، وبصحبته عدد من الجند ، فدخل الاسكندرية من باب الخوخة ، وهو باب صغير كما يبدو من إسمه ، يقع ما بين باب البحر والباب الأخضر ، فأتى إلى بيت المال ، وحمل ما كان فيه من الذهب والفضة خشية أن يقع غنيمة فى أيدى القبارصة ، ثم خرج من باب البر (٢) ، و أمر باعتقال

---

(١) لعلها البلقطر ، وهى مدينة صغيرة من كورة البحيرة قرب الاسكندرية (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) .

(٢) وهو إما باب سدرة القبلى ، أو باب الزهرى المجاور له من جهة الشرق ، أو باب رشيد وهو الباب الشرقى (النويرى ، ص ٨١ ب من نسخة برلين) والظاهر أنه خرج من باب سدرة لأنه أقرب أبواب البر إلى قصر الوالى .

ونلاحظ أن النويرى السكندرى كان من بين الفارين من أبواب البر فقد ذكر النويرى سبب تأليفه لكتابه بقوله : « وكان السبب لتأليفى هذا الكتاب ، طول إقامتى بالاسكندرية ومحبتى لها ولأهلها ، فانى دخلتها فى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بسبب رؤيتها وزيارة الصالحين بها ، فلما حللتها شاهدت مدينة حسنة البناء =

تجار الفرنج وقناصلتهم بالثغر ، وكان عددهم خمسين رجلا ، واخراجهم من باب البر نحو دمنهور . ولما حاول أحدهم الاعتراض على ذلك ضرب أحد المماليك الجبليـــة عنقه بسيفه ، فأذعنوا بالخروج وقد قيدهم المسلمون بالسلاسل .

(د) اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وعيثهم فى المدينة :

اقترب القبارصة من سور الاسكندرية ، ولكن المسلمين أمطـــروهم من أعلى السور وابلا من السهام فتوقفوا عن مواصلة الزحف ، وعمدوا إلى استخدام « بتية خشب ملأوها حريقاً ، وقصدوا بها حرق باب البحر بكركرتها بأسنة الرماح » ، ولكن السهام تساقطت عليهم من أعلى السور وأرغمتهم من جديد على التوقف ، فتركوا البتية وقد اشتعلت فيها النار ، وتراجعوا بعيداً عن مرمى سهام المسلمين ، ناحية الميناء الشرقية ، وتفحصوا السور من تلك الجهة ، فألفوا ممشاه العلوى دون بقية الأسوار ، خالياً من الجنـد المدافعين ، وأدركوا أن بامكانهم الصعود إلى ذروته ، خاصة وأنه لم يكن يتقدمه خندق يعوقهم عن الصعود إليه ، فضوا إلى ناحية باب الديوان فأحرقوه من غير أن يمنعهم مانع من تلك الجهة ، ودخل بعضهم المدينة عن طريقه ، بينما تسلق البعض الآخر سلالمهم الخشبية المفصلة المركبة بعضها فى فى بعض وصعدوا إلى أعلى السور (١) ،ولم يكن يفصل المسلمين عن القبارصة

= جميلة المعنى، طيبة السكنى ...فأحببتها حينئذ وسكنتها، وتأهلت بها وألفت هذا الكتاب بها ... ثم خرجت مع من خرج من الوقعة من باب برها لعدم إلقاء نفسى فى الهلكة لما لم يبق فى أهلها للقتال حركة . ثم رجعت إليها لأرى صدفة درها كيف صارت بعد فعل الكفرة بها ....» (النويرى ، ص ٩١ أ — ٩١ ب لسخة الهند) .

(١) يؤيد ماشو الذى اعتمد فى كتابته على مدونة بطرس لوزنيان ما رواه =

الذين صعدوا بأعلى السور سوى حصن لا منفذ فيه يؤدى إلى القبارصة . فلما رأى المسلمون نجاح القبارصة فى الصعود إلى السور . وفى دخول المدينة من باب الديوان فت فى عضدهم ، وأيقنوا بتغلبهم على المدينة . ففروا طالبين النجاة بأنفسهم ، فقتل الفرنج من أدركوه منهم ، ولم ينج إلا من أسعده الحظ بالخروج من باب البر(١) . ويعلق النويرى على ذلك بقوله : « فلو كان السور الذى يلى البحر جميعه معمراً بالرجال من جهة الديوان والصناعة سلمت منهم الاسكندرية ، وانما قال شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين ابن أبى عليبة الناظر : اغلقوا باب الديوان الذى من داخل البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد ، فتضيع الحقوق التى عليها ، فقفل الباب ، فلذلك امتنعت الرماة من حراسة تلك الجهة من السور ، فبذلك رأى العدو جهة خالية من غير خندق مانع ، فدخل البلد منها ، وقيل أيضاً أن ابن غراب الكاتب كان متعاملا مع صاحب قبرس عليها ، وأن صاحب قبرس أتاها قبل الموقعة فى زى تاجر أواه ابن غراب عنده مدة ، وصار القبرسى يتمشى بالبلد من جملة الفرنج التى بها ، وهو يكيفها وينظر أحوال المسلمين بها ، فلما علم ذلك بعد الوقعة ، وسط الأمير صلاح الدين بن عرام بعد قدومه من الحجاز ابن غراب المذكور وعلقه قطعتين على باب رشيد ، فلو فتح باب الديوان الذى يلى البلد ، قاتلت المسلمون الفرنج من أعلى سوره ، وكانوا يجدون ما يفوتهم من نقل الشام ، وكان أصحاب البضائع يسمحون بذلك ،

= النويرى فى طريقه دخول القبارصة الاسكندرية (راجع :

G. Machaut La prise d'Alexandrie, ou Chronique de Roi Pierre I Lusignan publiée par Mas Latrie, Génève. 1877)

(١) النويرى ، ص ٨١ أ

فلما لم يكن للأمير جنغرا رأى صائب ، وقفل الناظر وابن غراب لباب الديوان كما قيل عنهما ذلك ، أخذت الفرنج البلد من تلك الجهة ونفذت المقادير فى كل صغير من أهل الثغر وكبير ، فمنهم من قتل ، ومنهم من أسر ، ومنهم من وقع من السور كسر » (١) . وبينما كانت قوات القبارصة تنتشر فى الاسكندرية ، كان أهل المدينة يهرولون فى طرقاتها يقصدون الخروج من منافذها البرية وهى باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد ، حيث تجمعت الألوف ، فاشتد الازدحام هناك ، وفقد الأهالى فى دفعة الازدحام ما كانوا يحملونه من ذهب ومصانع ومتاع ، فمنهم من نجح فى الخروج من تلك الأبواب ، ومنهم من أدركه القبارصة بباب السدرة فقتلوه ، ومنهم من أسروه ، ومنهم من تدلى من أعلى السور فى الحبال والعمائم ، فنجا البعض ، وهلك البعض . وعندما وصل القبارصة إلى باب السدرة صعدوا بأعلاه ، ونصبوا هناك أعلامهم .

أما من تمكن من الفرار من أهل الاسكندرية فقد قصدوا القرى والحقول «فامتلأت منهم الغيطان والبلدان ، ونهب بعضهم العربان ، وعلا السعر فيما بينهم بما جلبته الباعة إليهم من البلدان ، فباعوا الغالى بالرخيص ، وصار كل منهم على طلب القوت حريص » .

وتدفق الفرنج فى شوارع المدينة ينهبون متاجرها وفنادقها وحوانيتها ، بعد أن كسروا أقفالها وأحرقوا أبوابها ، وحملوا ما فيها على ظهور الجمال والبغال والحمير ، وقتلوا من وجدوه مختبئا فيها صغيراً كان أو صغيراً ، واعتدوا على النساء والبنات ، وأحرقوا القياسر والخانات ، وكسروا قناديل الجوامع

(١) النويرى ، ص ٨١ أ .



باب رشيد كما رسمه الفنان كاساس سنة ١٧٨٥

والمساجد ، وقتلوا الشيوخ والعجزة فى داخل بيوت الصلاة ، وأسروا الرجال والنساء والإماء والصبيان . واستمروا على تلك الحال من ضحى يوم الجمعة إلى مساء يوم السبت أحرقوا خلال هذا الوقت « حوانيت الصرفة بكمالها وسوق القشاشين بالمعاريج ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطيبية مع فندق الجوكندار ، وفندق الدماميني بسوق الجوار ، ووكالة الكتان المقابلة للجامع الجيوشى بالقرب من العطارين مع سوق الخشابين . وأحرقوا أيضاً دارا بزى مدرسة ابن حباسة مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل ناحية ومكان ، وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد ، وعبث بإحراق بعض حوانيت المحجة كل علج مريد ... »(١) . ولم يستثن القبارصة من الحرق فنادق الفرنج بالاسكندرية ، فأحرقوا « فندق الكيتلانيين وفندق الجنويين وفندق الموز وفندق المرسيليين ، فصارت النار تعمل فى البندق والبضائع التى لم تجد الفرنج لها محملا معهم لاشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية »(٢). ثم أتى القبارصة على قياسر البزازين ، ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين المحزومة والمعدة للتصدير إلى الشام ، والمنسوجات الحريرية التى وردت مع تجار الأعاجم وغيرهم إلى الاسكندرية ، وقد وصلت أحمالها إلى عدة قناطير ، وهاجموا حوانيت الشماعين ، فكسروا أبوابها ، ودمروا ما فيها من أوعية وأوانى وأحقاق وبرانى ، فأصبحت «ملقاة مطروحة فى الطرقات ، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك » ،

---

(١) النويرى ، ص ٨٢ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ أ

وهاجموا سوق الصاغة ، واقتحموا حوانيته ، ونهبوا كل ما فيها من الذهب والفضة ، وسطا عدد من القبارصة على الدور ونهبوا ما فيها من أموال وثياب ومصاغ وفرش وبسط ونحاس ، واقتلع جماعة آخرون باب المنار الذى كان قد عمره الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الوقعة على الأساس الذى كان قد أسسه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على أساسه حصنـــا دائراً ، وعمل لـــه الباب المذكور ، كما اقتلعوا نوافذ قبة تربة الأمير طغية المقامة بمقبرة الميناوين خارج باب البحر فى منطقة الجزيرة ، وكسروا شاهدى قبر الأمير طغية نفسه وقبر الأمير بلاط ، وهما على شكل عمودين مموهين بالذهب واللازورد يحملان تاريخ وفاتهما ، كما أحرقوا أسقف الأربطة فى الجزيرة ، وكسروا قناديلها وقناديل المشاهد والمزارات ، وخربوا قصور الجزيرة وتربها ، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى الأعياد ، واقتلعوا حلقتى باب المدرسة الخلاصية التى عمرها نور الدين على بن خلاص ، وكانت من النحاس المخرم ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبيتها ، وكان من النحاس الأندلسى المخرم المنزل بالفضة ، بينما طرحوا الأجزاء الثلاثين للربعة بالمدرسة . وصعدت طائفة من القبارصة إلى صومعة المدرسة النابلسية ، فوجدوا بأعلاها جمال الدين ابن مؤسسها مختبئا منهم ، «وكان شيخا ضعيف البنية ، فألقوه على رأسه منها إلى الأرض ، فاندق عنقه ومات شهيداً رحمه الله »(١) .

وأحرق القبارصة باب البحر الأول والثانى ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة والمجانيق التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣ ب



برج من أبراج السور الاسلامى بالشلالات



جانب من باب الزهرى

وأحرقوا السفن التى كان المسلمون قد أحرقوها بدار الصناعة الشرقية حتى لا يستولى عليها القبارصة ، ثم أحرقوا دار الطراز والديوان بعد أن نهبوا ما كان بدار الطراز من الاستعمالات الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضاً قلعة ضرغام ، والمكان المعروف بالكدس ، وكان برسم الاستعمالات أيضاً . ولكن القبارصة عندما مروا أمام قصر السلاح لم ينتبهوا إلى حقيقته ، وظنوا أنه أحد أبواب المدينة ، لأنه كان يجاور السور من جهة البر ، « فخافوا من كسر بابه خشية أن يكون خلفه كمينا يطبق عليهم »(١) . كذلك لم يتمكن القبارصة من نهب كثير من ديار المحجة بالاسكندرية ، إذ كان عبد الله بن نخالة كاتب المحجة على بيع ثمر البساتين هو ورجاله يرمون القبارصة المارين فيها بالحجارة من أعلى الدار (٢) .

وعاث القبارصة فى الاسكندرية فقتلوا من وجدوه من الأهالى مختبئاً فى المساجد ، وقتلوا الناس فى الدور والحمامات والشوارع والخانات (٣) ، وكانوا يحملون ما ينهبونه من الحوانيت والفنادق والدور والقياسر على الإبل والخيل والحمير ، حتى إذا ما انتهت هذه الدواب من مهمتها « طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح ، فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد ، لم يعلم لها عدد ، فهلكت وجافت ، فأحرقها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها »(٤)

(١) النويرى ، ص ٨٤ أ

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ ب

(٣) بلغ عدد القتلى من أهل الاسكندرية وفقاً لما ذكره المؤرخون نحو أربعة آلاف شخص (النويرى نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٨ — ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩) .

(٤) النويرى ص ٨٣ ب

وما إن حقق الفرنج هدفهم من غزو الاسكندرية بعد ثمانية أيام من يوم وصولهم فى ٢١ المحرم إلى خروجهم عنها يوم الخميس ٢٨ من الشهر المذكور، ووقزوا سفنهم وشحنوها بما نهبوه منها، حتى تحصنوا فى مراكبهم بعد أن تركوا على الساحل فضلات النهار التى لم يجدوا لها موضعاً على سفنهم، فعادت إلى أصحابها بعد خروج القبارصة. وكانت مراكب القبارصة قد ثقلت بشحناتها، فاضطروا إلى تخفيفها فى الطريق بإلقاء بعض هذه الشحنات، وقد عثر الغواصون بمنطقة أبى قير بعد خروج القبارصة من الاسكندرية على تحف نحاسية وغيرها فى قاع البحر. وحمل القبارصة معهم من الأسرى نحو خمسة آلاف شخص ما بين مسلم ويهودى ومسيحى، نساء ورجالا وأطفالا، أما الأطفال فقد وزعوهم بأرض الرومانية (١).

(هـ) استرجاع المماليك للاسكندرية :

كان القبارصة يعيشون فى المدينة فسادا أثناء النهار، خلال الأيام الثمانية التى قضوها هناك، وعندما يقبل الليل يرحلون إلى سفنهم، إذ كانت أبواب المدينة مفتحة للداخلين إليها بسبب حرق الأهالى لمصاريعها الخشبية، ولذلك خاف القبارصة من المبيت فى داخل المدينة لتوقعهم وصول النجدات المملوكية من القاهرة. وأعتقد أيضاً أنهم كانوا بالاضافة إلى ذلك يخافون من الاصابة بالطاعون بسبب تجيف الجثث الكثيرة المطروحة فى الطرقات والشوارع. وكان عربان هوارة وفزارة وغيرهما من قبائل العرب النازلين بظاهر الاسكندرية يدخلون المدينة فى ساعات الليل، عند خلوها من القبارصة، فينهبون ما يجدونه فى المخازن والفنادق والخانات والحوانيت، وقد دمرت جميع أبوابها، وأصبحت السلع والبضائع والتحف متاحة لكل لص وسارق (٢). وجاء

(١) النويرى، ص ٨٤ ب

(٢) النويرى، ص ٩٣ أ

خبر الإعتداء القبرصى على الاسكندرية إلى يلبغا الخاصكى يوم السبت ، وكان السلطان بسرياقوس باقليم القليوبية ، فقام من وقته وعائدا إلى القاهرة ، و صعد إلى القلعة وأمر العساكر بالرحيل فوراً إلى الاسكندرية . ثم ركب السلطان بعد صلاة الظهر ومعه الأتابك يلبغا والعساكر ، وعبروا النيل ، واتجهوا إلى الاسكندرية من غير ترتيب أو تعبية حتى وصلوا إلى الطرانة احدى قرى مركز كوم حمادة بالبحيرة ، والعساكر تتتابع ، فأرسل السلطان من هناك جاليشا(١)من الأمراء يتقدمون الجيش إلى الاسكندرية فى خفية ، وهم قطلوبغا المنصورى ، وكوندك ، وخليل بن قوصون ، وجماعة من الطبلخانات والعشرات (٢) .

وأقبل العسكر المملوكى فى ٢٥ من المحرم يتقدمهم الأمير صلاح الدين بن عرام الذى كان قد عاد من الحجاز ومعه يلبغا الخاصكى ، ودخل يلبغا الاسكندرية ، « فرأى ما حل بها ، وشاهد ما آل أمرها إليه من الحريق والهدم ، وعاين جثث المسلمين قد انتفخت واسودت ، وتغيرت وجافت ، فبكى بكاء شديدا ... وحصل له من الألم ما حمله على أن يأخذ الثأر من الفرنج الكفار ، فتهيأ لعمارة المراكب الغربان منها والطرائد ، وشرع فى عمل السلاح وآلات الحرب »(٣) .

ويذكر النويرى فى موضع آخر أن الأمير الأتابكى يلبغا ، « عزم على عمارة المراكب الحربية واجتهد فيها وفى عمل الأسلحة المنكية ، والسفر إلى الجزيرة القبرسية ليطهرها من الصليب والخنزير »(٤) وكان أول ما فعله

(١) الجاليش طليعة الجيش

(٢) ابن تغرى بردى ، ج ١١ ص ٢٩

(٣) النويرى ، ص ٨٩ ب

(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٣ ب

ابن عرام متولى الاسكندرية بعد دخوله لها ، أن نزع أعلام صلبان القبارصة من أعلى أسوار المدينة ، ونصب أعلام المسلمين عليها . ثم أمره يلبغا الخاصكى بدفن الموتى ، وأمده بالأموال لعمارة ما خرب منها . وقام يلبغا الخاصكى بمصادرة جميع النصارى والرهبان بالديار المصرية كرد فعل لغزوة القبارصة ، واستنفد من جميع الأديرة ما بها من الأموال ، فجمع من ذلك أموالا هائلة ، حتى قيل أنه جمع اثنى عشر ألف صليب ، منها صليب ذهب زنته وحده عشرة أرطال مصرية (١) .

(و) صدى غزوة القبارصة فى العالم الاسلامى والعالم الأوربى المسيحى :

كان للعدوان القبرصى الوحشى على الاسكندرية أصداء هائلة فى العالم الإسلامى آنذاك ، ففى الأندلس انتهز عبد الله الغنى بالله محمد بن اسماعيل ابن فرج بن نصر سلطان مملكة غرناطة انشغال الملك بدرو الأول ملك قشتالة بمحاربة أخيه غير الشرعى هنرى دى تراستمارا الذى ينافسه على العرش وقام بهجوم واسع النطاق على بعض مدن الأندلس فى سنة ١٣٦٧ م ، وقد ورد فى رسالة كتبها لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه إلى سلطان تونس المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى أن مسلمى غرناطة عندما هاجموا مدينة جيان انطلقوا يهتفون بعبارة (يالثارات أهل الإسكندرية) (٢) ، وهى

---

(١) عبد الحى بن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ج ٦ ص ٢١٣

(٢) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٩٢ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٥١

صيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها غزوة القبارصة للاسكندرية فى نفوس الأندلسيين (١) .

وفى بغداد أبدى الخان المغولى أويس بن الشيخ حسن ألمه عندما علم بدخول القبارصة الإسكندرية ، وصادر المنسوجات التى أتت بها طائفة من الفرنج إلى مدينة تورين فى سنة ٧٦٧هـ ، من جملتها أقمشة كثيرة مخيطة وغير مخيطة ، كانت من بين ما نهبه القبارصة من الإسكندرية وباعوها لتجار الفرنج ، ثم أمر أويس بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو ثمانمائة شخص (٢) .

ولما بلغت أنباء ما فعله القبارصة فى الإسكندرية إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك للغاية ، وذكر الخطيب فى الجامع يوم الجمعة على المنبر ما اقترفوه فى الثغر السكندرى من الجرائم ، فتباكى الناس كثيراً ، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والفرنج دفعة واحدة وايداعهم فى الحبوس بالقلعة (٣) ، وأن يصادر ربع أموالهم لعمارة ما خرب من عمران الإسكندرية ، ولعمارة مراكب لغزو الفرنج ، وفى ١٥ صفر نودى بالبلدان أن لا يعامل الفرنج البنادقة والجنوبة والكتيلان (٤) .

---

(١) مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٤٥

(٢) النويرى ، ص ٢٥٢ ب

(٣) انتقم السلطان من الجاليات الأوربية المقيمة بالشام ومصر ، كما أمر بالقاء القبض على الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون وسجنهم بالقاهرة حيث أقاموا بها ثلاث سنوات (أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢١) .

(٤) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣٢٢

وقد أوردنا ثلاثة أمثلة عن رد الفعل الإسلامى فى المشرق والمغرب وقلب العالم الإسلامى مما يدل دلالة واضحة على الوحدة الروحية الوثيقة التى كانت تربط بين الأقطار الإسلامية وتكافلها فيما بينها .

أما فى الغرب المسيحى فقد انتهج المسيحيون هذه الغزوة وهللوا لها ، وبادر البابا بتهنئة بطرس ،وأرسل إلى ملوك أورا وأمرائها يحثهم على تقديم العون والمساعدة إلى ملك قبرس « الأسد الشجاع » على حد تعبيره ، ووعد شارل الخامس ملك فرنسا بارسال جيش كبير إلى قبرص لتحطـــيم قوة المسلمين ، وتسابق المغامرون والطامعون ومحترفو القرصنة إلى قبرص للدخول فى خدمة ملكها عندما بلغهم كثرة ما غنمه القبارصة من ثروات الإسكندرية(١)

ومع ذلك فان أحداً من ملوك أوربا لم يلب دعوة البابا لمساعدة بطرس تلبية جدية ، بل إن كثيراً منهم وجهوا إليه اللوم على الفرار من الإسكندرية عند قدوم جيش المماليك ، ويعبر النويرى عن ذلك بقوله : « وقد قيل إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الأسكندرية وقالوا له : إن الذى فعلته هو فعل اللصوص ، لا فعل الملوك ، كنت لما ملكتها أقمت بها ، وناضلت عنها ، كما فعلت الجنوية بطرابلس الغرب ، ولكن دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً ، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة جيش مصر » (٢) .

أما البندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية التى كانت ترتبط مع دولة المماليك بعلاقات تجارية فقد قابلت وقعة القبارصة بالإسكندرية باستنكار شديد لأنها خشت من رد الفعل الإسلامى المضاد على تجارتها التى هى المورد

---

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٠

(٢) النويرى ، ص ١١٣ ب (مخطوطة الهند) .

الرئيسى لحياتها . و لذلك السبب حرصت البندقية على إرسال وفد إلى السلطان الملك الأشرف شعبان يؤكد له أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لاعلاقة لها بالبندقية (١) . ولكن السلطان أصر على إيقاف التعامل مع البنادقة أوغيرهم مادام لم يصف حسابه مع ملك قبرص ، ولهذا السبب أخفقت السفارة البندقية ، وتوجه البنادقة بعد ذلك إلى قبرص لمفاوضة بطرس فى إيقاف حملاته العدوانية على مصر والشام ، وطلب الوفد البندقى أن يقوم بطرس بمفاوضة السلطان المملوكى فى الصلح ، وتعهد البنادقة بدفع الأموال التى أنفقهـا بطرس لإعداد حملته التى كان يزمع تسييرها إلى بيروت (٢) ، فعدل بطرس عن مهاجمة بيروت ، ولكن مفاوضات الصلح بين قبرص ومصر تعثرت ، وامتد أثرها ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد .

(١) Makhairas, vol. I, P. 157.

(٢) Makhairas, vol. I, p. 157 — سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٧١



(٣)

الاحداث السياسية التى أعقبت وقعة القبارصة بالاسكندرية

١ ــ تحويل الإسكندرية من ولاية إلى نيابة :

أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين الإسكندرية والعناية بها وبشؤونها بعد أن أصبحت مطمعاً للصليبيين ، وكانت غزوة القبارصة تجربة مريرة ، ودرساً قاسياً لم ينسه المماليك ، وازدادت أهمية المدينة فى نظرهم ، فكان أول ما عمله السلطان الأشرف شعبان فى هذا السبيل أن حول ولاية الاسكندرية إلى نيابة يقوم بشؤونها نائب للسلطنة ، ينفرد بحكمها ، ويكرس جهوده لتحصينها ، والإشراف على الدفاع عنها ، وأصبح هذا النائب يختار من بين الأمراء المقدمين ، بعد أن كان يتولاها وال من أكابر أمراء الطبلخاناة وهكذا أصبحت الإسكندرية وظواهرها إقليما مستقلا يحكمه نائب للسلطنة له من السلطات ما يماثل نواب السلطنة فى طرابلس الشام وحماة وصفد ، ويعتبر فى نفس الوقت صورة مصغرة من السلطان ، يقوم مقامه فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته . وفى نيابة الاسكندرية يقول القلقشندى : « وهى نيابة جليلة ، تضاهى نيابة طرابلس وحماة وصفد من المملكة الشامية الآتى ذكرها ، وبها كرسى سلطنة ونمجاة سلطانية توضع على الكرسى ، ونائبها من الأمراء المقدمين يركب فى المواكب بالشبابة السلطانية ومعه أجناد الحلقة المرتبون بها ، ويخرج فى موكبه إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر ، ويجتمع إليه

الأمراء المسيرون بها هناك ، ثم يعود وهم معه إلى دار النيـــــابة ، ويمد السماط السلطانى ويأكل عليه الأمراء والأجناد ، ويحضره القضاة ، وتقرأ القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون » (١) . وفى موضع آخر يعدد ولاة الأمور فى النيابة فيقول : « وهى نيابة جليلة نائبها من الأمراء المقدمين ، يضاهى فى الرتبة نيابة طرابلس وما فى معناها أو يدانيها ، وبها حاجب أمير عشرة ، وحاجب جندى ووال للمدينة وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضى قضاة مالكى وقاضى حنفى مستحدث ، وربما كان بها قاض شافعى ، والمالكى أكبر الكل بها ، وهو المتحدث فى أموال الأيتام والأوقاف ، على أنه ربما ولى قضاء قضاتها فى الزمن الماضى شافعى . وبها موقع يعبر عنه فى البلد بكاتب السر ، وناظر متحدث فى الأموال الديوانية ومعه مستوف ، وتحت يده كتاب وشهود ، وبها المحتسب ، وليس بها قضاة عسكر ولامفتو دار عدل ، ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة . وتركز بها أمراء المقدمين والطبلخانات فى غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية فى البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى الحاجب ... » . ثم يصف موكب نائب الإسكندرية بشىء من التفصيـــــل فيقول : « وعادة الخدمة السلطانية بها فى أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفى خدمته مماليكه وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم ، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس ، ويسير فى موكبه والشبابة السلطانية بين يديه حتى يخرج من باب البحر ، ويخرج الأمراء المركزون على حدتهم أيضا ويجتمعون

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٢

فى الموكب ، ويسيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون . ويتوجه النائب إلى دار النيابة فى مماليكه وأجناد المائتين ، وقد فارقه الأمراء المركزون وتوجه كل منهم إلى منزله ، فاذا صار إلى دار النيابة ، فان كان فى ذلك الموكب سماط وضع الكرسى فى صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نمجاه (١) سلطانية ، ومد السماط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناد المائتين ، وجلس النائب بجنبة من الإيوان ، والشباك مطل على مينا البلد ، ويجلس القاضى المالكى عن يمينه والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه (٢) ، ورؤوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع القصص(٣) فيقرؤها الموقع على النائب فيفصلها بحضرة القضاة ، ثم ينصرف الموكب »(٤)

وكان أول من تولى نيابة السلطنة بالإسكندرية منذ أن تحولت إلى نيابة ، الأمير بكتمر المشهور بالشريفى (٥) الذى أنعم عليه السلطان بإمرة مائة وتقدمة

---

(١) النمجاة خنجر مقوس يشبه السيف .

(٢) هو كاتب السر ، وكان يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بآرائه ومشورته ، وسمى كذلك لأنه كان يكتم سر السلطان ، وكان يلقب أيضاً بصاحب ديوان الانشاء ، وناظر الانشاء الشريف .

(٣) الشكايات .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) هو الأمير بكتمر بن عبد الله المؤمنى أمير آخور الأشرف شعبان أو الأمير آخور الكبير بالديار المصرية ، وكان من أجل الأمراء فضلا ومعرفة ودينا وعفة عن الأموال وتولى عدة وظائف ، وتنقل فى الولايات مثل نيابة حلب والاسكندرية ، ثم استقر أمير آخور إلى أن توفى فى المحرم سنة ٧٧١هـ وهو صاحب المصلى والسبيل المعروف بسبيل المؤمنى بميدان الرميلة بالقاهرة بأدنى قلعة الجبل =

ألف(١) ، بعد الوقعة . ومنذ ذلك الحين عظم قدر نوابها ، وصار نائبها يسمى ملك الأمراء (٢).

ب — سياسة الضغط على مصر لعقد الصلح مع قبرص :

أحدثت واقعة القبارصة بالإسكندرية اضطراباً شديداً فى ميزان التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط ، فقد خاف البنادقة والكتيلان وغيرهم من الشعوب التجارية أن تؤثر هذه الوقعة على مصالحهم الإقتصادية مع مصر ، وكانت قد وصلت إلى الإسكندرية عقب الوقعة قرقورتان بهما متاجر كثيرة للكتيلان ، ولكن التجار كانوا يخشون من غضب أهالى المدينة ، فرفضوا أن ينزلوا بضائعهم من القرقورتين إذا لم يقدم لهم المسلمون رهائن منهم يضمنون بهم ألا يمسهم أحد بسوء . وظلت السفينتان راسيتين بميناء الإسكندرية إلى أن قدم إلى ميناء الإسكندرية رسل صاحب الكتيلان فى غراب ، وطلبوا هم الآخرون أن يقدم أولو الأمر فى الثغر رهائن من المسلمين حتى يضمنوا بذلك أداء رسالتهم والعودة سالمين . فامتنع المسلمون من ذلك ، وأصر الكتيلان على عدم النزول ما لم يضمنوا لأنفسهم الأمان عن طريق الرهائن . وفى هذه الآونة قدمت قطائع البنادقة تحمل رسلا من البندقية ، مهمتهم تجديد الصلح وفتح كنيسة القيامة ، وطالبوا هم أيضاً برهائن ، فأرسل الأمير

= (راجع ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص١١٢ — ابن حجر ، الدرالكامنة ، ج ٢ ص ٢١) .

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٩ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٣٠

(٢) النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٠

بكتمر الشريف نائب السلطنة بالثغر إلى والى دمنهور يطلب منه أن يبعث إليه جماعة من سجنائه ممن حكم عليهم بالإعدام . فأرسل إليه نحو عشرة منهم ، فلما وصلوا فى حضرة النائب ، أمر بأن يتنكر أحدهم فى صفة جندى ، وآخر فى صفة قاضى ، وثالث فى هيئة شاهد ، ورابع فى زى تاجر ، وخامس فى مرتبة كاتب ، وصنف باقيهم فى صفات أخرى ، وألبس كلا منهم ما اقتضاه لبسه . ثم أرسلهم إلى مراكب البنادقة وشيع وراءهم نساء وصبيانا يصيحون ويبكون كأنهم أولادهم . فاستوثق البنادقة من الرهائن ، ونزلوا من مراكبهم ، وحملوا إلى قلعة الجبل ، فأحسن الأتابك يلبغا الخاصكى استقبالهم ، وأعطوه هداياهم ، فوزعها على من كان بحضرته بعد أن استبقى طستا وإبريقاً من الذهب ، وصندوقا ، وعوضهم عن هداياهم بهداياه ، ثم طالع رسالتهم وكانت تتضمن ما معناه أنهم ما زالوا فى طاعة السلطان « وأنهم مساعدوه على متملك قبرس حتى ترد الأسرى التى أخذت من الإسكندرية ويعوض المال ، وسألوا تجديد الصلح ، وأن يمكن تجارهم من قدوم الثغر ، وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الإسكندرية ، فأجابهم بأنه لابد من غزو قبرس وتخريبها » (١) . وهكذا رفض يلبغا مطالبهم ، وأصر على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح وأن يرد إليه أسرى الإسكندرية قبل كل شىء كشرط أساسى للتفاوض فى الصلح . وعاد وفد البنادقة إلى قبرص ، واتفقوا مع الملك القبرصى — وكان يتأهب لغزو بيروت — على أن يدفعوا له ما أنفقه على تلك الحملة فى مقابل ألا يقوم بانفاذها ، وأن يسعى على عقد الصلح مع سلطان مصر . وعاد الوفد من جديد

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٧ ص ١٠ (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية)

يحمل رد ملك قبرص ، ونزلوا ثغر الإسكندرية دون أن يطالبوا فى هذه المرة برهائن ، وشقوا المدينة « وبين أيديهم طبولهم تدق ، وأبواقهم تصرخ ، ومزاميرهم تزمر ، وأعلامهم منشورة ، وقلوبهم مسرورة »(١).

وكان تجار الكتيلان والوفد الكتيلانى ما زالوا مقيمين فى سفنهم بميناء الإسكندرية ، غير مطمئنين إلى أنفسهم عند النزول ، فلما شاهدوا رسل البنادقة يدخلون الإسكندرية بدون رهائن تجرأوا على النزول من سفنهم ، فأطلقت البطائق إلى السلطان بنزول رسل صاحب الكتيلان ومعهم هداياهم التى بعثها ملكهم إلى السلطان ، فأتى المرسوم بحملهم إلى القاهرة ، فحضروا بين يدى الأمير الأتابكى يلبغا ، وذكروا ما جاءوا فيه من الطاعة للسلطان ، والسعى للصلح وزعموا أنهم لم يظاهروا صاحب قبرص ولا اشتركوا فى الوقعة ، فأكرمهم الأمير الأتابكى واحتفى بهم . ثم خاطب يلبغا رسل البنادقة ورسل الكتيلان ، فقال موجها حديثه للبنادقة : « إن مولانا السلطان قصد إرسال رسله معكم إلى صاحب البندقية وصاحب جنوة ، ثم تطوفوا بهم أراضى ملوكهم بهدايا السلطان لهم وبالصلح معهم ، وتكون متاجركم تأتى إلى ساحل مصر والشام ، ومن قصد منكم زيارة كنيسة قمامة فليأت بأمان على نفسه وماله ، بشرط أن لا تظاهروا القبرسى ولا تعينوه أنتم ولا هم ، فان أنتم ظاهرتموه فليس بيننا وبينكم صلح ، فاتفق الأمر معهم على ذلك ، ورضوا به ، فأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان معهم رسوله صحبتهم معه جنده وخدمه بعد أن تركوا منهم رهاين بالقاهرة من البنادقة والجنوية والكتيلان ، وكان رسول السلطان يقال له الأمير سيف الدين طغية بن

---

(١) النويرى ، الالمام ، ص ٢٤٠ أ ، ٢٤٠ ب .

العرضى ... فسافروا فى الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٦٨ هـ » (١) .

ولم يكن السلطان المملوكى فى حقيقة الأمر راغباً فى عقد الصلح مع ملك قبرص ، فلم يكن قد نسى بعد ما اجترمه هذا الملك وحشوده فى الإسكندرية ، بل كان الأشرف شعبان يتحرق لطلب الثأر منه على هذه الغارة ، فاذا كان قد قبل مبدأ الصلح معه فانه فى الواقع كان يكسب الوقت لبناء أسطول قوى لغزو قبرص بقصد تأديب ملكها . ولذلك فان يلبغا الخاصكى أمر عقب الوقعة القبرصية بعمارة المراكب الحربية والاجتهاد فى إعدادها ، كما أمر بتجهيز البحارة والنفاطة للسفر مع المراكب التى تنتجها دار الصناعة بمصر ، ويذكر المقريزى أنه اهتم « بعمل الشوانى البحرية لغزو الفرنج ، فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجل وصفه ، وشرع النجارون فى عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى (وتقع بين الروضة وبولاق) ، وتولى عملها الوزير فخر الدين بن ماجدين .... فقام فى ذلك أتم قيام ، وبذل همته ، واستفرغ وسعه ، وتصدى له ليلا ونهاراً ، واستقرشاد العمل الأمير علاء الدين طيبغا العلائى أستادار الامير يلبغا ناظر العمل بهاء الدين بن المفسر ، فتقدم العمل ماية شينى ما بين غراب وطريدة برسم حمل الخيل ، وكان أمراً مهولا . ونودى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد فى سبيل الله إلى بيت الأمير يلبغا الأتابك للعرض ، وأخذ النفقة للسفر فى المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت لهم نقباء . وقاموا فى مساعدة صناع المراكب ، وكتب إلى طرابلس وغيرها من بلاد الساحل بإنشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ،

---

(١) النويرى السكندرى ، ص ٢٤١ أ ، ٢٤١ ب .

وكان عملا جليلا » (١) . وهكذا كملت المراكب التى أمر يلبغا بصنعها فى مصر فى عام واحد،وكان عددها مائة مركب أشحنها بالرجال والأسلحة ، وأمر الغزاة أن يلبسوا الزرد ومصفحات الحديد بالبر فلبسوها ، وتسلحوا بأسلحتهم ، وركبوا خيولهم . ثم دعا رسل صاحب الكتيلان فى ربيع أول سنة ٧٦٨ لمشاهدة العرض العسكرى للجيش البرى والبحرى (٢) . وكان يلبغا قد أصدر أمره للأمير بيدمر الخوارزمى فى الشام بعمارة الشـــوانى والحمالات فى دار صناعة بيروت ، كما أمر جميع النجارين فى الشام بقطع أخشاب شجر الصنوبر والقرو وغيرها من جبل شغلان الواقع بالقرب من أنطاكية ، ونشرها لصناعة السفن فى مصر (٣) . وقد امتثل بيدمر الخوارزمى لأمر يلبغا وسخر فى صناعة السفن ببيروت عدداً كبيراً من الصناع ، فى حين أمر العسكر بمراقبة الساحل خوفا من قدوم صاحب قبرص على حين غفلة ، فيدمر جيشه ما تم إنشاؤه . ولكن مهمة هذا الأسطول الشامى المصرى لم تتحقق ، إذ اغتيل يلبغا الخاصكى فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ بيد بعض مماليكه (٤) ، وعندئذ توقف العمل فى إنشاء بقية السفن الشامية (٥) .

---

(١) السلوك ، ج ٧ ص ٤٩

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١٣٧ ب ، ١٣٨ أ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٥

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٤٠ .

(٥) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ١٨٩٨ ، ص ٦٢ ، ٥٣ ، ٢١٣

ثم قدم إلى ميناء الإسكندرية بعد سفر رسل السلطان إلى صاحب البندقية فى صفر سنة ٧٦٨ رسل ملك قبرص فى غراب ، وهم ثلاث سفراء كتيلان : حنا دالفونسو ، وكان يهوديا وتنصر ، وجورج ستيكا ، وبول دى بيلونيا ، حملوا هدايا من ملك قبرص إلى السلطان ، فقابلهم السلطان شعبان وطلب منهم أن يرجعوا أسرى المسلمين(١) ، فوعدوه بذلك ثم رحلوا . ولم يكد يمضى شهر على ذلك حتى قدم رسول من ملك قبرص فى غراب ، وكان رسل ملك الكتيلان ما زالوا مقيمين بالقاهرة ، فحمل رسول بطرس القبرصى إلى القاهرة ، ومثل أمام يلبغا الخاصكى ، فعنفه بسبب عدم وفاء الرسل السابقين بوعدهم فى إرسال أسرى المسلمين ، وعلم منه أن صاحب قبرص موجود فى غراب بالبحر أمام الإسكندرية ، فجهز يلبغا ثلاثة أغربة من السفن التى عمرها فى النيل مشحونة بالرجال والعدد ، بالإضافة إلى خمسة أغربة أخرى كانت مشحونة فى الإسكندرية بالرجال والسلاح بقصد تسييرها للقبض على بطرس . فاضطر رسل الكتيلان إلى التوسط عند ملك قبرص بقصد إرجاع أسارى المسلمين ، فخرجوا ومعهم رسول السلطان وهو ناصر الدين محمد قراجا من جهة دمياط (٢) . وقد نجح رسل الكتيلان عند ملك قبرص فى إطلاق سراح أسرى الإسكندرية .

وتسجل عودة الأسرى نهاية المرحلة الأولى من المفاوضات ، وتبدأ المرحلة الثانية بعد ذلك ، وهى مرحلة استغرقت نحو أربعة سنوات كانت تتخللها بين الحين والحين غارات قبرصية على ميناء طرابلس الشام وميناء

---

(١) Makhairas P. 163

(٢) النويرى السكندرى ، ص ٢٤٢ أ ، ٢٤٣ ب .

الإسكندرية وبلدة الصرفند وميناء صور وغيرها من موانىء الشام . بقصد الضغط على السلطان المملوكى وحمله على قبول الصلح مع القبارصة (١) . ولكن السلطان لم يستطع أن يغفر سريعاً للقبارصة جرأتهم على مهاجمة الاسكندرية وسواحل الشام ، ولذلك كان يسعى للانتقام منهم ، ولم يكن قد قبل مبدأ المفاوضة معهم إلا تظاهرا ، وإنما كان يعمل على التسويف والمماطلة فى عقد الصلح حتى يتم خلال ذلك إنشاء الأسطول الذى كان يلبغا الخاصكى قد أمر بانشائه فى القاهرة وبيروت . فلما أوفى ملك قبرص بوعده فى إرسال الأسرى ، تظاهر السلطان بالغضب بحجة أن ملك قبرص لم يهتم بشأنه ، إذ أرسل إليه رسلا أقل أهمية من رسله السابقين (٢) . وعندئذ لم يجد بطرس بدأ من تشديد الضغط على مصر بمهاجمة سواحل الشام من جديد. ففى أوائل المحرم سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر ١٣٦٦ م) جهز بطرس أسطولا ضخماً يتألف من ١٦ سفينة ما بين شوانى وبطسات للإغارة على ساحل الشام ، ولكن عاصفة عاتية فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض ، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى ١٥ سفينة بقيادة فلوريمونت دى لسبار ، أطلق رجالها يد النهب فى المدينة ، ثم عادوا إلى قبرص (٣) .

ويبـــدو أن تلك الحملة ، رغم فشلها ، ألانت بعض الشىء من تصميم السلطان على رفض الصلح مع القبارصة ، فوافق السلطان على بدأ المفاوضات ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك بحجة عدم رضائه على بعض

---

(١) Atiya, P. 372

(٢) Makhairas, P. 165

(٣) Atiya, P. 373

شروط الصلح (١). عادت سفارة ملك قبرس التى كان يرأسها جاك دى نورس التركبولى إلى الماغوصة (بقبرص) بدون نتيجة. وهكذا أخفقت محاولة بطرس إبرام صلح مع السلطان المملوكى. وعندئذ عقد بطرس العزم على ممارسة سياسة الضغط من جديد. ويذكر النويرى. أنه «لما كان فى أواخر سنة ٧٦٨ هـ أشاعت الناس أن القبرسى جمع جمعاً كثيراً من النصارى قاصداً الاسكندرية، فارتقبت له المسلمون. وتهيأت له الترك المجردة بها، وأبرزوا أسلحتهم التى بها يقاتلونه، وهى من السيوف الهندية، والرماح الخطية، والدرق اللمطية، والدبابيس اللتية، والأطبار المردية، والقسى المحنية، والأعلام المشهورة مع ما هيأوا له من النفط والمدافع وأكر الرصاص التى ترمى عليه بالمقالع، مع المجانيق الغضبانة، والحجارة الصوانة، والخيول المضمرة، والفرسان المغمرة، والعساكر المسرودة التى صارت للقائه كالنار الموقودة» (٢).

ولكن بدلا من أن يوجه القبرصى غارته على الإسكندرية تحول إلى طرابلس الشام، فوصلها فى أول عام سنة ٧٦٩ هـ، واشترك فى تلك الغزوة مقاتلون من البنادقة والجنوية والقبارصة والخرايطة (أهل كريت) والروادسة والفرنسيين والهنكر (الهنغاريين) بلغ عددهم ١٦ ألف مقاتل، حملتهم مائة وثلاثون سفينة ما بين شينى وقرقورة وغراب وطريدة وشختورة، منهم ألف فارس، والبقية رجالة، فقدم البنادقة فى ثلاثين غرابا، والجنوية فى عشرين، والروادسة فى عشرة، والأغراب فى خمسة

(١) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ٧٣

(٢) النويرى السكندرى، ص ١١٥ أ (مخطوطة الهند)

عشرة ، والبقية من قبرص (١) ، واشترك بطرس بنفسه هو وصاحب رودس فى تلك الغزوة . ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الفرنج بسبب كثرة طروق القبارصة لمدينتهم ، وعيثهم بسواحل الشام ، فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس ومن بقى من عسكرها ، ووقعت بداخل المدينة وقائع استشهد فيها من المسلمين نحو الأربعين ، بينما قتل من الفرنج نحو الألف حسب رواية المقريزى وأبى المحاسن (٢) . وقيل قتل من المسلمين واحد وعشرون شخصاً حسب رواية النويرى السكندرى ، وقيل أربعة أنفس ، بينما قتل من الفرنج ثمانمائة (٣) . ثم انسحب القبارصة منهزمين إلى سفنهم (٤) وحاولوا تعويض خسارتهم فى طرابلس بغزو بعض مدن الساحل السورى ، فرسوا بجبلة بغية غزوها ، ولكن ريحاً عاصفا فرق سفنهم فى البحر ، فاتجهوا إلى اللاذقية ، فاستعصت عليهم لمناعة التحصينات وهياج البحر ، وأخيراً هاجم بطرس مدينة بانياس وأحرقها ، ثم أغار على بلدة إياس (٥) . ورد المسلمون على تلك الغزوة ، فقد خرج ابراهيم التازى رئيس دار الصناعة بالإسكندرية من ميناء الإسكندرية فى غرابين ، وبصحبته خمسمائة قائد مسلحين فى ٢٩ رجب

(١) النويرى السكندرى ، الالمام ، مخطوطة رقم ٤١٩٣ بدار الكتب المصرية ص ٧٠ (نسخة محمود حمدى منقولة عن النسخة الأصلية برقم ١٤٤٩) — السلوك ج ٧ ص ٦٠ — تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوطة رقم ٨٠٠٤ ح بدار الكتب ص ٢٤ أ .

(٢) السلوك ، ج ٧ ص ٦٠ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٥٢ ، ٥٣

(٣) النويرى ، الالمام (نسخة دار الكتب) ص ٦٨

(٤) Makhairas P. 193

(٥) طرابلس الشام ، ص ٣٠ والملحق ص ٤٧١

سنة ٧٦٩ هـ إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر ، فغنم زورقا كبيراً بقلعين وأرسلها مع عدد من رجاله إلى الاسكندرية ، فوصل الزورق فى ٩ شعبان (١) . ثم عاد ابراهيم التازى من غزوته ومعه عدد من أسرى الفرنج فى ٢٤ شعبان سنة ٧٦٩ هـ ، بغرابيه موسوقين بالغنائم بعد ٢٣ يوماً، فارتجت الاسكندرية لقدومه وماجت بأهلها ساعة وصوله، فخرج أهل الإسكندرية إلى موضع منارها، واصطف الترك المجردة لحراسة الإسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين إلى الغرابين القادمين ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان . ودخل الريس ابراهيم التازى ثغر الإسكندرية ، وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ، وجهه لذنبه ، وخلفه يسير ٣٥ أسيراً حفاة الأقدام ، قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب (٢) .

واستمر التوتر فى العلاقات بين مصر وقبرص قائماً إلى أن لقى بطرس دى لوزنيان مصرعه على أيدى جماعة من النبلاء فى ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) ، ولم يؤثر مصرعه فى تخفيف حدة التوتر القائم ، فقد واصل القبارصة غاراتهم على سواحل مصر والشام فى بداية عهد خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ — ١٣٨٢) .

ج — غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ :

أغار القبارصة فى سنة ٧٦٩ هـ على بلدة الصرفند بساحل الشام ولكنهم لم يخرجوا من هذه الغزوة إلا بعدد من الأسرى عدتهم ١٣ أسيراً ، واتجهوا بسفنهم إلى مياه الإسكندرية للتلصص فى بحرها فى ١٢ شعبان سنة ٧٦٩ هـ ،

(١) النويرى ، الالمام ، مخطوطه دار الكتب ، ص ٩٨ أ — ٩٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠١ ب

فظفروا هناك بزورق للمغاربة قد اكتمل وسقه كان راسياً بأقصى الميناء ، مجهزاً للإقلاع إلى طرابلس الغرب ، يحمل ما يقارب ثمنها ببضعة عشر ألف دينار ، فقتلوا من فيه من المغاربة ومن كان معهم من رماة الإسكندرية ، من بينهم ابن معلا أحد رؤساء دار صناعة الإسكندرية (١) . وفى العام الأول من حكم بطرس الثانى أغار القبارصة فى أربع بطسات بقيادة سنجوان دمرف القبرصى ، عم بطرس الثانى والوصى عليه ، على سواحل صيدا والبترون الواقعة جنوبى طرابلس ، كما أغاروا على أنطرطوس واللاذقية (٢) . ولم يكد يمضى شهر واحد على هذه الغارة حتى هاجم القبارصة مدينة الاسكندرية للمرة الثانية ، ويذكر االنويرى أنه « فى يوم الأربعاء سادس ذى الحجة من السنة المذكورة (٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م) ورد إلى مينة الإسكندرية الشرقية ثلاثة أغربة كبيرة المقادير وطريدة كبيرة وسلورتين ، ذكر بعض التركمان الذين أتوا من بر التركية تجاراً إلى الإسكندرية أن سنجوان دمرف القبرسى أتى بهم ، فيهم ألف علج ، وهذا سنجوان دمردف المذكور هو ابن ديوك صاحب قبرس الذى رزقه من امرأة بوطا التى كانت عند ديوك يزانيها قبل أن يرزق من زوجته أولاده زبير الذى ظفر بالإسكندرية والبرنز وحاكك ..... فكان سنجوان دمرف المذكور ولد زنا... فلما أتى سنجوان دمرف ولد الزنا بغربانه وطريدته والسلورتين ، نزل يستقوا بها مينة الإسكندرية الشرقية ، فلم يأت منها إلى الساحل خبر ، ونزل جماعة منهم ساحل المنار ، فسار إليهم على سيالة المنار بهاء الدين أصلان الحاجب بأجناده . فلما رآهم الفرنج الذين

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩ أ — ١٠٠ ب

(٢) Atiya, P. 374

بساحل المنار قاصدينهم رموا عليهم بالسهام . فرمى الحاجب هو وجنده عليهم أيضاً بالسهام ، أذهلوا عقولهم بها بتواتر الرمى ، فتبادروا هرباً فى قواربهم إلى غربانهم حصلوا بها . فلما كان وقت العصر أرسلوا قارباً إلى القرب من الساحل فيه جماعة من الفرنج قالوا لمن بالساحل المعدين لحربهم ، إن معنا كتباً للسلطان نعطيها لكم ترسلونها له ونريد جوابها ، فقالت المسلمون هاتوها ، فقالوا : فى غداة غد نعطيها لكم . فقالت المسلمون لهم : كيف يكون لكم كتب للسلطان ورميتم على المسلمين بالسهام ، فقالوا خفنا منكم عند اتيانكم إلينا ، توهمنا أنكم جئتم تأسروننا . فقالت المسلمون : وما تريدون الآن ؟ فقالوا : نريد الأكل والشرب ، وفى غد ندفع إليكم الكتب . فقالت المسلمون : إذا دفعتم إلينا الكتب أطعمناكم وسقيناكم بعد أن تعطونا بكل قربة ماء رجلا منكم يكون عندنا تصديقاً لمقالتكم ونرسل إليكم فى كل يوم الضيافة إلى أن يأتى جواب كتبكم ، فرجعوا إلى غربانهم وأخبروا بذلك أصحابهم . فباتوا ، وباتت المسلمون على الساحل مستيقظين ولحربهم متأهبين » (١) . ويواصل النويرى سرد قصة هؤلاء القبارصة ، فيذكر أن المسلمين انتظروهم يقبلون عليهم بالكتب حتى سحر يوم ٧ ذى الحجة ، فلم يفعلوا ، ثم رأوهم يرفعون مراسيهم ويقلعون من الميناء الشرقية إلى صدر البحر ، وما لبثوا أن انحرفوا عن اتجاههم ، وانعطفوا قاصدين بحر السلسلة وهو الميناء الغربية ، وكان بها قرقورة وغراب وسلورة للمسلمين ، وعندئذ استعد المسلمون لقتالهم . فجهزوا المجانيق بالأحجار وأعدوا المدافع للرمى بها . وصعد القياد ورماة الجرخ إلى القرقورة . فى حين صعد

---

(١) النويرى ، ص ٢٧٤ ب - ٢٠٠ ب (مخطوطة الهند) .

الرايس ابراهيم التازى رئيس دار صناعة الاسكندرية إلى الغراب هو ورجاله، بينما صعد الرماة الجرخة أيضاً بقسيهم إلى الساورة ، ثم تعمر السور بالرماة، ووقف الرماة المجردة والأجناد والتركمان المركزة ن الساحل وفى المطرق الغربى المتقدم لسور الاسكندرية من جهة الباب الأخضر بقسيهم العربية ، واصطف الرماة المتطوعة بطوارقها على ضفة البحر يرمون من جوانبها بالسهام . ثم بدأ القبارصة بالعدوان ، وقذفوا المسلمين بسهامهم بقصد تنفيرهم ، حتى يتيسر لهم جر السفن الإسلامية بالكلاليب ، فثبت المسلمون لهم ورموهم بالمثل ، فارتد القبارصة لكثرة ما أصابهم من سهام المسلمين . فأقاموا نحو ساعتين ثم جذفوا من جديد نحو الساحل لمعاودة القتال ، فرماهم الترك بالقسى العربية والقياد والرماة المتطوعة بالقسى الجرخية ، فتقهقروا للمرة الثانية .

كل ذلك كان يحدث وأهل الإسكندرية يشاهدون القتال الدائر من شراريف السور وهم عزل لا يحملون معهم أسلحة، بينما جلس رماة السور خلف الكوى والمنافذ بقسيهم الجرخ . فرمى القبارصة أهل الإسكندرية بمدفع تعداهم حجره ، ووقع بالجزيرة ، فلم يصب أحداً من المسلمين . ورد المسلمون عليهم بالمدافع ، فأخطأتهم أيضاً (١) . ولما أعيت القبارصة الحيلة ربطوا سفنهم بعضها فى بعض ، وحاولوا جر غربان المسلمين ، وعندئذ أدرك إبراهيم التازى الحيلة ، وربط غربان المسلمين الثلاثة المربوطة بعضها فى بعض بالسرياقات فى مراسى الحديد الموثوقة شعبها على الأرصفة ، ورسم خطة بمقتضاها يقفز المسلمون ، وعددهم ٢٥٠ رجلا، عندما يرمى

(١) النويرى ، ص ٢٧٦ أ ، ٢٧٦ ب

القبارصة الكلاليب على غراب المسلمين . دفعة واحدة على غراب التقدمة القبرصى ، ويقوم البعض بالقتال . بينما يقطع البعض الآخر سرياقات غراب الفرنج المربوطة بغربانهم الثلاث . فاذا انقطعت السرياقات يصبح فى إمكان المسلمين أن يظفروا بالغراب القبرصى المتقدم .

ولكن القبارصة فطنوا إلى خطة المسلمين ، فبدلا من تكليب غراب المسلمين ، اقتربوا من مراكب المسلمين وبدأوا يرمونهم بالسهام ، فرمى المسلمون عليهم أيضاً . فأخذ القبارصة يجدون وجوههم المقابلة للبر بالدرق تاركين ظهورهم للبحر ، وعندئذ اندفع عليهم رماة المسلمين من كوى السور ، وتراشقت عليهم السهام من كوى السور ومن المطرق ، والأحجار من شراريف السور ، وأحاط بهم البلاء من كل جهة ، ثم قذف المنجنيق المقابل لهم على الساحل بحجر ضخم هشم مجاذيف غرابهم . فتوقفت المجاذيف ، واحتمى القبارصة تحت الطوارق ، ويصور النويرى هذا المشهد أروع تصوير فيقول : « وصار كل علج يأخذ طارقته المقابلة تسبب له التستر عليه ، يرميها على جسده ويرقد تحتها ، فيأتيه سهم الجرخ من كوة السور يخرق الطارقة ، ويركز فى الراقد تحتها ، فيتسمر الكلب معها . فصار كل من بالغراب يصرخ من حرارة وقع النشاب الذى احتاط بهم من كل جانب ومكان ، فحينئذ جرت الغربان الثلاثة لغراب التقدمة بتلك السرياقات بقوة جذف قيادهم لها ، فما بعدوا عن رمى المسلمين لهم بالسهام إلا وأجسام الفرنج حطام ، فأقاموا داخل البحر بحيث يراهم المسلمون ، فجمعوا الغربان بعضها إلى بعض يداوون الجرحى ويرمون فى البحر القتلى » (١) .

(١) النويرى ، ص ٢٧٧ أ ، ٢٧٧ ب (مخطوطة الهند) .

وفى صباح ٨ ذى الحجة رفع القبارصة صوارى غرابين ليقلعوا بهما ، وجروا غرابين خاليـــين من الروايـــة خلفهما ، ورجعوا من حيث أتوا .

ولم يتوقف استعداد الاسكندرية لقتال القبارصة بعد ذلك . فعندما بلغ الأشرف شعبان أن البرنز ، الذى قتـــل أخاه ربير بطرس واعتلى عرش قبرص ، يتأهب بجيوشه لمواجهة عدوان ابن عمه بجنوة الذى عمر خمسة وعشرين غراباً ، أرسل الأمراء من القاهرة إلى ثغرى الإسكندرية ودمياط لحراستها خشية أن يكون فى الأمر مكيدة مدبرة لغزو سواحل المسلمين ، فقدم إلى الإسكندرية من الأمراء أسنبغا بن البوبكرى ، وقطلبغا المنصورى ، والأمير المعروف بسيدى ابن عم السلطان الملك الأشرف شعبان ، كما قدم إليها أيضاً الأمير أروس البشتكى ، والأمير ابن تغزدمر ، والأمير شرف الدين بن الأزكشى ، والأمير مبارك الطازى بأجنادهم ومماليكهم . ودخلوا الإسكندرية فى مستهل ذى القعـدة سنة ٧٧٢ هـ ، وانضم عسكرهم إلى عساكر من كان يقيم بها من الأمراء مثل ملك الأمراء صلاح الدين خليل بن العرام ، وتمراز أمير حاجب ، وبكتمر العلائى أمير حاجب ، بمن معهم من الأجناد والمماليك ، بالإضافة إلى قياد الصناعة ورماة القاعات المتطوعة والعربان المركزة بظاهر الاسكندرية ، وبداخلها ، والألوف المؤلفة من أهلها ، وترقب الجميع وصول سفن القبارصة فلم تصل .

ثم انتهى الصراع بين مصر وقبرص بتغلب الجنوية على جزيرة قبرص فى سنة ٧٧٥هـ ، وقد قام هؤلاء بنفى الملك بطرس الثانى والوصى ، نظير اعترافهما بتغلب الجنوية على الجزيرة (١) .

---

(١) النويرى ، ص ١١٦ أ (مخطوطة الهند) .

كشف بأسماء نواب السلطنة بالاسكندرية منذ وقعة القبارصة حتى قيام دولة المماليك الشراكسة :

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان
صلاح الدين خليل بن عرام	محرم ٧٦٧ — صفر ٧٦٧	
يكتمر الشريفي المؤمني	صفر ٧٦٧ — شوال ٧٦٧	
سيف الدين الأكز.	شوال ٧٦٧ — شوال ٧٦٨	
صلاح الدين خليل بن عرام . . . . (النيابة الأولى)	شوال ٧٦٨ — ١٣ ربيع آخر ٧٦٩	
سيف الدين اسنبغا بن البو بكرى الناصرى	١٣ ربيع آخر ٧٦٩ — ٧ شوال ٧٦٩	السلطان الملك الأشرف شعبان
سيف الدين طيدمر البالسي . . (النيابة الأولى)	٧ شوال ٧٦٩ — ٢٦ شعبان ٧٧٠	
صلاح الدين خليل بن عرام . . . . (النيابة الثانية)	٢٦ شعبان ٧٧٠ — ٢ ذى الحجة ٧٧٢	
سيف الدين طيدمر البالسي. . . . . (النيابة الثانية)	٢ ذى الحجة ٧٧٢ — شعبان ٧٧٤	
صلاح الدين خليل بن عرام . . . . (النيابة الثالثة)	شعبان ٧٧٤ — محرم ٧٧٥	
. . . . ؟؟	محرم ٧٧٥ — ٥ شوال ٧٧٥	
سيف الدين أرغون اللالا بن عبد الله المعروف بالأحمدى . .	٥ شوال — ١٥ ذو القعدة ٧٧٥	
سيف الدين الشعباني	١٥ ذو القعدة ٧٧٥ — ١٩ رجب ٧٧٧	
صلاح الدين خليل بن عرام . . . . (النيابة الرابعة)	١٩ رجب ٧٧٧ — أول شعبان ٧٧٩	شعبان ـ الملك المنصور على بن شعبان
قطلقتمر العلائى	أول شعبان ٧٧٩ — صفر ٧٨٠	
بزلار العمرى الناصرى	صفر ٧٨٠ — ٢٨ شعبان ٧٨١	
بلوط الصرغتمشي . . . . (النيابة الأولى)	٢٨ شعبان ٧٨١ — ٢٢ ربيع أول ٧٨٢	الملك المنصور على
صلاح الدين خليل بن عرام . . . . (النيابة الخامسة)	٢٢ ربيع أول ٧٨٢ — رجب ٧٨٢	
بلوط الصرغتمشي . . . . (النيابة الثانية)	رجب ٧٨٢ — ؟؟	الملك الصالح حاجي

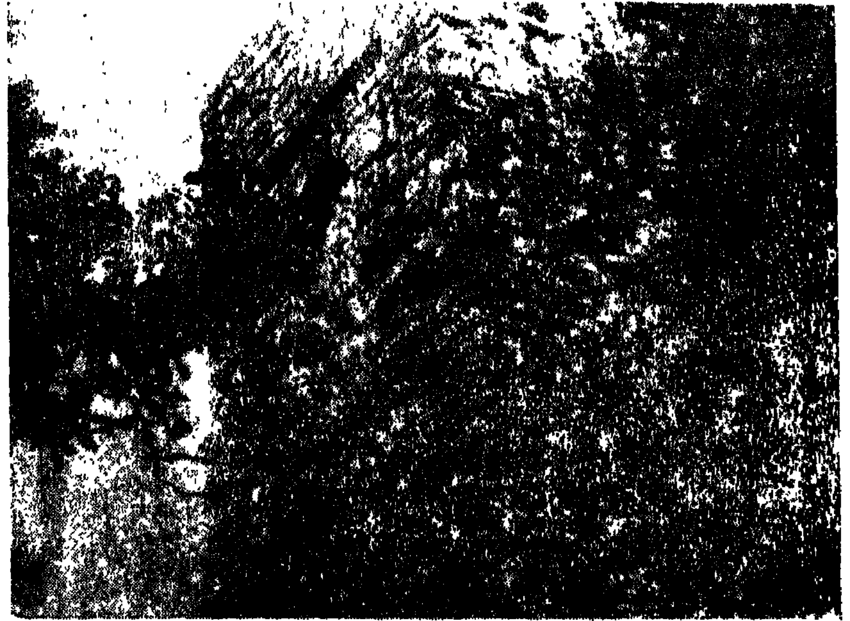
(٤)

تحصين الاسكندرية وتعمير منشآتها العامة بعد الوقعة

كان لابد للسلطان الأشرف شعبان من العناية بثغر الإسكندرية ، وإعادة تعمير ما دمره القبارصة فيها من المنشآت ، وقد بالغ فى ذلك حتى أنه خرج لزيارتها فى سنة ٧٧٠ هـ ، وتفقد تحصيناتها ، وشاهد أسوارها وخندقها ، وزار دار الطراز ، وشاهد النساجين وهم ينسجون الثياب . ويورد النويرى السكندرى وصفاً تفصيلياً رائعاً لهذه الزيارة ، يتضمن كثيراً من المواضع التى يمكن أن تساعدنا على إعادة تصور ما كانت عليه طبوغرافية الإسكندرية فى عصره ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد :

وتنسب معظم أعمال الإصلاح والإنشاء فى الإسكندرية بعد وقعة القبارصة إلى نائبين من نواب السلطنة بالثغر السكندرى ، هما : سيف الدين الأكز وصلاح الدين خليل بن عرام .

١ — سيف الدين الأكز : كان أول ما قام به فى الإسكندرية من أعمال عقب توليه نيابة السلطنة بها الطواف على جوامعها ومساجدها وشوارعها ومعاهدها ، فأمر بعمارتها ، فعمرت ، كما عمر المارستان الصلاحى الذى كان قد أسسه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأمر بتوفير ما يحتاج إليه من الأشربة والأدوية وغير ذلك من آلات الكشف على المرضى والجراحات ، وجعل على رحبته بخارج بابه سلسلة مانعة للدواب تماثل السلسلة المقابلة لدهليز ضريح ومدرسة ومارستان قلاوون بالقاهرة ، وأمر حراس الأخطاط وأصحاب الأرباع أن يعلقوا على أبواب الحوانيت وقاعات القزازين والطواحين والأفران والحمامات والديار الكبار فوانيس توقد طوال الليل ، وبالإضافة



البرج الاسلامى بالشلالات



باب الزهرى (جالب خلفى من السور)







إلى ذلك أمر بصنع أبراج من الخشب ونصبها بأعلى أبواب الإسكندرية تكسى بجلود الجمال والأبقار حتى لا تؤثر فيها النار عندما يقذفها الأعداء فى حالة الهجوم ، كما أمر بتعليق الصخور الصوانية المقنطرة الضخمة المثنية الأصابع والمرشوقة بنصل الحراب فى أعلى أبواب الإسكندرية من جهة البحر ، فعلقت بسرياقات القنب فى البكر ، وذلك استعداداً لقذفها بالمنجنيقات فى حالة الغزو . كذلك أمر بحصر عدد القلاع والأبراج والمرامى وشرفات السور ، وأن يرتب لكل رماة رام بالسهام وآخر بالحجارة ، وأن يسجل ذلك فى سجلات يذكر فيها اسم كل رجل وحرفته الأساسية ومكان سكنه (١) .

وبالإضافة إلى تلك الأعمال الجليلة التى قام بها أو التى أمر بالقيام بها تحصينا للدفاع السكندرى ، فقد أمر بازالة تراب الخندق المردوم من جهة الأبواب البرية (القبلية والباب الشرقى) لتظهر هذه الأبواب للقادمين إلى الثغر ، وأمر أن يبيت الرماة كل ليلة جمعة بالقلاع يحرسونها بالنوبة ، وأن يجتمع العتالون والمرادانية والسوادنة والقبانية لجر المنجنيق والحدافات لقذفها يوم الجمعة (٢).

وفى أيام سيف الدين الأكز ركب على الباب الأخضر أبوابه الجدد الثلاثة بعد أن كان قد سد بالحجر والجير عقيب الوقعة القبرصية (٣) .

٢ — صلاح الدين خليل بن عرام : تولى صلاح الدين خليل بن عرام الذى كان يتولى الثغر قبل وقعة القبارصة ، نيابة السلطنة بالاسكندرية بعدها خمس مرات ، وقد قام هذا الأمير بكثير من أعمال الإصلاح والتعمير فى الإسكندرية ، فجدد المبانى التى خربها القبارصة ، وعمل على تمكين وسائل

(١) النويرى ص ٢٠٤ ب ، ٢٠٥ أ (مخطوطة الهند) .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٧ ب .

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٥ ب .

الدفاع عن المدينة بحيث تستطيع أن تصمد أمام الأعداء إذا حاولوا غزوها مرة ثانية .

قدم الأمير ابن عرام إلى الإسكندرية على رأس جيش سيره يلبغا الخاصكى عقب خروج القبارصة منها ، وقام قبل كل شىء بدفن القتلى من أهلها ، وحرق جثث الخيل والدواب التى قتلها القبارصة وتركت مطروحة فى الطرقات المؤدية إلى الميناء ، ثم شرع فى ترميم ما تخرب من دور المدينة ومنشآتها ، ولكن لم يتح له أن يستكمل ما شرع فيه إذ خلع من منصبه وتولى منصب حجابة الحجاب بالثغر . غير أن أعماله المنسوبة إليه تندرج فى ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى (سنة ٧٦٩ هـ) :

فى هذه السنة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بهدم ما كان قد تجدد بناؤه بشبه جزيرة المنار من الربط والقصور بعد موقعة القبارصة خوفاً من أن ينزلها العدو فيتخذها حصناً له ومأوى يأوى إليه فى الليل والنهار ، وسقاية له لكثرة صهاريجها الممتلئة بمياه الأمطار (١) .

وكان للإسكندرية قبل وقعة القبارصة خندق واحد يبدأ من ساحل بحر السلسلة (الميناء الغربية) والباب الأخضر ويمتد إلى قلعة ضرغام ، وكانت أمواج البحر تلطم السور عند قلعة ضرغام الواقعة قرب الطرف الشمالى الغربى من سور الإسكندرية على ساحل البحر ، ولذلك ترك هذا الموضع بغير خندق ، ثم انحسر البحر عن السور ، فظل هذا الموضع بدون خندق ، ونسى الولاة أمره ، وأهملوا إقامة خندق هناك ، إذ لم يكن فى حسبانهم أن يكون هذا الموضع نقطة ضعف فى دفاع الإسكندرية . ولذلك السبب حرص الأمير

(١) النويرى ، ص ٧٩ أ (مخطوطة الهند) .

صلاح الدين بن عرام فى نيابته الأولى لثغر الإسكندرية أن يحمر خندقا غربى الإسكندرية ، وهو ما عرف باسم المطرق الغربى ، ويبدأ من قلعة الباب الأخضر وينتهى بالقلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة . وأوصل هذا الخندق بالخندق القبلى المحيط بالاسكندرية من جهة البر . فأصبح ذلك «خندقا ومطرقاً ومكمنا لدخول نجدة المسلمين منه فى خفاء لإقامة حائطه الذى يلى البحر ، إلى أن يخرجوا منه على حين غفلة إلى الجزيرة وقت حرب الفرنج إن أتوا لذلك» (١) .

وفى هذه المرحلة أيضاً أقام ابن عرام أبواب البحر الأول والثانى عوضا عن البابين اللذين أحرقهما الفرنج ، كما أقام بابى رشيد اللذين أحرقهما أهل الإسكندرية عند الوقعة كى يسهلوا لعسكر النجدة القادمين من القاهرة أن يدخلوا منه . كذلك أقام أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان ، وسد الباب الأخضر وباب الخوخة وباب الأقنية (٢) .

وأعتقد أنه أقام فى هذا العـــام أيضاً الخندق الشرقى (٣) بحذاء السور الذى توصل منه الفرنج إلى دخـول الاسكندرية من جهة باب الديوان ، ولم يكن بهذا الموضع خندق من قبل ، فعمره فى أسرع وقت ، بدليل أن

---

(١) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ ب ، ويقصد بباب الأقنية ، الباب المجاور لباب الديوان من جهة الغرب ، وسمى كذلك بسبب تفتحه على مجارى القنوات المتفرعة من خليج الاسكندرية .

(٣) يدرج النويرى السكندرى انشاء هذا الخندق فى أعمال ابن عـرام فى سنة ٧٧٧ هـ (راجع الالمام ، ص ١٣٥ أ) ولكنه عندما يذكر أن السلطان الأشرف شعبان عند زيارته للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ شاهد هذا الخندق المتجدد =

السلطان الأشرف شعبان شاهد عند زيارته للاسكندرية فى جمادى الأولى سنة ٧٧٠ المكان الذى صعد منه القبارصة السور » ، والخندق الجديد الذى أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم »(١) . وكان هذا الخندق الشرقى يحاذى دار الصناعة وديوان الخمس ومجارى الأقنية من داخل السور . وبعد أن أتم ابن عرام حفر الخندق المذكور أوصله بالخندق الأصلى الذى كان يبدأ من ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام . وقد عرف هذا الخندق بالمطرق الشرقى (٢) . وكان من فوائد المطرقين بالاضافة إلى أنهما يعرقلان من تقدم العدو أنه يمكن عسكر مصر من دخول شبه جزيرة المنار عن طريقهما بدلا من تكلف مشقة دخول المدينة من أبوابها القبلية .

المرحلة الثانية (سنة ٧٧١ هـ) :

اهتم الأمير صلاح الدين بن عرام فى نيابته الثانية لثغر الاسكندرية بتحصين الميناء الغربية المعروفة ببحر السلسلة لحماية سفن المسلمين ، فعمل على تضييق فوهة الميناء عن طريق تغريق كتل ضخمة من الحجارة فى مدخل الميناء ، وسد قسم كبير منه بهذه الحجارة حتى تشبه السياج الدائر على الميناء من جهة المدخل ، فلا تصله بالبحر الا فوهة ضيقة ، أقام بها أبنية محكمة ذات سلسلة ضخمة قوية ، تغلق بقفل ثقيل ، وجعل بموضع القفل كوى

= يستنتج أن الخندق حفر قبل هذه السنة أى فى فترة نيابته الأولى ، ولذلك نرجح أن الخندق أقيم فى نفس الوقت مع الخندق الغربى ، وليس من المعقول أن يهمل ابن عرام الشاء هذا الخندق الشرقى مع علمه بأنه نقطة الضعف الوحيدة فى سور الاسكندرية التى استغلها القبارصة ، فلا يقوم بحفره حتى سنة ٧٧٧ هـ .

(١) النويرى ، ص ١٤٢ أ (مخطوطة دار الكتب) .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ أ

ومنافذ لرمى السهام على من يقصد السلسلة من الفرنج . وقد تم الفراغ من هذه الأعمال فى أوائل سنة ٧٧١ هـ .

وبالإضافة إلى تحصين الميناء الغربية أمر صلاح الدين بن عرام فى هذه المرحلة بتحصين باب السدرة وذلك ببنيان ضخم شديد الارتفاع أشبه ما يكون بالبرج أو الطابية ، كما أمر بحفر خندق جديد فى شبه جزيرة المنار ، يمتد عمودياً على الخندق العتيق ، وقد تم عمل هذا الخندق فى مستهل رمضان على الخندق العتيـــق ، وقد تم عمل هذا الخنـــــدق فى مستهل رمضان من سنة ٧٧١ هـ (١) .

المرحلة الثالثة (سنة ٧٧٧ هـ) :

وفى هذه المرحلة أمر الأمير ابن عرام بانشاء دروب مغلقة قوية لحماية الدور بالاسكندرية من الأعداء ، ورتب خلف كل باب درب منها حارس ، وتم عمل الدروب فى شهر شعبان ورمضان سنة ٧٧٧ هـ (٢) . وفى هذه السنة تم إنشاء مشط جديد ضخم لباب الصناعة الغربية من جهة المطرق الغربى زنته عدة قناطير ، تخرج منه الرماة إلى الجزيرة وتدخل منه وقت الحرب فى حماية رماة السور بأعلاه ، فى الوقت الذى تكون فيه أبواب الاسكندرية مغلقة . وكان هذا المشط الحديدى يرخى عندما يتم دخول الجند ، أما فى حالة خروجهم فيرفع من أعلى السور عن طريق سرياقات تدور حول لوالب الأتراس ذات الأضراس (٣) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٠ ب

(٣) النويرى ، ص ٢٠٨ ب ، ١٣٥ أ

ونستنتج من قيام ابن عرام فى المرحلة الأولى باقامة بابين لباب البحر ومن قيام سيف الدين الأكز بتركيب الأبواب الثلاثة الجدد للباب الأخضر بأن سور الاسكندرية الشمالى الممتد من باب البحر إلى الباب الأخضر كان مزدوجاً ، أى أنه كان يطوق الستارة الرئيسية سور أمامى ، فكان للسور الرئيسى بابان وللسور الأمامى باب واحد . ونعتقد أن هذا السور الأمامى أقيم إما فى عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب عند زياراته المتتابعة بثغر الاسكندرية ، أو فى أيام الناصر محمد بن قلاوون على يد الأمير بيبرس الجاشنكير ، على النحو الذى أوضحناه من قبل .



قلعة قايتباي : صورة تمثل أحد الممرات
بداخل الجدار الخارجى للقلعة المطل على البحر

الفصل الحادى عشر

الإزدهار الأخير وبداية عصر الإضمحلال

١ — الاسكندرية منذ قيام دولة المماليك الشراكسة حتى بداية عصر الأشرف قايتبـــاى .

(ا) فى عصر الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ — ٨٠١ هـ) وولده الناصر زين الدين فرج (٨٠١ — ٨١٥ هـ) .

(ب) فى عصر السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ — ٨٢٤ هـ) والسلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) .

١ — اعتداءات القبارصة والكتيلان على سواحل مصر والشام

٢ — فتح قبرص

٣ — تدهور الحياة الاقتصادية فى الاسكندرية .

٤ — إعادة حفر خليج الاسكندرية .

٢ — الاسكندرية فى عصر السلطان الملك الأشرف قايتباى (٨٧٢—٩٠١هـ)

(ا) انتشار الطاعون

(ب) عيث الروادسة فى مياه الاسكندرية

(ج) زيارة الأشرف قايتباى للاسكندرية .

٣ — الاسكندرية فى عصر السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ)

(ا) اضمحلال الاسكندرية

(ب) زيارة السلطان الغورى الأولى للاسكندرية فى ذى القعدة سنة ٩٢٠ هـ) .

(ج) زيارة السلطان الغورى الثانية للاسكندرية (فى رمضان ٩٢١ هـ)

٤ — الاسكندرية فى العصر العثمانى .

الفصل الحادي عشر

الإزدهار الأخير وبداية عصر الإضمحلال

(الاسكندرية فى عصر دولة المماليك الشراكسة)

(١)

الاسكندرية منذ قيام دولة المماليك الشراكسة حتى بداية عصر الأشرف قايتباى

(١) فى عصر الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ – ٨٠١هـ) وولده الناصر زين الدين فرج (٨٠١ – ٨١٥ هـ):

أدى التنافس التجارى بين البندقية وجنوة فى القرن الثامن الهجرى إلى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط ، ولكن الجنوية لم يرضوا عن هذا الوضع ، فأخذوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ويهاجمون السفن التجارية المتجهة إلى هذين البلدين ، وقد سبب ذلك كساداً فى تجارة مصر الخارجية ، وأثر فى تجارة الاسكندرية تأثيراً بالغاً . ويذكر المقريزى أن الفتنة التى قامت بين الجنوية والبنادقة فى سنة ٧٥٣ كان لها نتائج سيئة بالنسبة لمصر ، فقد « قل الواصل من بلاد الفرنج إلى الاسكندرية ، وعز وجود الخشب ، وغلا ، وتعذر وجود الرصاص والقصدير والزعفران »(١)

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ٨٦٢

وضاعفت الاعتداءات القبرصية على سواحل مصر والشام، وأعمال القرصنة البحرية التى كان يمارسها القبارصة ومن لاذ بهم من المغامرين وذوى الأطماع من هذه الأزمة . غير أن معاهدة الصلح التى أبرمت بين مصر وقبرص لم تضع حداً لذلك الاضطراب فى التجارة البحرية ، فالجنوية لم يلبثوا أن استولوا على قبرص، ومنذ ذلك الحين زاد التنافس بين الجنوية والبنادقة، وبدأ الجنوية يغيرون على سواحل الشام ومصر من قبرص التى أصبحت تشكل قاعدة النشاط ومركز الاعتداءات ، واشترك مع الجنوية فى هذه الغارات بعض القراصنة الكتيلان والروادسة والقبارصة (١) .

وفى ربيع الآخر سنة ٧٦٩ هـ نزل جماعة من الجنوية إلى سيالة المنار وأسروا رجلين، ورمى أحد الأغربة الجنوية بالنشاب على الجند الواقفين على الساحل ، وبادلهم الجند الرمى بالسهام ، ثم نهب الجنوية مركبا قادماً إلى الاسكندرية (٢) . واضطر السلطان بطبيعة الحال إلى القبض على جميع التجار الفرنج الموجودين بمصر وأودعهم السجن كرد فعل طبيعى لهذا الاعتداء. واستمرت اعتداءات الجنوية على سواحل طرابلس وصيدا وبيروت سنين طويلة ، ومع أنهم بادروا بمصالحة السلطان برقوق فى سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) إلا أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى سياسة الاعتداء على سفن المسلمين فى البحر . وذكر ابن الفرات أن جماعة من تجار المسلمين كانوا قادمين من بلاد الشام فى سفن لهم ، وبصحبتهم أخت الملك الظاهر برقوق وابنة ابن عمه إلى مصر ، فهاجمتهم جماعة من الفرنج فى البحر ، واستولوا على مراكبهم ، وأسروا

---

(١) أحمد دراج ، المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٩ — سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٦٨

(٢) النويرى ، ص ٦٧ أ (مخطوطة دار الكتب)

من كان فيها من التجار والركاب ، فلما علم السلطان بذلك شق عليه ، وأمر جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من لديهم من تجار الفرنج وغيرهم ، وقد نفذ نائب الاسكندرية ذلك الأمر ، وقبض على الفرنج الموجودين بالثغر ، وختم على حواصلهم ، وتسلم أمتعتهم ومتعلقاتهم ، وكل ما كان لديهم (١) .

وظل أهل قبرص يفسدون فى البحر ويقطعون الطرق على المراكب القادمة إلى ثغرى دمياط والاسكندرية ، ففى ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ وصل إلى الاسكندرية التاجر خواجا على، أخو خواجا عثمان وجميع من كان معه ، وكان قد أسرهم الفرنج ومن معهم فى سفينة أثناء خروجهم إلى الاسكندرية . فعوق السلطان بضائع التجار الجنوية ، ومنعهم من دخول بلاد المسلمين إلى أن يحضروا الأسرى وكل ما استولوا عليه من بضائعهم ، فأحضروها كاملة ، « وما نقص من مركبهم شىء يساوى الدرهم الفرد ولا الفلس الواحد »(٢) .

ولم تزودنا المصادر العربية بأخبار تشير إلى عناية السلطان برقوق بالاسكندرية ، ويبدو أن اشتغال السلطان بثورة يلبغا الناصرى نائب حلب على السلطان ، فى المحرم سنة ٧٩١هـ وفتنة تمربغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية ، وزعيم الأشرفية ، ونجاحهما فى عزل برقوق ونفيه بالكرك ، ثم عودة برقوق إلى العرش مرة ثانية مستغلا النزاع الذى نشب بين يلبغا ومنطاش فى نفس ذلك العام ، لم يمكن برقوق من توجيه عنايته

---

(١) ابن الفرات ، ج ٩ ، قسم ١ ص ٣٣

(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٨

بالثغر . ومع ذلك فقد أشار ابن الفرات إلى أنه قام بتجديد خزائن السلاح بثغر الاسكندرية (١).

وعلى الرغم من اتسام عهد ابنه الناصر فرج بالفتن والقلاقل والغلاء والوباء ، وغزو المغول لبلاده ، وغارات الفرنج على سواحله (٢)، فقد ذكر ابن اياس أنه زار الاسكندرية فى ٧ شوال سنة ٨١٤ هـ (ودخلها فى يوم مشهود ، فأوكب بها موكباً حافلا ، « وحملت القبة والطير على رأسه » ، وقدم إليه بعض تجار المغاربة أثناء مروره فى المحجة شكوى تتضمن تفسيراً لما يقاسونه من ظلم القباض لهم ، فلما اطلع السلطان فرج على هذه الشكوى ، أمر بابطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة ، وقصر المكوس على العشر أى أنه خفضها من الثلث إلى العشر ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء (٣) . غير أن هذه المكوس لم تلبث أن أضيفت إليهم فى عهد الأشرف برسباى الذى احتكر تجارة التوابل وأضاف إلى ما كان يجبى من المكوس رسوماً جديدة .

(ب) فى عصر السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ — ٨٢٤هـ) والسلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١) :

١ — اعتداءات القبارصة والكتيلان على سواحل مصر والشام :

نتج عن كثرة غارات القبارصة والكتيلان على الثغور المصرية والشامية وتكرار هذه الغارات واشتدادها على مر السنين ، أن بدأ المماليك يردون

(١) ابن الفرات ، ص ٨٦

(٢) فى سنة ١٤٠٣ أغار حاكم جنوة الفرنسى بالاشتراك مع جانوس ملك قبرص وقراصنة [illegible] على الاسكندرية والموانىء الشامية ، كما تابعوا تعبثهم وتحرشهم فى العام التالى (أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٢٢) .

(٣) ابن إياس ، ج ٤ ص ٤٢٦

عليهم بالاغارة على قبرص فى عامى ٨١٣ ، ٨١٤ هـ . ولما عاود القبارصة ومن لاذ بهم من قراصنة الكتيلان الإغارة على الساحل الشامى فى بداية سلطنة الملك المؤيد شيخ المحمودى عزم السلطان على غزو الجزيرة ، ولكن جانوس دى اوزنيان ملك قبرص بادر بعقد الصلح معه ، وتم ذلك فى ١٤ نوفمبر سنة ١٤١٤ (٨١٧) هـ (١) . ولكن القبارصة والكتيلان عادوا إلى استئناف عيثهم فى العام التالى ، فاضطر المؤيد شيخ إلى القاء تبعة ذلك على عاتق تجار الفرنج وقناصلهم فى الاسكندرية ودمشق ، وخاصة على تجار الكتيلان وقنصلهم بالاسكندرية ، فقبض عليهم وسجنهم بأحد أبراج القلعة ، كما تعرض الحجاج الفرنج بالقدس لانتقام السلطات المملوكية . وعلى الرغم من هذه الاجراءات الانتقامية العنيفة فلم تتوقف غارات القراصنة الكتيلان وأخذت تشتد منذ سنة ١٤١٦ ، فانتهز المؤيد شيخ هذه الفرصة واتخذ بعض الاجراءات العنيفة تجاه تجار الكتيلان فى الاسكندرية ودمشق ، فأمر بجلد قنصل الكتيلان بالاسكندرية ثم سجنه . وكان لهذا التصرف رد فعل قوى فى أرغون ، فقد أمر الفونسو الخامس ملك أرغون بمهاجمة السواحل المصرية والشامية ، فأغار القراصنة الكتيلان على نسطروه ، ويافا فى ربيع الأول سنة ٨١٩، وأسروا خمسين شخصا من المسلمين ، ثم هاجموا فى نفس الشهر ميناء الاسكندرية ، واستولوا على إحدى سفن المغاربة، ولم ينج من ركابها سوى نفر قليل تمكنوا من الوصول إلى الشاطيء سباحة. وفى ١٦ جمادى الثانى رست ثلاثة سفن لهم بميناء

---

(١) M.Mustafa Ziada, The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, vol. 1, Part 1, May 1933, p. 91 —

أحمد دراج ، ص ٢٢

الاسكندرية ، وزعموا أنهم قدموا فى سفارة من ملكهم للتفاوض مع السلطات المملوكية لعقد الصلح ، فقوبلوا بالترحيب ، وسمح لهم أولو الأمر فى الثغر السكندرى بنزول التجـار من هذه السفن إلى البر وإنزال سلعهم . فانتهز الكتيلان هذه الفرصة وتوجه بعضهم إلى السجن وخلصوا القنصل السجين ، ثم أغاروا على الميناء وأشعلوا النيران فى جميع السفن الراسية ، واشتبكوا فى قتال عنيف مع عساكر المماليك بالميناء ومن كان هناك من التجار ، فقتلوا عشرين رجلا ،وأسروا نحو ستين من الرجال والنساء، ثم استولوا على سفينتين للجنوية وسفينة للبنادقة ورابعة للمسلمين ، وأبحروا بها إلى رودس . وواصل الكتيلان غاراتهم المدمرة على الثغور الشامية والمصرية (١) .

٢ — فتح قبرص :

وفى بداية عصر الأشرف برسباى شهدت الاسكندرية وبيروت اعتداء قبرسيا كتيلانيا ، (فى شعبان سنة ٨٢٥ هـ) ، وتكرر الاعتداء فى العام التالى على ميناء الاسكندرية ، إذ اعتدى غرابان قبرصيان على مركب تجارى تصل قيمة شحنته إلى نحو مائة ألف دينار ، فغضب الأشرف برسباى لذلك ،وعزم على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وما يترتب عليها من اضطراب الأحوال الاقتصادية بالاضافة إلى الخسائر فى الأنفس ووقوع عدد كبير من المسلمين من التجـــار والأهالى فى أسر القراصنة ، فعمد برسبـــاى بادىء ذى بدء إلى نقض اتفاقه مع البنادقة والرد على هذه السياسة العدوانية

---

(١) راجع المماليك والفرنج ، ص ٢٢ — ٢٨

بتطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية إزاءهم وإزاء جميع طوائف التجار الفرنج(١). ثم أخذ يعد العدة لمهاجمة قبرص مصدر هذه الاعتداءات ، فأرسل اليها حملة فى سنة ٨٢٧ ه كانت على حد قول العينى غزوة صغرى (٢) ، كان هدفها استطلاع قوة الجزيرة وأحوالها الدفاعية تمهيداً لفتحها . واهتم برسباى منذ ذلك الحين بتدعيم أسطوله عن طريق إنشاء قطع جديدة ، ثم سير فى العام التالى أسطولا عدته ٤٠ سفينة بقيادة الأمير جرباش الكريمى ،واشتركت فى هذه الحملة قوة تونسية من قبل السلطان الحفصى . وأرست السفن الاسلامية بالماغوصة وهزم المماليك القبارصة فى عدة مواقع ، ثم عادت السفن وهى تحمل ما يزيد على ألف أسير (٣) بالاضافة إلى الغنائم الهائلة التى غنمها المسلمون. وفى صيف سنة ٨٢٩ خرجت الحملة الثالثة من ميناء الاسكندرية (٤) فيما يزيد على مائة سفينة بقيادة الأمير اينال الجكمى والأمير تغربردى المحمودى ، ولكن الحملة ما كادت تخرج من الاسكندرية حتى تعرضت لعواصف عاتية فاصطدمت السفن بعضها ببعض وتحطمت أربع منها ، ولكن العطب كان يسيراً ، فلم يلبث أن أصلح ، وأقلعت السفن نحو قبرص ، فتصدت لها فى مياه الاسكندرية بعض سفن قبرصية وهاجمتها ، وترامى الفريقان بالنشاب ، وانتهى الأمر بفرار القبارصة ، ثم وصلت السفن المصرية إلى ميناء الماغوصة فاستولى المسلمون على قلعتها ، وخربوا المدينة

(١) احمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٣٢ —
M. Mustafa Ziada, The Mamluk conquest of Cyprus, p. 90

(٢) العينى عقد الجمان ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٢
Ziada, op. cit. 9 p. 93.

(٣) عقد الجمان ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٦

(٤) Darrag, L'Egypte Sous Barsbay, p. 255.

وأحرقوها(١)، ونجحت الحملة فى الاستيلاء على قبرص(٢)، وفرض الجزية عليها أما بالنسبة للكتيلان فقد اضطر الفونسو الخامس إلى عقد الصلح مع برسباى بعد أن أصيبت مصالحهم التجارية بأضرار فادحة منذ أن توقفت العلاقات التجارية بين أرغون ودولة المماليك فى سنة ٨٢٦ هـ ، وتم الصلح بمعاهدة أبرمت بينهما فى ٧ رمضان سنة ٨٣٣ (٣) .

٣ — تدهور الحياة الاقتصادية فى الاسكندرية :

ويسجل عصر الأشرف برسباى بداية ظهور معالم التدهور والاضمحلال فى حياة الاسكندرية الاقتصادية، وترجع بداية هذا التدهور فى حقيقة الأمر إلى وقعة القبارصة التى تسببت فى تدمير المدينة وتخريب عمرانها (٤) ، فلم تستطع رغم قيام نواب السلطنة بالتعمير أن تنهض من عثرتها، وتستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر . فبينما زارها الرحالة الألمانى لودلف فون شوشم فى سنة ١٣٤٠ ووصفها بأنها أعظم مدن مصر البحرية، وامتدح تحصيناتها المنيعة

(١) عقد الجمان . ص ٥٨٠ — Ziada. op. cit. p. 100—101

(٢) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٠٩ — ١١٦

(٣) راجع نصوص المعاهدة فى الملحق المضاف إلى آخر الكتاب ، وراجع تحليلها فى مقال الأستاذ الطاهر أحمد مكى ، بعنوان : معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك أرغون ، المجلة ، العدد ٤٩ ، ص ٨٣ — ٩٣ .

(٤) ذكر النويرى السكندرى أنه فر مع من فر من أهل الاسكندرية من باب البحر بعد دخول القبارصة المدينة . ثم عاد بعد خروجهم عنها ثم روى ما شاهده : فيقول : « فرأيت ما حير عقلى وأذهل لبى، من خراب بعض أماكنها وحريق جوانبها وجيف البغال والخيول وتغير الحال الذى يورث الذهول وأما القتلى فانهم دفنوا بأماكنهم لتغيرهم وعدم استطاعة حملهم لتزلعهم » «النويرى ، ص ٩١ ب مخطوطة الهند)

التى لا ترام ، تشهد رحالة آخر هو إمانويل بيلوتى الذى سجل فى مقاله بعنوان Traité sur le passage dans la Terre Sainte حالة الاسكندرية السيئة فيقول : « إن الاسكندرية التى هى مفتاح وثغر دولتهم (يقصد المماليك سادة القاهرة) أصبحت غير مأهولة ومهجورة ، على الرغم من جمالها وروعة مساكنها وفنادقها التى تشتمل على كسوات الرخام المزين بالزخارف الرائعة . ولكن مع أن أهل الاسكندرية تركوا هذه الديار وهجروها فاننى رأيت فى زمنى أن أحد هذه الدور بلغت قيمته .... دوكات ، وكان من يشتريها فى الوقت الحاضر لا يفعلون ذلك الا لكى يجردوها من الكسوات الرخامية المزدانة بالزخارف المحفورة والأعمال الفنية التى تتضمنها هذه الدور فى داخلها ، ثم يرسلوها عن طريق النيل إلى القاهرة ، ويستخدموها من جديد فى تزيين فنادق القاهرة . ولهذا السبب فان الاسكندرية يمكن أن تسمى الأرض المهجورة المهملة فى البلاد »(١) .

وهكذا تبدلت حال الاسكندرية فى زمن بيلوتى أى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تبدلا تاما ، فأصابها الدمار وأصبحت مدينة مهجورة ، وكانت بيوتها تتداعى الواحد بعد الآخر إلى حد أن قلب المدينة لم يعد صالحا قط للسكنى خاصة بعد أن قل عدد سكانه (٢) .

وشمل التدهور بالاضافة إلى العمران صناعة النسيج ، فمن حيث هذه الصناعة كانت الاسكندرية أعظم مركز فى مصر لصناعة المنسوجات ، وكانت بالاسكندرية دار طراز تنتج كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية الرقيقة

---

(١) Paul Kahle, Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, dans Melanges Maspero, p. 137 — Darrag, L'Egypte gous le règne de Barsbay, p. 86 — 87

(٢) Ibid. p. 139

والحريرية التى تدخل فيها خيوط الذهب ، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش ، كان يلبسها السلطان وأهل قصره وتصنع منها الخلع والتشاريف التى يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة ، أو تبعث هدايا إلى الملوك ، كما كانت تحمل منها الكسوات الفاخرة للكعبة . وبدأت أول مظاهر التدهور فى هذه الصناعة منذ بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) (١) . وكان ناظر هذه الدار يوقع له مباشرة عند الأبواب السلطانية دون أن يكون لناظر الاسكندرية دخل فى هذا التوقيع ، ولكن الأمر لم يلبث أن تغير فى عصر برسباى ، فقد أصبح ذلك من اختصاص ناظر الاسكندرية الذى كان يرجع بدوره إلى ناظر الخاص بالأبواب السلطانية"(٢). ويبدو أن دار الطراز بالاسكندرية تعطلت زمن برسباى ، ولم تعد الاسكندرية تنتج من المنسوجات إلا ماكان يتولى صنعه بعض الأفراد ، ففى سنة ٨٣٧ هـ أحصى عدد أنوال الاسكندرية من الحاكة والقزازين ، فكان فيها ثمانمائة نول ، فى حين وصل عدد أنوال الاسكندرية فى نهاية القرن الثامن الهجرى إلى أربعة عشر ألف نول(٣). ونستنتج مما سبق ذكره أن صناعة النسيج ،وكانت أهم صناعات الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، تدهورت تدهورا واضحاً فى عصر برسباى .

٤ — اعادة حفر خليج الاسكندرية :

ويقترن اسم الأشرف برسباى باسم خليج الاسكندرية الجديد الذى أعيد

(١) Darrag, op. cit. p. 69.

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٤٢٦

(٣) مجهول، حوليات دمشقية ، تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٩٤ — ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ص ٢١٨

حفره فى عهده وأطلق عليه اسم ترعة الأشرفية تيمنا باسم «..ا السلطان (١)، فقد ظل الخليج الناصرى يقوم بوظيفته حتى عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨م)، ثم انقطع الماء عنه، وأصبح لا يدخل إليه إلا فى أيام الفيضان فقط، ثم يجف عند انخفاض مياه النيل، ولذلك تحولت كثير من البساتين التى كانت تحيط بالاسكندرية إلى أراضى قفراء، ثم خربت كثير من القرى التى كانت تحف بضفتى الخليج، ويؤكد ذلك ما ذكره القلقشندى (المتوفى ٨٢١) هـ إذ يصف خليج الاسكندرية فى أيامه بقوله: «وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية للنيل عند قرية تسمى العطف تقابل فوه مدينة المزاحمتين، ويميل غربا حتى يتصل بجدران الاسكندرية، وتدخل منه قناة تحت الأرض إلى داخلهـــا، ويتشعب فيها شعب كثيرة تدخل دورها، وتخرج من دار إلى أخــرى، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها، وتملؤ منها صهاريجها حينئذ فتمكث من السنة إلى السنة» (٢).

فلما كانت أيام الأشرف برسباى انتدب لحفره الأمير جرباش الكريمى المعروف بعاشق، فتوجه إليه فى حشد من العمال بلغ عددهم نحو ٨٧٥ رجلا، فشرع فى حفره فى ١١ جمادى الأولى سنة ٨٢٦ هـ (٢٢ أبريل سنة ١٤٢٣م)، واستمر العمل فيه زهاء تسعين يوما، وتم حفره فى ١١ شعبان سنة ٨٢٦ هـ (٢٠ يوليو)، وجرت فيه السفن بين مظاهر الفرح والبهجة، وجبى ما أنفقه على العمال فى الحفر من أصحاب الأراضى والبساتين الواقعة على الخليج (٣). ومع ذلك فقد ضاعت جهود برسباى عبثا، لأن الرحالة والمسافرين من القاهرة إلى الاسكندرية كانوا يتبعون طريق الخليج فقط فى زمن الفيضان، بينما كانوا يسلكون طريق البر فى بقية أيام السنة، مما يجعلنا نستنتج بأن مياه النيل كانت تتوقف عن دخول الخليج فى معظم أشهر السنة.

---

(١) ابن اياس، ج ٤ ص ٤٢٦

(٢) القلقشندى، ج ٣ ص ٣٠٠

(٣) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٣٠٢

(٢)

الاسكندرية فى عصر السلطان الملك الأشرف قايتباى

(٨٧٢ – ٩٠١ هـ)

(١) انتشار الطاعون :

ظهرت فى بداية عصر السلطان قايتبساى بالاسكندرية وأعمالها بعض إصابات وباء الطاعون ، ثم لم تلبث هذه الاصابات أن ازدادت فى أمد قصير بصورة وبائية ، وتفشى الطاعون تفشياً خطير فى المحرم وصفر سنة ٨٧٣ هـ ، ومات بسببه فى شهر ربيع الآخر عدد كبير من سكان الاسكندرية (١) .

وفى ١٣ ربيع الآخر وصل الأتابك أزبك إلى القاهرة قادماً من إقليم البحيرة ، فنزل السلطان إلى داره ، وسأله عن أخبار الطاعون فى الاسكندرية فأخبره بأنه باق بها ، وأنه انتشر ببلاد البحيرة حتى وصل إلى دمنهور ، ومات به من عرب غزالة نحو ثمانون شخصاً (٢) . ثم انتقل الوباء سريعاً من البحيرة إلى القاهرة فى رجب ، وانتشر فى شهر رمضان ، وأصبح الغرباء يموتون به فى الطرقات ، ثم تناقص عدد الإصابات تدريجياً من شهر شوال إلى أن اختفى بعد ذلك .

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ (طبعة وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣٢) ص ٦٧٥ ، ٦٨٧ — ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٨

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ، ج ٣ (طبعة وليم بوبر) ص ٦٨٨

ومن بين ضحايا طاعون الإسكندرية خوند فاطمة بنت الأشرف إينال التى طعنت بالاسكندرية أثناء حضورها لحفل ختان أولاد أخيها الظاهر أحمد ابن الأشرف إينال (١) . وكذلك توفى بهذا الطاعون السلطان السابق الملك الظاهر يلباى المؤيدى فى سجنه (٢) . ومن الملاحظ أن الاسكندرية كانت تتخذ منفى للسلاطين المعزولين والأمراء المبعدين ، وكان يقيم بها كثير من أبناء السلاطين السابقين ، ففيها أقام أولاد المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، والسلطان الملك الظاهر يلباى المؤيدى ، والملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى ، والملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق (٣) ، والسلطان الظاهر تمربغا(٤) ، الذى أذن له السلطان قايتباى وللآخرين بالركوب إلى الجامع فى صلاة الجمعة والعيدين،وإلى حيث شاؤوا من مواضع الاسكندرية . وقد توفى المنصور عثمان فى ذى الحجة سنة ٨٧٩ هـ بعد أن تجاوز الستين سنة .

(ب) عيث الروادسة فى مياه الاسكندرية :

منذ أن فشل السلطان الظاهر جقمق فى حملاته الثلاثة التى سيرها لغزو رودس فى أعوام ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ م ، لم يكف الاسبتارية فى هذه الجزيرة عن مهاجمة السفن المصرية فى البحر ،والعيث فى مياه الاسكندرية ودمياط ،

(١) ابن اياس ، ج ٣ ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١

(٣) النجوم ، ج ٣ (طبعة بوبر) ص ٧٠٦ — ابن اياس ج ٣ ص ٣١ ، وابن اياس ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٥١ ص ١٩٥

(٤) ابن اياس ، ج ٣ ص ١١٤

وتعددت حوادث القرصنة ضد سواحل مصر والشام فى عصر قايتباى ، ففى صفر سنة ٨٧٧ هـ قبض الأمير قجماس الأسحاقى نائب ثغر الاسكندرية على جماعة من الفرنج « يتعبثون بسواحل البحر المالح » ، فأمر السلطان بسجنهم فى المقشرة بمصر (١) . وفى المحرم سنة ٨٧٨ قام جماعة من الفرنج ببعض أعمال القرصنة فى ساحل الاسكندرية ودمياط ، وأسروا من المسلمين تسعة أشخاص فأمر السلطان نائبه بالثغر (قجماس الأسحاقى) بمطاردتهم فى البحر حيث ساروا (٢). وفى رمضان سنة ٨٨٠ هـ احتال بعض تجار الفرنج البروفنساليين على تجار الاسكندرية حتى أسروهم ، وحملوهم معهم إلى بلاد الفرنج ، وكان من بينهم تجار السلطان : ابن عليبة (٣) وابن يعقوب وعلى الكيرانى وعلى النمراوى ، فاضطربت أحوال الاسكندرية ، وأمر السلطان نائبه بالثغر بالقبض « على جميع تجار الفرنج الذين بالسواحل ، وضيّق عليهم ، وأودعهم فى الحديد ، وألزمهم بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار »(٤) . هذا الاجراء التحفظى الذى قام به قايتباى ضد تجار الفرنج المقيمين بثغر الاسكندرية مع مصادرته لأموالهم ومتاجرهم وإرغامهم على مكاتبة ملوك الفرنج ليطلقوا سراح تجار المسلمين لم يؤد إلى ما كان يهدف إليه السلطان ، فعمل السلطان على زيادة الضغط على ملوك الفرنج ، فأمر فى أول المحرم سنة ٨٨١ هـ بالقبض على جميع الرهبان الفرنسسكان

(١) ابن إياس ، ج ٣ ص ٧٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٩

(٣) هو الخواجا الكارمى بدر الدين حسن ابراهيم بن عليبة السكندرى تاجر السلطان (ابن اياس ، ج ٣ ص ٢٠٧)

(٤) ابن اياس ، ج ٣ ص ١١٤

المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وإرسالهم إلى القاهرة (١) ، وكان هذا التصرف سريع المفعول إذ لم يلبث الفرنج البروفنساليون أن أفرجوا فى نفس الشهر عن التجار المسلمين ، وفى ذلك يقول ابن اياس : « وفيه (المحرم) جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد أطلقوا من كان عندهم من التجار الذين كانوا أسروهم ، وقد اشتروا أنفسهم بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج واستمر ابن عليبة من يومئذ مريضاً إلى أن مات بعد مدة » (٢) .

(ج) زيارة الأشرف قايتباى للاسكندرية (فى ربيع الأول سنة ٨٨٢ ، وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٤) :

حظيت الاسكندرية فى عصر السلطان الأشرف قايتباى بقسم كبير من عنايته ، فلقد زودها بمدرسة جديدة(٣) ، كما زارها فى ربيع الأول سنة ٨٨٢ ، فاحتفلت المدينة بقدومه احتفالا لم تشهده من قبل إلا فى أيام الظاهر بيبرس والأشرف شعبان . ويذكر ابن اياس أن السلطان رحل من بر الجيزة وفى صحبته عدد من الأمراء منهم الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدد من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وكثير من الخاصكية والمماليك السلطانية والمباشرين ، كما سافر معه القاضى ابن مزهر كاتب السر رغم مرضه . فلما وصل السلطان إلى الاسكندرية زينت له المدينة زينة حافلة ، وخرج إلى

(١) دراج ، المماليك والفرنج ص ١٠٦

(٢) ابن اياس ، ج ٣ ص ١١٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٩

لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، وقد تزيا بالشاش والقماش ، كما استقبله الأمير قجماس الاسحاقى ، نائب السلطنة بثغر الاسكندرية ، واصطف الناس فى شارع المدينة الرئيسى وهو شارع المحجة لرؤية السلطان ومشاهدة موكبه ، ثم دخل السلطان كما كانت العادة من باب رشيد فى موكب مهيب وقد أحاط به العسكر وهم يحملون آلة السلاح بالعدد الكاملة ، والأتابكى أزبك يحمل القبة والطير على رأس السلطان ، والملك المؤيد بين يديه فى مقدمة الأمراء. وكان يتقدم الموكب أعيان المباشرين وأرباب الدولة فى ٢٥٠ فرسا. منها خمسون فرساً بالسروج الذهب والكنابيش (١) ، والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات (٢) والجواغين (٣) المكفتة بالذهب والفضة والبقية من المخمل الملون . فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل ، وبينما كان يخترق المدينة من المحجة سقط الطائر الذهب من أعلى القبة ، فترجل الأمير يشبك الدوادار عن فرسه وثبت الطائر على القبة . ثم امتطى صهوة جواده ، وسار فى الموكب ، ونثر بعض تجار الفرنج ألف بندق ذهب على رأسه ، فتزاحم عليه المماليك لالتقاطه من الأرض ، وكاد السلطان يقع من فرسه بسبب تزاحم الناس عليه ، لولا أن أدركه الأمير تمراز رأس نوبة النواب ، وفرق الناس بعصا كانت فى يده ، حتى مكن السلطان من مواصلة السير فى الموكب . وظل موكب السلطان

---

(١) الكنابيش جمع كنبوش ، وهو البرذعة التى توضع تحت سرج الفرس (سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٤٥) .

(٢) جمع بركستوان وهو ما كان يوضع حول بدن الفرس كالدرع (زيادة ، السلوك ، ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥ — سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٩٦).

(٣) آلات من الفولاذ كانت تلبسها الخيول لحمايتها من الطعان (ابن اياس ج ٤ ص ٤١٢) .

فى طريقه المعهود حتى خرج من باب البحر ، وعسكر بالمخيم المضروب على ساحل البحر ، وهناك خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية . فأقام السلطان فى مخيمه ثلاثة أيام ، لعب أثناءها بالكرة فى الفضاء الممتد ما بين باب البحر وشبه جزيرة المنار ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء صحبته . وانتهز فرصة زيارته لثغر الاسكندرية ، وتوجه إلى موضع المنار القديم ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، ثم رحل السلطان إلى إدكو ، ومنها إلى دمنهور فالقاهرة (١) .

وتم بناء البرج المذكور فى عامين . وباشر البناء فيه البدرى بن الكويز والعلائى بن خاص بلك وغيرهما (٢) ، ولما تم بنيانه سافر السلطان قايتباى إلى ثغر الاسكندرية للمرة الثانية فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٤ هـ لمشاهدة البرج بعد بعد اكتمال بنائه ، فرحل فى هذه المرة فى عدة مراكب فى النيل فى صحبة الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك من حديد ، وأزبك اليوسفى الخازندار ، وعدد كبير من أمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات ومن الخاصكية ، كما صحبه من المباشرين القاضى كاتب السر ابن مزهر وآخرون .

فلما دخل المدينة لم يوكب بها كالمرة الأولى ، ثم نزل بالمخيم خارج باب البحر ، فمد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . وأقام السلطان فى الاسكندرية أياما شاهد أثناءها البرج ، الذى قيل أنه أنفق عليه ما يزيد على المائة ألف دينار وأوقف عليه الأوقاف الجليلة (٣) .

---

(١) راجع تفاصيل الزيارة فى بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ ، وفى الملحق

(٢) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، ج ٥ ص ٢٠٩

(٣) ابن إياس ، ج ٣ ص ١٥٦

وكان قد انتهز فرصة زيارته للاسكندرية . وخرج إلى رشيد لتفقد البرج الذى أقامه بها ، تحت مباشرة مقبل الحسنى الظاهر جقمق ، فعاينه ، وعاد إلى الاسكندرية . ثم رحل السلطان من الاسكندرية بعد أن شحن برجها بجماعة من المجاهدين ، أجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى .

ويرجع السبب فى اهتمام الأشرف قايتباى بتحصين الاسكندرية وغيرها من ثغور مصر (١) ، إلى اضطراب العلاقات بين مصر والدولة العثمانية التى ظهرت قوتها فى ذلك الحين ، خاصة بعد أن فتح السلطان العثمانى محمد الثانى القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م (٨٥٧ هـ) فى عهد السلطان إينال ، وأصبحت الدولة العثمانية على هذا النحو منافساً خطيراً لدولة المماليك . وكانت علاقات المودة المتبادلة بين قايتباى ومحمد الثانى قناعا زائفاً يخفى وراءه حقيقة هذه العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل منهما بالأخرى (٢) . وكان قايتباى يدرك تماما ما يجول بخاطر خصومه الأتراك . وكان واثقاً من تربصهم وانتظارهم لفرصة مواتية يثبون فيها على بلاده ، عاجلا كان ذلك أو آجلا فعمد بادىء ذى بدء إلى تحصين ثغوره المعرضة للغزو العثمانى من جهة البحر

(١) لم تكن الاسكندرية وحدها هى البلد الذى زوده قايتباى بتحصيناته ، فقد ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور ، أنه أقام برجاً آخر فى رشيد . وما زالت بقايا هذا البرج قائمة حتى يومنا هذا ، ونلاحظ أن ثغر رشيد ظهرت أهميته منذ عهد قايتباى ، وازدادت هذه الأهمية فى أيام قانصوه الغورى . كذلك أقام قايتباى برجا فى طرابلس الشام يشبه إلى حد كبير برج قايتباى بالاسكندرية . (راجع فيما بعد ، العمارة الحربية) .

(٢) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٣

مثل الاسكندرية ،ورشيد،ودمياط ، ثم أخذ يترقب الأحداث . فلما تولى بايزيد الثانى العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ — ١٥١٢ م) ، ظهر العداء سافراً بين الدولتين ،خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم إلى قايتباى الذى احتفل به فى شعبان سنة ٨٨٦ه (١٤٨٢م) احتفالا عظيما ، وزوده بالمال اللازم والجند ليحصل على حقه فى العرش بحد السيف . وغادر جم القاهرة فى عام ١٤٨٢ م فى طريقه لغزو آسيا الصغرى ، ولكنه هزم ، واضطر إلى الالتجاء إلى فرسان الاسبتارية برودس فى ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢ م(١) ، وبدأ النزاع بين الدولة العثمانية ودولة المماليك يتخذ صورة مصادمات مسلحة .

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ - ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٦٨

(٣)

الاسكندرية فى عصر السلطان قانصوه الغورى

(٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦ م)

(١) اضمحلال الاسكندرية :

كانت الاسكندرية مدينة عامرة مزدهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ولكنها بدأت تسير بخطى حثيثة نحو الاضمحلال منذ أيام الناصر فرج ، وأخذت آثار هذا الاضمحلال تظهر بوضوح بعد وفاة الأشرف قايتباى ، عندما نجح البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ورابطت سفنهم بقيادة فاسكودى جاما عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن المصرية من العبور إلى الهند ، وكان هذا الاكتشاف ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى ، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم البرتغال فى الطريق التجارى القديم الذى يربط مصر بالهند (١) . ومن العوامل التى ساعدت على اضمحلال الاسكندرية قبيل الفتح العثمانى انتشار الطواعين والأوبئة بالاسكندرية فى موجات متتابعة ، كانت آخرها ظهور إصابات مرض الطاعون بالاسكندرية ورشيد فى ذى الحجة سنة ٩١٨هـ(٢)، وانتشار هذا الوباء بعد ذلك فى المحرم وصفر سنة ٩١٩ هـ ، مما أدى إلى وفاة عدد كبير من سكان المدينة . وقد فر جماعة من الأمراء بأولادهم وذويهم إلى

---

(١) فييت ، المواصلات فى مصر ، ص ٤١ – ابراهيم طرخان ، ص ٢٩١ – ٢٩٥

(٢) ابن اياس ، ج ٤ ص ٢٩٦

مناطق لم يصل إليها هذا الوباء مثل جبل الطور، وتوفى بهذا الطاعون الأمير سليمان بيك بن أحمد بن أبى يزيد بن العثمانى الذى قدم إلى مصر فراراً من عمه سليم شاه، ثم توفى أخوه على بيك بالطاعون بعده بشهرين، كذلك توفى بالطاعون عدد كبير من أمراء المماليك وسائر الناس. وقد أثر هذا الوباء والأوبئة السابقة على عمران الاسكندرية تأثيراً عميقاً، فتخربت الدور، وأغلقت الحوانيت، وقل عدد السكان، وفقدت المدينة نضارتها، وتحولت بساتينها الخضراء إلى أراض قفراء، ويعبر بدرو مارتير، سفير الملكين الكاثوليكيين إلى السلطان قانصوه الغورى، وكان قد وصل إلى الاسكندرية فى ديسمبر سنة ١٥٠١ م، عن هذا التدهور والاضمحلال الذى أصيبت بهما الاسكندرية فى ذلك العصر بقوله: «ياللأسف!! إن المدينة التى تألقت فى أيام البطالمة وكانت ذات يوم أجمل وأعظم وأكثر البلاد عمراناً، تخربت وعليها ذرفت الدموع، فقد أصبحت فى أكثرها صحراء، فياله منظر من يثير الأسى، وا أسفاه عليه يا اسكندرية!! ما أعظم أسوارها! وما أفسح طرقاتها! وما أشدها كآبة! وما أروع مبانيها التى ترتفع إلى السماء!! وما أضخم عقود أبوابها!! وعند مرورنا بداخل الدور ألفيناها أنقاضا، وفسروا لنا سبب هذا الخراب المتزايد، فنسبه بعضهم إلى انتشار الأوبئة (١) وعلله بعضهم بكثرة الحروب وثورات الأهالى (٢)، بينما أرجع آخرون السبب

---

(١) انتشرت الطواعين والأوبئة فى الاسكندرية منذ أيام الملك العادل أخى صلاح الدين، وكان أشد هذه الأوبئة انتشارا وأكثرها فتكا بالسكان وباء سنة ٧٤٩ هـ، و ٨٣٣ و ٨٥٣ و ٨٧٣ و ٨٨٣ و ٨٩٧ هـ

(٢) يذكر ابن بطوطة أن أهالى الاسكندرية ثاروا فى سنة ٧٢٧ هـ على واليها أيام الناصر محمد بن قلاوون لأنه كان يتحيز للروم ضد المسلمين، فحاصروا قصره، =

الأساسى إلى تعسف السلاطين واستبداد نوابهم فى المدينة ... فان جميع السلاطين الذين يتولون السلطنة كانوا ينهبون أهالى الاسكندرية ، إذ كانت — باستثناء دمشق — المركز التجارى الرئيسى لجميع بلاد السلطان ، ومستودع البضائع والسلع ، ولذلك كانوا يسلخونهم كما لو كانوا غنما ، فاذا ما بلغ الوشاة والمخبرين خبرا عن تاجر مثر أخرجوا منه المال بقوة التعذيب بدون أدنى عذر سوى رغبتهم فى مصادرة ماله ، ولذلك كله ، كم كان يرتجف التجار وبعض الأهالى المياسير ليلا ونهاراً خوفاً على حياتهم بسبب ثرواتهم التى يمتلكونها ...»(١) .

ولم يكن هذا السفير وحده الذى عبر عن اضمحلال الاسكندرية فى أواخر العصر المملوكى ، فقد سبقه إلى ذلك Emmanuel Piloti فى مصنفه "Traité sur le passage dans la Terre Sainte" ، وهو تقرير كتبه بيلوتى فى سنة ١٤٢٠ ، ووصف فيه الحالة السيئة التى آلت اليها الاسكندرية فى عصر برسباى. كذلك يتضمن وصف ابن اياس لموكب السلطان الغورى عند زيارته للاسكندرية

= فبعث الناصر لنجدته أميراً يعرف بالجمالى ثم أتبعه بالأمير طوغان فدخلا الاسكندرية «وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكويك وسواهم ، وأخذا منهم الأموال الطائلة ، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ، ثم إن الأميرين قتلا من أهل الاسكندرية ستة وثلاثين رجلا » . (راجع ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٨ . وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الثورة) .

(١) Pedro Martir, Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, trad. por L. Garcia, Valladolid, 1947, pp. 78 - 80 — Combe, Pierre Martyr d'Anghiera et le Drogman du Sultan Ghauri (1502), Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, 1944, vol. II, p.107.

فى ذى الحجة سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) تعبيراً صارخاً عن هذه الحالة، فهو يقول: « ... فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب .... ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجـور القباض ، فإنهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : وطلب الخبز بها فلم يوجد ، ولا الأكل . ووجد بها بعض دكاكين مفتحة ، والبقية خراب لم تفتح »(١) . وفى « Bahrije des Piri Re'is » صورة واقعية عن مدينـة الاسكندرية فى بداية عصر الاحتلال التركى (سنة ١٥١٧ م) ، ففى داخل نطاق سور المدينـة نرى المسجدين الكبيرين حيث أدى السلطان التركى سليم الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى منهما ، وذلك فى يوم الجمعة الموافق ٦ يونيو ، كما نرى مرتفعين على مسافة قريبة من باب البحر ، أما فى شرق المدينة عند باب رشيد فنرى بعض الدور ما تزال قائمة ، وما دون ذلك فخراب وأطلال (٢) .

(ب) زيارة السلطان الغورى الأولى للاسكندرية (فى ذى القعدة سنة ٩٢٠):

على الرغم من التدهـــور الذى أصاب العمـــران السكندرى فى عصر

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٤٢٤ . وفى حوادث المحرم سنة ٩٢٠ يقول : « فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع فى السنة الخاليـة . ابن اياس ص ٣٠٩

(٢) Paul Kahle, Die Katastrophe de Mittelalterlichen Alexandria, p.140.

السلطان الغورى ، فقد اهتم هذا السلطان بتحصيناتها ، وعزم على زيارتها فى جمادى الآخر ٩١٦هـ (سبتمبر ١٥١٠م) ليتفقد أبراجها ، ويرمم تحصيناتها ، خوفاً من طروق الإفرنج لها ، غير أن الأتابكى قرقماش أثناه عن الرحيل بحجة صعوبة السفر برا بسبب امتلاء الطرقات بالوحل الناشىء من مياه النيل . فعدل السلطان عن السفر وسافر قرقماش نيابة عنه إلى ثغر الاسكندرية ، وبصحبته الأمير علان الدوادار فى رجب سنة ٩١٦هـ ، ثم عادا فى الشهر التالى ، فأخلع عليهما السلطان ، ونزلا من القلعة فى موكب حافل (١) .

ويبدو أن السلطان — لشدة اهتمامه بتحصينات الاسكندرية — كان قد عهد إلى أحد مهندسيه بأن يقدم إليه صورة مصغرة تمثل الاسكندرية بأسوارها وتحصيناتها ، فان ابن اياس يروى أن المعلم حسن بن الصياد المهندس خط للسلطان « بالجبس فى الأرض صفة مدينة ثغر الاسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها ، وهيئة صورها والمنار التى كان بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها ، وتفرج عليها ، ثم عاد إلى القلعة من يومه » (٢) .
وفى محرم سنة ٩١٨ عزم السلطان على الخروج إلى الاسكندرية فى حراقة نفط أمر باعدادها لذلك الغرض ، بعد أن يقضى على فتنة عربان البحيرة الذين شقوا عصا الطاعة وأفسدوا الزروع ، ثم عدل السلطان عن عزمه على السفر إلى الاسكندرية بسبب ما تلقاه فى صفر سنة ٩١٨ من هزيمة عسكر الشاه

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٦
Combe, les Sultans Mamloûks, Ashraf Sha'ban et Ghauri à Alexandrie, dans B.S.R.A.A. No. 9 vol. IX fasc. 30-39, Alexandrie 1937 p. 44

(٢) ابن إياس ، ج ٤ ص ١٩٦

اسماعيل الصفوى (١) .

وفى ٢٥ شوال سنة ٩٢٠ اشتد عزم السلطان على السفر إلى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى . فأعد العدة لزيارة الاسكندرية . ففي ذلك اليوم « عرض آلة الطلب (٢) وهم الخيول الملبسة بالخواغين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة(٣) وهم بالكنابيش (٤) الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشي الذهب ، وعرض التختنين وهما بغواشي حرير أصفر ، ثم طلع إلى الدهيشة ، وعرض الصناجق(٥) السلطانية والقبة والطير ،وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة . وجعل مكانه هلالا ذهبا مخرماً ، وعرض ستة خزائن التى يكونوا فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين (٦) وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بغشاء من حرير أصفر » (٧).

وفى اليوم التالى ركب السلطان من القلعة إلى ميدان الرميلة حيث استعرض مماليكه الخاصكية الذين يصحبونه أثناء رحلته إلى الاسكندرية . فوقف على باب الميدان . واستعرض وهو راكب جواده مماليكه الجلبان من الخاصكية ،

---

(١) ابن إياس ، ج ٤ ، ص ٢٥٨

(٢) الطلب ، كتيبة من الجيش .

(٣) هى الخيل التى تربط بالقرب من قصر السلطان لتكون على أهبة الاستعداد لركوب السلطان .

(٤) الكنابيش أى البراذع .

(٥) هى أعلام صغار تربط فى أطراف الرماح .

(٦) مثنى جوشن ، وهو الدرع من السلاسل المتصلة تحمى الظهر .

(٧) ابن إياس ، ج ٤ ص ٤١٣

واختار منهم ١١٠ مملوكا ليصحبوه فى الرحلة . ثم صعد السلطان إلى القلعة وأمر بفتح حواصل الذخيرة وأخرج منها الزرديات والخوذ والأتراس والرماح والسيوف والجواغين ، ووزعها على خاصكيته ، وأمرهم بلبسها كاملة واستعرضهم فى ٢٩ شوال بالميدان ، ثم ركب السلطان من الميدان فى موكب يتقدمه الطاب والخاصكية والأمراء المقدمون ونزل ببر إنبابة . وفى ٦ من ذى القعدة رحل السلطان من إنبابة متوجها إلى الاسكندرية ولم يسافر معه إلا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات ، فمن الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس من ولى الدين أمسير مجلس ، والأمير أنصباى من مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير خاير بيك ، وعلان من قراجا الدوادار ، ويخشباى ، وأقباى الطويل. وبلغ عدد هؤلاء الأمراء المقدمين عشرة . وأما من صحبه من أمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة العدد ، منهم الأمير قنبك الشريفى رأس نوبة ثانى والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش ، ومن أمراء العشرات نحو عشرين أميراً ، كما صحبه نحو ٥٠٠ من الخاصكية ، وعدد كبير من المباشرين والقضاة والأعيان ، وجماعة من المغنين وأرباب الآلات . ثم رحل السلطان إلى البحيرة ، فأقام بها يوما وليلة ، وأخذ يتنقل من موضع إلى آخر فى طريقه إلى الاسكندرية متخذاً طريق رشيد ، حيث أقام بثغرها يوماً واحداً ثم أوكب من هناك فى يوم ١٤ ذى الحجة ، ودخل مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين ١٥ من الشهر نفسه ، وتقدم عسكر السلطان موكبه وهم لابسون لباس الحرب كاملا ، وتبعهم الأمراء وقد ارتدوا الشاش والقماش ، ولم يكن السلطان مرتدياً الكلفته أو الكلوتة وهى أشبه بطاقية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة . وإنما لبس على رأسه تخفيفة صغيرة مدورة ، وارتدى كاملية

من الخمل الأحمر التى تشبه العباءة أو الطيلسان يعلوه فراء (صمور) . وكان الأتابكى سودون العجمى يحمل القبة والجلالة لتظلل السلطان ، واخترق الموكب مدينة الاسكندرية من المحجة ، فأخذ بعض تجار الفرنج البنادقة ينثرون قطعا من الذهب والفضة على رأسه ، واتفق أثناء مسيرة الموكب السلطانى فى سوق الاسكندرية أن صدم الأتابكى سودون بالجلالة (الهلال) التى تعلو القبة بعض السقائف ، فانكسرت الجلالة نصفين وسقطت على الأرض . كذلك انكسرت الرصافية التى كانت تعلو المحفة أثناء مرورها فى نفس الموضع ، فبادر الأمراء إليها ووضعوها على المحفة. وتشاءم الناس لما حدث من كسر الجلالة والرصافية (١). ثم خرج السلطان من باب البحر ، ونزل بالمخيم الشريف ، فقدم إليه خدابردى نائب السلطنة فى الاسكندرية تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ، ومماليك ، وقماش على حمالين ، وخيول ، كما قدم إليه الخواجا ابن أبى بكر تاجر السلطان هدية قيمة ، فالبس الأتابكى سودون العجمى الكاملية المخمل التى كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والخواجا

---

(١) فى ٢٦ ذى القعدة نودى فى القاهرة بالزينة بسبب عودة السلطان الغورى من ثغر الاسكندرية ، ولما وصل السلطان إلى الريدانية فى ٢٧ ذى القعدة عزم على دخـول القاهـــرة فى موكب حافل ، فأمر خاصكيته بارتداء آلات السلاح كالزرديات والخوذات ، وإلباس الخيول البركستوانات المخمل ، كما أمرهم بامساك الرماح بالشطفات فى أيديهم ، واتفق أثناء مسيرة الموكب السلطانى فى سوق الدريس أن صدم الأتابكى بهلال القبة بعض قناديل معمرة بالزيت كانت معلقة هناك . فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى كان يرتديها ، فتشاءم الناس بذلك الحادث أيضاً (ابن إياس ، ج ٤ ص ٤١٩) .

ابن أبي بكر. وفي هذا اليوم ثار مماليك السلطان الخاصكية على نائب الاسكندرية لأنه لم يوزع على كل منهم عشرين ديناراً أشرفياً كما فعل قجماس الاسحاقى عندما دخل الأشرف قايتباى الاسكندرية. وفي ذلك اليوم أيضاً تتابعت وفود الكشاف ومشايخ العربان بالغربيـة ، وقدموا للسلطان هدايا قيمة ما بين ذهب عين ، وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، فوزع السلطان معظمها على من قدم معه من الأمراء. وأمر خدابردى نائب السلطنة بالاسكندرية بايقاد القناديل والشموع على مآذن الثغر ، وعلى شراريف السور ، على كل شرافة قنديل. وفي اليوم التالى ، ركب السلطان جواده ولعب الكرة هو والأمراء على ساحل البحر ، وتوجه بعد ذلك لزيارة شيوخ المدينة ، ثم مضى إلى برج السلطان قايتباى ، فصعد إليه هو ومن صحبه من الأمراء ، وقام الحراس بالرمى بالمكاحل والمنجنيقات أمام السلطان. ثم طاف بأبراج الاسكندرية وتفقد ما فيها من السلاح والمكاحـــل ، وأنعم على الأمير يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه. وأقام السلطان بثغر الاسكندرية يومين وليليتين ، ثم رحل إلى القاهرة عن طريق البر ، مارا بدمنهور و النجيلة والطرانة والمنصورية (١).

(ج) زيارة السلطان الغورى الثانية للاسكندرية (فى رمضان ٩٢١ هـ) :

ساءت العلاقات بين دولة المماليك وبين الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة خاصة بعد أن تحالف السلطان الغورى مع الشاه اسماعيل الصفوى ، وآوى الأمير قاسم العثمانى ، أحد أبناء الأمير أحمد الذى قتله السلطان سليم ، واتخذ

---

(١) راجع أخبار زيارة السلطان للاسكندرية ،فى بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٤٢٣ وما يليها ، وفى الملحق

منه الغورى أداة للتهديد (١) . ويروى ابن إياس أن الأمير جانم الخاصكى الذى كان السلطان قد سيره مع هدية إلى ملك التتار ، حضر إلى القاهرة فى ١٦ شعبان سنة ٩٢١ هـ ، وأبلغ السلطان أنه لما مر على بلاد الدولة العثمانية قبض العسكر عليه وأخذوا ما كان معه من هدية الغورى وأساءوا إليه ، وهموا بشنقه أكثر من مرة لولا أن شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، ثم أن جانم أخبر السلطان الغورى عن نوايا السلطان العدوانية سليم نحو مصر ، فأبلغه أنه أعد نحو أربعمائة مركب بقصد غزو مصر من ثغرى الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، وأنه جهز فرقا من عسكره لغزو البلاد الشامية عن طريق حلب (٢) . وعندئذ قوى عزم السلطان الغورى على السفر إلى ثغرى الاسكندرية ورشيد ليتفقد أحوال أبراجهما ، وأشيع أنه شرع فى بناء سور حول رشيد على شاطىء البحر ، وأنه أرسل لذلك الغرض عدداً من البنائين والحجارين .

فلما أدى السلطان صلاة الصبح فى يوم الأربعاء ٢ رمضان نزل من القلعة وتوجه إلى بر إنبابة حيث نصب مخيمه إلى أن يتكامل خروج العسكر ، وصحبه من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى ، والأمير أركماس أمين مجلس ، والأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب ، والأمير أنسباى حاجب الحجاب ، والأمير تانى بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشرات نخص بالذكر منهم الأمير خايربيك المعمار ، كذلك صحبه من المباشرين الشهابى بن الجيعان نائب كاتب السر ، والقاضى أبو البقا ناظر الأسطبل . وأقام السلطان فى مخيمه ببر إنبابة إلى اليوم الثالث

(١) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٥

(٢) ابن إياس ، ج ٤ ، ص ٤٧١

من رمضان، ثم رحل فى عدة مراكب هو ومن صحبه من الأمراء ، إذ كان النيل مرتفعاً قد بلغ عشرين ذراعاً ، والطرق البرية قد غمرتها مياه الفيضان .

ثم وصل السلطان إلى ثغر الاسكندرية وتفقد أحوال أبراجها ، وعاين تحصيناتها ، وزار رشيد، ورسم بأن تسور بسور من جهة البحر ، وأنعم السلطان فى هذه الزيارة على مهندس هذه التحصينات الأمير خايربيك العلاى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف ، وجعله متحدثاً فى باشية برج الأشرف قايتباى . وعاد السلطان بعد ذلك إلى القاهرة فوصلها فى ١٥ رمضان (١).

(١) نفس المصدر، ج ٤ ص ٤٧٦

(٤)

الاسكندرية فى العصر العثمانى

ختم الفتح العثمانى لمصر عصور الإزدهار فى تاريخ الاسكندرية الإسلامية، وفقدت عاصمة مصر الثانية مكانتها القديمة ، وخربت أبنيتها العظيمة التى كانت تؤلف فيما مضى أهم معالمها التى تعتز بها ، وأصبحت هذه الأبنية فى هذا العصر المظلم أنقاضاً دارسة ، وأطلالا متكدسة .

وكانت الاسكندرية قد شاركت فى حركة المقاومة ضد العثمانيين ، فكانت تزود طومان باى بالزرد والسلاح ما بين نشاب وقسى وبارود (١)، وشهدت بعد أن شنق العثمانيون طومان باى على باب زويلة ،قدوم عدد كبير من أهل مصر الذين أمر السلطان سليم بارسالهم إلى القسطنطينية ، وكانوا من الكثرة بحيث استهلكوا فى الشرب مياه الصهاريج بالمدينة ،فقلت هذه المياه وغلى ثمنها حتى بلغ ثمن « كل كراز هناك خمسة أنصاف » (٢) ، وأقام الرجال الذين تقرر تسييرهم إلى القسطنطينية فى أبراج الاسكندرية ، بينما أقامت النساء فى الخانات

ورحل السلطان سليم إلى ثغر الاسكندرية فى جمادى الأولى سنة ٩٢٣ ، وأقام بالثغر ثلاثة أيام استولى خلالها على السلاح الذى كان مكدساً بأبراج المدينة (٣) .

---

(١) ابن إياس ، ج ٥ ص ١٦٣

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٥

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٧

وفى العصر العثمانى انكمش عمران الاسكندرية، وانحصر فى المنطقة الواقعة خارج باب البحر المؤدية إلى شبه الجزيرة . وبينما كانت هذه المنطقة تعمر بالمبانى الجديدة لتصبح المركز العمرانى الجديد لثغر الاسكندرية . وتحل محل القصبة التى أصبحت تعرف باسم المدينة العربية ، اقتصر العمران داخل الأسوار إبان القرن السابع عشر الميلادى على عدة فنادق كان يستخدمها التجار لنزولهم ولخزن متاجرهم ، بالاضافة إلى كنيستين وعدة مساجد . غير أن هذه الخانات والفنادق لم تلبث أن تلاشت فى القرن الثامن عشر ولم يعد لها وجود ، ولم يعد يسكن المدينة الاسلامية القديمة فى الوقت الذى أقام فيه القنصل الفرنسى بنوا دى ماييه Benoît de Maillet فيما بين عامى ١٦٩٢، ١٧١٨، إلا عدد قليل من السكان لا يتجاوز المائة شخص، وذكر بنوا أن المرء لم يكن يستطيع فى ذلك الوقت الخروج من داره بداخل الأسوار فى الصباح أو فى المساء دون أن يعتريه الخوف من قطاع الطرق واللصوص . والظاهر أن الأهالى آثروا الاقامة خارج السور فى المدينة التركية الجديدة التى أقيمت من أنقاض المدينة الاسلامية بعد أن تم ردم جزء كبير من الميناء الشرقية بحذاء اللسان القديم بالرمال (١) . وتظهر هذه المدينة الجديدة بوضوح فى المخططات والصور التى سجلها جرافييه درتيير فى سنة ١٦٨٦م (٢). ويتجلى فى تخطيط جرافييه المذكور بعض أعمدة قائمة فى مواضع من الاسكندرية الإسلامية الواقعة داخل الأسوار بالاضافة إلى مسلة قائمة وأخرى ترقد على جانبها . ونستطيع أن نميز فى هذا التخطيط وجود كومين أوتلين، أحدهما

(١) Kahle, op. cit. p. 140.

(٢) Combe, Les Levés de Gravier D'Ortières à Alexandrie, Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, vol. I, May 1943, p. 52 sqq.



خريطة تمثل الاسكندرية فى عصر الحملة الفرنسية

يقع فى الجنوب الشرقى من المسلتين وهو كوم الدكة ، والثانى يقع قريباً من الميناء الغربية ، بالقرب من السور الغربى عند التقائه بالسور الشمالى ، ويعلوه برج ، هو المعروف حالياً ببرج كوم الناضورة . وكان هذا الكوم الثانى يعرف فى المصادر العربية بكوم وعلة (١) . وفى هذا التخطيط أيضاً نشاهد عمران المدينة التركية فيما بين الأسوار وجزيرة فاروس القديمة .

Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, dans : Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, No. 34, 1941, p. 95.

القسم الثانى

بعض مظاهر حضارة الاسكندريه فى العصر الاسلامى

الفصل الثانى عشر

التوسع العمرانى والمنشآت

١ – تطور العمران السكندرى فى العصر الإسلامى .

٢ – العمارة الحربية :

(ا) أسوار الاسكندرية :

(ب) أبواب الاسكندرية : باب رشيد – باب الزهرى – باب السدرة باب القرافة – باب الخوخة – باب الديوان – باب البحر – باب الغدر – الباب الأخضر

(ج) قلاع الاسكندرية .

برج شرقى – برج ضرغام – برج باب السدرة – برج باب الزهرى – قلعة السلسلة– برج كوم وعلة أو كوم النظورة – قاعة رماة القرافة – قلعة قايتباى .

(د) بعض التحصينات الأخرى.

٣ – العمارة الدينية :

(ا) المساجد : الجامعان الشرقى والغربى – مسجد وضريح أبى العباس المرسى والمنطقة حوله – مسجد قجماس الأسحاقى خارج باب رشيد – جامع الصوارى خارج باب السدرة .

(ب) المدارس ودور الحديث والخوانق : المدرسة الخلاصية — المدرسة النابلسية — مدرسة الفخر — مدرسة البلبيسى — مدرسة ابن حباسه — مدرسة التكريتى — دار الحـديث التكريتية — دار الحديث النبيهية — مدرسة الدمامينى — المدرسة الخضراء — خانقاه بيليك المحسنى — المدرسة الحافظية — مدرسة قايتباى — المدرسة والمارستان الصلاحى .

(ج) الربط : رباط الواسطى — رباط سوار — رباط الهكارى — رباط ابن سلام — رباط وتربة الأمير طغية — رباط قجماس الاسحاقى .

٤ — العمارة المدنيـة :

(ا) القصور الخاصة والقصور العامة :

قصر الإمارة — قصر السلطان — قصر السلاح .

(ب) الدور الخاصة والعامة :

نظام الدار الاسلاميـة فى الاسكندرية — دار الضرب — بيت المال ودار العدل — دار الصناعة — دار الطراز .

(ج) المؤسسات العـامة :

الحمامات — الفنادق — الصهاريج والخزانات — القناطر والمقياس

الفصل الثانى عشر

التوسع العمرانى والمنشآت

(١)

تطور العمران السكندرى فى العصر الاسلامى

رأينا من العرض التاريخى السابق كيف احتفظت الاسكندرية فى فجر الاسلام بتخطيطها القديم حتى بعد أن تخربت بعض أجزاء من سورها اليونانى الرومانى بقذائف منجنيقات عمرو بن العاص ، ورأينا كيف انكمش عمران الاسكندرية بعد موجة الفتح ، الأمر الذى أدى بالضرورة إلى إعادة تسويرها بسور جديد يحيط بالأجزاء العامرة منها بعد أن أخرجت من نطاق المدينة الاسلامية المناطق التى هجرت ، واستخدمت فى السور الجديد ، الذى يعتقد أنه من بناء أحمد بن طولون ، أحجار الأسوار القديمة المخربة .

وظلت الإسكندرية بالرغم من ذلك تحتفظ من حيث التخطيط بنظامها التخطيطى اليونانى الرومانى ، فتميزت شوارعها بالنظام المتعامد ، وكان يخترقها من الشرق إلى الغرب طريق فسيح كان يعرف باسم المحجة العظمى يمتد ما بين باب رشيد شرقاً والباب الغربى أو القرافة غرباً ، يقطعه طريق آخر رئيسى ، يقارب المحجة فى الاتساع ، ينتهى فى الشمال بباب البحر المطل على المينة الشرقية ، وفى الجنوب بباب السدرة أو باب البهار أو باب العمود نسبة إلى عمود السوارى الذى أصبح يرى منذ بناء السور الجديد فى ظاهر المدينة

من قبلها . كذلك كانت الاسكندرية فى هذا العصر تحتفظ بمعالمها التى كانت تتميز بها منذ الفتح العربى ، مثل أطلال معبد السيرابيوم بعمود السوارى الضخم ، ومنار الإسكندرية القائم فى الزاوية الشمالية الشرقية من شبه جزيرة المنار بازاء رأس لوكياس ، وأطلال القصرين بمنطقة الرمل بظاهر الاسكندرية من الجهة الشرقية ، والمساجد التى أقيمت فى أعقاب الفتح العربى ، وأهمها الجامع الغربى ، ودار الإمارة والقصر الفارسى ، ومثل المسلتين القائمتين بجوار آثار معبد القيصريوم . ولا نعرف من أحياء المدينة الإسلامية فى ذلك العصر سوى اسمى حومتين أو حيين من أحيائها هما : القصبة(١) والعادلية(٢) ، كما لا نعرف من أرباضها سوى ثلاثة هى : ربض القصرين بشرقى الاسكندرية ، وقد ذكرنا فيما سبق أن موضع القصرين يتفق وموضع معسكرات مصطفى باشا فى الوقت الحاضر ، ثم ربض السرية وكان يقع فى جنوب المدينة ، ويضيف الكندى ربضاً ثالثا يقال له منية الزجاج دفن فيه عتبة بن أبى سفيان(٣)

وشهدت الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى تطوراً عمرانياً واضح المعالم ، فقد عمرت المنطقة الشرقية بظاهر الاسكندرية بالمبانى والقصور التى سبق أن تحدثنا عنها فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، وأقيمت بالاسكندرية مدرسة وبيمارستان للمغاربة ظلا قائمين فى عصر المماليك البحرية ، إذ زودها سيف الدين الأكز الكشلاوى ، نائب السلطنة بالثغر السكندرى ، فى سنة ٧٦٧ ، بعد وقعة القبارصة ، بالأدوية والأشربة اللازمة ، وأقام أمام بابها

---

(١) كان هذا الحى هو قلب الاسكندرية ومركزها الذى ينبض بالحياة ، ونعنى به حى العطارين حيث كانت تتوزع أسواق الاسكندرية العامة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤٠٦

(٣) الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٦

سلسلة ضخمة على النحو الذى أوضحناه من قبل . كما شهدت الاسكندرية مسجداً جامعاً ثانياً فى العصر الفاطمى هو جامع العطارين، وأصبح لها بذلك جامعان رئيسيان .

وفى العصر المملوكى تطور العمران السكندرى تطوراً سريعاً ، فقد عاشت الإسكندرية فى أيام المماليك عصراً زاهراً نهضت فيه اقتصادياً وعمرانياً ، وانعكس أثر ذلك على المنشآت الجليلة ،الدينية والمدنية ، التى زخرت بها شوارع المدينة . ويعبر الرحالة ابن بطوطة عن هذا التوسع العمرانى أصدق تعبير بقوله : « هى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن ، لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا »(١) .

ونستدل من وصف النويرى السكندرى لموكب السلطان الملك الأشرف شعبان أن المدينة كانت تحتفظ فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى إلى حد كبير بنظامها التخطيطى القديم ، فقد ظلت المحجـــة العظمى تخترق الاسكندرية من وسطها ، من الشرق إلى الغرب ، ويقطعها من الشمال إلى الجنوب الطريق الرئيسى الآخر الذى يصل بين بابى البحر شمالا والسدرة جنوبا ، وبالقرب من التقاء الطريقين يقوم مسجد صغير يعرف بمسجد أبى الأشهب . كذلك نستدل من وصف النويرى للموكب أن داراً تعرف بدار

(١) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٢٠

ابن الحباب أو ابن الحياب (وهو أحد أفراد أسرة من كبار تجار الاسكندرية) كانت تقع فى الطريق المؤدى إلى البحر ، وكان جفار القصارين يقع قريباً منها مما يلى البحر ، وإن كانت هناك أجفار أخرى لقصارى الثياب ذكر النويرى السكندرى فى موضع آخر أنها كانت تجاور الباب الأخضر الذى ينفتح فى السور الشمالى الغربى(١) .

وكان يشغل المنطقة الفضاء الواقعة خارج باب البحر ، المؤدية إلى الفنار القديم وقلعة قايتباى فيما بعد ، وتعرف بالميدان مخيم كان ينزل به السلاطين ، ويلعب فيه الأشرف قايتباى والغورى بالكرة مع أمراء المماليك (٢) . وعندما يزور أحد السلاطين الاسكندرية ، وينزل بالمخيم الشريف المنصوب خارج باب البحر ، كانت شرافات السور تعلق منها القناديل (٣) ، وكان يعلو كل برج من أبراج السور أعلام وطبلخاناه وأبواق وأجراس(٤) . وكان يخترق الثغر خليج ممتد يأتى من النيل ويصب فى البحر غربى المدينة (٥) ، وتتفرع من هذا الخليج بداخل المدينة شبكة مائية فى باطن الأرض تروى الدور والبساتين .

كذلك كان يحيط بالمدينة من الشرق والجنوب الشرقى بساتين نضرة ، ومزارع خضراء ، كانت تعمر بالضيعات والمنيات فى الأوقات التى تجرى

---

(١) النويرى السكندرى ، مخطوطة الهند ، ص ٢٣ أ

(٢) ابن اياس ، ج ٣ ص ١٢٨ ، ج ٤ ص ٤٢٣

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ — ابن إياس ، ج ٤ ص ٤٢٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٠

(٥) نفس المصدر .

فيها مياه النيل فى الخليج ، ثم تتحول إلى خرائب عندما تتوقف هذه المياه عن الوصول إلى الاسكندرية ، كما حدث فى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى .

واستجدت بالمدينة فى عصر المماليك البحرية أحياء أورد النويرى السكندرى أسماءها ، منها حى الزريبة بغربى الاسكندرية حيث كان يقع قصر السلاح (١) ، وحى قلزى(٢) وكانت تقوم فيه كنيسة . ويعتقد الأستاذ كومب أن لفظة قلزى تحريف من الكلمة اليونانية « اكليزى » بمعنى كنيسة ، وأن هذا الموضع إنما سمى كذلك نسبة إلى الكنيسة المذكورة التى كانت تقوم فيه (٣) . ويشير الرحالة الألمانى فورر Fürer الذى وصف الإسكندرية فى سنة ١٥٦٥ م إلى أن اليهود كانوا يقطنون موضعاً يعرف بكوم الغافية ، يقع بشرق الإسكندرية ، ويعتقد الأستاذ كومب أيضاً أن هذه المنطقة كانت تقع فيما يلى جبانة اليهود الحالية ، أى فى المرتفع الذى يقع ما بين منطقة الشاطبى الحالية والإبراهيمية (٤) ، ومعنى هذا أن كوم العافية كان ربضاً من أرباض الاسكندرية الشرقية .

وبالاضافة إلى هذه المواضع المذكورة أمدنا النويرى فى سياق حديثه عن وقعة القبارصة بأسماء مواضع وأسواق ، منها موضع يعرف بالكدس ، كان

(١) النويرى السكندرى ، مخطوطة الهند ، ص ٨٣ ب

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١٩٥ ب

(٣) E. Combe, Notes de topographic Alexandrine, dans B.S.R.A.A. No. 34, p. 72.

(٤) Ibid. p. 72

يقع فى جهة الباب الأخضر (١) ، وموضع يعرف بالمعاريج كان يقع فيه سوق يقال له سوق القشاشين ، وبجواره تقوم حوانيت المرجانيين وقيسارية الأعاجم (٢) ، وأعتقد أن هذه المواضع كانت قريبة من الحى التجارى المعروف بالعطارين . ويشير ابن حجر إلى موضع يقال له المرجانيين من الاسكندرية كانت تقوم فيه مدرسة أسسها أحد شيوخ الاسكندرية ويعرف بتاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان المخزومى الدمامينى ، المتوفى فى سنة ٧٣١هـ (٣). ومن المواضع التجارية التى زودنا النويرى بأسمائها : سوق السلاح (٤) ، وسوق الجوار ، ووكالة الكتان المقابلة لجامع الجيوشى أو جامع العطارين ، وسوق الخشابين الذى كان يقع أيضاً بالقرب من ذلك الموضع (٥) ، والبزازين. والشماعين والصاغة (٦) ، وهى مواضع كانت تقع فيما يظهر إلى الشمال الغربى من الاسكندرية ، فى حى الجمرك بالقرب من منطقة الباب الأخضر

ويرجع السبب فى تعدد هذه الأحياء والمواضع إلى كثرة الأسواق التجارية والمنشآت الدينية التى كانت أسماؤها تغلب على أسماء المناطق التى تقوم فيها . وكان من الطبيعى أن نميز فى طبوغرافية الاسكندرية ، إلى جانب معالمها الاسلامية القـــديمة التى ظلت قائمـــة فى مواضعها فى العصر المملوكى ،

---

(١) النويرى السكندرى ، ص ٨٤ أ

(٢) النويرى ، ص ٨٢ ب

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٤٨

(٤) النويرى ، ص ٢٦٩ أ

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٣ أ

معالم أخرى جديدة ، جدت بسبب اتساع العمران السكندرى فى هذا العصر ، أشار إليها النويرى فى مصنفه الكبير « الإلمام بما قضت به الأحكام » ، ومن هذه المعالم البارزة فى مدينة الاسكندرية فى العصر المملوكى ما يلى :

سيالة المنـار : هى منطقة ضحلة المياه ملاصقة لسور منار الاسكندرية القديم ، تطل على مينة الاسكندرية الشرقية ، ونزل فيها جماعة من القبارصة فى سنة ٧٧٠ هـ (١) .

باب الزهرى(٢) : أول أبواب البر الجنوبية من الاسكندرية من الجهة الشرقية ، يقع قريباً من باب رشيد أو الباب الشرقى ، وما زالت بقايا منه مع جزء من السور القبلى قائمة فى وقتنا الحاضر فى ملعب الاسكندرية المعروف بالاستاد .

باب الخوخة (٣) : كان مجاوراً لدار السلطان ، فى الشمال الشرقى من سور الاسكندرية .

باب الغدر (٤): كان يقابل باب البحر من داخل دهليزه ، ويستخدم فى أوقات الحصار .

رباط ابن سلام (٥) : أنشأه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة قبل وقعة القبارصة بأكثر من سنة ، وأنفق عليه ثمانمائة

---

(١) النويرى ، ص ٢٧٤ ب
(٢) نفس المصدر، ص ٨١ ب
(٣) نفس المصدر، ص ٨١ أ ، ٨٤ أ
(٤) نفس المصدر، ص ٢٠٨ ب
(٥) نفس المصدر ص ٨٠ أ

دينار ، وقد تعرض هذا الرباط لاعتداء القبارصة ، اللذين انتزعوا شبابيكه النحاسية وكسروا قناديله ، وأحرقوا سقف إيوانه الخشبية .

تربة الأمير طغية (١) : كانت تقوم بشبه جزيرة المنار فى المنطقة المعروفة بمقبرة الميناوين وفيها ضريح الأمير طغية والأمير بلاط .

مصلى الأعيـاد(٢) : كان يقع بشبه جزيرة المنار ، فى منطقة فضاء كانت تؤدى فيه صلاة العيدين ، ويقابله فى المغرب الإسلامى الشريعة .

مدرسة الفخر(٣) : كانت تقع بالقرب من باب رشيد .

مقبرة الميناوين(٤) : كانت تقع خارج باب البحر فى المنطقة الفضاء الممتدة إلى شبه جزيرة المنار .

* * *

وإلى جانب هذه المعالم الجديدة ، هناك معالم أخرى كثيرة سنشير إليها عند دراستنا المقبلة عن منشآت الاسكندرية فى العصر المملوكى ، وهو العصر الذى اكتملت فيه طبوغرافية الاسكندرية الاسلامية واتخذت صورتها النهائية.

وقبل أن ننتهى من حديثنا عن تطور العمران السكندرى ، لابد أن نشير إلى جبانات الاسكندرية ، وهى أربع جبانات : الشرقية خارج باب رشيد والغربية اثنتان، واحدة فى داخل نطاق السور، وهى جبانة وعلة التى دفن فيها

(١) نفس المصدر، ص ٨٣ ب

(٢) نفس المصدر، ص ٨٣ ب

(٣) نفس المصدر، ص ٨١ ب

(٤) اليونينى، ج ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٧

الطرطوشي والسلفي وغيرهما ، والثانية هي مقبرة القرافة الواقعة خارج باب القرافة . أما الجبانة الثالثة فهي مقبرة الميناوين أو ما بين الميناوين (١)، وكانت تقع خارج باب البحر ، ودفن فيها أبو العباس المرسي وتلميذه ياقوت الحبشي (٢) وغيرهما ، وأخيراً مقبرة الديماس(٣) أو كوم الدكة .

(١) اليونيني، ج ٢ ص ٣٤٩

(٢) النويري ، ص ٢٣٩ ب

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٩٤

(٢)

العمارة الحربية

(١) أسوار الاسكندرية:

كان سور الاسكندرية الذى أسسه ابن طولون ما يزال سليما فى العصر الفاطمى ، ولذلك لم يتلق من عناية الخلفاء الفاطميين الا قدراً ضئيلا ، غير أن بنيان هذا السور تأثر تأثراً شديداً ، كما سبق أن أوضحنا فى حديثنا عن المنشآت الحربية فى العصر الفاطمى ، بالحركات الثورية والفتن التى قامت ابان هذا العصر ، مثل حركة ابن حمدان ، وفتنة الأوحد ، والنوبة النزارية وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تعرض أجزاء منه لقذائف المنجنيقات. وقد حمل هذا والى الاسكندرية فى أيام الآمر بأحكام الله « المؤتمن سلطان الملوك أبو تراب حيدرة » على أن يجدد عمارته فى سنة ٥١٧ هـ (١) ، كذلك أقام الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار برجا عند باب البحر عرف ببرج ضرغام وذلك فى سنة ٥٥٧ هـ (٢)، والظاهر أن هذا البرج كان يقصد به تمكين الدفاع فى هذه المنطقة بالذات ، لاشرافها على شبه جزيرة المنار وقد أسهم هذا البرج فى الدفاع عن الاسكندرية فى العصر الأيوبى سنة ٥٦٩ هـ ، ثم أحرق فى وقعة القبارصة فى سنة ٧٦٧ هـ(٣) . وسنعود لدراسة هذا البرج عند تعرضنا لذكر قلاع الاسكندرية .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، المخطوطة ، ص ١٢٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ ب

(٣) النويرى ، ص ٨٤ أ

ولما قامت الدولة الأيوبية ، اهتم صلاح الدين مؤسس هذه الدولة بمدينة الاسكندرية اهتماماً خاصاً ، وذلك لما أظهره أهل الاسكندرية من تضامن لقضيته فى صراعه ضد شاور والقوى الصليبية ، ولما بذلوه له من عون ، فأمر باصلاح أسوار المدينة عند زيارته للاسكندرية فى ٢٣شعبان سنة ٥٦٦(١) ثم قدم بنفسه فى سنة ٥٧٢ ليشرف على أعمال الترميم .

ويبدو أن أسوار الاسكندرية — وخاصة الأجزاء الشمالية منها — أصيبت ببعض الأضرار فى أواخر عصر الدولة الأيوبية ، الأمر الذى دفع بالظاهر بيبرس إلى زيارة الاسكندرية عقب ظفره بالسلطنة، لترميم أسوارها، والعناية بها، وذلك فى سنة ٦٥٩ هـ(٢) . غير أن جزءاً كبيراً من سور الاسكندرية الشمالى المواجه للبحر تهدم على أثر الزلزال الذى حدث فى ٢٣ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ ، وأدى إلى طغيان البحر على الواجهة الأمامية للاسكندرية حتى « دخل الصناعة ووصل إلى الأسوار »(٣). وذكر المقريزى أن الزلزال هدم

---

(١) أبوشامة ، ج ٢ ص ٤٨٦

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ص ٤٤٦

وذكر محيى الدين بن عبد الظاهر فى كتابه الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر أن السلطان بيبرس « حث على عمارة أسوار الاسكندرية وحفر خنادقها واصلاح الواهى منها ، ورتب جملة لذلك تنفق فيه فى كل شهر ،وبنى لثغر رشيد مرقباً لكشف مراكب العدو المخذول »

Syedah Fatima Sadeque, Baybars I of Egypt, Pakistan, 1956, Arabic text, p. 30.

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ حوادث ٧٠٢ هـ

ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجاً من السور الأمامى(١) . فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إصلاح ما تهدم من السور، وتم ذلك فى شهور سنة ٧٠٣ (٢) . وأعتقد أن سور الاسكندرية الشمالى دعم فى هذا الترميم بستارة أمامية فى القطاع الممتد ما بين بابى البحر والأخضر على الأقل مسافة الست والأربعين بدنة المذكورة ، فأصبح سوراً مزدوجاً يتألف من السور الرئيسى ببدناته وأبراجه ، والسور الأمامى . كما اعتقد أيضاً أن هذا السور فتحت فيه أبواب جديدة إما فى عصر السلطان بيبرس أو فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون عقب الزلزال المذكور ، منها باب الديوان المجاور لباب البحر من الجهة الشرقية ، وباب الغدر وكان بابا داخلياً متصلا بدهليز باب البحر ، والباب الأخضر فى الركن الشمالى الغربى من السور السكندرى بجوار باب القرافة ، وباب الزهرى فى النقطة التى يتجه فيها السور السكندرى الشرقى إلى الجنوب ، على مسافة قصيرة من باب رشيد ، وباب الخوخة المجاور للباب الأخضر ، وقد لاحظ ابن بطوطة حصانة أسوار الاسكندرية عند زيارته لها فى سنة ٧٢٥هـ . ويبدو أن الأبواب التى فتحت مؤخراً كانت مجرد أبواب ثانوية بدليل أنه لم يذكر من أبوابها سوى أربعة هى : باب السدرة وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر (٣) .

ونستنتج من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان لمدينة الاسكندرية ما يؤكد رأينا فى أن سورها الشمالى الممتد ما بين باب البحر والباب الأخضر على الأقل إن لم يكن سور الاسكندرية كله ،

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٩٤٣ — ٩٤٤ — أبو الفدا ، ج ٧ ص ٦٠

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

(٣) ابن بطوطة ، ص ٢٠

كان مزدوجاً أى يتألف من سورين ، على النحو الشائع فى العمارة البيزنطية والعمارة الاسلامية فى الأندلس (١) . غير أن أستاذنا المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال إستنتج فى مقاله عن طبوغرافية الاسكندرية من نفس نص النويرى أن هذه الأسوار كانت ثلاث يفصل كل منها فصيل أى طريق فاصل ، وذلك لأن الأشرف شعبان وفقاً لرواية النويرى خرج من باب البحر الذى يلى البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ، ثم الثالث (٢) . وقد فندنا هذا الرأى فى طبعتنا الأولى من هذا الكتاب (٣) ، وفى بحثنا عن تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى (٤) ، مستندين فى ذلك إلى الحقائق الآتية :

١ — ذكر النويرى السكندرى فى وصفه لمرور الأشرف شعبان من الباب الأخضر بالاسكندرية أنه « ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد وساربه وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكرولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطـــــراز » (٥) . وهذا النص صريح يدل على أن السور الأساسى الذى يلى البلد كان به بابان ، أما السور الأمامى فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من البابين الأولين فيجد نفسه بين السورين .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور ، فى الأندلس ، ص ١٣٤ وما يليها .

(٢) جمال الشيال ، الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، ص ١٠٣— الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٣٩ .

(٣) تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ١١٨ وما يليها

(٤) تخطيط مدينة الاسكندرية ، ص ٩٦

(٥) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٢ أ

٢ - ذكر غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى، نائب السلطنة بالاسكندرية فى عصر الأشرف برسباى، فى كتابه « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » عن ثغر الاسكندرية العبارة التالية : « وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه ، يشتمل على سورين محكمين ، بها عدة أبراج يحيط بها خندق ، يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة ، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حديد»(١) . وهذا النص أيضاً صريح واضح لا يحتاج إلى تفسير ، فسور الاسكندرية كله سور مزدوج ، والباب الواحد يشمل على ثلاثة أبواب حديدية .

٣ - ذكر النويرى السكندرى فى سياق حديثه عن موكب السلطان الأشرف شعبان بالاسكندرية أنه سار بالمحجة، ثم عطف عطفة مسجد أبى الأشهب، وسار إلى أن « خرج من باب البحر الذى يلى البلد ... ثم سار وخرج من الباب الثانى والثالث ، فشاهد البحر الملح والمينه » (٢) ومعنى هذا أن باب البحر كان يشتمل على ثلاثة مداخل أو أبواب .

٤ - ذكر النويرى أثناء تعرضه لما اجترمه القبارصة فى الاسكندرية ، أنهم «أحرقوا باب البحر الأول والثانى ... وأبواب الباب الأخضر الثلاثة»(٣). وفى موضع آخر يذكر أن الباب الأخضر المذكور سد بعد الوقعة بالحجر والحجر ، « ثم فتح بعد ذلك ، وركب عليه أبوابه الأول والثانى والثالث المتجددة وذلك فى يوم الوقعة سنة ٧٦٧ فى ولاية الأمير سيف الدين الأكز

(١) ابن شاهين الظاهرى ، ص ٣٩

(٢) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤١ ب

(٣) النويرى ، نسخة الهند ، ص ٨٤ أ

الاسكندرية »(١) .

٥ — يمكننا أن نشهد السورين فى خريطة للاسكندرية ترجع إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادى (فى سنة ١٦١٩ م) ، فالسور الشمالى من دون أسوارها جميعاً يبدو فى الصورة مؤلفاً من سورين أحدهما أكثر ارتفاعا من الآخر .

٦ — يمكننا أيضاً أن نميز ازدواج السور الشمالى فى خريطة للاسكندرية ترجع إلى سنة ١٦٨٦ م .

٧ — فى إحدى صور الفنان والمهندس الفرنسي لوى فرانسوا كاساس (١٧٥٦ — ١٨٢٧) التى صورها لباب رشيد ، نشاهد للسور المتصل بالباب سورين أحدهما أمامى يتقدم الباب وسور آخر خلفى متصل بالباب (٢) .

وقد أوضحنا فى ذلك الحين أن من السهل تصور الأبواب الثلاثة للباب الواحد (٣)، فلقد عرفنا من أسوار القاهرة أن للباب الواحد بابين تفصلهما رحبة أو اسطوان ، وتعلوه قبوة كبيرة ، كما هو ممثل فى أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، فاذا أضفنا للسور الأمامى بابا ثالثاً ، أصبح للباب الواحد ثلاثة مداخل أو أبواب . ومن أمثلة هذه الأبواب الثلاثية ، باب قرطبة بمدينة

---

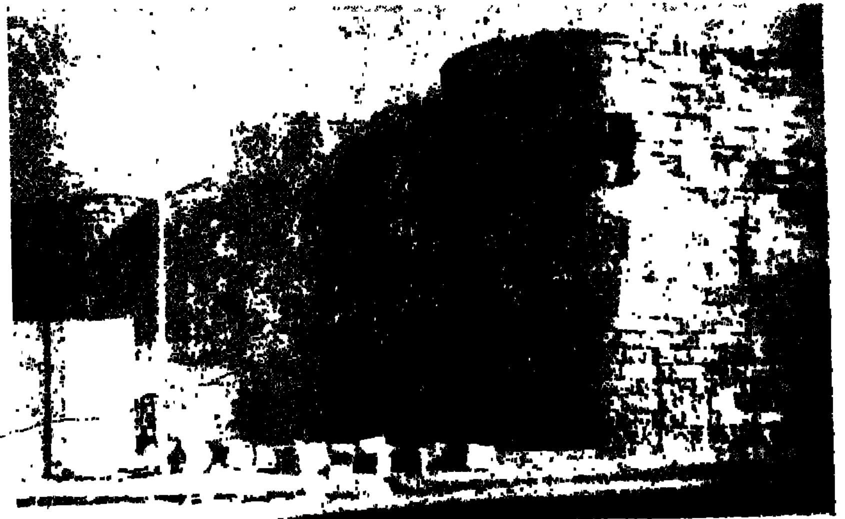
(١) نفس المصدر، ص ٧٨ أ

(٢) Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, dans, B.S.R.A.A. No. 36, p. 135.

(٣) كانت هذه الأبواب تفك مصاريعها الخشبية وتلقى على الأرض عندما يقوم السلاطين بزيارة الاسكندرية (راجع ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٢٦ — ١٢٨) .



جانب من سور الأسكندرية الشرقى بالقرب من باب شرق



باب من أبواب قلعة قايتباى

اشبيلية (١) ، فهو يتألف من بابين فى السور الأساسى (الخلفى) ، وباب واحد فى السور الأمامى الذى كان أقل ارتفاعاً من السور الأساسى . ووظيفة السور الأمامى أنه يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية، ويعوقه ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها إلى داخل المدينة. وأعتقد كذلك أن بناء هذه الأسوار كان متأثراً بالأسوار الإسلامية فى المغرب والأندلس ، فلقد تغلغلت التأثيرات المعمارية المغربية فى صميم العمارة المصرية فى هذا العصر ، بسبب كثرة وفود الأندلسيين الذين حكم عليهم بمغادرة وطنهم ومسقط رأسهم بعد سقوطه فى أيدى الاسبان ، هذا بالاضافة إلى كثرة تردد التجار المغاربة إلى مصر (٢) .

ويبدو أن المرحوم الأستاذ الدكتور الشيال قد عدل عن رأيه الأول واقتنع بما أدليت به فى كتابى من الأسانيد ، فقد ذكر أنه يفهم من وصف النويرى أن « الاسكندرية كان يحيط بها سوران أحدهما داخلى مما يلى البلد ، وهو السور الرئيسى ، وثانيهما خارجى يشرف على ما يحيط بالمدينة . وكان لكل باب من أبواب المدينة ثلاثة أبواب متينة مصفحة بالحديد .»(٣).

وقد ظل سور الاسكندرية على حد قول الأستاذ روفون جيست فى مقاله بدائرة المعارف الاسلامية قائماً حتى ١٨١١ ، وكان يتألف من « سور خارجى ارتفاعه عشرون قدماً ، ووراءه فى معظم محيط السور سور أكثر

---

(١) J. Guerrero Lovillo, la Puerta de Cordoba en la cerca de Sevilla, al-Andalus, 1953

(٢) عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية المجلة ، العدد ١٢ ص ٨٨

(٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ص ١٤٤

ارتفاعاً ، وأشد سمكاً ، يبعد عن السور الأمامى بمسافة تتراوح ما بين عشرين قدماً ، وخمسة وعشرين قدماً»(١) .

(ب) أبواب الاسكندرية :

كان ينفتح فى سور الاسكندرية الاسلامى أربعة أبواب رئيسية هى : باب البحر ، وباب رشيد ، وباب السدرة ، وباب القرافة، ثم أضيف إلى هذه الأبواب الأربعة أبواب أخرى يغلب على الظن أنها فتحت فى سور الاسكندرية فى العصر المملوكى ابتداء من عصر السلطان الظاهر بيبرس . وفيما يلى بيان موجز لهذه الأبواب :

١ — السور الشرقى : وينفتح فيه الباب الشرقى المعروف بباب رشيد ، وكان يقع على وجه الدقة فى طريق الحرية قرب التقائه بشارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين سابقاً) من اليمين وشارع بلجيكا من اليسار . وكان هذا الباب هو الباب الرئيسى الذى يدخل منه القادم من القاهرة والفسطاط ولذلك عرف أيضاً بباب القاهرة(٢) ، وكان يعبر منه سلاطين المماليك عند زياراتهم لثغر الاسكندرية . وقد فر أهل الاسكندرية من هذا الباب وغيره من أبواب البر عند اقتحام القبارصة للمدينة ، وأحرق المسلمون(٣) مصاريع مداخله حتى يتيسر للعسكر المملوكى القادم من القاهرة أن يدخل المدينة ويحررها بسهولة ، وحتى لا يتحصن القبارصة داخل المدينة . ولقد وصلتنا صورة هذا الباب قبل أن يتهدم بسبع وتسعين سنة ، فى جملة ما رسمه لوى

(١) R. Guest, Alexandrie, dans Encyclopédie de l'Islam.

(٢) Combe, Les Levés de Gravier d'Ortières à Alexandrie, (1686) p. 56.

(٣) النويرى ، ص ٩٣ أ

فرانسوا كاساس فى رحلته لمصر والأراضى المقدسة وسوريا سنة ١٧٨٥م. وفى هذه الصورة (أنظر ص٣٢٧) نشاهد باب رشيد وأمامه قافلة من الجمال تخرج من المدينة بينما نشاهد السور الأمامى وقد اكتنفت بدناته أبراج نصف اسطوانية، وعند الطرف الأيمن من الصورة نرى برجاً مستطيل الشكل، وكلها فى حالة سيئة من التخرب، قد سقطت أعاليها. ونلاحظ فى الصورة أن مدخل المدينة لا يعدو أن يكون بابا عاديا، فتحته تبدو ضيقة إلى حد ما، ويكتنفه من كل جانبيه برج نصف أسطوانى ذو طابقين ، وينتصب فى المؤخرة بناء ضخم كالقلعة مزود فى الأركان بأبراج ركنية . ويعلو المدخل فتحة كبيرة معقودة بعقد قوطى . ويعتقد الأستاذ كومب أن السور الأمامى كان ينفتح فيه باب عادى، ثم يمر الداخل منه فى الفصيل الذى يقع بين السورين إلى أن يدخل من البوابة الضخمة . وقد قام برسم باب رشيد غير كاساس عدد من الفنانين الذين زاروا الاسكندرية فى القرنين ١٨ ، ١٩ منهم ما ير الذى صوره بعد كاساس بعهد قصير ، وتينون Thiénon الذى صوره فى سنة ١٨١٨(١).

وظل باب رشيد قائماً حتى بدأت جدرانه تتصدع منذ سنة ١٨٨٢ ، ثم تهدمت جدران جانبي المدخل ، وأخذت الخنادق تنظم تدريجياً ، ثم اختفت معالم الباب فى سنة ١٨٨٥ . إلا أن قسماً من سور الاسكندرية الشرقى المتصل بباب رشيد قد تبقى حالياً فى حدائق الشلالات، وهو عبارة عن قطعتين من

---

(١) Combe, Les Levés de Gravier d'Ortières à Alex., P. 57.

وذكر الأستاذ كومب أن ماير رسم باب رشيد من الداخل وأظهر منافذ السهام وبقايا أعمدة مندمجة فى البناء بالاضافة إلى أفاريز من الجرانيت تحيط بالعقود والنوافذ (Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, de p. 135).

السور ، إحداهما إلى الشمال من باب رشيد(١) وهى لا تعدو أن تكون برجين واحد نصف دائرى والآخر مستطيل الشكل يتصل به ، وحجارته من النوع المسنم البارز الشائع الاستعمال في العصر الأيوبى ، وتشبه إلى حد كبير نظائرها فى سور صلاح الدين بالقاهرة ، وبعض أبراج قلعة صلاح الدين بالقلعة وبرج الظفر ، وسور الفسطاط (٢) ، والقطعة الثانية من سور باب رشيد نشاهدها مختلطة بأبنية مستحدثة فى القسم الجنوبى من الشلالات ، قبل أن يتجه السور إلى الغرب .

٢ — السور القبـلى : كان ينفتح فى هذا السور بابان : الأول من الجهة الشرقية هو باب الزهرى ، وقد سمى بذلك نسبة إلى ضريح للشيخ محمد الزهرى (٣) كان قائماً خارج هذا الباب (وما يزال قائماً حتى الوقت الحاضر) ، وقد سد هذا الباب فى عصر متأخر ، ولم يرد ذكره فيما ذكره بوكوك أو فى تخطيط الاسكندرية الذى قام به علماء الحملة

---

(١) يشغل السور ومرفقاته من الداخل ضريح لأحد الشيوخ المتأخرين .

(٢) Creswell, some researches in the citadel of Cairo, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. 23.

حسن عبد الوهاب ، العمارة فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، عدد ٧ ، ٨ القاهرة ١٩٤٠ ص ٣٩٦

(٣) ذكر ابن حجر أنه محمد بن يوسف بن عبد الحميد بن على الزهرى الطوسى شرف الدين الاسكندرانى ، من أعيان المائة الثامنة (الدرر الكامنة ، ج ٥ ص ٦٥) وهذا يؤكد أن هذا الباب فتح فى السور فى العصر المملوكى وبالذات فى بداية القرن الثامن الهجرى ، وأعتقد أنه فتح فيه فى سنة ٧٠٣ هـ عند قيام الأمير بيبرس الجاشنكير بترميم السور بعد زلزال ٧٠٢ هـ .

الفرنسية (١) . ثم أعيد فتحه فى القرن التاسع عشر، فظهـــر فى الرسوم التخطيطية لمدينة الاسكندرية الصادرة من إدارة التنظيم العام فى ١٨٨٧ تحت اسم باب الصورى ، تحريفاً عن الاسم الأصـلى .

وكان باب الزهرى أحد أبواب البر الثلاثة ، وهى باب السدرة ، وباب الزهرى، وباب رشيد وهى الأبواب التى فر منها أهالى الاسكندرية إلى القرى الجنوبية عندما اقتحم القبارصة أسوار المدينة من جهة باب الديوان فى المحرم سنة ٧٦٧، وأجرفه أهل الاسكندرية هو و باب السدرة و باب رشيد حتى لا يتيحوا للقبارصة الفرصة فى التحصن بداخلها واحتلالها فترة طويلة ، وفى نفس الوقت ليسهلوا لجنـــد مصر وعسكر المماليك مهمة دخول المدينة (٢). ولما استرجع المماليك الاسكندرية ، أقاموا لهذا الباب مصراعا من الخشب المكسو بصفائح النحاس ذات المسامير البارزة .

وظل أمر هذا الباب مهملا ، لا يعرف عنه الباحثون شيئاً حتى العصر الحاضر ، ولكن آثار هذا الباب وآثار قلعته ، وجزءا من السور المتصل به ما زالت قائمة حتى اليوم داخل ملعب الاسكندرية ، وقد كستها النباتات المتسلقة بكسوة نباتية لم تترك من السور أو البرج النصف الدائرى المتصل به سوى مواضع قليلة يمكن أن تراها العين (أنظر ص ٣٤١ ، ٣٧١) ، وما زالت ترى من الخارج منافذ السهام والقبوات المتقاطعة ، ويحتاج الأمر إلى دراسة طويلة لهذا الأثر الهام الجدير بالعناية والحفظ ، باعتباره أحد الآثار الإسلامية النادرة التى تبقت فى الاسكندرية .

---

(١) Kahle, Die Katastrophe des mittelaterlichen Alexandria, in Mélanges Maspéro, III, 1935, p. 143.

(٢) النويرى السكندرى ، ص ٨١ ب ، ٩٣ أ

أما الباب الثانى فهو باب السدرة ، ويقع قريباً من الطرف الغربى لهذا السور القبلى . ومن المعروف أن باب السدرة هو نفس باب العمود أو باب السوارى نسبة لعمود السوارى، أوباب الشجرة نسبة لشجرة السدر التى كانت تقوم بجواره، أو باب البهار (١) بسبب مرور القوافل التجارية من هذا الباب حاملة البهار والتوابل ، أو الباب القبلى ، بسبب وقوعه فى جنوب الاسكندرية أو فى السور الجنوبى .

ومن هذا الباب كان خروج أهل الاسكندرية عقب اقتحام القبارصة المدينة ، فطاردهم القبارصة ، ثم نصبوا فوق الباب الأعلام القبرصية ذات الصلبان . فلما استرد المسلمون المدينة بادر صلاح الدين بن عرام بنزع صلبان القبارصة من أعلى الباب ، ونصب أعلام المسلمين مكانها ، كما أمر بتحصين هذا الباب وذلك باقامة برج هائل مرتفع لصقه (٢) .

وقد ضاعت معالم هذا الباب، ولم يبق منه سوى اسمه الذى أصبح يطلق على أحد شوارع الاسكندرية فى نفس الموضع الذى كان يقوم فيه الباب المذكور .

٣ — السور الغربى : كان ينفتح فيه بابان : القبلى منهما هو باب القرافة وهو نفس الباب الغربى الذى ينتهى إليه الطريق المعروف بالمحجة ، وورد ذكره فى الحملة الفرنسية تحت اسم باب المغاور . ويجعله كاله هو وباب

---

(١) أطلق ماشو هذا الاسم على باب السدرة لأول مرة فى مدونته : "La prise d'Alexandrie ou Chronique de Pierre Ier de Lusignan" ويسميه Porte de Poivre . وكان يؤدى إلى قنطرة تعلو الخليج (Combe, Les levés de Gravier, P. 5 8.)

(٢) النويرى ، ص ٢٠٨ ب

الخوخة بابا واحداً . وأعتقد أن باب الخوخة الوارد ذكره لأول مرة فى كتاب الإلمام والذى أحرقه القبارصة فى جملة ما أحرقوه من أبواب الاسكندرية باب آخر غير باب القرافة الذى تنسب إليه القاعة المعروفة بقاعة رماة القرافة. وكان هذا الباب يؤدى إلى مقبرة كانت تقع فى ظاهر الاسكندرية من جهة الغرب ، ويبدو أن هذا الباب كان مسدوداً بالبناء فى الوقت الذى حدثت فيه وقعة القبارصة أو قبل ذلك بنحو ربع قرن ، اكتفاء بالباب الأخضر الذى كان يقع قريباً منه من الجهة الشمالية ، لأن ابن بطوطة لم يشر إليه ، كما أن النويرى لم يذكره فى جملة أبواب الاسكندرية ، بل ان الباب الأخضر نفسه لم يكن يفتح فى زمن ابن بطوطة (أى فى سنة ٧٢٥ هـ) الا فى يوم الجمعة ، « فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور »(١) الواقعة خارج الباب الغربى المسدود ، وهى المقبرة المعروفة بالقرافة ، لأن هناك مقبرة أخرى قريبة من الباب الأخضر فى داخل نطاق الأسوار كانت تعرف بمقبرة وعلا أو وعلة أو مقبرة الباب الأخضر (٢) .

أما الباب الثانى الذى يسميه النويرى السكندرى بباب الخوخة ، فقد كان مجاوراً لدار السلطان القريبة أيضاً من الباب الأخضر ، ومنه دخل جنغرا مدينة الاسكندرية أثناء وقعة القبارصة بعد أن سلك طريق المطرق القديم الغربى المحاذى لدار السلطان من ظاهر سورها خائضاً بفرسه فى الماء (٣) . واسم باب الخوخة لا يعنى باب المقبرة كما أشار كاله فى مقاله ، وانما يعنى

(١) ابن بطوطة ، ص ٢٠

(٢) المقرى ، ج ٢ ص ٢٩٣

(٣) النويرى ، ص ٨١ أ ، ٨٤ أ

الفتحة الصغيرة أو المدخل الصغير ، وكان من التسميات الشائعة فى أسوار مدن المغرب والأندلس . ففى كثير من أسوار مدن المغرب الأقصى والأندلس كانت تنفتح أبواب بهذا الاسم مثل باب الخوخة بمدينة أشبونة (١) وباب الخوخة بمدينة الجزيرة الخضراء (٢) ، وباب الخوخة بمدينة مالقة(٣) ، وباب الخوخة بمدن فاس (٤) وتلمسان (٥) وتنس (٦) . وتسمية الأبواب بهذا الاسم مرتبطة ارتباطاً مباشراً بوظيفتها المميزة لها فى حالة الحرب (٧) ، إذكان باب الغدر لا يفتح إلا فى ظروف الاعتداء العسكرى أو الغزو . ويماثل هذا الاسم باب النقبة وباب السر المؤدى إلى السور الأمامى ، أو باب الغدر الذى تسمى به باب من أبواب سور الاسكندرية الشمالى .

ونخرج من ذلك كله بأن السور الغربى كان ينفتح فيه بابان لا باب واحد كما يعتقد جمهور الباحثين ، باب القرافة وباب الخوخة .

٤ — السور الشمالى : كان ينفتح فيه أربعة أبواب هى كما يلى : من الشرق إلى الغرب :

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥

(٣) نفسه ، ص ١٧٨

(٤) الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ٥٢

(٥) البكرى ، ص ٦٢

(٦) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٦٩

(٧) نفس المرجع ، ص ٦٩

باب الديوان : هى تسمية شعبية نسبة إلى الديوان أو مبنى الدائرة الجمركية أو ديوان الصادر الذى كان يقوم داخل السور فيما بين باب البحر وباب الديوان ، ويسميه بوكوك الباب العتيق (١) . وكان ينفتح فى السور الشمالى من جهة الشرق بجوار دار الصناعة الشرقية . وكان هذا الباب قد أغلق يوم وقعة القبارصة بأمر شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين بن أبى عذيبة ناظر الديوان ، من داخل الاسكندرية خوفاً من أن يستغل التجار فرصة مقاتلة المسلمين للقبارصة فيقومون بنقل بضائعهم المكدسة هناك إلى المدينة ، ولذلك اكتفى الرماة باغلاقه ، وأهملوا حراسة السور من تلك الجهة (٢) . فلما ألفاه القبارصة خالياً من الحراس ، أحرقوا مصراعه ، ودخلوا منه وارتقى بعضهم السلالم التى نصبوها على جداره .

باب البحر : يلى باب الديوان غرباً ، وكان يعرف أيضاً بباب أشتوم (٣) وهى لفظة مشتقة من اليونانية ، كما كان يعرف عند بعض الأوربيين بباب السلسلة (٤) بسبب اشرافه على الميناء الشرقية التى يحميها المنار الصغير فى نهاية الصخور الممتدة بطرف رأس لوكياس القديم ، وهو المنار الذى شرع السلطان الناصر محمد فى بنائه ، ولم يتم بناؤه فى عهده ، وإنما تم فى عهد

---

(١) Kahle. op cit. p. 142

(٢) النويرى ، ص ٨١ أ

(٣) الاستبصار ، ص ٩٧

(٤) سماه بلجزينو بروكاردو بباب زيزيل Zizzil وهى لفظة محرفة من السلسلة

(Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, p. 121)

صلاح الدين بن عرام الذى جعل على أساسه حصنا دائراً على شكل أسطوانى ، وعرف هذا الباب أيضاً عند علماء الحملة الفرنسية بباب الساحة Port de l'Esplanade نسبة إلى الفضاء الممتد فيما وراء هذا الباب فى شبه جزيرة المنار حيث كان ينصب مخيم سلاطين المماليك ، عندما ينزلون الاسكندرية لزيارتها ، وعرف لهذا السبب عند الأوربيين منذ أواخر القرن ١٥ وخاصة فى خريطة كوميليى ، بالباب الرئيسى «Porta Principalis»(١) ، كما عرف فى الخطط التوفيقية بباب الميدان . ومن الواضح أن تسميته بباب السلسلة ترجع إلى التقاليد الشعبية القائلة بوجود سلسلة تمتد ما بين منار الناصر محمد والمنار القديم ، ولذلك سمى برج الناصر محمد ببرج السلسلة. والواقع أن تسمية هذا الباب بهذا الاسم هى تسمية خاطئة أطلقت عليه فى عصر متأخر ، لأن السلسلة المذكورة أقيمت على الميناء الغربية ، وهى المخصصة لسفن المسلمين ، بعد وقعة القبارصة بأربع سنين ، فقد اهتم الأمير صلاح الدين بن عرام بتحصين هذه الميناء المعروفة ببحر السلسلة(٢) لحماية المسلمين ، فقام بالقاء كتل ضخمة من الحجارة سد بها قسما من الميناء ، ولم يترك منه الا فوهة ضيقة أقام بها أبنية محكمة ذات سلسلة ضخمة قوية تغلق بقفل ثقيل ، وجعل بموضع القفل كوى ومنافذ لرمى السهام على من يقصد السلسلة من الفرنج (٣) .

٣ — باب الغدر : ذكر النويرى أن هذا الباب كان يقا بل باب البحر

---

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب

Combe, les levés de Gravier d'Ortièrse à Alexandrie, p 57

(٢) النويرى ص ١٣٥ أ ، ٢٠٨ ب ، (مخطوطة الهند) .

(٣) النويرى ص ٢٧٨ ب (مخطوطة دار الكتب المصرية)

من داخل دهليزه ، (١) وكان يستخدم فقط فى أوقات الحصار .

٤ — الباب الأخضر : وكان ينفتح فى السور الشمالى عند انحناءته ناحية الجنوب الغربى ، بحيث يطل على الميناء الغربية أو بحر السلسلة شمالا (٢) وعلى كوم وعلة المعروف بكوم الناضورة جنوبا ، وكان يجاوره أو ينفتح بالقرب منه الباب الغربى المعروف بباب القرافة . وكان يحمى الباب الأخضر من الجهة الشرقية قلعة ضرغام (٣) التى تقوم بجوارها من داخل السور دار السلطان (٤) وينفتح بجوارها باب الخوخة الذى سبق أن تحدثنا عنه . وقد تعرض الباب الأخضر بأبوابه الثلاثة للحرق يوم دخول القبارصة مدينة الاسكندرية (٥) ، فسد بالبناء بعد الوقعة مباشرة ، ثم ركبت عليه أبوابه فى ولاية سيف الدين الأكز (٦) ، ومن هذا الباب دخل الأشرف شعبان مدينة الاسكندرية من الجهة الشمالية الغربية ، وزار ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وخرج من هناك إلى دار السلطان مارا برحبة الجامع الغربى المجاور لهذه الدار (٧) . وقد اندثر الباب الأخضر ولم يبق من ذكراه سوى شارع بهذا الاسم .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ب

(٢) ذكر النويرى السكندرى أن القبارصة لما أقبلوا بسفنهم يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧ « حطت قلاعها ببحر السلسلة من جهة الباب الأخضر » (النويرى ، ص ٧٨ أ) .

(٣) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٤ أ

(٦) نفس المصدر ، ص ٧٨ أ

(٧) ارجع إلى الملحق فى نهاية هذا الكتاب .

(ج) قـلاع الاسكندرية :

١ — برج شرقى : ذكر ابن حجر فى الدرر الكامنة أن تقى الدين أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية عندما أرسله المماليك إلى الاسكندرية فى صفر سنة ٧٠٩ هـ نزل فى برج شرقى ، وكان موضعه فسيحاً ، فأصبح الناس يدخلون إليه ويقرأون عليه ، ويبحثون معه دون أن يمنعهم أحد(١) . وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن ابن تيمية أقام بالاسكندرية فى برج واسع فسيح متسع الأكناف نظيف له شباكان ، أحدهما يطل ناحية البحر ، والآخر إلى جهة المدينة (٢) . ومن المحتمل أن يكون هذا البرج المذكور قريباً من باب شرقى ولعله أحد البرجين الكبيرين المتبقيان حالياً فى الشلالات ، فى المنطقة الواقعة شمالى موضع باب رشيد أو باب شرقى ، وهما برجان يمكن أن يشرف المرء منهما على البحر من جهة وعلى المدينة من جهة ثانية .

٢ — برج ضرغام : ذكرنا من قبل(٣) أن هذا البرج من بناء الأمير أبى الأشبال ضرغام ، أنشأه بالقرب من باب البحر فى سنة ٥٥٧هـ(٤)، وذكر النويرى أنه كان يتقدم سور الاسكندرية الشمالى ابتداء من ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر غرباً إلى قلعة ضرغام شرقا . خندق قديم (٥)، ومعنى ذلك أن برج ضرغام كان يقع فى السور الممتد ما بين باب البحر والباب الأخضر .

---

(١) ابن حجر ، ج ١ ص ١٥٩

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٤٩ — ٥٠ .

(٣) ارجع قبل ذلك فى ص ٢١٤

(٤) اتعاض الحنفا ، ص ١٥٢ ب

(٥) النويرى ، ص ١٣٥ أ

وكان البحر قديماً يضرب فى السور عند قلعة ضرغام ، ولذلك لم يستكمل المسلمون انشاء خندق يحيط ببقية السور ، ثم انحسر البحر عن السور ، فأصبح ما وراء السور ما بين باب البحر وبرج ضرغام لا خندق له .

وقد تعرض برج ضرغام لاعتداء القبارصة فى غزوتهم التى حدثت فى سنة ٧٦٧ هـ ، فأحرقوه فى جملة ما أحرقوه من منشآت . ولكن الأمير ابن عرام أصلحه بعد خروج القبارصة، وحفر خندقاً غربياً يعرف بالمطرق الشرقى كان يحاذى دار الإمارة .

٣ — برج باب السدرة : ذكر النويرى أن الأمير صلاح الدين بن عرام أمر بتحصين باب السدرة بعمارة هائلة مشيدة عالية (١) ، وشق خندقاً جديداً يحيط بالسور البرى .

٤ — برج باب الزهرى : كان يقوم لصق باب الزهرى أول أبواب السور القبلى من جهة الشرق برج ضخم نصف دائرى ما زال قائماً حتى يومنا هذا ، تتخلل جدرانه منافذ للسهام ، وتعلوه من الداخل قبوات متداخلة . ونصل إلى هذا البرج عن طريق باب يؤدى إلى أسطوان ممتد ، سقفه عبارة عن قبوة نصف اسطوانية . والبرج يحتاج لدراسة تفصيلية، وبحث علمى دقيق ، إذ لا تخفى أهميته بالنسبة لتطور العمارة الإسلامية فى الاسكندرية فى العصر المملوكى ، وباعتباره ثانى برج حربى بعد برج قايتباى ما زال قائماً حتى يومنا هذا (٢) .

٥ — قلعة السلسلة : هى المنار الذى ذكر ابن بطوطة أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون شرع فى بنائه بازاء منار الاسكندرية القديم

(١) النويرى ، ص ٢٠٨

(٢) سأقوم قريبا بنشر بحث كامل عن آثار هذا البرج وبدلة السور المتصلة به

المتخرب ، فعاقه الموت عن إتمامه (١)، ثم أتيح لهذا المنار فى زمن الأشرف شعبان أن يتخذ شكل برج أسطوانى الشكل قام ببنائه الأمير صلاح الدين بن عرام قبل وقعة القبارضة، على الأساس الذى كان قد أسسه السلطان الناصر محمد، وأقام له ابن عرام بابا، وأقام بأعلى جدرانه شرفات ، وكان يتكون من عدة طوابق ذات شرفات ، ولم يلبث هذا البرج أن نهبه القبارصة بابه فى جملة ما نهبوه من الاسكندرية (٢) . وكان هذا البرج يقوم فى نهاية خط الصخور التى تحدد نهاية الميناء الشرقية من جهة الشرق (٣) ، وكان يرى من بعيد كأنه مسجد ، ولذلك يحدثنا عنه الرحالة الأوربيون الذين زاروا الاسكندرية فى القرن الخامس عشر الميلادى وما يليه على أنه مسجد . وكانت لهذا البرج مئذنة ما تزال قائمة فى بداية القرن التاسع عشر .

أما تسمية هذا البرج ببرج السلسلة فهى تسمية حديثة شاعت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، ونراه مسجلا على الرسم التخطيطى لموانئ وأرصفة الاسكندرية الذى قام بعمله سولنييه دى فوهيلو فى سنة ١٨٣٤. وقد تعرض البرج المذكور فى العصر العثمانى لأضرار جسيمة ، فطرأت عليه تغييرات كثيرة فى هذا العصر وعصر محمد على ، ثم تهدم فى الثلث الأول من القرن العشرين (٤) .

٦ — برج كوم وعلة أو كوم النظورة :

كانت الاسكندرية الإسلامية تتميز بوجود كومين فى وسطها، يبدوان

(١) ابن بطوطة ، ص ٢١

(٢) النويرى ، ص ٨٣ ب

(٣) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص ١٤٧

(٤) Combe, les levés de Gravier d'Ortières, p. 61 - 63

من بعيد للداخل إليها من أبواب البر أو القادم عليها من الميناء الغربية، أحدهما كوم الدكة ، والآخر كوم وعلة . وأول من أشار إلى كوم وعلة الرحالة الأندلسى ابن رشيد السبتى الذى زار الاسكندرية فى سنة ٦٨٤هـ، وطاف بمقبرة كوم وعلة (١) التى دفن فيها عدد من شيوخ الاسكندرية ومنهم الحافظ السلفى (٢)،وأبو بكر الطرطوشى ،وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج،وأبو عبد الله محمد بن أحمد الرازى الملقب بابن الحطاب الشافعى (٣) .

ويشير ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار إلى منارة أو برج كان قائماً بأعلى كوم وعلة ، ويسميه كوم النظورة ، ويذكر أن هذا البرج لم يبن على أسس قوية . ويظهر هذا البرج فى الرسم التخطيطى الذى قام به كومينللى فى سنة ١٤٧٢ . وقد عرف هذا البرج فى أيام الحملة الفرنسية باسم حصن كافاريللى أحد قواد الفرنسيين ، ثم تعرض هذا البرج لأعمال تجديدية فى عصر محمد على لتقويته وتدعيمه، حتى يصلح لمراقبة البحر من هذه الناحية، وعرف منذ ذلك الحين بكوم الناضورة(٤) .

٧ — قاعة رماة القرافة : كانت هذه القاعة من الأبنية الحربية الضخمة وكانت تقع فيما يبدو بالقرب من الجامع الغربى ، بجوار باب القرافة المغلق ، وقد اتخذت هذه القاعة لاجتماع المتطوعة من رماة السهام والجرخ ،كما كان

(١) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, dans Bulletin de la S.R.A.A. , No. 34, Alexandrie, 1941, p. 96.

(٢) السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٤٥ — ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٧ — السيوطى ، ج ١ ص ١٦٥

(٣) Combe, Notes sur les forts, p. 96

(٤) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie, p. 101

يحفظ فيها سلاحهم وعددهم وأعلامهم وبنودهم وسائر معداتهم الحربية . وكان يتولى رئاستها زمن الأشرف شعبان أبو العباس أحمد المنشاوى . وكانت هناك بالاضافة إلى هذه القاعة قاعات أخرى خاصة أنشأها جماعة من كبار تجار الاسكندرية مثل بن رواحة الذى كانت له قاعة للسلاح جهز فيها نحو مائة أو مائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة (١) .

٨ — قلعة قايتباى فى الاسكندرية :

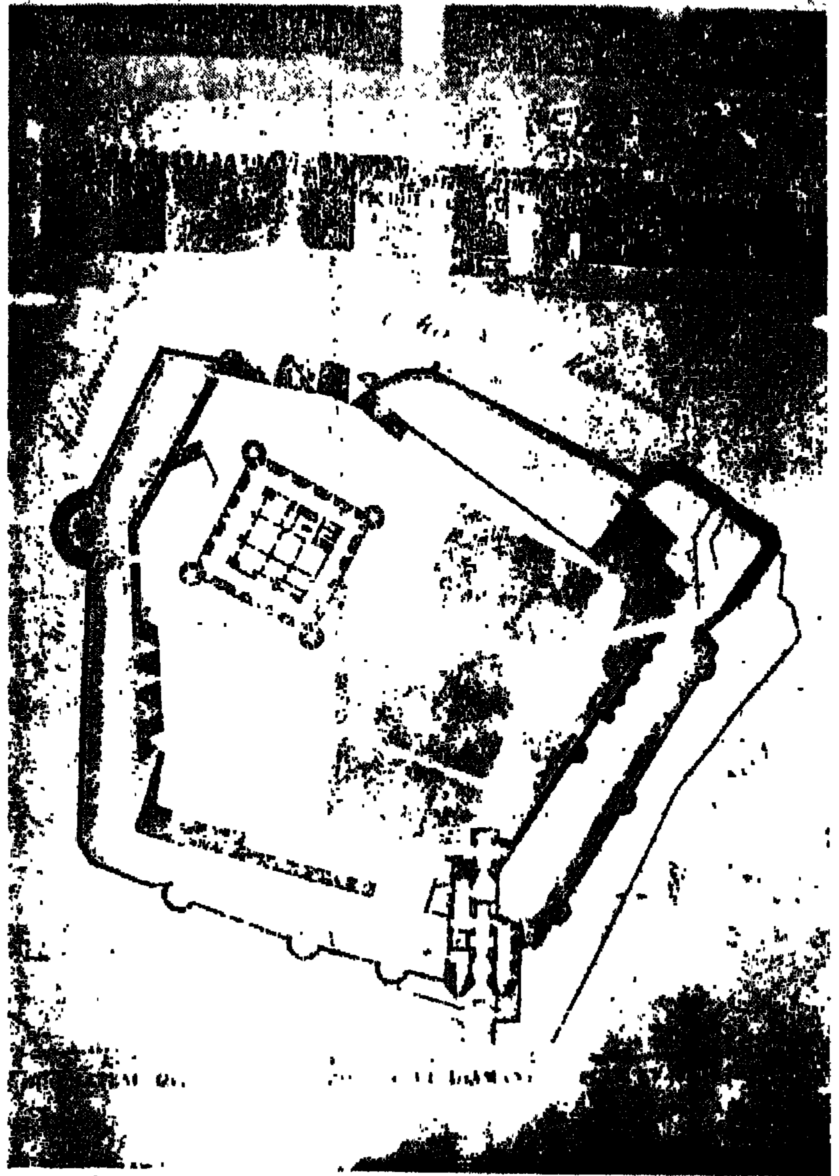
ذكر ابن إياس أن السلطان الملك الأشرف قايتباى أسس فى الاسكندرية برجاً أو قلعة على أساس منار الاسكندرية المتخرب ، وذلك فيما بين عامى ٨٨٢ ، ٨٨٤ هـ . وأن هذا البرج كان يشتمل على مسجد جامع وطاحون وفرن وحواصل مشحونة كلها بالسلاح والمكاحل (٢) . ويصف ابن إياس البرج فيقول : « بنى على أساس المنار القديم الذى كان بالاسكندرية ، وأنشأ بهذا البرج مقعداً يطل على البحر ، ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهى داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعا بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلا معمرة بالمدافع ليلا ونهاراً ، بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المحمدى ، وهو الذى ولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى ، وقيل ان السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المابة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف » (٣) .

والواقع أن برج قايتباى اكتسب أهمية كبرى من تشييده على أساس

(١) ابن بطوطة ، ص ٢٨

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٥١ وما يليها ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١



تخطيط لقلعة قايتباى

المنار القديم ، بحيث أصبح امتداداً لمنار الاسكندرية القديمة ، ولذلك عرف بناء القلعة ، في أيام الحملة الفرنسية باسم قلعة المنارة أو المنـــار الصغــير le Farillon (١) .

وقلعة قايتباى ما زالت ترتفع حتى اليوم شامخة في نهاية الطرف الشمالى من شبه جزيرة رأس التين ، بحيث تشرف في هذا الموقع الممتاز على مدخل الميناء الشرقية . وتتكون القلعة من عنصرين أساسيين :

١ — الأسوار الخارجية التى تحيط بالقلعة كلها .

٢ — البرج الرئيسى المقام على أساس المنار القديم .

أما الأسوار الخارجية فيمتد محيطها حول مساحة كبيرة تزيد على فدانين(٢) ، وتنقسم بدورها إلى قسمين منفصلين : الأسوار الداخلية ، والأسوار الخارجية ، وبينهما أرض فضاء . والأسوار الداخلية مجموعة من الغرف المتلاصقة كانت مخصصة للعسكر ، تمتد بحذاء الأسوار الخارجية ، وتنفتح أبوابها على فناء القلعة الفسيح . أما الأسوار الخارجية فتؤلف السياج الخارجى للقلعة ، وتتخذ مظهر أسوار المدن ، لأنها تحيط بالقلعة من الجهات الأربعة ، والقسم الشرقى من هذه الأسوار لا تتخلله أبراج ولا تعلوه شرفات بارزة عن السور على نقيض ما نراه في الـ[illegible] الغربى ، أما القسم الغربى فقد زود بثلاث أبراج اسطوانية

(١) Combe, les levés de Gravier d'Ortières, P. 63 Notes de topographie et d'histoire Alexandrin p. 131 — Van Berchem, Chateau du Sultan Qayt bey à Alexandrie, Corpus Inscriptionum Arabicarum, (L'Egypte, t. I), t. 79, Paris, 1894, p. 478

(٢) محمد توفيق بلبع ، آثار السلطان قايتباى فى الاسكندرية (قلعة قايتباى) : رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير ، فى مايو ١٩٥٥ ص ١٠٤

ترتفع إلى مستوى الأسوار ، وتنفتح فيه منافذ للسهام على طابقين . ويرتكز القسم الجنوبي من الأسوار على ثلاثة أبراج نصف أسطوانية تتجاوز فى بروزها عن السور نصف الدائرة . ويتوسط هذا القسم من الأسوار باب هو المدخل الرئيسى للقلعة . ويواجه هذا الباب فى السور الداخلى باب آخر يؤدى إلى أسطوان يتوسط صف الغرف المخصصة للجند . ويعلو هذا الباب لوحة رخامية مازالت تعلو عتبه مسجل عليها المرسوم الذى أصدره السلطان الغورى فى ربيع الأول سنة ٩٠٧هـ ، ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، رسم بأمر المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله ملكه أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن خالف ذلك من جماعة البرج من مماليك عبيد وزردكاشية ، وخرج منه بشىء ، شنق على باب هذا البرج ، وعليه لعنة الله ، بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة »(١) .

أما القسم الشمالى من هذه الأسوار الخارجية ، ويطل على البحر ، فقد فتحت فى جزئه الأدنى فتحات مربعة معقودة كانت تنصب فيها المدافع والمجانيق ، بينما فتحت فى جزئه الأعلى منافذ للسهام (٢) .

والبرج الرئيسى بناء مربع الشكل طول كل جانب منه ثلاثون مترا ، ويتجاوز ارتفاعه ١٧ مترا ، وأركان هذا البرج الأربعة مزودة بأبراج صغيرة نصف أسطوانية تنتهى من أعلى بشرفة بارزة عن سمت الجدار الأدنى مستديرة الشكل ، ترتفع إلى مستوى البرج الأصلى نفسه ، يبلغ قطر كل منها

(١) محمد توفيق بليع ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ — عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين ص ١٥١

(٢) محمد توفيق بليع ، المرجع السابق ص ١٠٤ — ١٠٨



واجهة البرج الرئيسى بقلعة قايتباى



القبوة التى تعلو أسطوان المدخل ببرج قايتباى

ستة أمتار ، وترتكز على مساند حجرية عددها فى كل برج ١٣ مسنداً . وينفتح فى جدران كل منها ثلاث نوافذ للسهام موزعة على المحيط الخارجى لكل برج ، فى نفس مستوى نوافذ واجهات البرج الرئيسى وعلى طابقين . ويشتمل البرج على ثلاثة طوابق ، ارتفاع الأدنى ½٧ مترا تقريباً ، ويقوم فى هذا الطابق مسجد القلعة الذى يشغل أكثر من نصف مساحته ، ويتألف من صحن مركزى مربع الشكل تحيط به أربع ايوانات صغيرة تزدان بواطن عقودها بزخارف هندسية ونباتية،وتكسو أرضية الصحن فسيفساء متعددة الألوان فى تكوينات هندسية رائعة . (أنظر ص ٤٦٥) وإيوان الصلاة يرتفع قليلا عن أرضية الصحن وينفتح على الصحن بعقد منفوخ ، وينتهى جدار القبلة فى الإيوان بمحراب تقوم عضادتاه على عمودين من الرخام . وكان يعلو البرج مئذنة من الطراز الشائع فى عصر قايتباى ، القسم الأدنى منها مثمن تتخلله النوافذ المعقودة ، ينتهى بشرفة قائمة على مقرنصات ، ويعلوه جسم مثمن آخر ينتهى أيضاً بشرفة ثانية ، ثم يتوج المئذنة طابق ثالث يبدو فى الرسوم والصور التى وصلت الينا فى القرنين ١٨ ، ١٩ مستديراً وينتهى من أعلى بجوسق مسحوب تتوجه الجلالة (١) . أما الإيوانات الثلاثة الأخرى فأقل اتساعا من إيوان القبلة ، وهذه الايونات جميعاً مسقوفة (٢) .

أما الطابق الثانى من البرج ، فيشتمل على ممرات ، وقاعات ، وحجرات داخلية ، بينما يضم الطابق الثالث القاعة الكبرى التى تتوسط الواجهة القبلية ويسميها ابن اياس بالمقعد . ويزودنا الدكتور محمد توفيق بلبع بوصف دقيق

(١) راجع صور المئذنة فى رسم جرافييه دورتيير سنة ١٦٨٦ ، ورسم كاساس سنة ١٧٨٥ ، والرسوم الواردة فى كتاب وصف مصر الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى أيام الحملة الفرنسية .

(٢) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين ، ص ١٥١

لهذا المقعد ، فيقول : « وهذه القاعة الكبيرة التي تتوسط الواجهة الجنوبية عبارة عن حجرة مستطيلة طولها خمسة أمتار ، وعرضها أربعة أمتار تقريباً ، لها سقف مبنى بالآجر على شكل قبوة متعارضة ، ر نكز على أربعة عقود ملتصقة بالجدران ، وقد فتح فى جدار تلك القاعة الجنوبى نافذتان كبيرتان مستطيلتان ، لكل منها عقد حجرى صغير ، وتبرز هاتان النافذتان عن مستوى الجدار بنصف متر تقريباً . ويرتكز ذلك الجزء البارز على أربعة أزواج من المساند الحجرية » (١) .

وعمارة برج قايتباى تشبه إلى حد كبير عمارة برج قايتباى برشيد التى أسست فى نفس الفترة ، جنوبى مدينة رشيد بنحو ستة كيلومترات (٢) ، ولا يختلف برج رشيد عن برج الاسكندرية الا فى أنه يتخذ شكلا مستطيلا وفى أنه بنى بالآجر ويشبهه فى أنه مزود فى الأركان الأربعة بأبراج نصف اسطوانية ، وفى أنه يضم مسجداً بمئذنة .

كذلك تشبه عمارة برج قايتباى بالاسكندرية عمارة برج رأس النهر بطرابلس الشام ، وهو البرج الذى أقامه الأشرف قايتباى فى سنة ٨٨٢ هـ أثناء رحلته إلى الشام ، وهو صورة مصغرة لبرج الاسكندرية ، إذ يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة نحو ١٦ متراً . وهو يشبه برج الاسكندرية فى

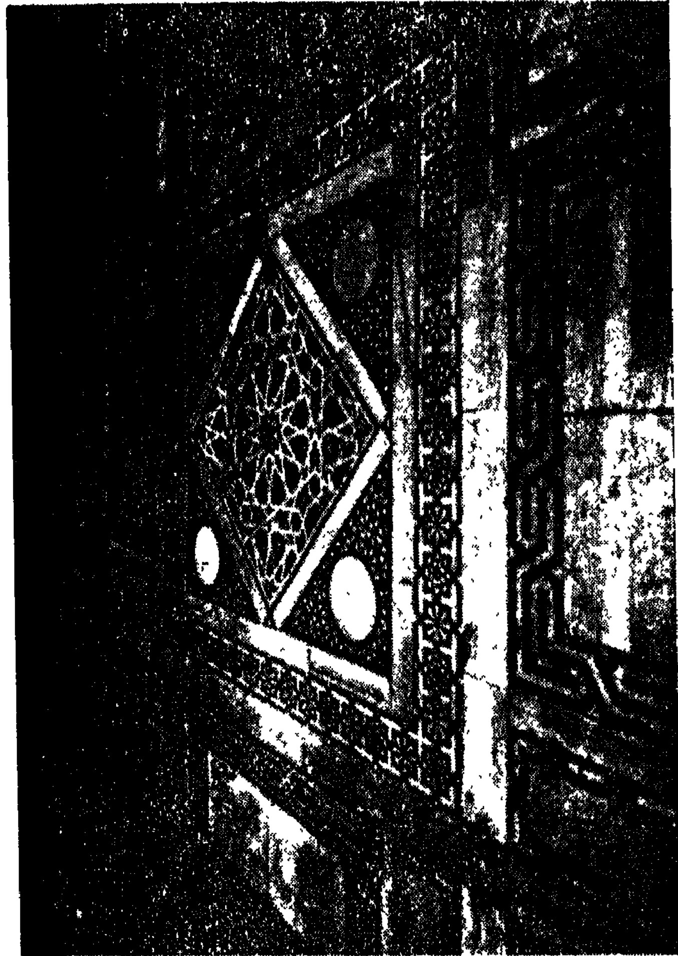
---

(١) محمد توفيق بلبع ، المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١

(٢) De Cosson, Notes of the forts of Alexandria and environs, dans B.S.R.A.A., No. 33, Alexandrie, 1939, p. 312.

وراجع تاريخ بناء برج رشيد فى مقال الأستاذ كومب :

Combe, le fort Qayt-Bay à Rosette, B.S.R.A.A., No. 33, p. 320.



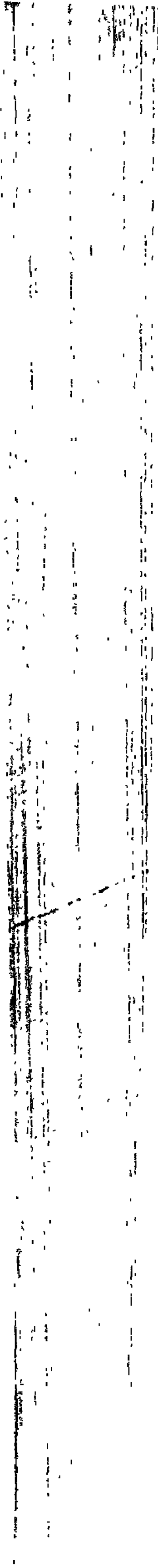
فسيفساء أرضية الصحن بمسجد برج قايتباى

تخطيطه المربع ، وفى ركائزه الأسطوانية بالأركان الأربعة ، وفى أنه يشتمل على مسجد صغير (١) .

(د) بعض التحصينات الأخرى :

اهتم السلطان الأشرف شعبان بتحصين ثغر الاسكندرية بعد وقعة القبارصة ، وقد ذكرنا من قبل المراحل المختلفة لهذه التحصينات ، وأهم ما أجرى فى تلك المراحل ، إقامة المطرق الشرقى وربطه بالمطرق القديم وبالمطرق الغربى ، وتحصين الميناء الغربية باقامة سلسلة تربط بين طرفيها بعد تضييق فوهة الميناء ، وذلك لتدعيم الدفاع البحرى فى هذه المنطقة وحماية مراكب المسلمين . وقد فصلنا الحديث عن هذه الأعمال عند دراستنا لنتائج وقعة القبارصة .

(١) راجع مقالى : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد الصادر ، فى أغسطس ١٩٦٣ ، ص ٤٢ — ١٠٣ ، وكتابى « طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى » ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٤٤٩



(٣)

العمارة الدينية

نقصد بالعمارة الدينية ، العمائر التى تغلب عليها الروح الدينيـــــة مثل المساجد والمدارس والخوانق والأربطة والزوايا والأضرحة ، وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت فى عصر المماليك ، وهو العصر الذى اتخذت فيه مدينة الاسكندرية ذروة تطورها العمرانى :

(ا) المســــاجد :

ظل جامعا الاسكندرية الشرقى والغربى قائمين فى العصر المملوكى ، وكانا من المعالم البارزة فى مدينة الاسكندرية فى هذا العصر ، وقد سبق أن تحدثنا عنهما من قبل ، ويهمنا أن نشير إلى أوصاف الرحالة الأوربيين لهذين الأثرين. أما الجامع الشرقى المعروف بجامع العطارين ، فقد أشار هؤلاء الرحالة إلى شكله المنتظم ، بفنائه الداخلى الذى تدور به الألونة ، ذات البوائك ، ويتوسط صحنه أشجار وميضأة . وذكر ترويلو Troilo فى سنة ١٦٦٩ أنه كان يقوم على كل من أركانه الأربعة مئذنة مرتفعة . وفى كتاب وصف مصر وصف للزخارف الرائعة المحفورة فى الرخام والجرانيت والمرسومة على الفسيفساء(١)

أما الجامع الغربى الذى يشير ابن عبد الحكم إلى أنه كان مقــاماً على

(١) Combe, Notes de topographie et d'histoire Alexandrine, p. 133

« الكوم»(١) الذى يقصد به بطبيعة الحال كوم وعلة أو كوم الناضورة، فيبدو لنا فى كتاب وصف مصر مسجداً ضخماً مربع الشكل يشتمل على أربعة ألونة ، يضم إيوان القبلة ٢٩ بلاطاً تقطعها خمسة أساكيب ، وتشبه عقود الجامع نظائرها فى جامع الأزهر ، وبين كل عمودين من عقود واجهات الصحن سرة زخرفية . ويتوسط صحن الجامع قبة للوضوء تحيط بها أحواض مقسمة تقسيما هندسياً ، تكسوها بعض الزهور ، وللجامع مئذنة من ثلاث طوابق؛ الأدنى مثمن ينتهى بشرفة بارزة قائمة على مقرنصات، وتنفتح فى كل كل ضلع من المثمن نافذة معقودة . أما الطابق الثانى فثمن أيضاً أصغر حجماً وأقل ارتفاعاً من الطابق الأدنى ، وينتهى من أعلى بشرفة ثانية من الحجارة قائمة على مقرنصات ، وتنتهى المئذنة بطابق أسطوانى الشكل تتوجه قبة مضلعة مسحوبة من أعلى . ويبدو من هذه الصورة أنها أقيمت فى العصر المملوكى . ويعلو جدران المسجد شرفات مسننة الشكل تشبه شرفات الجامع الأزهر ، ويدور بأعلى جدران المسجد نوافذ معقودة .

وفى أيام الحملة الفرنسية اتخذه بونابرت روضة محصنة للمدفعية(٢) ، وبيعت أرض المسجد ومبانيه فى سنة ١٨٨٤ لجماعة الرهبان الفرنسسكان بالأرض المقدسة (٣).

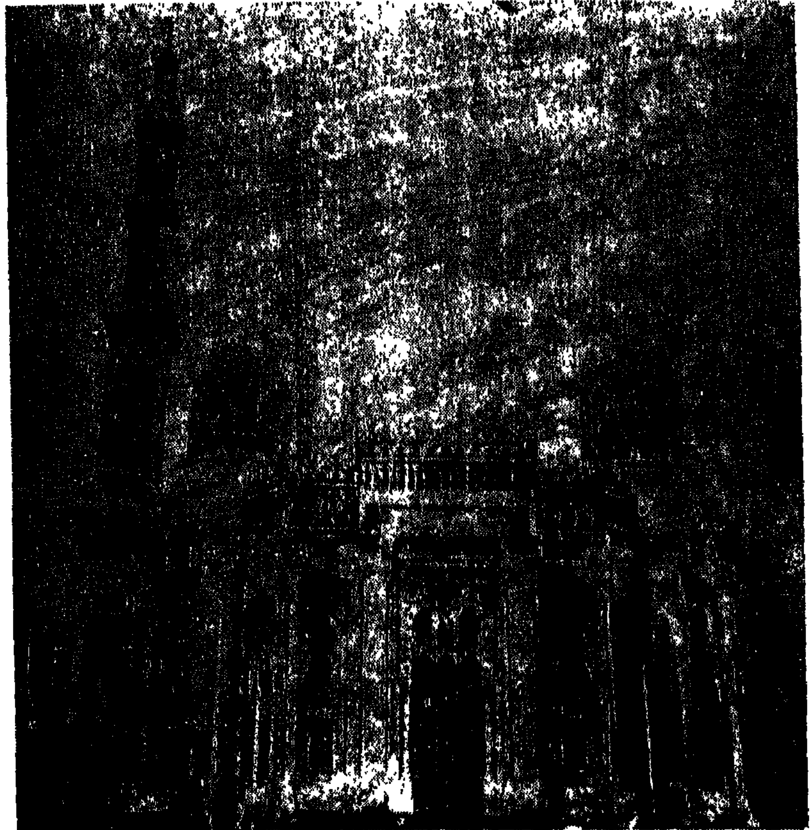
وإلى هذين المسجدين نضيف مسجداً ثالثاً هو مسجد وضريح الشيخ أبى العباس

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٧

(٢) Combe, le texte de Nuwairi sur l'Attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan, dans Bulletin of the Faculty of arts of Alexandria University, vol. III, 1946, P. 110, Note I.

(٣) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, p. 99, Note No. 4



مسجد الشيخ أبي العباس المرسي

المرسى (١) ، الذى أقيم خارج باب البحر فى سنة ٧٠٦ هـ من مال كبير تجار الاسكندرية فى ذلك التاريخ ، الشيخ زين الدين بن القطن . ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أنه كان فى الأصل مسجداً صغيراً ، وأن أحد الحجاج المغاربة جدد فيه جزأه الذى يلى القبلة والقبة فى سنة ١١٨٩هـ، ثم أخذ نظاره فى تجديده

---

(١) هو الشيخ الأكبر العارف الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى ، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ولد فى مدينة مرسية احدى كبار مدن شرق الأندلس فى سنة ٦١٦ هـ ، وفى هذه المدينة التى كانت تعرف بعصر الأندلس قضى أبو العباس أيام صباه ، ثم قدر له أن يرحل عنها مع أسرته نهائياً فى سنة ٦٤٠ هـ وقد بلغ من العمر ٢٤ سنة ، عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا ، وقبل أن يشهد سقوط مرسية فى أيدى القشتاليين بعد عام واحد من رحيله عنها . وفقد أبو العباس والديه اللذين ماتا غريقين فى البحر أمام شاطىء بونة من إفريقية ، ولما وصل إلى تونس قدر له أن يلتقى بأب روحى كان له أعظم الأثر فى حياته المستقبلة هو أستاذه القطب الصوفى الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، الذى اصطفاه دون غيره صفيا وتلميذاً ثم خليفة بعد ذلك ، وقد لازمه أبو العباس ورافقه فى رحلته إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ فى عصر الملك الكامل محمد ابن العادل أخى صلاح الدين بن أيوب . ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان هذا الثغر السكندرى دون غيره من مدن المغرب ومصر منزلا ، فطالما اجتذبت الإسكندرية رجال العلم من أهل الأندلس والمغرب منذ أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا الاسلامية بعد سقوط طليطلة الاسلامية فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٧٨ هـ . وفى الاسكندرية ورث الشيخ أبو العباس شيخه الشاذلى تصوفاً ، وتوفى بالاسكندرية فى سنة ٦٨٦ هـ ودفن بالجبانة القديمة ازاء رباط الشاطبى خارج باب البحر من ظاهر الاسكندرية (راجع : جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٩٢ — ٢١٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن القطب الأعظم أبى العباس المرسى ، محاضرة ألقيت بجمعية الآثار بالاسكندرية بمناسبة احتفال الاسكندرية بمرور ٧٠٠ عام على وفاته) .

وتوسعته شيئاً فشيئاً بأخذ قطعة من المقابر وبعض الدور التابعة لوقفه ، وجعلت ميضأته فيما هدم من تلك الدور ، حتى أصبح على ما عليه من السعة فى زمن على مبارك (١) . ثم جدد هذا المسجد للمرة الثانية فى سنة ١٢٨٠ هـ ، وأعيد بناؤه من جديد فى عهد الملك السابق فؤاد ، وأنشىء أمامه ميدان فسيح يسمى ميدان المساجد، ليشرف عليه مسجد أبى العباس، ومسجد ياقوت العرش تلميذ أبى العباس المرسى (ت ٧٣٢)، ومسجد البوصيرى صاحب البردة المتوفى سنة ٦٩٥، ورباط الواسطى، ومسجد ابن عطا الله السكندرى (ت ٧٠٧). ونضيف إلى هذه المساجد مسجداً بخطبة أقامه الأمير قجماس الأسحاقى خارج باب رشيد، وأنشأ بجواره تربه له وخانا ينزل فيه القادمون من هذا الباب (٢)، ومسجداً يعرف بجامع الصوارى وكان قائماً خارج باب السدرة، جدده قجماس الاسحاقى .

(ب) المدارس ودور الحديث والخوانق :

كثر عدد المدارس فى الاسكندرية فى العصر المملوكى ، ذكر النويرى السكندرى منها :

١ — المدرسة الخلاصية : أنشأها نور الدين على بن خلاص ، وكان لها باب ذو حلقتين ، من النحاس المخرم ، وكرسى للربعة وبيت لها من النحاس الأندلسى المنزل فيهما بالفضة ، ولم ير لمثلهما حسن صنعة ودقة تخريم. وقد تعرضت هذه المدرسة لاعتداء القبارصة فى سنة ٧٦٧هـ ، فخلعوا الحلقتين، واستولوا على كرسى الربعة وبيتها (٣) :

(١) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ص ٦٩

(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢١٣

(٣) النويرى ، ص ٨٣ ب

٢ — المدرسة النابلسية : ذكر النويرى أن لهذه المدرسة صومعة ، اختبأ بأعلاها الشيخ جمال الدين بن النابلسى مؤسسها ، فصعد إليـــه جماعة من القبارصة ، وقذفوه من أعلاها (١) .

٣ — مدرسة الفخر : ذكر النويرى أنهـــا كانت تقع بالقرب من باب رشيد (٢) .

٤ — مدرسة البلبيسى : ورد ذكرها فى سياق حديث النويرى عن دخول القبارصة الاسكندرية (٣) ، وكانت تقع فى شارع رماة قاعة القرافة بغربى الاسكندرية .

٥ — مدرسة ابن حباسة : ذكر النويرى أن القبارصة أحرقوا هذه المدرسة مع سقف الايوان (٤) .

ونضيف إلى هذه المدارس أسماء مدارس استقيناها من مصادر أخرى منها :

٦ — مدرسة التكريتى : انشأها التاجر الكارمى عبد اللطيف بن احمد ابن محمود بن أبى الفتح بن محمود بن أبى القاسم التكريتى الأصل بن الكويك التاجر الاسكندرانى ، وكان من رؤساء الكارم (٥) .

---

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ ب . لعلها تنسب إلى الفخر بن عساكر أحد شيوخ الاسكندرية (السيوطى ، ج ١ ص ١٩٣) .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٠ ا . ولعل منشئها هو عماد الدين محمد بن اسحق بن محمد المرتضى البلبيسى الحافظ الذى ولى قضاء الاسكندرية ، وتوفى بالطاعون فى شعبان سنة ٧٤٩ (السيوطى ، ج ١ ص ٢٠٠)

(٤) نفسه ص ٨٢ ب .

(٥) ابن حجر ، ج ٢ ص ٣ . وذكر ابن العماد الحنبلى أن أسرة التكريتى =

٧ — دار الحديث التكريتية : أنشأها عبد اللطيف بن رشيد بن محمد ابن رشيد الربعى التكريتى ، نزيل الاسكندرية ، وجعلها لدراسة الحديث الشريف والفقه على المذهب الشافعى . وقد تجدد بناء هذه المدرسة ، وحولت فى القرن الثانى عشر الهجرى إلى زاوية صغيرة ، وتقع فى شارع الباقطرية بقسم الجمرك ، وتحتفظ هذه الزاوية اليوم باللوحة التأسيسية للمدرسة ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم إن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً . أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطف بن رشيد التكريتى لتلاوة الكتاب العزيز ، وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبىعبد الله محمد بن ادريس الشافعى رحمة الله عليه فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه) (١) .

٨ — دار الحديث النبيهيـة : ذكر ابن حجر أنه تولى مشيخة هذه المدرسة الفقيه ابراهيم بن أحمد بن عبد المحسن بن أحمد العلوى الحسينى الغرافى الاسكندرانى بعد أخيه تاج الدين على بن أحمد ، محدث الاسكندرية المتوفى

= المعروفين بآل الكويك كانوا يشتغلون بالتجارة فى الاسكندرية(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٦ ص ٣١٤) ، ومن الملاحظ أن هذه المـدرسة هى لفس المدرسة التى أشار إليها غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى وذكر أن بانيها ابن الكويك من أعظم تجار الثغر (راجع زبدة كشف الممالك ، ص ٤١) . ولا يعقل أن يكون ابن الكويك قد بناها من متحصل فائدة يوم واحد ، والأرجح أنه جددها .

(١) Repértoire chronologique d'Epigraphie arabe, t. 12, p. 248

حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٩٢ — جمال الدين الشيال ، الاسكندرية تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ١٠٨

فى سنة ٧٠٤ هـ (١) .

٩ — مدرسة الدماميني : بناها تاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي نزيل الاسكندرية (ت ٧٣١) فى منطقة الرحابيين بالاسكندرية (٢) ، وصحتها المرجانيين ، أحد شوارع الاسكندرية فى حيها التجارى المعروف بالعطارين. وأسرة الدمامينى من الأسرات المعروفة فى الثغر السكندرى فى عصر المماليك بحب العلم ، ومن أشهر رجالها بدر الدين محمدبن أبى بكر بن عمر الاسكندرانى الأديب الفقيه (ت ٨٢٧) (٣) .

١٠ — المدرسة الخضراء أو مسجد الخضر : أنشأها الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى على أنقاض كنيسة للروم فى الاسكندرية وسماها المدرسة الخضراء ، وأنفق على بنائها مالا كثيراً من بيت المال (٤) . وتعرف اليوم بزاوية سيدى خضر ، وتقع بالقرب من جامع تربانة بالاسكندرية

١١ — خانقاه بيليك المحسنى : ذكر ابن حجر فى الدرر أن هذه الخانقاه من انشاء بيليك المحسنى الذى كان نائباً على الاسكندرية فى القرن السابع ، وكان من شيوخها موسى بن أحمد بن محمود الأقصرى (٥) .

١٢ — المدرسة الحافظية : ظلت المدرسة الحافظية التى أسسها أبى الطاهر

---

(١) السيوطى ، ج ١ ص ١٨١ — ابن حجر ، ج ١ ص ١٠ — حسن عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ٣٩٢

(٢) ابن حجر ، ج ٣ ص ٤٨

(٣) السيوطى ، ج ١ ص ٢٥٨

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٦٢ — ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٣

(٥) ابن حجر ، ج ٥ ص ١٤٣

ابن عوف فى سنة ٥٣٣ هـ(١) قائمة فى العصر المملوكى ، وكان يتولى التدريس فيها أحمد بن محمد بن قيس (٢) .

١٣ — مدرسة قايتباى : أنشأها قايتباى فى الاسكندرية (٣).

١٤ — المدرسة والمارستان الصلاحى : كانت مدرسة المغاربة التى أسسها صلاح الدين للمغاربة فى الاسكندرية ما تزال قائمة فى عصر المماليك ، وقد قام الأمير سيف الدين الأكز بتعميرها وتزويدها بما يحتاج إليه بيمارستانها من أدوية وآلات للجراحة ، وجعل على رحبتها سلسلة مانعة للدواب (٤) .

(ج) الربط :

١ — رباط الواسطى (٥) : كان هذا الرباط من الأبنية التى يجتمع فيها الأتقياء والصالحين للتعبد ، ويقع شرقى مسجد أبى العباس المرسى ، وقد تجددت عمارته فى عصر متأخر ، وهو اليوم لا يعدو أن يكون زاوية صغيرة تقوم فى جهتها القبلية قبة صغيرة ، يتوسطها قبران ، الشرقى منهما

(١) القلقشندى ، ج ١٠ ص ٤٥٨

(٢) ابن حجر ، ج ١ ص ٣١٦

(٣) ابن إياس ، ج ٣ ص ٣٢٩

(٤) النويرى ، ص ٢٠٤ ب

(٥) ولد الشيخ الواسطى إلى مصر فى مستهل القرن السابع الهجرى ، واستوطن الاسكندرية ، وبشر بها الطريقة الرفاعية. ونلاحظ أن هذا العصر يتميز بازدهار الحركة الصوفية ، كالطريقة الرفاعية ، والطريقة الأحمدية المنسوبة للسيد أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ ، والطريقة البرهامية المنسوبة للشيخ ابراهيم الدسوقى القرشى المتوفى فى ٦٧٦ (الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١٤٣ ، ١٥٨ ، القاهرة ١٣٤٣ هـ) ، والطريقة الشاذلية المنسوبة للشيخ أبى الحسن الشاذلى

هو قبر منشىء الرباط ، وبإزائه لوح من الرخام نطالع فيه النص التـالى :
« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي. كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة — الآية — توفى الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح نصر بن الشيخ أبي الفضل الواسطى القاضى العدل . ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى ونوّر ضريحه» (١).

٢ — رباط سوار : كان يقع بظاهر الاسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبي حالياً ، أقام به نزيل الاسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان العافرى الشاطبي ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، أحد أولياء الله ، وصاحب الكرامات المشهورة (٢) .

٣ — رباط الهكارى : أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر باخل بن عبد الله الهكارى، متولى ثغر الاسكندرية زمن المنصور قلاوون، وكان أديباً عالما ، توفى فى سنة ٦٨٣هـ، ودفن عند رباطه بخارج باب رشيد . وتولى

---

(١) حسن عبد الوهاب ، ص ٣٩٣ — جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ١٠٧

(٢) ولد بشاطبة فى سنة ٥٨٥ هـ ، وقرأ القرآن ببلدة القراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبى وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطى ، وسمع عليه الحديث ، كما سمع بدمشق على أبي القاسم بن صصرى ، وأبى المعالى خضر، وأبى الوفاء ابن عبد الحق وغيرهم . ثم نزل الاسكندرية وانقطع للعبادة فى رباط سوار من الاسكندرية بتربة أبي العباس الراسى ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٦٧٢ هـ ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته (نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٤١)

ابنه حسام الدين ولاية الاسكندرية فى سلطنة الأشرف خليل (١) .

٤ — رباط ابن سلام : أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بشبه جزيرة المنار قبل وقعة القبارصة بأكثر من سنة ، وأنفق عليه نحو ٨٠٠ دينار ، ليبيت فيه طائفة رماة قاعة القرافة المرابطين ويؤدون الصلاة. وقد تعرض هذا الرباط لاعتداء القبارصة، فكسروا شبابيكه النحاسية وصعدوا إلى أعلى الرباط حيث يقف الرماة وراء شرفات الرباط ، وكسروا قناديل الرباط وأحرقوا أسقف إيوانه الخشبية ، ثم ذبحوا جميع من كان موجوداً فى أعلاه من الرماة المسلمين ، ويذكر النويرى أن دماء هؤلاء الرماة المذبوحين وعددهم يزيد على الثلاثين كانت تجرى من ميازيب الرباط جرى الأمطار (٢). وقد تولى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام سد شبابيكه بعد وقعة القبارصة بالحجارة ، ثم عمره فى سنة ٧٧١هـ، وأقام لإيوانه سقفا من الحجارة بدلا من السقف الخشبى الذى أحرقه القبارصة .

٥ — رباط وتربة الأمير طغية : كان يقع فى شبه جزيرة المنار بالقرب من رباط ابن سلام، وكان يقوم من حوله عدد من الأضرحة . وكان يعلو بابها غرفة لها طيقان كان يجلس فيها الأمير جنغرا نائب صلاح الدين بن عرام متولى الاسكندرية ليستعرض إطلاق النفط المشتعل . وكان يقوم حول التربة المذكورة عدد من الربط ، أحرقها القبارصة وكسروا قناديلها وقناديل المزارات . وقد هدم نائب الاسكندرية هذه الربط بعد الوقفة بسنتين حتى لا يتخذها

(١) النويرى ، ص ١٧٢ ب

(٢) النويرى ، ص ١٨٠ ا

القبارصة فى المستقبل مأوى لهم (١) .

٦ — رباط قجماس الاسحاقى : وهو رباط عمره قجماس الاسحاقى نائب سلطنة الاسكندرية فى أيام الأشرف قايتباى، خارج باب البحر على شاطىء بحر السلسلة ، وأودع به أسلحة ونحوها(٢) .

(ا) القصـــور :

عمرت الاسكندرية بالقصور البديعة التى شيدها أعيان المدينة وأمراؤها فى العصر الاسلامى ، والتى نوه الكتاب والمؤرخون بها . وقد أشرنا إلى أن معظم هذه القصور كانت كانت مقامة فى ظاهر الاسكندرية من جهة الشرق مثل قصر بنى خليف الذى ذكرنا أنه كان متاماً فى منطقـــة الرمل (٣) . وقصر مكين الدولة ابن حديد الذى كان يتميز ببستانه المزود بحوض من الرخام لا نظير له (٤) . وذكر النويرى فى سياق حديثه عن وقعة القبارصة أن منطقة شبه جزيرة المنار كانت تقوم بها بعض القصور التى أمر الأشرف شعبان بهدمها هى والربط بعد وقعة القبارصة (٥) . وفى العصر المملوكى أقيم فى الاسكندرية عدد كبير من القصور أقامها جماعة التجار الأثرياء الذين كانوا يجنون ثروات ضخمة من تجارتهم بها أمثال آل الكويك التجار وآل الخياب، وبنو على بن راشد، مدبر رقع التجار على الدواوين، ويحدد

(١) نفسه ، ص ٧٩ ا
(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢١٣
(٣) راجع ما سبق ، ص ٢١٥
(٤) راجع ما سبق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧
(٥) النويرى ، ص ٧٩ ا

النويرى السكندرى دار أحد هؤلاء التجار وهو ابن الحياب فى الشارع المؤدى إلى باب البحر بالقرب من جفار القصارين(١). وكانت الدور والقصور الواقعة بالمحجة من الحصانة بحيث امتنعت على القبارصة عندما عاثوا فى المدينة فسلمت من أعمال النهب والسلب (٢) وفى أيام الأشرف قايتباى كان يقيم فى الإسكندرية عدد كبير من أبناء السلاطين والأمراء المبعدين أمثال الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال، والسلطان السابق الظاهر يلباى، والملك المنصور ابن الظاهر جقمق، والسلطان السابق الظاهر تمربغا، وكان هؤلاء السلاطين السابقين وأبناؤهم يقيمون فى قصورهم وينتقلون باذن من السلطان إلى حيث شاؤوا من أماكن الاسكندرية .

وإلى جانب هذه القصور السكنية أقيمت بالاسكندرية قصور للامارة ولنواب السلطنة وللسلاح. أما قصر الإمارة فقد أسسه عتبة بن أبى سفيان فى سنة ٤٤هـ، فى الحصن القديم الذى يقصد به فيما يظهر حصنا يطل على المينة الشرقية بالقرب من السور الشمالى الشرقى، ولعله هو نفس دار النيابة الذى كان يقيم فيه نائب الاسكندرية، ويركب منها عند طلوع الشمس حتى يخرج من باب البحر، ويمضى خارج باب البحر ساعة ثم يعود إلى دار النيابة. وكانت هذه الدار تشتمل على ايوان له نافذه بارزة عن سمت الجدار تطل على ميناء البلد، وكان النائب يجلس بجنبة من الايوان بحيث يستطيع أن يشرف على الميناء (٣).

---

(١) النويرى، لسخة دار الكتب، ص ١٤١ ب

(٢) النويرى، ص ٨١ ب

(٣) القلقشندى، ج ٤ ص ٦٤. وذكر النويرى أن المطرق الشرقى الذى أقامه =

وبالإضافة إلى هذا القصر كان بالاسكندرية قصر آخر يعرف بدار السلطان لا يسكنها إلا السلاطين ، وكان هذا القصر يقع قريباً من الجامع الغربي والباب الأخضر الذى ينفتح فى الطرف الغربي من سور الاسكندرية الشمالى، بحذاء المطارق الغربى الذى كان يبدأ من قلعة الباب الأخضر وينتهى بالقلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة، الذى ينفتح فى السور لصق دار السلطان. ويصف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى قصر السلطان بقوله : « وبها دور متسعة وهى عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها دار عظيمة ، وبها تخت الملك ، قيل إنه لم تعمر دار وسعها ، أنشأها فى الأصل المقوقس (١) ، ثم بعده جوهر الموتفكى ، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب ، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبها من الأعمدة الرخام الملونة ، والقياع المفروشة بالرخام الملون ، والأماكن المزخرفة ، والبساتين الحسنة ، ما يطول شرح وصفه . وهى مشرفة على البحر المحيط ، لا يسكنها إلا السلاطين خاصة ، ولم تزل إلى الآن مقفولة. وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف (برسباى) على السكنة فيها ، حين كنت نائب السلطنة الشريفة بالثغر ، فأمرلى بذلك ، وزوجنى بأخت زوجته ، خوند الخوندات جلبان ، تغمدهم الله برحمته ، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الثغر. ونصب بالقاعة العظمى من الحال

= ابن عرام بعد الواقعة كان محاذياً لدار الامارة (النويرى ، ١٣٥ ا).ومن المعروف أن المطرق الشرقى كان يمتد حتى باب الديوان المجاور لباب البحر من الجهة الشرقية. ويؤكد القلقشندى أن البحر يتصل بالاسكندرية بظاهرها « من الجانب الغربى مما يلى الشمال إلى المشرق حتى دار النيابة » (القلقشندى ، ج ٣ ص ٤٠٣)

(١) وذكر السيوطى أن حاطب بن أبى بلتعة ، رسول النبى صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ، دخل على المقوقس فى مجلس يشرف على البحر (السيوطى ، ج ١ ص ٤٧) .

مالا يوصف ، ومن جمله ذلك سبعة بشاخين مختلفة الألوان ، وأشياء عجيبة مما يطول شرحه »(١) .

أما قصر السلاح فكان يقع فى منطقة من الاسكندرية تعرف بالزربية، بالقرب من الباب الأخضر والجامع الغربى وضريح الطرطوشى (٢) ، وكان قصراً ضخماً يشتمل على سبع قاعات ، فى كل قاعة عدة غرف ، وفى كل غرفة ألوف مؤلفة من السهام والسيوف والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والعنايز والزرد والزرديات والأطواق والقرقلات والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديد والقسى الملولبة والجرخ والركاب والأعلام وحجارة العلوج والمدافع والنفط والبارود وحيل الحرب ومكائدها (٣) . وذكر ابن شاهين الظاهرى أنه كان يضم مسجداً (٤) . وعندما اقتحم القبارصة ثغر الاسكندرية ، ووصلت عساكرهم إلى هذا الموضع ، وأتوا إلى باب قصر السلاح ، وكان بناء ضخما ، ظنوا أنه أحد أبواب المدينة لمجاورته للسور من جهة البر ، فخافوا أن يكسروا بابه خشية أن يكون خلفه كميناً يطبق عليهم ، ووقف بعض خيالتهم على زلاقة بابه ، فشاهدهم حارس هذا القصر واسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن قراجا من خلال منافذ ضيقة ، وهم يترددون فى حرق بابه ، ولكن الله لطف بالمسلمين ، فعدلوا عن احراقه . ويعلق النويرى على ذلك بقوله : « ولطف الله بعباده المسلمين فى عدم معرفة

---

(١) غرس الدين خليل ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٢) راجع الملحق

(٣) النويرى ، ص ٨٤ ا

(٤) زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ .

الفرنج لقصر السلاح ... لو فهموه أحرقوا جميع مافيه من السلاح المدخر من عهد الملوك السالفة ، فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ما ليس لعددها حصر » (١) . وفى موضع آخر يعلل عدولهم عن مهاجمته لاعتقادهم بأنه جامعاً للمسلمين يصلون فيه ويتعبدون به ، ويقول : « فكفوا عن كسر بابه ودخولهم إياه ، ولو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا يحماوا منه العدد الكثيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجداً لصلاة المسلمين ، ومنعهم الله له أيضاً لأنهم لم يتعرضوا لخراب شىء من جوامع الاسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراب المسلمين لكنائسهم التى هى بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم فى أيام دولته بهدم كنائس النصارى ...» (٢).

وقد انتهز السلطان الأشرف شعبان فرصة زيارته لثغر الاسكندرية بعد مضى ثلاث سنوات على الوقعة وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد مافيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السابقين ، وأمر ببناء قاعة سلاح جديدة تسمى باسمه أسوة بالملوك السابقين ، ملأها أسلحة جديدة كثيرة العدد ، « فصارت تلك القاعة كأحد قاعات الملوك السالفة بالقصر المذكور ليذكر بذلك لما ذكروا » (٣). وقد وصلت إلينا من خزانة السلاح بثغر الاسكندرية أعداد كبيرة من السيوف موزعة حالياً فى خزائن السلاح بدار صناعة اسطنبول ، وخزائن السلاح الملكية بتورين ، وفى متحف المتروبوليتان

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب
(٢) نفس المصدر ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٤ ب
(٣) النويرى ، ص ١٨٢ أ

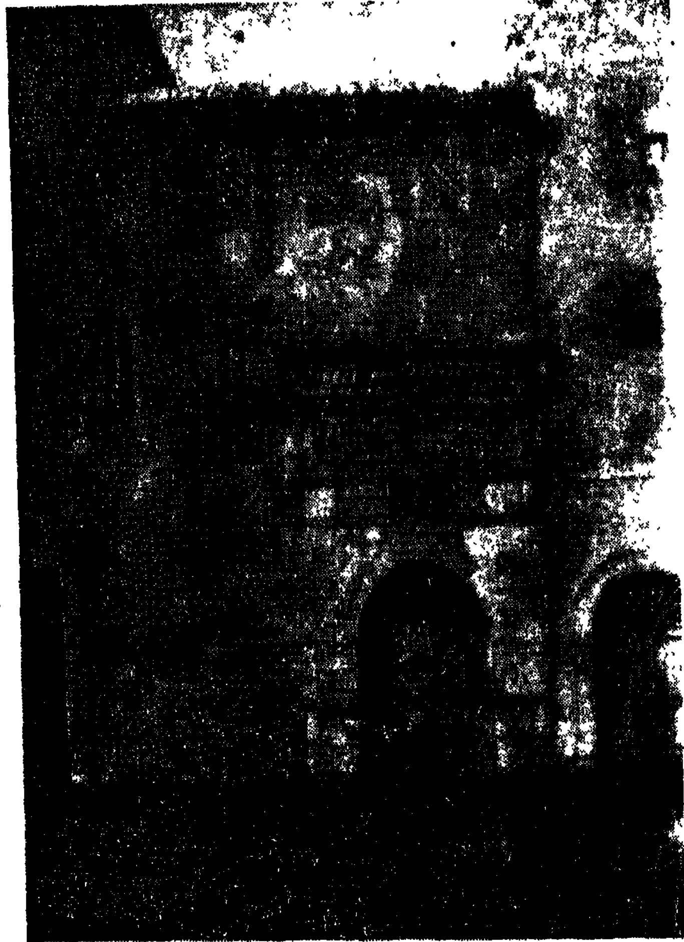
وفى مجموعات خاصة ،وكلها تحمل نقوشاً باسم خزانة قاعة الأكز التى أنشأها بالاسكندرية ، أو باسم خزائن السلاح بثغر السلاح . وأقدم هذه السيوف يحمل نقشا نصه : (حبس المقر السيفى الأكز الملك الأشرف فى سنة تسع وستين وسبعمائة بالقاعة المعروفة بانشائه بثغر الاسكندرية المحروس ومن أخذه ولم يرده كان عليه ذنبه) . وهناك سيف من ... برسباى يحمل النقش التالى : (حبس الملك الأشرف برسباى عز نصره بخزائن السلاح بثغر الاسكندرية المحروس من متحصلاته فى شهر المحرم سنة ستة وثلاثين وثمانمائة) (١) .

(ب) الدور الخاصة والعامة :

كانت الاسكندرية فى العصر الإسلامى تزخر بالدور والمساكن التى أخذها العرب وسميت لذلك بالأخائذ ، وذكروا أن عمرو بن العاص حين افتتحها أحصى دورها ، فوجد أنها أربعة آلاف دار ، محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الملون ، وفى كل دار منها حمام تختص به . ومضت موجة الفتح ، وأقام العرب فى هذه الأخائذ ، وما لبثت المدينة أن تعربت ، وأقيمت فيها بجانب الدور العامة مثل دار الإمارة ودار الطراز ، والأهراء وبيت المال ودار العدل ، دور أخرى خاصة ، مثل الدار التى أقامها الزبير ابن العوام عند الفتح ، والدار التى نزلها خمارويه عند مريوط من ضواحى الاسكندرية(٢) . وبمرور الزمن أخذت الدور القديمة تختفى تدريجياً من

(١) Combe et de Cosson, Eurorean swords with arabic inscriptions, from the armoury of Alexandria, B.S.R.A.A. vol. IX, pp. 225 - 246-Combe, Nouveaux sabres europeens à Inscriptions arabes de l'arsenal d'Alex. B.S.R.A.A. vol. X, p. 158.

(٢) محمد عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، ص ٨٦



واجهة إحدى الدور القديمة بالاسكندرية خلف ضريح ومسجد أبي العباس المرسى

طبوغرافية المدينة لتحل محلها دور أخرى مستحدثة ، راعى المسلمون فى بنائها أن تتفق مع التقاليد الاسلامية ، فكانت الدار يتوسطها صحن مكشوف مغروس بأطايب الأشجار ، وفى وسطها نافورة أو بئر للسقاية . وكان المظهر الخارجى للدار السكندرية ، شأنها فى ذلك شأن بقية الدور الاسلامية ، بسيطا كل البساطة فهى جدران عارية من الزخرفة ، لا تنفتح فيها الا نوافذ قليلة بالغرف العليا . أما فى الداخل فكانت جدران القاعات تكتظ بالزخارف الجصية والرخامية (١) . وقد نوه القلقشندى بدور الاسكندرية فذكر أن لأهل الاسكندرية القصور والحواسق الدقيقة البناء المحكمة الجدر والأبواب (٢)

ونستدل مما رواه النويرى عن وقعة القبارصة أن الدار كانت مرتفعة الجدران، وكان ينفتح فى أعلى بابها طاقات يمكن أن تتخذ للدفاع عنها وقت الاعتداءات(٣). وفى موضع آخر نستدل من أقوال النويرى على أن بناء ديار الاسكندرية كان « بمجالس مطوى الأبواب ببادهنج فى صدره ، يلقى الهواء فيه ، وأكمام بجانبى المجلس ، وقاعة وصفتين متقابلتين ، وبيت عرضى فى صدره شبابيك مشرفة »(٤). ونخرج من قول النويرى السالف الذكر بأن المجلس الرئيسى فى الدار وهو الإيوان كان يتقدمه بادهنج — وهو المنفذ الذى يتوسط الدار للتهوية ويقابله فى الوقت الحاضر المنور (٥)، وينفتح على يمينه وعلى يساره

(١) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران الاسلامى فى العصور الوسطى ، ص ٦٠

(٢) القلقشندى ، ج ٣ ص ٤٠٤

(٣) النويرى ، ص ١٩٧ ب

(٤) لفسه ، ص ١٦٥ ب

(٥) عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٩٥

كمان وهما أشبه بغرفتين صغيرتين ، وبجواره قاعة مركزية ، يقال لها درقاعة يحف بها إلى اليمين واليسار صفة ملحقة تقابل فى الجهة المقابلة صفة أخرى ، ثم مقعد له نوافذ تطل على الطريق .

وقد اهتم نائب السلطنة بالاسكندرية بعد وقعة القبارصة بتأمين الدور الخاصة فأمر بأن يقام فى مدخل كل درب باب قوى يغلق ، ورتب خلف كل باب حارس لحمايته (١) .

ولم يتبق للأسف شيء من آثار الدور المملوكية ، وكل ما تحتفظ به الاسكندرية اليوم بعض الدور التى أقيمت فى العصر التركى المتأخر بحى الجمرك وحى المنشية .

أما الدور العامة ، فهى مؤسسات اقتصادية أو إدارية لها أهميتها فى دراسة العمران السكندرى ، منها دار الضرب ، وبيت المال ، ودار العدل ، ودار الصناعة ، ودار الطراز .

دار الضرب :

يذكر ابن مماتى أنه كانت بثغر الاسكندرية دار للضرب ، وظيفتها سبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف ، كما كانت تقوم بسبك الفضة وعمل الدراهم (٢) . ويؤكد المقريزى أن الاسكندرية كانت إحدى مراكز ثلاث فى مصر لضرب النقود ، أحدها فى قوص والثانى

---

(١) النويرى ، ص ٢٠٧ ب

(٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٣٣١

فى القاهرة والثالث فى الاسكندرية (١). وكان لا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضى القضاة أو من يستخلفه ، ثم أصبح يليها فى زمن المقريزى مسالمة « فسقة اليهود » .

وكان أهل الاسكندرية لا يتعاملون الا بالمسودة التى يسمونها الورق، وهى دراهم الفضة التى يدخل فيها النحاس ، وظلوا يستخدمونها حتى زمان المقريزى (٢) . وفى أيام الظاهر برقوق أنشئت بالاسكندرية دار ضرب للفلوس ، واستوردت مصر كميات من النحاس الأحمر من بلاد إفرنجة، فكثر استخدام الفلوس منذ ذلك الحين وراجت ، وأصبحت النقد الغالب فى البلاد (٣) .

بيت المال ودار العدل :

ذكر النويرى أن دار العـــدل بالاسكندرية كانت مجـــاورة لدار الطراز(٤) ، وأنها أقيمت فى عهد سيف الدين أبى بكر بكتمر الوشاقى (٥)، وكان بيت المال مجاورا لدار السلطان ، ويذكر النويرى أن جنغرا قصدها عند اعتداء القبارصة على الاسكندرية وحمل ما كان فيها من الذهب والفضة، وأخرجها من باب البر (٦) .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٥

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٦٥

(٣) لنفس المصدر ، ص ٧١

(٤) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤١ ب

(٥) النويرى ، ص ١٢ أ

(٦) النويرى ، ص ٨٠ ب

دار الصناعة :

كانت بالاسكندرية فى العصر الأيوبى دار صناعة واحدة تقوم بانشاء السفن اللازمة للأسطول المصرى (١) . ولعلها نفس الدار التى كانت قائمة عند الفتح العربى ، وجددها عبد الله بن سعد بن أبى السرح (٢)، ويظهر أن هذه الدار كانت تقع قريباً من باب الديوان . ونستدل من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان للاسكندرية وما ذكره فى سياق حديثه عن غزوة القبارصة أن الاسكندرية فى عصر المماليك كانت تعمل بها داران للصناعة أو صناعتان ، إحداهما شرقية والأخرى غربية . أما الصناعة الشرقية فكانت تقع بين السورين قريباً من ديوان الخمس ومجارى الأقنية (٣) ، وكانت تشرف على الميناء الشرقية . وعندما دخل القبارصة الاسكندرية أحرقوا المجانيق التى كانت تحمى هذه الصناعة الشرقية ، ومجانيق الصناعة الغربية . ويذكر النويرى أن أهل الاسكندرية أخرقوا أغربة كانت قد صنعت بالصناعة الشرقية حتى لا يستولى عليها القبارصة، فلما رآها هؤلاء مخروقة ، أحرقوها بالنار (٤) .

أما دار الصناعة الغربية ، وهى الصناعة المستحدثة فى العصر المملوكى فكانت تقع عند نهاية المطرق الغربى الذى أنشأه ابن عرام فى سنة ٧٦٩ ﻫ داخل سور الاسكندرية بلصق السور ، وقد حصنها ابن عرام فى سنة ٧٧٧ﻫ

(١) ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، ص ٣٤ .

(٢) سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الولاة ، ص ٥٦

(٣) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٤) النويرى ، ص ٨٤ أ

بأن أنشأ على بابها مشطا ضخماً من الحديد تبلغ زنته عدة قناطير ، كى يخرج منه الرماة إلى شبه جزيرة المنار ، ويدخلون منه وقت الحرب ، عندما تكون أبواب الاسكندرية مغلقة ، وكان المشط يرخى أو يسدل بعد دخول العسكر إلى المدينة ، فاذا أرادوا الخروج رُفع المشط عن طريق سرياقات تدور حول لوالب الأتراس بأعلى السور (١) .

وقد زار الأشرف شعبان دار الصناعة الشرقية فى سنة ٧٧٠ هـ ، وشاهد ما فيها من الشوانى الغزوانية والمجانيق الشيطانية (٢). وكانت دارا صناعة الاسكندرية ، تقومان بانشاء عدد كبير من السفن والطرايد المعدة للغزو فى عصر المماليك الشراكسة ، وكانت تتوفر لصناعتها المواد الخام المحلية والمستوردة ، كالأخشاب المجلوبة من صعيد مصر والمستوردة من الخارج والكتان المعروف باسم الدقس الذى كانت تصنع منه حبال السفن (٣) .

وكان يتولى رئاسة دار صناعة الاسكندرية فى عصر الأشرف شعبان الرايس ابراهيم التازى (٤) ، الذى لم يكن رئيساً للصناعة فحسب بل قائداً بحرياً من الدرجة الأولى ، أبدى كثيراً من ضروب البطولة ، وغزا عدداً من بلاد القبارصة فى البحر . ومن رؤساء البحر بالاسكندرية زمن الظاهر بيبرس شهاب الدين محمد بن ابراهيم بن عبد السلام الهوارى (٥) . وذكر النويرى

(١) النويرى ، ص ١٣٠ أ

(٢) نفس المصدر ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٤ و

(٣) ابن الفقيه الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٦٦

(٤) النويرى ، ص ٢٤٢ ب

(٥) اليونينى ، ج ٢ ص ٤٥٤

اسم أحد رؤساء دار الصناعة بالاسكندرية ، وهو على ابن معلا كان قد أسره القبارصة فى الاسكندرية فى سنة ٧٦٩ هـ(١) .

دار الطراز :

يرجح الأستاذ الدكتور محمد عبد العـزيز مرزوق أن يكون أصل دور الطـراز الجنسيم Gynaceum التى وجدها العرب فى الاسكندرية عند الفتح (٢) ، لأن الاسكندرية كانت قد اشتهرت فى العصرين البطلمى والرومانى بنسيج الحرير ، وكانت الجنسيم ملحقة بقصر الوالى (٣) . وذاعت شهـرة الاسكندرية فى العصر الإسلامى فى صناعة المنسوجات ، إذ كانت أقمشتها تصل إلى الآفاق ومختلف أقطار العـالم فى الشرق والغرب ، وكان أكثر هذه المنسوجات شهرة الثياب الكتانية المعروفة بالشرب (٤)، والوشى ، والسقلاطون ، والمنمر (٥) ، والمعرج (ذى الدلات) ، والطرد وحش . وسنتحدث عن هذه المنسوجات عندما نقوم بدراسة صناعة النسيج .

وظلت دار الطراز بالاسكندرية تواصل إنتاجها بنشاط فى العصر الاسلامى

---

(١) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٠٠ ب

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق ، الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ص ٢٢ — Marzouk, Alexandria as a textile centre, B. I. A. C. tome XII

محمد عبد العزيز مرزوق ، تاريخ صناعة النسيج فى الاسكندرية فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ص ٧٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٦

(٥) يرى الأستاذ الدكتور مرزوق أنه سمى كذلك بسبب الرسوم التى تصور النمور ، ونعتقد أن سبب تسميته بالمنمر أنه كان يزدان بالزخارف المخططة .

وخاصة فى العصر الفاطمى ، أغنى العصور الإسلامية فى مصر فى إنتاج المنسوجات ، وكانت تقع خارج باب البحر ، فلما أحيط سور الاسكندرية الرئيسى بسور أمامى، سواء أكان ذلك فى عصر صلاح الدين أو فى عصر الظاهر بيبرس أو فى عصر الناصر محمد بن قلاوون، أصبحت دار الطراز تقع بين السورين. وتعرضت دار الطراز فى الغزوة القبرصية للحريق (١)، فقد أحرقها القبارصة بعد أن نهبوا ما كان فيها من الاستعمالات . ولكنها عمرت بعد الوقعة ، واستأنفت نشاطها، ثم تعطلت بعد ذلك فى سنة ٧٤٩ على أثر الوباء الكبير (٢).

(ج) الحمــامــات :

تعتبر الحمامات من أهم المنشآت المدنية الإسلامية ، وكانت كثرة الحمامات وتعددها هى الظاهرة البارزة فى مدينة الاسكندرية منذ العصر الرومانى ، فقد وجد العرب عندما افتتحوا الاسكندرية نحو ١٢ ديماسا ، أصغرها كان يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها كان يسع جماعة نفر (٣) .

(١) النويرى ، ص ٨٤ أ

(٢) المقريزى ، السلوك ، ص ٧٧٧

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١ — ويبدو من الواضح أن هذا القول مبالغ فيه لقد ثبت من الكشوف التى أسفرت عنها الأبحاث الأثرية للبعثة البولندية فى منطقة كوم الدكة أو كوم الديماس أن الحمام الرومانى المكتشف كان صغير المساحة ، فطوله لم يكن يتجاوز ١٥ متراً وعرضه ستة أمتار فهو إذن من الحجم الصغير ، ولا يشتمل على الملعب وحوض السباحة وحجرة خلع الملابس وحجرات الاداريين وغير ذلك من المرافق التى تتوفر فى الحمامات الرومانية ببومبى (فوزى الفخرانى ، حمامات الاسكندرية الرومانية ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عدد ١٦ سنة ١٩٦٣) .

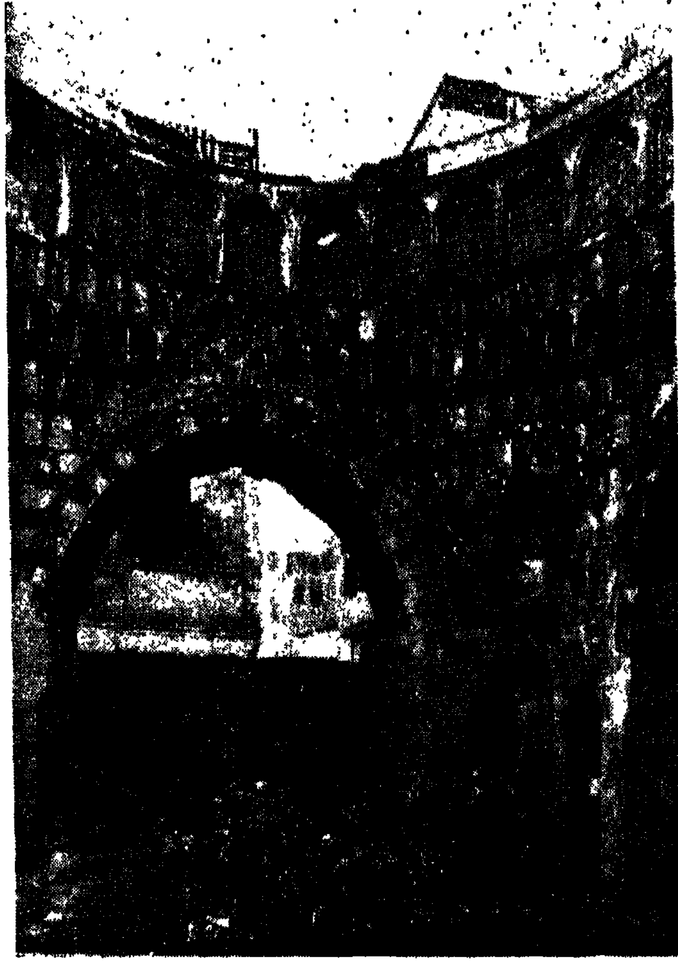
وكثر بناء الحمامات فى الاسكندرية الإسلامية على نحو ما حدث فى الفسطاط ، فقد ذكر المقريزى أن الفسطاط كانت تضم ١١٧٠ حماماً ، وفى هذا الرقم مبالغة ظاهرة ، ومع ذلك فهو يدلنا على كثرة الحمامات فى الفسطاط وحدها . والواقع أن مكانة الحمام فى العمارة الإسلامية تتبع مباشرة مكانة الدار ، فان عادة الاستحمام كانت من العادات المتأصلة فى الاسلام وذلك للطهارة والنظافة . ولا نشك فى أن الاسكندرية ، ثغر مصر الأول ، ومركزها الاقتصادى الهام ، كانت تضم بين أسوارها عدداً كبيراً من الحمامات ، غير أن هذه الكثرة لم تمنع من تعرض هذه الحمامات للضياع . ويذكر الأستاذ ادمون بوتى Edmond Pauty أنه عثر فى الاسكندرية على ستة حمامات قديمة من العصر الإسلامى ، (ولعلها من أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثمانى) هى : حمام حسن بك عبد الله بكوم الشقافة — حمام جامع الشيخ بشارع جامع الشيخ — حمام الذهب بشارع صلاح الدين — حمام الناضورى بشارع الضبطية — حمام المصرى بشارع ساحل الغلال — حمام الشيخ بشارع أبى الدرداء . وكان حمام الذهب أجمل هذه الحمامات جميعاً ، وكان يتردد عليه الرجال والنساء على السواء . ويصفه الأستاذ بوتى بأنه كان يشتمل على أربعة مغاطس ، ونظام قاعة خلع الثياب فيه وعناصره المعمارية تدل دلالة قاطعة على قدمه ، وكان يتوسط هذه القاعة قبة (لم يبق منها سوى مقرنصات فى الأركان) تقوم على أربعة أعمدة من الرخام رؤوسها كورنثية ، اتخذت من بعض الأبنية البيزنطية (١) .

---

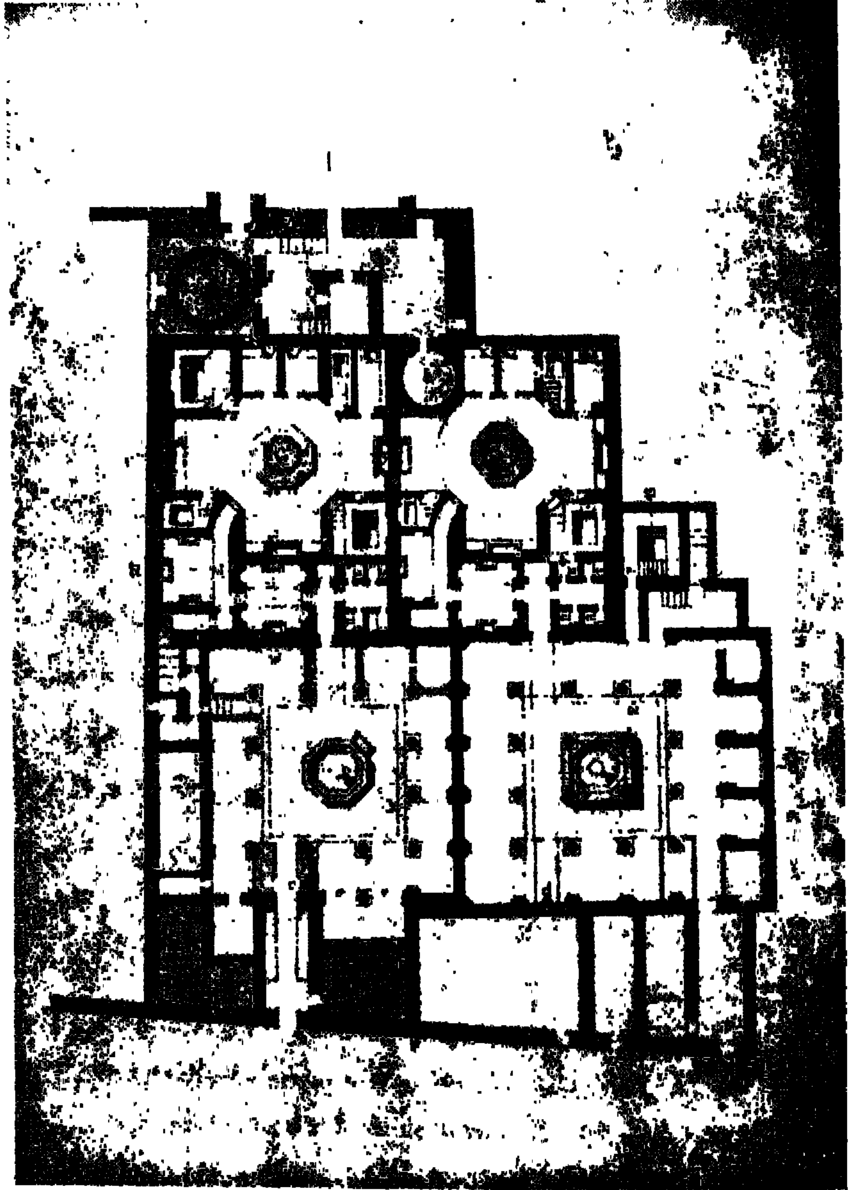
(١) E. Pauty, les Hammams du Caire, le Caire, 1933 p. 40



صورة تمثل قاعة من قاعات الاستحمام بحمام اسكندرى (من كتاب وصف مصر)



منظر يمثل إحدى قاعات حمام المؤيد بالقاهرة (أثر رقم ٤١٠)



تخطيط لأحد حمامات الاسكندرية

وفى كتاب وصف مصر لوحة تصور حماماً للنساء والرجال مكتمل العناصر كما نجد تصميما لهذا الحمام السكندرى نعيد نشره فى هذا الكتاب (أنظر ص ٤٩٩ ، ٥٠٣) . ونلاحظ أن قاعة خلع الثياب فى هذا الحمام تتبع النظام المعمارى الشائع فى عصر المماليك بقبته المرتفعة ، القائمة على ثلاثة طوابق من صفوف المقرنصات كما أن جوفاته المقوسة بالأركان وعقوده تذكرنا بالقاعة الكبرى فى حمام المؤيد بالقاهرة (١) (أنظر ص ٥٠١) .

(د) الفنادق والوكالات والقيساريات :

الفندق أو الخان بناء على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للحياة الاقتصادية بوجه عام ، وكان الفندق الاسلامى فى العصور الوسطى يقوم بوظيفتين فى آن واحد : خزن كميات كبيرة من السلع أو البضائع قبل توزيعها على تجار التجزئة ، وايواء التجار الغرباء (٢) . وكانت الاسكندرية تزخر بعدد كبير من هذه الفنادق بسبب نشاطها التجارى الكبير ، وكثير من هذه الفنادق كان خاصاً بتجار الفرنج ، فلقد حرصت الدول التجارية التى كان يتعامل معها المماليك على إقامة فنادق لها فى الاسكندرية منذ العصر الأيوبى ، وقد ذكر بنيامين التطيلى ١٨ دولة كانت تتعامل مع الاسكندرية ، لكل منها فندق فى الثغر (٣) ، ولكن هايد لا يوافق على هذا العدد الكبير من الدول ، ولا يصدق

---

(١) Ibid. p. 38, 39 . ويظهر فى التخطيط الذى أصدره التنظيم فى سنة ١٨٨٧ فى الحى المجاور لباب البحر عدة حمامات منها حمام أبو الشهبا وحمام الذهب وحمام عطية (راجع Combe, les levés de Gravier p. 61) .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى ، ص ٥٧

(٣) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 115

الإحصاء الذى أورده بنيامين (١) . وكان للبندقية جالية كبيرة فى الثغر يتولى شؤونها قنصل ، وكان فى الحى البندقى فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (٢) ، كذلك حرصت الدول التجارية التى تتعامل مع مصر المملوكية على أن يمثلها فى الاسكندرية قناصل يرعون شؤون تجارها ، كما أقامت لها فى الثغر فنادق خاصة بهؤلاء التجار كان معظمها يقع قريباً من باب البحر . ويذكر النويرى فى معرض حديثه عن غزوة القبارصة أن القبارصة عندما اقتحموا سور الاسكندرية ودخلوا المدينة أحرقوا فندق الكتيلانيين وفندق الجنويين وفندق المرسيلين (٣) . وبالاضافة إلى هذه الفنادق الأجنبية كانت هناك فنادق محلية نذكر منها فندق الموز الذى كان يقع بشارع المرجانيين ، وقد أحرقه القبارصة أيضاً (٤) ، وفندق الطيبية (٥) ، وفندق الجوكندار (٦) وفندق الدماميني بسوق الجوار (٧). وذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن نائب السلطنة قجماس الاسحاقى أقام خانا خارج باب رشيد لنزول المسافرين .

أما عن الوكالات ، فيزودنا النويرى باسم وكالة فى الاسكندرية هى وكالة الكتان التى كانت تقع قبالة جامع العطارين (٨) ، ولا نشك فى وجود

---

(١) Heyd, op. cit p. 389

(٢) شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٩

(٣) النويرى ، ص ٨٣ أ

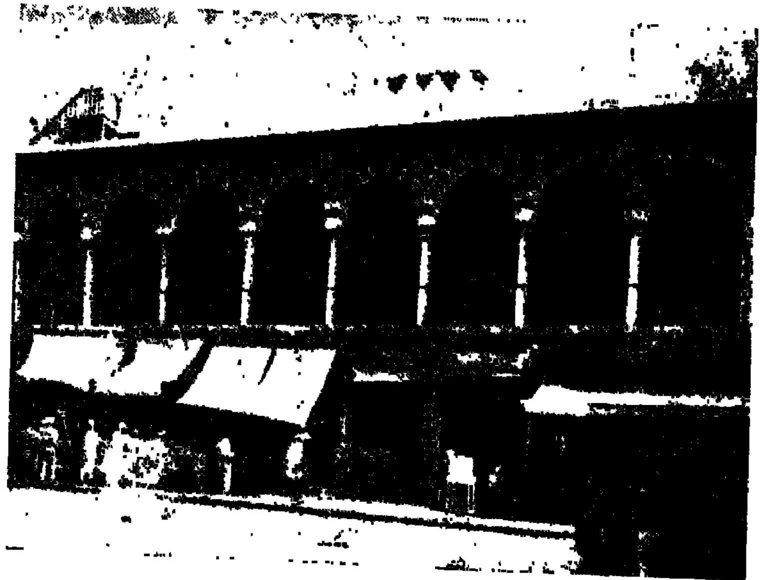
(٤) النويرى ، ص ١٦٣ أ

(٥) النويرى ، ص ٨٢ أ

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب

(٧) نفس المصدر

(٨) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب



صورة لواجهة الوكالة المعروفة بوكالة الشوربجى بالاسكندرية
(من العصر التركى)

وكالة بالاسكندرية للبهار والتوابل ، مثل خزانة التوابل التى أنشأها الخلفاء الفاطميون فى القاهرة (١) . فقد أشار النويرى السكندرى إلى أن شمس الدين ابن غراب كاتب الديوان وشمس الدين بن أبى عذيبة الناظر أمرا بغلق باب الديوان حتى لا يتمكن أحد من التجار من نهب البضائع المكدسة فى خزائن الديوان(٢)،ومن المعروف أن معظم البضائع الموجودة فى الديوان كانت من التوابل والبهار ، فنهبها القبارصة وشحنوا سفنهم بما قدروا عليه ، وتركوا على الساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها موضعاً على سفنهم ، فعادت إلى أصحابها بعد خروج القبارصة (٣) :

وفيما يختص بالقيساريات والأسواق ، فقد كانت معظمها تتركز حول منطقة العطارين التى تؤلف قلب المدينة التجارى ، والمنطقة المجاورة لباب البحر حيث يقع العدد الأعظم من الفنادق، ومن هذه القيساريات والأسواق الذى ورد ذكرها فى كتاب الإلمام ، سوق الجوار ، وسوق الخشابين ، وسوق القشاشين ، وقيسارية الأعاجم ، وقياسر البزازين ، وحوانيت شارع المرجانيين ، وحوانيت الصرفة (٤) ، ، سوق السلاح (٥) .

(٨) الصهاريج والخزانات :

كانت ترعة الخليج تخترق مدينة الاسكندرية ، وتتشعب إلى فروع وأقنية

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٢
(٢) النويرى ، ص ٨١ أ
(٣) نفس المصدر، ص ٨٤ ب
(٤) نفس المصدر، ص ٨٢ أ — ٨٣ أ
(٥) نفس المصدر، ص ٢٦٩ أ

تصب فى البحر ، ومن هذه الفروع كانت تتفرع شبكة من القنوات المائية تمتد فى جوف الأرض ، وتتصل إلى الدور والبساتين . وقد شاهد ابن جبير هذه الظاهرة ، فعبر عنها بقوله : « ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبا ر بعضها ببعض ، وتمد بعضها بعضا »(١)

(و) القنطرة والمقيـاس :

ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص فتح الاسكندرية من ناحية القنطرة التى يقال لها قنطرة سليمان التى كانت تقع عند نهاية الطريق المؤدية إلى باب السدرة (٢) . وواضح من اسم هذه القنطرة الوارد فى المصادر العربية أن العرب كانوا يربطون بين آثار معبد السيرابيوم وبين سليمان ، فكما سمى ابن رستة وغيره سوارى هذه المعبد بسوارى سليمان ،ونسبوا آثار المعبد إلى قصره(٣) ، فانهم نسبوا هذه القنطرة إليه أيضاً . ويؤكد الأستاذ كومب أن هذه القنطرة ظلت قائمـة حتى عصر محمد على ، وأنها هدمت عند قيامه بحفر قناة المحمودية . وقد ورد ذكر هذه القنطرة عندما أشار على بن ظافر الشاعر إلى البساتين والمتنزهات التى كانت تمتد على ضفتى خليج الاسكندرية ، ويسميها قنطرة السوارى (٤) .

وبالاضافة إلى هذه القنطرة القديمة ، يشير أبو المحاسن إلى أن الظاهر

(١) ابن جبير ، ص ٤٠ ، ٤١

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١١٨

(٣) ابن رستة ، ص ١١٧ — ابن الفقيه الهمذانى ، ص ٧٣

(٤) أحمد النجار ، الانتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية ، ص ١٨٨

بيبرس أقام أثناء زيارته الثانية للاسكندرية فى سنة ٦٦٤ هـ قنطرة عظيمة بالقرب منها بعقد واحد(١)، ويذكر الأستاذ كومب أنه قرأ فى وقفية قديمة اسم « قنطرة السباع » ، ويستنتج من ذلك أن بيبرس نقش على القنطـــرة المذكورة رنكه الذى يتمثل فى صورة أسد على النحو الذى يبدو فيه افريز السباع الذى نحت على أعلى الواجهة الشمالية لقنطرة ترعة أبى المنجا المنسوبة إلى الظاهر بيبرس (٢) ، ونفس الرنك منقوش فى قنطرة اللد بفلسطين (٣).

وفى الرسم الذى أورده كومنللى سنة ١٤٧٢ ، تظهر القنطـرة القديمة التى ذكرناها باسم قنطرة سليمان أو السوارى مكونة من ثلاثة عقود تقوم أرجاها فى القناة ، وذكر أمان Ammann فى سنة ١٦١٣ أنها قنطـرة محكمة من الحجر ، بينما ذكر فانسلب Vansleb أنها قنطرة صغيرة (٤) .

أما مقياس النيل فى الاسكندرية ، فلم تزودنا المصادر العربية بشىء عنه ، وكل ما نعرفه عن وجود مقياس بالاسكندرية ينسب إلى الرحالة الحاج لودولف دى سوشم ، الذى ذكر فى معرض حديثه عن النيل وفيضانه إلى وجود مقياس للنيل بالقرب من الاسكندرية ، نقشت عليه علامات . ويعتقد الأستاذ كومب أن المقياس المذكور هو نفس العمود الذى عثر عليه

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم ، ج ٨ ص ١٩٣

(٢) عبد الرحمن عبد التواب ، منشآتنا المائية عبر التاريخ ، المكتبة الثقافية عدد ٩٦، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥١

(٣) Creswell, Works of Sultan Bibars, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire, vol. XXVI, 1926, p. 143 - 150 Combe, Notes de Alexandrine. p. 70

(٤) Combe, op. cit. p. 71.

فى سنة ١٨٩٨ بكوم الجيزة والذى يحتفظ به متحف الفن الاسلامى (١).
وكان هذا العمود الرخامى يتوسط بئرا مربع الشكل مدفونا فى كوم قريب من الكريون ، والسبب فى ذلك يرجع إلى تغير مجرى الخليج .

(١) Combe, op. cit. p. 65.

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١) التجارة والزراعة وصيد الأسماك .

(٢) الصناعات :

١ — صناعة النسيج

٢ — صناعة الخزف

٣ — صناعة الزجاج

(٣) الحياة العلمية .

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١)

التجارة والصناعة وصيد الأسماك

١ – التجـــارة :

استعرضنا فى القسم التاريخى من هذا الكتاب مركز الاسكندرية التجارى فى العالم القديم، كما تحدثنا عن أهميتها التجارية فى العصور الاسلامية باعتبارها أهم ثغور مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى، وحلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى . فقد ظلت الاسكندرية بعد الفتح العربى طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، ولم تفقد مكانتها التجارية فى العصر العباسى على الرغم من سيطرة بغداد لتجارة العالم الاسلامى ، والسبب فى ذلك يرجع إلى موقع الاسكندرية الرائع على البحر المتوسط من جهة، واتصالها بالنيل عن طريق خليجها من جهة ثانية ، فإليها كانت تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض (١) ، لذلك انتعش الاقتصـــاد السكندرى انتعاشاً ملحوظاً ، بسبب الرسوم الباهظة التى كانت تفرضها حكومات مصر على السلع والمتاجز التى يأتى بها

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٠٤ =

التجار الفرنج ، وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور (١).

وكان لتشجيع دولة المماليك للتجار الأجانب على القدوم إلى الاسكندرية والإتجار فى الفنادق الأفرنجية التى أعدتها الجاليات الأوربية (من بنادقة وجنويين وبيزيين وفرنسيين وكتيلان وقبارصة وأرغونيين إلى آخر ذلك) أثر كبير فى الازدهار التجارى الذى أصابته الاسكندرية فى هذا العصر ، وقد حاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوربية عقب سقوط عكا فى أيدى المماليك لقطع كل علاقاتها التجارية مع مصر ، وفرض حصار اقتصادى على السواحل المصرية ، وتحريم التجارة بين مصر والغرب ، والسعى إلى إقامة علاقات أوربية مع المغول (٢)، لاحلال طريق الخليج الفارسى وطريق التجارة وسط آسيا المفتوحة أمام الغرب محل طريق البحر الأحمر المغلق فى وجه تجاره ، ولكن هذه المحاولات أخفقت وباءت بالفشل ، لأن الجمهوريات الايطالية والأوربية الأخرى التى كانت تتعامل مع مصر المملوكية فطنت بعد فشل الصليبيين المتكرر إلى قدرة مصر على الصمود ، زد على ذلك أنها أدركت أنها لا يمكن أن تستغنى عن الطريق المصرى عبر الاسكندرية ، وظلت هذه الدول تعمل

= ويمتدح ابن بطوطة مرسى الاسكندرية بقوله : « ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم (كيلون)، وقاليقوط (كلكتا) ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك (فى شبه جزيرة القرم) ، ومرسى الزيتون (تسنج تشيوفو) ببلاد الصين » (ابن بطوطة ص ١٠) .

(١) الطاهر أحمد المكى ، معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، ص ٩١

(٢) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ ، ص ٢٤

على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل ، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة ، وأبعدها أثراً . وتشهد تقارير قناصل أوربا فى الاسكندرية على كثرة التجار الأجانب فى الاسكندرية وتعدد فنادقهم فى هذا الثغر السكندرى ، وتتابعت السفارات الأوربية إلى سلاطين المماليك بقصد عقد معاهدات تجارية مع مصر ، فكانت هناك سفارات بعثها ملوك أرغون وقشتالة وفرنسا ، ودوجا البندقية وجنوة ، وامبراطور بيزنطة ، وملك البلغار ووادى الفولجا ، والبلاط العثمانى ، والبلاط الايرانى ، وكان التجار الكتيلان والجنوية والبنادقة يجلبون إلى مصر ، ماكانت تحتاج إليه من الرقيق ومن الخشب ومن المنسوجات ومن الفراء المعروف بالسمور أو الصمور ، والحديد والقصدير والزئبق والنحاس والزيت والصابون والقطران والجوز وجلود الحيوان والمرجان والشمع والزعفران ، وبعض أصناف معينة من المنسوجات ، بينما كانوا يستوردون من مصر توابل الهند كالبهار والفلفل والزنجبيل والقرنفل ، التى كان يستوردها الكارمية المسلمون (١) من الهند واليمن والصومال ، وخزف الصين ولآلىء الخليج الفارسى (٢). بالاضافة إلى مواد الدباغة والصباغة والسكر

---

(١) صبحى لبيب ، المرجع السابق .

(٢) فييت ، المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٨ — ٣٩ . ومن أمثلة المعاهدات والسفارات التجارية بين مصر ودول أوربا المعاهدة التى عقدها الأشرف خليل مع خايمى الثانى ملك أرغون فى ١٩ صفر سنة ٦٩٢ (٢٨ يناير سنة ١٢٩٢) والسفارة التى أرسلها ملك قشتالة إلى الناصر محمد بن قلاوون ورد عليها الناصر بسفارة أخرى فى ٥ رجب سنة ٦٩٩ هـ (٢٨ مارس سنة ١٣٠٠م) راجع :

Maximiliano Alarcon, Los Documentos Arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940, pp. 335 - 346-Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. II, p. 125

والدهون والصمغ والقطن والمنسوجات الكتانية والحريرية والشب المصرى والنطرون والعطور والعقاقير (١) .

وكانت الاسكندرية على هذا النحو أهم مركز فى مصر لتصدير التوابل ، وهى تجارة مصر الأولى مع أوربا المسيحية ، وعلى هذه التجارة اعتمد سلاطين المماليك فى تنمية موارد الدولة (٢) . وزاد من هذه الموارد احتكار سلاطين المماليك لتجارتها وتجارة بعض الحاصلات مثل السكر والأخشاب والمصنوعات المعدنية (٣) ، وبلغت هذه الاحتكارات ذروتها فى أيام الأشرف برسباى الذى أصدر فى سنة ١٤٢٨ م مرسوماً حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان ، وفرض السلطان رسوماً باهظة على الواردات والصادرات ، وجعل الاسكندرية الميناء الوحيد لتجارة التوابل (٤) ، فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعاً هائلا ، كالتوابل والحرير والسمك وكانت هذه الاحتكارات مثارا لسخط الأجانب واستصراخهم للسلطان ، فاجتمع البنادقة على الأشرف برسباى فى سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢ م) عن طريق ممثلهم فى الاسكندرية، ولما لم يجبهم السلطان إلى مطالبهم ، قطعوا علاقاتهم بمصر ، وأرسلوا أسطولهم إلى الاسكندرية لاعادة التجار البنادقة إلى بلادهم. ولما شاهد برسباى ذلك عاد إلى صوابه ، ومنحهم شروطاً أفضل فيما عدا احتكاره للفلفل (٥) . كذلك إحتج الكتيلان على موقف برسباى منهم ، ورفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان

(١) الطاهر أحمد مكى ، معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، ص ٨٨

(٢) فييت ، المرجع السابق ، ص ٣٩ — صبحى لبيب ، التجارة الكارمية ، ص ١٥

(٣) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩

(٤) صبحى لبيب ، ص ٤٣

(٥) Lane-Poole, history of Egypt in the middle ages, London, 1936 p. 340

ولكنه لم يجبهم إلى مطالبهم لأنه لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم (١) . أما أرغون وقشتالة فقد احتجتا بشدة ، وعمدتا إلى رفع أثمان السلع الأوربية التي ترد إلى مصر ، ولم تكتفيا بذلك بل هاجمت سفنهما السفن المصرية على سواحل الشام ، وأسرت بعضها ، واضطر برسباى أخيراً إلى عقد معاهدة صلح مع ممثليهما في ٧ رمضان سنة ٨٣٣ (٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ م) (٢) . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح من حق التجار الأرغونيين التجول داخل البلاد المصرية وحرية التنقل والاتجار بعد أداء الرسوم المقررة ، وحق الأسبقية في الشحن والتفريغ لبضائعهم وبعض امتيازات أخرى (٣) .

ثم أخذ مركز الاسكندرية كثغر تجاري يتضاءل تدريجياً بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم تلبث المدينة أن هجرها التجار من سائر الأقطار ، فاضمحلت وسادها الخراب حتى دخلها العثمانيون ، فانتكست نكسة طويلة لم تفق منها الا بعد حركة الاستقلال .

* * *

وقد لعب تجار الكارم دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية والعلمية في مصر ، فاليهم ترجع كثير من أعمال الانشاء والبناء من فنادق ومدارس ووكالات ، فقد ذكر غرس الدين خليل أن تاجراً بثغر الاسكندرية « يقال له الكويك عمر به مدرسة مشهورة الآن صرف عليه جملة من متحصل فائدة يوم

(١) ابراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٨٩

(٢) طالع الملحق في نهاية الكتاب .

(٣) الطاهر أحمد مكى ، معاهدة تجارية ، ص ٩١

واحد فقط »(١)، وقد أشرنا إلى هذه المدرسة عند دراستنا لمدارس الاسكندرية في العصر المملوكي ،ونسبنا هذه المدرسة إلى عبد اللطيف بن أحمد بن محمود ابن أبي الفتح بن الكويك التكريتي . وكانت أسرة الكويك من أشهر الأسرات التجارية بثغر الاسكندرية (٢) .

ومن أسرات الكارمية المشهورة في الاسكندرية أسرة الدماميني ، وقد قام أحد أفراد هذه الأسرة وهو عتيق بن محمد بن سليمان الدماميني بانشاء مدرسة بالمرجانيين بالاسكندرية (٣) ومن تجار الاسكندرية المعروفين في عصر المماليك البحرية عبد العزيز بن منصور الكريمي (ت ٧١٣هـ) التاجر الكارمي، وكان كثير النفقة في أعمال البر والاحسان ، وكان غنياً كثير المال حتى صار يضرب به المثل في كثرة المال وعجزه عن حصر ماله ، ولما مات أخذ كريم الدين الكبير من ماله صندوقاً مملوءاً بالجواهر الثمينة التي لا يقدر ثمنها (٤) . ومنهم ابن رواحة التاجر الذي كانت له قاعة معدة للسلاح (٥) .

وذكر النويري السكندري أسماء جماعة من تجار الاسكندرية منهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن صلاح ، والشيخ أبو عبد الله محمد المؤدب ، والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر السفار ، وعلى بن راشد الحجازي الذي كان مقيما بالاسكندرية ويدبر رقع التجار على الدواوين(٦). ومن أعظم تجار

---

(١) زبدة كشف الممالك ، ص ٤١

(٢) ابن بطوطة ، ص ٢٨

(٣) الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ٤٨

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٤

(٥) ابن بطوطة ، ص ٢٨

(٦) النويري ، ص ١١ أ

الاسكندرية زمن السلطان قايتباى ، الخواجا محيي الدين عبد القادر بن ابراهيم بن حسن المعروف بابن عليبة السكندرى ، تاجر السلطان (١) .

(ب) الـــزراعـــة :

كانت الاسكندرية إلى جانب شهرتها التجارية العظيمة مدينة تحيط بها المزارع والحقول ، وكانت أرضها تنبت بوجه خاص النخيل والكروم والزيتون والتين واللوز والجوز وسائرالفواكه والبقول والرياحين (٢) . وقد شاهد ابن جبير عند رحيله من الاسكندرية إلى دمنهور بسيطا من الأرض «كله محرث يعمه النيل بفيضه،والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة » (٣) وذكر ابن مماتى أنه كان يزرع على خليج الاسكندرية القصب والقلقاس والنيلة وأنواع بزراعة الصيفى والسمسم (٤)،وفى كورة مريوط الواقعة غربى

---

(١) ابن إياس ، ج ٣ ص ٢٢١

(٢) محمد عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، ص ٩٠. ويصف ابن رستة الطريق النهرى إلى الاسكندرية من الفسطاط فيقول « تخرج منها فى سفينة منحدراً فتسيح مقدار ثلاثين فرسخاً، عن يمينك ويسارك النخيل والبساتين والضياع حتى تنتهى إلى سور الاسكندرية»(الأعلاق النفيسة ، ص ١١٨) . وفى موضع آخر يقول : « ... فتدخل من باب الشرق من الاسكندرية فهنالك قبة خضراء عليها ستة عشر عموداً من رخام وهى وسط المدينة بناها الاسكندر ، يمنة من هذه القبة البحر ، ويسرة منها أشجار الجميز والكروم » (ص ١١٨) .

(٣) ابن جبير ، ص ٤٤

(٤) ابن مماتى ، ص ٢٢١

الاسكندرية ، كانت تزرع الفواكه ، وتحمل إلى الاسكندرية (١). وذكر القلقشندى أن الاسكندرية كان بها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حسنا مع رخص الثمن (٢).

وكان العنب يكثر برمل الاسكندرية كما كان يزرع فى منطقة تروجة ، وفى ذلك يقول النويرى : « وبتروجة عنب مستطيل يسمى العنيز له حلاوة وقشر رقيق ، ومنه عنب مستدير يسمى المدور ، وعنب أسود » . كما ذكر أيضاً أن « برمل الاسكندرية من ظاهرها عنب أحمر قانى الحمرة يقال له شنقارى ، وعنب أحمر يقال له القمشيش » (٣)

ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون خليج الاسكندرية ، استغنى أهل الاسكندرية عن الصهاريج ، وقام الناس بالزراعة على طول الطريق إلى الاسكندرية . ويذكر المقريزى أنه « استجد من الأراضى ما يربو على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخاً ، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم ، وفوق الأربعين ضيعة ، وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية »(٤). غير أن هذه الترعة لم تلبث أن سدت وطمرتها الرمال ، فتلف الجزء الأكبر من الحقول والبساتين المحيطة بالاسكندرية ، وتلاشت القرى . ولما أعاد برسباى حفر الخليج (ترعة الأشرفية) لم تعد البساتين كما كانت من قبل إذ أخذت الاسكندرية تسير سيراً حثيثاً نحو الاضمحلال .

---

(١) القلقشندى ، ج ٣ ص ٣٨٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٤

(٣) النويرى ، ص ٢٤٧ أ

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

٣ — صيـــد الأسمـــاك :

إلى جانب حرفتى التجارة والزراعة ، اختص جماعة من أهل الاسكندرية بصيد الأسماك ، بحكم وقوع الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط من جهة ، وقربها من بحيرتى إدكو ومريوط من جهة ثانية ، ووصول خليج الاسكندرية إلى المدينـــة متفرعاً من النيل من جهة ثالثة . وأول من أدخل نظام المصايد فى الديوان أحمد بن مدبر والى خراج مصر زمن ابن طولون، وجعل لصيد الأسماك ديوانا ، «فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك ، فاستمر ذلك ، وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب إلى عدة جهات مثل خليج الاسكندرية وبحيرة الاسكندرية ..»(١) وكان يصاد من بحيرة الاسكندرية أسماك البورى ، نسبة إلى قرية بورة من أعمال تنيس ولكن عملية الصيد فى بحيرة مريوط بطلت وتوقفت زمن المقريزى لجفاف البحيرة (٢) . أما الصيد من بحر الاسكندرية فكان يتم وفقا لما ذكره المقريزى بالقرب من تمثال ضخم من نحاس يقال له شراحيـــل كان قائماً على حشفة من حشاف البحر ، كانت تكثر حوله الحيتان وتصاد عنده . ثم انقطعت عن هذا الموضع بعد أن أخذ أسامة بن زيد التنوخى عامل الوليد بن عبد الملك على مصر هذا التمثال وضربه فلوسا (٣) .

وكان صيـــد السمك فى الخليج السكندرى مطلقاً ومباحاً للرعية ، وكان السمك يطفو فوق الماء بكثرة حتى كان يتصيده الأطفال بالخرق ،

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩١

(٢) نفسه ، ص ١٩٢

(٣) نفس المصدر

ولكن والى الاسكندرية فى العصر الفاطمى (زمن الطرطوشى) منع الناس من صيده (١) .

كذلك كان السمك يصاد من بحيرة إدكو المعروفة ببحيرة بوقير ، وكان لها خليج صغير مشتق من خليج الاسكندرية ، « وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير »(٢). غير أن هذه البحيرة لم تلبث أن جفت وأصبحت سبخة طويلة عريضة بعد أن تغلب الرمل على أشتونها الموصل إليها الماء من البحر (المعدية) ، وانقطع ما كان يصاد منها من السمك البورى ، وعاد على الاسكندرية بسبب ذلك ضرر كبير ، لأن الغالب على أهلها كان أكل السمك(٣) وفى خليج بوقير كان صيادو الأسماك من أهل هذه الضاحية يقومون بصيدها أثناء الليل بحراريقهم فى قواربهم (٤) .

وترتب على هذه الحرفة صناعة تجفيف السمك وتمليحه ، فكان السمك إذا تم صيده « يوضع على أنخاخ ويملح ويوضع فى الأمطار ، فاذا استوى بيع وقيل له المالوحة والصبر ، ولا يكون ذلك إلا فيما كان من السمك فى قدر الاصبع فما دونه ، ويسمون هذا الصنف إذا كان طريا بسارية ، فتؤكل مشوية ومقلية »(٥).

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠٠

(٢) القلقشندى ، ج ٣ ص ٣٠٣

(٣) نفس المصدر

(٤) النويرى السكندرى ، ص ٧٣ ب

(٥) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩١

(٢)

الصناعات

اشتهرت الاسكندرية في العصر الاسلامي بكثرة صناعاتها ، وأهم هذه الصناعات صناعة النسيج وصناعة الخزف وصناعة الزجاج ، وصناعات أخرى متعلقة بالكروم .

١ — صناعة النسيج :

يكاد يجمع المؤرخون العرب الذين كتبوا عن الاسكندرية على تفوق صناعة النسيج فى الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، فالمقريزى يذكر أن « الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض ، وفى ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة ، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة »(١) ، وذكر القلقشندى أن بالاسكندرية « ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتميز من قماشها جميع أقطار الأرض »(٢) . كذلك أشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى إلى ازدهار صناعة النسيج فى الاسكندرية فى عصره ، فقال : « ويعمل بهذا الثغر من الأقمشة العجيبة التى لا توجد فى غيره »(٣) . وذكر النويرى أنه

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٦

(٢) القلقشندى ، ج ٣ ص ٤٠٤

(٣) ابن شاهين الظاهرى ، ص ٤١

ينسج من الحرير بالاسكندرية أقمشة مختلفة تحمل إلى العراق وإلى غيره من البـــلاد (١) .

ويرجع سبب تفوق الاسكندرية فى هذه الصناعة على غيرها من مدن مصر والشام إلى أنها ظلت تحتفظ بعد الفتح الإسلامى بمركزها القديم، فلم تتأثر بهذا التغيير السياسى والدينى ، لأن العرب الفاتحين لم يقوموا بأى تغيير جوهرى فى هذه الصناعة ، وقنعوا بادخال الكتابة العربية فى منتجاتهم (٢) ، وقامت دور الطراز فى الاسكندرية وغيرها بانتاج كسوة الكعبة والخيام والأعلام والخلع التى كان يخلعها الولاة على من شاؤوا من الناس لتشريفهم . وقد اختصت الاسكندرية فى العصر المملوكى بانتاج أنواع جديدة من المنسوجات نخص بالذكر منها الوشى والسقلاطون والشرب والمنمر والمفرج السكندرى ، والشاش الحرير السكندرى المنسوج بالذهب والطرد وحش ، والبشاخين (٣). أما الوشى السكندرى الذى كان على حد قول السيوطى يقوم مقام وشى الكوفة (٤) ، والذى كان يطلق على ثيابه اسم الحلل (٥) ، فنسيج من الحرير محلى بخيوط الذهب ، ولذلك عرف هذا النوع من النسيج باسم الحلل الموشية . أما السقلاطون فنوع من النسيج المصنوع من الحرير مطرز بالذهب ، وكان

(١) النويرى السكندرى ، ص ١٢١ أ

(٢) M.A. Marzouk, Alexandria as a textile centre, p. 126

(٣) القلقشندى ، ج ٤ ص ٥٢ ، ٥٣

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٣

(٥) عبد العزيز الأهوانى ، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ، ١٩٥٧ ص ٣٠

معروفا فى بلاد اليونان ، ثم انتقلت صناعته إلى البلاد العربية ، وحذقه الصناع العرب . ويذكر ماركيز دى لوثويا أن السقلاطون لفظة مشتقة من Ciclaton اليونانية الأصل ، وهو اسم كان يطلق فى أوربا على نسيج من الحرير مطرز بالذهب ، اختصت بغداد بصناعته ، ويرجح أن هذا الاسم طبق على هذا النوع من النسيج بسبب رسومات الدوائر التى تحملها المنسوجات البيزنطية والساسانية والعربية (١) . أما الشرب فنوع من النسيج الكتانى الرقيق كانت تعمل منه القمصان الداخلية، وتلف به العمائم ، تصنع الخمر لغطاء رؤوس النساء ، كما كان يستعمل برسم الطرح أو القوارات التى توضع على الصوانى وتشد على الموائد (٢) . وأما المنمر فنسيج حريرى يدخل فيه خيوط الذهب يزدان برسوم مخططة تشبه جلد النمر ،ويعرف أيضاً بالشاش(٣) ، فى حين أن المفرج السكندرى نوع من النسيج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة بالكلاليب (٤) . والشاش السكندرى هو نسيج حريرى مموج بالذهب ، وهو نفس النوع المعروف بالمنمر . والطرد وحش

(١) Marqués de Lozoya, Historia del arte hispanico, t. I, Barcelona, 1931, p. 268

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المرية الاسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٥٨ . وكان هذا النوع من النسيج يعرف فى اللغة الفرنسية القديمة باسم Siglaton . (راجع : Blachère, Extraits de principaux géographes arabes du Moyen - âge, Paris - Beyrouth, 1932, pp. 197 - 198)

(٢) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٦٠

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ١٥٩ — القلقشندى ، ج ٤ ص ٥٣

(٤) نفس المصدر .

نسيج كان يعمل بدار الطراز بالإسكندرية وهو « مجوخ جاخات كتابة بألقاب السلطان وجاخات طردوحش ، وجاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب ، يفصل بين هذه الجاخات نقوش ، وطراز هذا يكون من القصب ، وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازاً مزركشا بالذهب »(١). والظاهر أن هذا النسيج كان يزدان بدوائر أو رسوم بداخلها صور تمثل مناظر لصيد الوحوش. أما البشاخين ، فنوع من المخمل (٢) (القطيفة) .

وكان يصنع بدار الطراز بالاسكندرية أيضاً نوع من الشقق الحريرية والكلوتات برسم النواتية والملاحين (٣)، والبندقى الرقيع والجوخ الأحمر (٤) والاسكرلاط (٥) والأطلس (٦) وهو أرق أنواع المنسوجات » وكانت الشقق تعمل برسم كسوة الكعبة .

غير أن صناعة المنسوجات فى الاسكندرية أخذت تضمحل منذ بداية القرن التاسع الهجرى(٧)، ثم لم تلبث دار الطراز أن تعطلت زمن برسباى، ولم تعد الاسكندرية تنتج من النسيج إلا ما كان يتولى بعض الأفراد صنعه، ففى

(١) نفس المصدر. ويقصد بالجاخة دائرة بداخلها الرسم المذكور

(٢) ابن اياس ، ج ٤ ص ٣٣٤

(٣) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٣٦٠

(٤) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ أ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩

(٥) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٧

(٦) السلوك ، ج ٢ ص ١٩٥

(٧) Darrag, L'Egypte sous le règne de Barsbay, p. 69.

سنة ٨٣٧ هـ أحصى عدد الأنوال بالاسكندرية ، فظهر أن هذا العدد لم يتجاوز ثمانمائة نول ، فى حين بلغ عدد أنوال الاسكندرية فى نهاية القرن الثامن الهجرى ١٤٠٠٠ نولا (١) .

ويزودنا النويرى السكندرى بوصف رائع لدار الطراز بالاسكندرية ، إذ يصور لنا مشاهدات السلطان الأشرف شعبان فى هذه الدار فيقول : « وجعل يطوف على الأنوال يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون ، وإلى مكاكيهم كيف يرمونها ولهسا يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد فى أعلى الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المبادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طاير وغيره ... ثم إن السلطان شاهد ما فى دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراكش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثياباً يستصحبها معه وترك الباقى إلى حين تكملة نسجه »(٢) .

ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بعدد من قطع النسيج التى تحمل كتابة كوفية تشير صراحة إلى أنها من إنتاج دار الطراز بالاسكندرية .

٢ ـ صناعة الخزف :

عرفت الاسكندرية قبل الاسلام صناعة الخزف ، وكانت تؤلف مركزاً هاماً لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كالكؤوس

(١) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢١٨

(٢) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٢ أ ، ب

ذات الرسوم البارزة . وكانت تغطى كلها باللون الأخضر ، أما جزؤها الداخلى فكان لونه يميل إلى الإصفرار(١). ولاشك أن هذه الشهرة استمرت بعد الإسلام وعلى الأخص فى العصرين الفاطمى والمملوكى ، فلقد أسفرت الحفائر الأثرية التى قامت بها كلية الآداب فى كوم الدكة سنة ١٩٤٨ عن كشف قطع هائلة من الخزف الفاطمى والخزف الشائع فى عصر المماليك ، كما كشف عن بقايا النباتات البحرية ومخلفات الحريق وكتل زجاجية تشير كلها إلى أنه كان يقوم فى هذه البقعة مصنع للخزف ، هذا إلى جانب قطع كثيرة من خزف أجنبى (صينى وأندلسى وايرانى وسورى) (٢) مما يدل قطعا على أن الصناع الاسكندريين كانوا يقومون بتقليد هذه المنتجات المستوردة فى صناعتهم المحلية . وأغلب ما عثر عليه قطع من النوع المعروف بالجرافياتو ونعنى به الخزف المصنوع من طينة حمراء اللون ومغطى بطبقة من طينة بيضاء تسمى البطانة ، وتتسم زخارف هذا النوع بأنها ترسم فوق البطانة ثم تزال الأجزاء المحيطة بالزخرفة حتى تبدو الطينة الحمراء ويظهر الرسم بذلك بارزاً ، ثم تزجج الآنيــة بعد ذلك . وتتميز القطع التى عثر عليها بحمل كتابات نسخية منها « الأمـيرى » و « المولوى » و« الملكى » و « المقرى » وكلها ألقاب كان يحملها المماليك ، كما عثر على قطعة تحمل توقيع أحد الصناع المشهورين فى عصر المماليك وهو شرف

---

(١) Arthur Lane, Early Islamic Pottery, London, p. 9

(٢) حفائر جامعة الاسكندرية فى كتاب « الاسكندرية » الذى وضعته غرفة اسكندرية التجا[illegible] ص ١١٧

الأبوانى (١).

كذلك كشفت البعثة البولندية التى تقوم بحفائرها فى موضع آخر من منطقة كوم الدكة عن كميات كبيرة من الخزف ، منها النوع الفاطمى المعروف بريقه الذهبى ، ومنها النوع الأيوبى الذى تتشمع منه الزخارف، ومنها النوع المملوكى المعروف بالجرافياتو . كذلك عثرت البعثة المذكورة على قطع من الخزف الأندلسى والايرانى مما يدل على أنه كان يرد إلى الاسكندرية بعض الأوانى الخزفية من الشرق والغرب . ولقد كان الخزف الأندلسى من الأنواع الممتازة التى يقتنيها الناس ، وليس أدل على ذلك مما قدمه سفير السلطان الغالب بالله أبى عبد الله محمد بن نصر ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق من هدايا من الخزف والثياب . ويذكر السفير الأندلسى أنه قدم إلى السلطان المصرى « شيئاً مما اصطحبناه من متاع الأندلس كالفخار المالقى والانجبار الغرناطى وشىء من ثياب الخز المنسوجة بها » (٢) .

٣ ــ صناعة الزجاج :

كانت الاسكندرية معروفة منذ عصورها القديمة بصناعة التحف الزجاجية (٣) ، وظلت هذا الصناعة مزدهرة فى العصر الإسلامى ، فكانت تصنع من الزجاج الأوانى والقارورات والأختام (٤) . وكانت

(١) Marzouk, Three signed specimens of Mamluk Pottery from Alexandria, in Ars Orientalis, II, 1957, pp. 497 - 501.

(٢) عبد العزيز الأهوانى ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٤ ، ص ١٠٥

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٧٩

(٤) زكى محمد حسن ، الفن الاسلامى فى مصر، ج ١ ص ١١٧ ، القاهرة ، ١٩٣٥

الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الزجاج فى مصر فى العصر الفاطمى (١)، ويذكر المقريزى اسم مدينة الاسكندرية بين المدن التى اشتهرت بصناعة الزجاج (٢) . وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات من القطع الزجاجية والبللورية وقطع من الزجاج المزين بزخارف مذهبة ومموهة بالمينا من النوع الشائع فى المشكاوات .

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص ٥٨٦ ، القاهرة ، ١٩٤٨

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٤٢

(٣)

الحياة العلمية

كانت الاسكندرية عندما فتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية ، غير أن مدرسة الاسكندرية لم تلبث أن اضمحلت بعد الفتح العربي ، لانصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية ، وإقبالهم على الثقافات العربية ، بعد أن نزلها عدد كبير من العرب اليمنية ، ومع ذلك فقد ظلت الاسكندرية تحتل مركزها العلمى والثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها ، ونبغ من رجالها كثيرون فى الطب والكيمياء ، وعلى يد علمائها أخذ خالد بن يزيد علم الكيمياء ، بعد أن أمرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية (١) .

وفى الطب نبغ عدد من أهل الاسكندرية منهم طبيب يدعى ابن أبجر كان يتولى التدريس فيها ، ومنهم بليطان السكندرى (٢) (ت ١٨٦) الذى بعث الخليفة هارون الرشيد فى طلبه لتطبيب إحدى جارياته ، وسعيد بن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون ، وسعيد بن البطريق (ت ٣٢٨) . وفى العصر الأيوبى شاركت مجموعة المدرسة والبيمارستان التى أسسها صلاح الدين بثغر الاسكندرية على ازدهار العلوم ، والظاهر أن البيمارستان المذكور كان يضم عدداً من الأطباء الذين كانوا يتولون التدريس فيه وفى نفس الوقت

---

(١) سيدة كاشف ، مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٩

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ٢٥٨

يشرفون على علاج المرضى . وظهر فى العصر المملوكى طبيب مغربى يدعى عبد الواحد بن اللوز المغربى (نزيل الاسكندرية) ، وكان بارعاً فى علم الطب والفلك والتاريخ (ت ٧٨٠) (١) .

وفى الهندسة والفلسفة والعلوم العقلية نبغ من أهل الاسكندرية الرشيد ابن الزبير الأسوانى ، وكان عالما بالهندسة والمنطق وعلوم الأوائل (ت ٥٦٣)(٢). وفى الأصول فخر الدين أحمد بن سلامة بن أحمد الاسكندرانى العلامة الأصولى البارع (ت ٧١٨ هـ) (٣) ، وفى الهندسة وفنونها أبو المكارم هدية بن عامر ابن فتوح الحضرمى المهندس(٤) . وكانت علوم الهندسة والفلك مزدهرة ، فى الاسكندرية فى العصر المملوكى إلى حد أن ابن الشاطر الفلكى (ت ٧٧٧) عالم الفلك المعروف والهندسة والحساب رحل من دمشق إلى الاسكندرية ليتعلم بها المزيد من هذه العلوم (٥) .

أما العلوم الدينيـة فلم تزدهر فى الاسكندرية ، الا منذ أن تأسست بها مدرستا الحافظية والسلفية السنيتان ، لتدريس الحديث ، وكان لهاتين المدرستين أعظم الأثر فى النهضة العلمية التى اتسمت بها الاسكندرية فى العصر الفاطمى . وساعد على ازدهار هذه العلوم شيوخ مغاربة وأندلسيون ، نزلوا الاسكندرية ، وأسهموا فى الحركة العلمية بها . ويذكر الضبى أن الحافظ السلفى كان يحضر

---

(١) ابن الفرات ، ج ٩ ص ٤٤

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ٢٥٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٦١

(٤) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٦

(٥) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٦ ص ٢٥٢

فى محفل عظيم بالاسكندرية عند بعض أهلها وكان المجلس يغص بالحاضرين (١). وكانت الاسكندرية منذ العصر الفاطمى ملتقى علماء المغرب والأندلس والمشرق على السواء ، وكانت تموج بهؤلاء العلماء الذين نذكر منهم : العالم أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر الميورقى ، وأبا عبد الله محمد بن مسلم ابن محمد القرشى المازرى الصقلى(٢) ، وأبا بكر الطرطوشى ، وعبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام ، وكان من شيوخ القراء بالاسكندرية(٣) . وأبا القاسم بن مخلوف المغربى ثم الاسكندرى ، أحد كبار أئمة المالكية (٤) (ت ٥٣٣) ، وأبا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الأنصارى القرطبى الفقيه المحدث (ت ٥٥٦)(٥) ، وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن الجرح التلمسانى نزيل الاسكندرية ، وكان من صلحاء العلماء فى الحديث (ت ٦٥٦هـ) (٦) ، والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيروانى نزيل الاسكندرية ، وكان عالماً فى القراءات (ت ٥١٤ هـ) (٧) ، واليسع بن حزم الغافقى الأندلسى الجيانى نزيل الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (ت ٥٧٥) (٨) ، والقاسم

---

(١) الضبى ، ص ٢٠٧
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٢ ، ١٣٤
(٣) السيوطى ، ج ١ ص ٢٣٥
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٤
(٥) نفس المصدر ، ص ٢١٥
(٦) نفس المصدر ، ص ٢١٦
(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٠
(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٦

ابن خيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي المقرى (ت ٥٥٥) (١)، وأبا على منصور ابن لب الأنصارى (٢).

وعلى هؤلاء العلماء الأجلاء أخذ كثير من أهل الاسكندرية علوم الحديث والقراءات والفقه، ونبغ منهم العلامة ابن أبى مطر (ت ٣١٩)، ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وعبد الرحمن ابن عوف بن عمرو العلاف، وجعفر بن على بن هبة الله أبو الفضل الهمدانى الاسكندرانى المقرىء والمحدث (ت ٦٣٦)، وابن الصفراوى الاسكندرانى (ت ٦٣٦)، وعبد الكريم بن عطاء الله الاسكندرانى (ت ٦١٢) (٣) .

ومن أشهر علماء الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الاسكندرانى أحد الأئمة المتبحرين فى العلوم من التفسير والفقه والأصول والنظر بالاضافة إلى نبوغه فى العربية والبلاغة والأنساب ، وتوفى بالاسكندرية فى ٦٨٣ هـ (٤) وابن أخيه عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير شيخ الاسكندرية (ت ٧٣٦) (٥) والحافظ ابن العماد أبو المظفر منصور بن سليمان الهمدانى الاسكندرانى الشافعى ، الذى ألف فى الحديث وفى الفقـه وفى تاريخ الاسكندرية (ت ٦٧٣) (٦)

---

(١) السيوطى ، ص ٢٣٦

(٢) المقرى ، ج ٣ ص ٣٠٢

(٣) السيوطى ، ج ١ ص ٢١٥

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤٢

(٥) نفس المصدر ، ص ٢١٦

(٦) نفس المصدر ، ص ١٦٦

ومنصور بن سندى الدباغ الاسكندرانى (ت ٦٤٦) ، والمكين الأسمر عبد الله بن منصور الاسكندرانى شيخ قراء الاسكندرية (ت ٦٩٢) (١)، ويحي بن أحمد بن الصواف الجذامى الاسكندرانى (ت ٧٥٠) (٢) ، وأبو القاسم بن يحيي المالكى الاسكندرى المعروف بالقبارى (٣)، وتاج الدين ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامى الاسكندرانى المتصوف أحد تلامذة الشيخ أبى العباس المرسى والشيخ أبى الحسن الشاذلى .

وفى علوم النحو واللغة نبغ محمد بن عبد الله عبد العزيز الاسكندرانى شيخ الاسكندرية فى النحو (ت ٦٩٣)، وبدر الدين محمد بن أبى بكر بن الدماميني الاسكندرانى (ت ٨٢٧). وفى الشعر والأدب برز عدد كبير من شعراء الاسكندرية ، نذكر منهم على بن عباد الاسكندرى فى عصر الحافظ الفاطمى، وظافر بن القاسم الحداد الجذامى الاسكندرى (ت ٥٢٩)، ونصير الدين عبد الله بن مخلوف بن على اللخمى المعروف بابن قلاقس الاسكندرى (٦٠٧) ، والشرف النساج بن غنوم الاسكندرى نزيل مصر (ت ٦٨٠). ومنذ أواخر القرن السادس الهجرى ازدهرت الحياة العلمية بالثغر، وأقيمت المدارس ودور الحديث والأربطة ، وشارك فى هذه الحركة العلمية المباركة عدد كبير من التجار والصناع وأرباب الحرف ، نذكر منهم على سبيل المثال :

أ — من التجار :

منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن حمزة بن موقا الأنصارى التاجر، مسند الاسكندرية (ت ٥٧٩) (٤) ، وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد الجبار

---

(١) السيوطى، ص ٢٤٠

(٢) نفس المصدر، ص ٢٤٠

(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٨

(٤) نفس المصدر، ص ١٧٦

العثمانى الاسكندرانى التاجر الكارمى المحدث (ت ٦١٤)(١)، وعبد العزيز بن منصور الكريمى التاجر الكارمى(ت ٧١٣)(٢)، وعبد اللطيف بن أحمد بن محمود التكريتى، أحد رؤساء الكارمية الذى بنى مدرسة بالاسكندرية علم فيها الحديث(٣)، وعبد اللطيف بن رشيد بن محمد التكريتى (ت ٧١٣)(٤).

ب ــ من الوراقين والمجلدين:

منهم أبو الرضا زيد بن محمد بن عبد الحميد بن الطرابلسى المجلد بالثغر، وكان يشتغل بتجارة الكتب وتجليدها، وكان يحفظ كثيراً من الشعر، وأبو الحسن على بن يوسف بن عبيد الكنـدى الشاعر، وكان مطرزاً، وأبو محمد عبد الوهاب بن اسماعيل بن بريك بن توهيب الوراق، وأبو الحسن على بن محمد ابن على بن الحسين بن يحيى الجيزى الكتبى، وكان من أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب (٥).

ج ــ من أرباب الحرف والصناعات:

منصور بن سندى الدباغ (٦)، المحدث، وأحمد بن عبد الله بن محمد الأنصارى الاسكندرانى النحاس (٧)، وظافر بن القاسم الحداد

---

(١) السيوطى ص ١٧٦

(٢) ابن حجر، ج ٢ ص ٤٩٣

(٣) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٨

(٤) نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٠

(٥) حسن عبد الوهاب، ص ٣٨٤ ومايليها

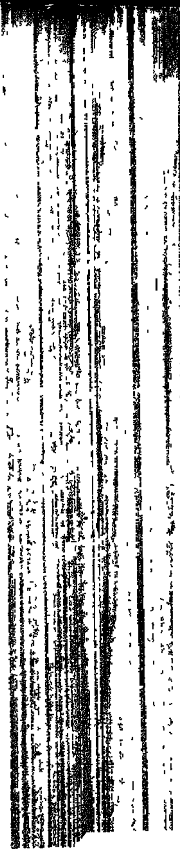
(٦) السيوطى، ج ١ ص ١٧٧

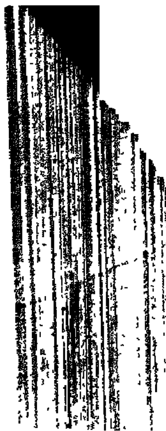
(٧) نفسه، ص ١٧٩

الشاعر (١)، والشرف النساج الشاعر (٢) ، وأبو الفضل قاسم البجائى القصار (٣) ، والعباس بن طريف الخراط الاسكندرى الشاعر (٤) .

(١) السيوطى ، ص ٢٦٩
(٢) نفسه ، ص ٢٧٢
(٣) النويرى السكندرى ، ص ١٨٠ ب
(٤) حسن عبد الوهاب ، ص ٣٨٨

ملاحق الكتاب





ملاحق الكتاب

١ – ذكر ما اتفق للمسلمين مع البنادقة والجنوية بمينة الاسكندرية الشرقية . (من كتاب الإلمام بما قضت به الأحكام، نسخة دار الكتب المصرية).

٢ – ذكر العناية بالاسكندرية وتولية ملك أمراء بها يصير مقيما كدمشق وحلب (من كتاب الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

٣ – ذكر تاريخ ولاية ملك الأمراء طيدمر البالسى ثغر الاسكندرية المحروس ، وما اتفق فى ذلك من ولايته للمسلمين مع طائفة الأفرنج الكافرين . (من كتاب الإلمام ، للنويرى السكندرى ، نسخة دار الكتب المصرية) .

٤ – ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الأشرف شعبان من القاهرة إلى الاسكندرية ، ونصب كرسى الملك بها سنة ٧٦٩ هـ .

(من كتاب الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

٥ – ذكر زيارة السلطان الملك الأشرف شعبان للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ. (من كتاب الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

٦ – ذكر خبر ابراهيم التازى رايس دار الصناعة بالاسكندرية ، ومافعله بالفرنج من المخازى وغير ذلك :

(من كتاب الالمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

٧ – منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الأشرف برسباى والفونسو الخامس ملك أرغون فى سنة ٨٣٣ هـ .

(من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية المحفوظة بأرشيف مملكة أرغون).

٨ — زيارة السلطان الملك الأشرف قايتباى الأولى للاسكندرية فى سنة ٨٨٢ ﻫ
(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ، ج ٣ ، ص ١٢٦ — ١٢٨).

٩ — زيارة السلطان الملك الأشرف قايتباى الثانية للاسكندرية فى سنة ٨٨٤ ﻫ
(من كتاب بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١).

١٠— زيارة السلطان قانصوه الغورى للاسكندرية فى سنة ٩٢٠ ﻫ .
(من كتاب بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٤٢٣ — ٤٢٥).

١١— وصف سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق للاسكندرية فى سنة ٨٤٤ (نص نشره الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ ، ص ٩٨ — ١٠٥).

(١)

ذكر ما اتفق للمسلمين مع البنادقة والجنوية بمينة الاسكندرية الشرقية

(من مخطوطة الالمام بما قضت به الأحكام ، للنويرى السكندرى ،
نسخة دار الكتب المصرية)

« (٦٧ أ) وفى يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبعمائة ذكر أن بمراكب الجنوية أسيراً مسلماً من بلاد التركية ، فطلبته المسلمون منهم ، فامتنعوا أن يدفعوه لهم ، وذلك بعد أن أوقرت الجنوية والبنادقة مراكبهم السبعة بمتاجر البهار ، وهم عازمين على السفر إلى بلادهم . وكان بالاسكندرية حينئذ من الفرنج نحو مائتى نفر ما بين تجار وغلمان يتسوقون للسفر فمنعهم المسلمون الخروج من باب البحر ، فسأل من بالمراكب من أصحابهم أنهم يطلقوا لهم الأسير المذكور على أن يطلقوا لهم الفرنج المتعوقين ، فرضيت المسلمون بذلك ، فنكثوا ومنعوه ، وطلبوا أصحابهم يخرجون إليهم ، فامتنعت المسلمون ... لهم إلا به . فنزلت الجنوية إلى سيالة المنار أخذوا من الصيادين رجلين ، وأتى قارب كبير من مراكبهم إلى الساحل بالسلاح ليقبضوا على رايس دار الصناعة وهو ابراهيم التازى ، لوقوفه ذلك الوقت بالساحل ، معه بعض رجاله . ففهم ابراهيم بما أتوا به ، فخاض إلى القارب ، وطبق على علج منهم رماه البحر ، فتسلمه بعض أصحابه ، وعطفوا أصحاب الرايس سريعاً على القارب أخذوه بمن فيه من تلك الأعلاج وقبضوهم كالقبض على الدجاج ، فأتت الترك الخيالة الذين كانوا حينئـــذ بالجزيرة يرموا النشاب على جارى عادتهم بسبب الإدمان . فقبض كل واحد منهم على شوشة إفرنجى ، وصار سابقاً فرسه ، والعلج يجرى إلى جانبها بجريها ، والدماء قد سال منهم بما فعلته

قياد الرايس بهم حين القبض عليهم من قاربهم ، فسجنوا . ورسم على جميع الفرنج المتأخرين فى البلد عن المراكب ، فلما عاينت الفرنج التى بالمراكب (٦٧ب) ما حل بأصحاب القارب من المصايب ، ومنع أصحابهم من الخروج إليهم ، زحف إلى الساحل غراباً من غربان البنادقة رموا بالنشاب على من لبس سرابيل حربه من الجند وقفوا على الساحل بسبب حرب إن وقع ، فرمتهم الجند أيضاً بالسهام ، فجرح من الإفرنج جماعة ، وقالت لهم المسلمون : إن لم تعطونا الأسير والصيادين والا أهلكناكم عند خروجكم من ضيق فم المينة أجمعين . فحينئذ أطلقوا الأسارى الثلاثة ، فلما حصلت تلك الثلاثة على البر ، ادعى نايب السلطان بتجار الأفرنج والقناصلة المقيمين بالاسكندرية ، فأخرجوا إلى الساحل ، فرسم أن يقرأ عليهم كتاب السلطان الوارد عليه الآن ، فقرىء عليهم وهو يتضمن تعويق البنادقة والجنوية وجميع أجناس الفرنج عن السفر ، وأن الفرنج جميعهم لا يعودوا يدخلوا سواحل المسلمين بمتجر أبداً إلا إن أتوا بأموال الاسكندرية وجميع أسراها ، فلما سمعت القناصلة والتجار ذلك كتبوا كتاباً بالخط الرومى ، ودخل به رجل من المسلمين البحر ، وجعله بعقب رمح ، وغرز سنانه بقاع البحر ، ورجع به إلى المراكب ، فلما قرءوه تيقنوا أن أصحابهم مأسورين ، فبينما هم كذلك وإذا بمركب تشق البحر آتية ، فحين رست أخبروا أهلها بالخبر ، فرفع ماكان فيها من متجر فرقت فى تلك المراكب ، وأخذوا قلعها وصاريها وسكانها وتركوها فضية بسبب عيبها التى انعابت به ، وسافروا فى الليل وتركوها . فطولع السلطان بما اتفق من الفرنج ، فورد مرسومه إلى الاسكندرية بحملهم إلى القاهرة ، فحملوا إليها ، وسجنوا بسجنها » .

(٢)

ذكر العناية بالاسكندرية وتولية أمير أمراء بها يصير مقيما كدمشق وحلب

(من مخطوطة الالمام ، نسخة دار الكتب المصرية)

« (٦٨ ا » وفى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبعمائة ورد إلى الاسكندرية ملك الأمراء سيف الدين أسنبغا بن البوبكرى فى موكب جليل وحال جميل ، وصحبته من الأمراء عشرين أميراً منهم طبلخانات وعشراوات ، أما الطبلخانات ، فهم الأمير ناصر الدين بن قشتمر ، والأمير أقبغا مصطفى ، والأمير دقماق بن طغنجق ، والأمير ناصر الدين بن شرف الدين ، والأمير قطلبغا جركس ، والأمير طنبغا ماووق والأمير ناصر الدين بن بكتمر ، والأمير ناصر الدين بن سلار ، والأمير سيف الدين بن قبليه ، والأمير أروس . وأما العشراوات فهم الأمير أحمد ابن صرغتمش ، والأمير ابن دلنجى ، والأمير الظنبغا العلاى ، والأمير ابن قطليجا الحموى والأمير على بن قمارى ، والأمير سودون ، والأمير قمارى ، والأمير ناصر الدين بن كتبغا ، والأمير قشتمر التقزدمرى ، وصارت حجاب ملك الأمراء اسنبغا ثلاثة ، فحاجب الحجاب الأمير صلاح الدين خليل بن عرام ، ويليه الأمير بهاء الدين أصلان الحاجب ، والأمير سيف الدين بكتمر العلمى الحاجب أيضاً . فصارت الاسكندرية تضرب بها فى كل ليلة أربعة عشر طبلخانة ، الواحدة لملك الأمراء ، والعشرة لعشرة أمراء ، وواحدة لحاجب الحجاب ، وواحدة لأصلان

الحاجب ، وواحدة بأعلى باب الصناعة . وصار ملك الأمراء يركب يوم الاثنين ويوم الخميس فى موكب جليل وحال جميل ، فيه الأمراء المذكورين بأتباعها ، وتركب لركوبه أجناد الحلقة المنصورة المجردين بها والأجناد المركزين بها وهم أرباب الجوامك . ويجلس ملك الأمراء (٦٨ ب) بعد الموكب بدار العدل يفصل القضايا بين الناس . فبينما هو جالس بدار العدل وإذا بمركب قدم من بلاد الإفرنج إلى مينة الاسكندرية ، فلم يخرج منها أحد يأخذ واصلها كجارى العادة ، فلما لم يأتهم أحد أتى من المركب قارب إلى الساحل فيه سبعة من الفرنج ، منهم ثلاثة تجار وأربعة بحرية ، فمثلوا بين يدى ملك الأمراء وهو جالس بدار العدل ، فقال لهم : أما بلغكم مرسوم السلطان بأن من ساير أجناس النصارى لا يدخلوا للمسلمين برا ولا بحرا يطؤوا لهم أرضاً إلا أن تأتى بقية أسارى الاسكندرية ، ورسل السلطان المعوقين بقبرس . فقالوا : إن لنا فى البحر ما يزيد على شهر ولم نسمع بشىء فاقتضى رأى ملك الأمراء أن السبعة ... بالاسكندرية حسب مرسوم السلطان المتقدم ذكره والمتضمن بأن كل من وطىء بر المسلمين من الفرنج يقبض عليهم وعلى أموالهم ومراكبهم ، وإن تعذر القبض على مراكبهم فليطردوا من المين . فرسم ملك الأمراء أن يخرج إليهم إبراهيم التازى رايس دار صناعة الاسكندرية فى رجاله ورماته ، يأخذ المركب بما فيه من المتاجر والرجال ، فخرج إليهم فى زورقين ، ووقع القتال بينهم ، فلما رأت الفرنج الجد من المسلمين فى القتال قطعوا سرياقات مراسى مركبهم وهربوا ، فأخذت المسلمون مراسيها من قاع البحر ، وطولع السلطان ، فورد المرسوم بحمل السبعة إلى القاهرة ، ومن بقى بالاسكندرية مسجوناً من الفرنج ، فحملوا إلى القاهرة فى السلاسل والأغلال مخشبين بالأيدى ، مشاة حفاة ، وذلك فى جمادى

الأولى سنة تسع وستين وسبعمائة ، وحبسوا عند الإفرنج المتقدم (٦٩ أ) ذكرهم ، فصاروا مثقفين فى السجون ، يعملون بالنهار فى العماير السلطانية ، وبالليل فى السجون يبيتون ، قد أكلت سوقهم القيود ، ورتع فى أجسامهم بق خزانة البنود ، والمسلمون يصيحون عليهم . ويقولون يا كلاب النصارى لا خفف الله عنكم العذاب ، ما تسمعون الا قول الكافر بولص ، ولا تجتمعون أبداً على محبة مسلم مخلص ، بل الكفر شعاركم ، والفجور دثاركم ، فلعنة الله عليكم فى الليل والنهار ، والعشى والأبكار ، فستلقون فى الدنيا الوبال ، وفى الآخرة بجهنم النكال » .

(٣)
ذكر تاريخ ولاية ملك الأمراء طيدمر البالسي ثغر الاسكندرية المحروس وما اتفق في ذلك من ولايته للمسلمين مع طائفة الافرنج الكافرين

(من مخطوطة الالمام ، نسخة دار الكتب المصرية)

« (١٢٥ ب) وهو أنه في شهر ذي القعدة الحرام سنة تسع وستين وسبعمائة ولي السلطان الملك الأشرف شعبان الأمير سيف الدين طيدمر البالسي ثغر الاسكندرية المحروس ملك أمراء ، فدخل الثغر المذكور يوم الأحد ثاني عشرين ذي القعدة من السنة المذكورة أعلاه عوضاً عن ملك الأمراء أسنبغا بن البوبكري ، وانفاذه ملك أمراء بحلب ، وكان قبل دخول ملك الأمراء طيدمر البالسي الاسكندرية ورد إلى مينتها ثلاث أغربة فيها رسل الإفرنج بسبب الصلح ، فلم ينزلوا من غربانهم إلا بعد أن أرسل لهم قنصلين من الافرنج المسجونين بالقاهرة حسب ما تقدم ذكر سبب سجنهم بها ، فلما رأت الرسل القنصلين نزلوا هم وغلمانهم ، فدخلوا الاسكندرية ثالث يوم قدوم ملك الأمراء طيدمر ، وكان أحد الرسل جنوى يسمى قازان والثاني بندقي ، قيل إن قازان المذكور هو الذي ظفر بمدينة القرم، نهبها وأسر منها من الترك المسلمين كثيراً . ثم ان تلك الرسل حملوا إلى القاهرة ، فأتى بعد سفرهم إليها أربعة قراقر أرسوا بالقرب من أغربة الرسل زعموا أن معهم البضائع (١٢٦ أ) التي انشقت مرايرهم بسبب كسادها مدة طردهم من سواحل المسلمين كما تقدم ذكر ذلك ، وزعموا أنهم أتوا خاضعين ذليلين ، فصارت

المسلمون يقولون : إنما أتوا مكرا وخداعاً ليخلصوا الإفرنج المسجونين بالقاهرة . وبعضهم يقول إنما معهم بعض البضائع وبقية وسقها أسلحة يقاتلون بها المسلمون إذا خلصوا أصحابهم ، وحصلوا بقراقرهم ، ويرسلوا إلى المراكب الكبيرة المجتمعة تأتيهم وتعينهم القراقر الأربعة على قتال المسلمين . فلما كان في العشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وسبع مائة قدم بعد رسل الإفرنج من القاهرة إلى الاسكندرية ، فنودى بها : من كان له أسيراً ببلاد الإفرنج فليكتب اسمه ونسبه ليتخلص من الأسر ، فكتبت أسماء أسارى كثيرة ، وكان السبب فى ذلك أنه قيل للرسل المذكورين بالقاهرة فيم أتيتم ، قالوا : فى الصلح . فقيل لهم ، وأين رسل المسلمين الذين بجزيرة قبرس : ناصر الدين محمد بن قراجا الشريفى والجوبان وأصحابهم وأسارى الاسكندرية . قالوا : يحضروا بسعادة مولانا السلطان . فقيل لهم : لا يبيع أحداً منكم عندنا بضاعة ، ولا ينزل بها من المراكب حتى تأتى رسل السلطان وأسارى الاسكندرية فإنكم ما جيتم إلا لمصالحكم . فلا سبيل لكم إلا بذلك . فوقع الاتفاق على أن القراقر المذكورين تقيم بمينة الاسكندرية ، وتسافر الغربان تأتى برسل المسلمين والأسارى وزورق المغاربة الذى أخذه ابراهيم القبرسى المعروف بابن الخبازة فى العشر الأول من ذى الحجة بما فيه من كتان وغيره حسب ما تقدم ذكر أخذه له . فسافرت الغربان مردود عليهم هداياهم بعد أن أخذوا معهم ما كتبته المسلمون لهم من أسماء أسارى الاسكندرية وأنسابهم ، وصارت رسل الافرنج بالقاهرة مقيمين عند الافرنج المسجونين (١٢٦ ب) فيهم قازان الجنوى ورفيقه البندقى . وكانت أصحاب الغربان أتوا يخلصوا الإفرنج بمكرهم ، فازدادوا برسل الفرنج وغلمانهم معهم فى السجن ، فرجع من بالغربان خائبين ، وإلى قومهم منذرين بقولهم : إما برجوع رسل المسلمين وأسارى الاسكندرية والزووق المأخوذ ، وإما الحرب والطعن والضرب . وكان إذ ذاك بالاسكندرية من الأمراء المجردين لحراستها الأمير

أيدمر الشمسى مقدم ميمنة العساكر المنصورة ، وملك الأمراء طيدمر البالسى والأمير صلاح الدين بن عرام حاجب الحجاب . والأمير محمد بن دنكز بغا والأمير أبو بكر بن طاز . والأمير أسندمر حرفوش . والأمير طغيتمر العثمانى ، والأمير أرسغا الخليلى ، والأمير عبد الله ابن الحاجب ، والأمير ابن بكتمر الساقى ، والأمير أرغون الخزندار ، والأمير جركس بن سولى ، والأمير ابن أرنان ، والأمير أحمد بن دنكزبغا . والأمير ابن الذهبى ، والأمير ابن المحمدى ، والأمير ابن دلنجي ، ابن لاجين ، والأمير بهاء الدين أصلان الحاجب ، والأمير بكتمر العلمى الحاجب أيضاً . وغيرهم ؛ منهم مقدمين وطبلخانات وعشراوات غير بعض أجناد الحلقة المنصورة المقطعين ، وأجناد الحوامك ، وقياد الصناعة ، والعربان المركزة ، وغلمان الفرسان غير أهل الثغر الذين صارت قلوبهم على الافرنج أحر من الجمر : فبينما الناس على أهبة القتال واذ بغرابين قدما إلى مينة الاسكندرية فيهما رسل المسلمين وثمانين أسيراً وأسيرة ، منهم دون العشرين نسوة ، والباقى رجالا . فلما أرست الغرابين المينة لم يتركوا رسل المسلمين والأسارى ينزلوا البر حتى يأخذوا رسلهم وتجارهم وغلمانهم الذين بالقاهرة ، ولم ينزل منهم (١٢٧ أ) سوى أربعة من المسلمين غرباً من غير أسارى الاسكندرية ، واثنين من الفرنج حملا إلى القاهرة يردون الخبر . فقيل إن الأمراء قالوا لهم : فيم أتيتما . قالا : نريد الصلح . فقالوا لهما : من أى الملوك أتيتما . قالا : من عند صاحب جنوة وصاحب البندقية ، وقد حملنا صاحب قبرس رسالة نذكرها للسلطان . فقالت الأمراء لهما : أذكروها لنا وما جئتم به من صاحب قبرس ، فان رأينا فيه صلاحاً تركنا كما تذكراه للسلطان ، وإن لم يكن فيه صلاحا خفنا عليكما سطوته وغضبه ، فقالا : يقـــول صاحب قبرس إن السلطـان

لا يأخذ منه على متاجره الا العشر لا الخمس ، وأن يصير قنصله مقيما بالاسكندرية يحكم بين تجار المسلمين وتجار الفرنج فى بيعهم وشرائهم، وأن كل من حج كنيسة قمامة من أهل جزيرة قبرس لا يؤخذ منه شىء، وأن يعطى له أرضاً فى بر الشام محاذية للقدس يعمرها تصير له ولأصحابه ، وأن يكتب اسمه على كنيسة قمامة . هذا والأمراء يسمعون كلامهما ذلك . فلما انقضى كلامهما قال أحد الأمراء لهما : صاحب قبرس سلطاناً عاقلا أو مجنوناً مطبقاً ؟ قالا : ليس به جنون . قال : أما ما ذكر من العشر فليس ذلك لنا لأن الله تعالى قال فى كتابه العزيز الخمس، وليس لنا تغيير ما أمر الله به . وأما قوله أن قنصله يحكم بين تجار المسلمين وتجار النصارى فى بيعهم وشرائهم مقيما دائماً بالاسكندرية ، فليس فى إقامته بها ضرراً ، وأما حكمه على تجار المسلمين فلا يجوز فى ديننا ، لأن الاسلام يعلو ولا يعلى عليه . وأما قوله إن كل من حج من القبارسة إلى كنيسة قمامة ، لا يؤخذ منه شىء ، فالذى يؤخذ منهم بسبب زيارتهم لها ينفق على أصحاب الأدراك الذين يخفرونهم فى ورودهم وصدورهم من العرب التى تنهبهم فى طريقهم (١٢٧ ب)، وان كان مراده أن لا يؤخذ من أصحابه شيئاً فليخفر الافرنج أنفسها على طريق بلاد المسلمين ، وذلك لا يتصور أبداً لقلة الفرنج الزائرين وكثرة العرب التى تتركهم من ملبوسهم ، فضلا عن أخذهم لأموالهم ، منها عارين ، وأما قوله يكتب اسمه على قمامة فيصير بذلك مضحكة لأنه يضع اسمه على غير ملك له ، وذلك إنى إذا أمرت أن يكتب اسمى على كنيسة قبرس مكانا لا أملكه لا يفعل ذلك لى ، وإن فعل صرت مضحكة لأهل قبرس ولغيرهم من النصارى الواردين عليهم . وأما قوله يعمر فى أرض المسلمين بلدا ، فكيف يتصور له الحكم على بلد يجاوره فيها آلاف من المسلمين كانوا يهدمون

البلد على رأسه ويحمدون لأنفاسه ثم قال لهما : هذا الكلام الذى تكلمتما به لا يتصور وقوعه من مجنون أبداً، فكيف من عاقل، والحذر الحذر من ذكره للسلطان، فإن عليكما فيه من الأمر المخوف ما تمضون به على حروف السيوف.

وكان السلطان قبل ورود الغرابين إلى مينة الاسكندرية طلب الأمير صلاح الدين بن عرام من الاسكندرية وهو إذ ذاك حاجب بها لمصالحه ، فحضر بحضرة السلطان ، فأمره بما اقتضته مصالحه ، فامتثل أمره ، ولما بلغ السلطان أن أصحاب الغربان منعوا رسل المسلمين والأسارى أن ينزلوا منها حتى يأخذوا رسل الإفرنج وتجارهم وغلمانهم ، قال لابن عرام المذكور : انحدر إلى الاسكندرية ، وتحيل على نزول الرسل والأسارى من مراكب الإفرنج فقال : ينزلوا إن شاء الله تعالى بسعادة مولانا السلطان خلد الله ملكه ، وعجل بوار عدوه وهلكه من غير أن ندفع لهم علج واحد من أصحابهم ، ولكن يريد المملوك مرسوم شريف بأن استصحب معى أربعة من الإفرنج المسجونين أستعين بهم على خلاص المسلمين (١٢٨ أ) من غربانهم ، فرسم له بهم ، واستصحب معه من أكابرهم ، فلما وصل بهم إلى الاسكندرية ، أركبهم الخيول العربية بالسروج المذهبة والكنابيش المقرقبة ، وأتى بهم إلى ساحل البحر الملح ، فسلموا على من بالغربان ، وسلم من بالغربان عليهم ، وكلموهم فى نزول الرسل والأسارى، فقالوا حتى تأتونا بأجمعكم وتحصلوا عندنا كلكم فقالوا لهم : إن السلطان رسم للأمير صلاح الدين هذا بأنكم إن منعتم نزولهم من غربانكم أن يقتلنا الأربعة قدامكم . قالوا ذلك بحضرة تراجمة المسلمين يكلمونهم بكلام فيه ضرراً على المسلمين ، فيذكره التراجمة للأمير صلاح الدين ، فيحصل لهم ما لا خير فيه، وأيضاً قصدت الأربعة نزولهم ليكون ذلك سبباً لخلاصهم من أيدى المسلمين. ثم قال الأمير صلاح الدين لمن بالغربان: انزلوا

بالمسلمين وبما جئتم به من الهدايا وسترون ما يفعل بكم وبرسلكم من الإحسان والإكرام ، وصار يسايسهم ، ويجلب عقولهم بلين كلامه إلى أن أنزلوهم بأجمعهم من المراكب . وكان لرسل المرسلين بقبرس من حين أرسلهم الأمير يلبغا الخاسكى من جهة دمياط من قبل المقتلة إلى حين نزولهم من غربان النصارى مدة سنة وأربعة أشهر ، فدخلت رسل المسلمين الاسكندرية راكبين الخيول العربية ، تضرب بين أيديهم الطبول ، وتصرخ الأبواق والزمور ، والأسارى خلفهم يتبعون ، فكان من أسارى الاسكندرية سبع نسوة وصبى مراهق البلوغ ، وبقية الثمانين من الشام . ثم نزل عقيبهم من تجار الفرنج المحتشمين ستة عليهم الشايات الرفيعة المثمن ، المزررة بأزرار الذهب واللؤلؤ المنظوم ، فاجتمعوا بأصحابهم الأربعة ، فقالوا لهم حين سألوهم عن أحوالهم : نحن بخير عند المسلمين ، وإن قازان الجنوى ورفيقه البندقى فى خير ، فعند ذلك تحيل الأمير صلاح الدين على التجار الستة ، وقال لهم (١٢٨ ب) أنتم لكم وجاهة وحشمة وشكالة ، فامضوا مع أصحابكم هؤلاء الأربعة إلى القاهرة تحضروا قدام السلطان ليراكم ويشاهد أشكالكم وحشمتكم ، وتنظروا مملكة مصر ، وتصيروا مترددين بمتاجركم بعد إيقاع الصلح بين المسلمين وبينكم ، وصار يسايسهم بهذا الكلام وشبهه حتى نزلوا الحراقة التى هى مرسية بخليج الاسكندرية بسبب توديع أصحابهم الأربعة ، وهم مترددين بين السفر والإقامة بالاسكندرية ، فساعة طاوعهم الحراقة ، وحصولهم بها ، أشار الأمير صلاح الدين بجفنه لرايس الحراقة بالسفر ، فما استتم جلوس الإفرنج بها إلا وهى سايرة كالطيور الطايرة ، فلما مثلوا بين يدى السلطان سر بذلك ، وزاده إقطاعاً على إقطاعه بعد الإكرام . والإحسان لابن عرام ، وذلك بسبب خلاص رسل المسلمين وأسراهم على يديه بعد

أن أقاموا فى غربان الفرنج على مدينة الاسكندرية خمسة عشر يوماً ينظرون المدينة ولا يستطيعون النزول إليها ، خائفين من رجوع الفرنج بهم إلى بلادهم . فلما تخلصت المسلمون من أيدى الفرنج بسياسة الأمير صلاح الدين ، ذلت الفرنج بعد ذلك ، ونزلوا بهداياهم من مراكبهم ، وظهر بعد ذلك خبثهم ومكرهم للمسلمين بمحاققة رسل المسلمين لهم ، لأن رسل الفرنج ذكروا أنه لم يبق أحداً من أسارى المسلمين بقبرس ، فكذبتهم رسل المسلمين وأسراهم وقالوا بقى بها وبرودس الأسارى ، وذكرت الأسارى أسماء من هم عندهم . فلما قالت الأسارى القادمين ذلك ، صيرت رسل الفرنج والست تجار أيضاً محبوسين مع الفرنج المسجونين ، ثم صارت مراكب الفرنج تأتى إلى مينة الاسكندرية شيئاً بعد شىء إلى أن تكمل إلى يوم الأحد الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة سبعين وسبعمائة (١٢٩ أ) الزيادة على ثلاثين قرقورة وعدة غربان أيضاً . فصارت المسلمون فى قلق بسببهم يزيدون وينقصون ويقولون إن القبرسى يأتى فى الأربعين غرابا التى عنده يطلب الصلح بما يشترط على اختياره ، فان وقع الصلح على مراده والا أوقع الحرب . فتهيأت المسلمون للقتال وصاروا يبيتوا كل ليلة بقلاع السور وأبراجه ، والفوانيس موقدة ، بشراريفه ، والزفة دايرة فى كل ليلة بأعلى السور تضىء فوانيسها بالنور ، والأمير صلاح الدين بن عرام حاجب الحجاب طايف من داخل السور بجنده ومشاعله وفوانيسه ، وقد تهيأت قبائل العرب للحرب والقتال . فبينما هم كذلك وإذا بقازان الحنوى ورفيقه البندقى أتيا من القاهرة إلى الاسكندرية معهما ضمنتهما بما وقع الاتفاق عليه بسفرهما إلى قبرس يأتيان ببقية الأسارى الاسكندرانيين بعد أن ضمنهما تجار الفرنج التى بالقاهرة مسجونين ، فسافرا من الاسكندرية ، فحينئذ نزلت تجار الفرنج بضايعها من القراقر باعوها بالاسكندرية ، ونفضوا عنها بضايع الكارم ، وسافروا شيئاً بعد شىء ، فاطمأنت المسلمون بسفرهم ، بخلاف ما كانوا يظنون بهم ... »

(٤)

ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الاشرف شعبان من القاهرة الى الاسكندرية ونصب كرسى الملك بها سنة ٧٦٩ هـ

(من مخطوطة الالمام ، نسخة دار الكتب)

« (٨٩ ا) ... وفى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وسبع مائة ، ورد سيف السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون من القاهرة إلى الاسكندرية فكان لدخوله الاسكندرية يوماً مشهوداً ، فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين أسنبغا بن البوبكرى والأمراء المجردين بها ، والحجاب الثلاثة المتقدم ذكر أسمائهم وهم : صلاح الدين بن عرام ، وبهاء الدين أصلان ، وبكتمر العمرى ، ثم قضاة القضاة ، وهم قاضى القضاة كمال الدين الربعى المالكى ، وقاضى القضاة شهاب الدين الحلبى الحنفى ونوابهما ، واصطفت الناس بالمحجة العظمى لدخول سيف السلطان المذكور ، فكان خزندار ملك الأمراء لابس الخلعة والسيف السلطانى على عاتقه الأيمن ، قابضاً على قبضته بيده اليمنى ، وملك الأمراء يحجب السيف ، وقضاة القضاة الواحد عن يمينه والآخر عن يساره ، والأمراء تحجب الأمراء ، والشاويشية تصرخ ، والشبابة تزعق ، والخلق (٨٩ ب) يموجون من كثرتهم ، وذلك بعد أن وضع كرسى الملك بايوان دار الإمارة الجديد العمارة . وهذا الإيوان المذكور ، عمره ملك الأمراء أسنبغا المذكور ، وقد فرش الكرسى بفرش الحرير ، ووشح أيضاً بشقاق الحرير الملونة ، وعلق السيف السلطانى بصدر الكرسى ،

وجلس ملك الأمراء تحت الكرسى ، وجلست القضاة عن يمينه ويساره ، وجلست الأمراء بمجالسهم اللايقة بهم . وانتصب الحجاب والجند قياماً على أقدامهم ، وزعقت الشبابة بصوتها ، وصرخت الشاويشية بلغتها ، ومد السماط ، فأكلت الأمراء من تلك الموائد المنصوبة بقدر أكل الطاير ، ورفع السماط لأرباب الوظايف المعتادين لأخذه ، إذ ليس الحظ من موائد الملوك كثرة الأكل عليها بل للمرتبة التى يرفع إليها ويخص بها ، كما قيل موائد الملوك للشرف لا للعلف ، فقد كانت ملوك الفرس إذا رأت رجلا شرها فى هذا الحال على الطعام أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ، ومن باب الإعظام إلى باب الاستخفاف » .

(٥)

زيارة الملك الاشرف شعبان للاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ

(من مخطوطة الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية
فى وقعة الاسكندرية) ، نسخة دار الكتب المصرية)

(١٢٩ ب) وفى يوم الجمعة الرابع من جمادى الأول سنة سبعين وسبعمائة دخل السلطـان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس ، وكان دخوله من باب رشيد فى ضحى نهار اليوم المذكور ، بعد أن تقدمته البزادرة (١) بالبزاة والصقور والشواهين والعقبان ، يقدمها باز أشهب يساوى بدرة ذهب ، يعقبها كلاب الصيد عليها أجلة الحرير المطرزة بطرز الذهب ، يتبعها الفهود التى أعينها كنار الوقود . والفهود جمع فهد ويقال للفهد سبع الأيل ، وهو فوق الغلظ من الكلب ، مزوق بسواد وبياض وحمرة ، وذنبه كذلك ...

(١٤١ أ) نعود إلى ذكر صفة دخول السلطان الملك الأشرف شعبان ثغر الاسكندرية المحروس ، وذلك أنه دخله من باب رشيد ، فسار بالمحجة العظمى وقد اجتمعت الرجال والنساء ، والعبيد والإماء لرؤيته ، فصاروا يدعون له والنساء صرن يزرغتن فرحا به ، لشبابه وحسنه وجماله ، وهو راكب فرساً أشهباً تدوس سنابكه شقق الحرير المفروشة على الأرض ، وأمراؤه يمشون

(١) جمع بازدار وهو ماسك الباز ، وكان يشرف على طائفة البازدارية أو البزادرة أمير يعرف باسم أمير شكار .

بين يديه ، والشاوشية تزعق ، والمغنين بدفوفها تضرب ، والشعراء على ضرب الرباب تشعر ، والشبابة(١) تشبب ، لها صوت مطرب ، فطربت الأسماع على حسن الإيقاع ، وتمايلت الأبدان كتمايل الأغصان والأفنان ، لحسن سماع تلك الألحان ، وقرت العيون بمشاهدة جمال السلطان ، وصارت الشبابة تشبب بغير جارحة لسان، بل كل ما نفخ فيها الإنسان أزيلت الأحزان ، كما قال بعضهم (١٤١ ب) فى شبابة كالعنابة حيث قال :

ومقطوعة موصولة شقها النوى .·. تخبر أخباراً بغير تكلم
تراها إذا هاج الهوى فى فؤاده .·. تذيع من الأسرار كل مكتم

وكانت الجفتاوات(٢) تحجب السلطان وهما مملوكان ، بيض الألوان ، راكبان فرسان أشقران ، عليهما أقبية الحرير الأصفر بطراز الذهب وعلى رؤوسهما كوافى الذهب المزركشة ، متساويان فى سيرها ، لا يتعدى الواحد الآخر ببعض خطوة ، والغاشية (٣) المتوجة بالطاير الذهب المشبه بالحمامة بيدى رجل ماش يديرها بأعلى رأسه يميناً ويساراً (٤) يقدمه غاشية ثانية مرصعة بالذهب بيد رجل آخر ، وعلى عنق فرس السلطان رقبة من ذهب

---

(١) الدف : طبلة صغيرة ، والرباب آلة موسيقية وترية ، والشبابة آلة موسيقية تشبه المزمار

(٢) لعلهما الأوجاقية اللذان يصحبان السلطان فى المواكب ، وكان كل منهما يركب فرساً أشهبا برقبة من الأطلس الأصفر ويلبسان أقبية صفراء من حرير سطرز وبزركش

(٣) هى : « سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب » وكانت توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة (أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨٠ ، ج ٤ ص ٧) .

(٤) كان حامل الغاشية يعرف باسم الركاب دار

مرصعة بأنواع الذهب والجواهر ، والسلطان عليه قباء أخضر بفرو قاقون أبيض ، والجنايب (١) ذوات الرقاب والكنابيش(٢) الذهب المزركشة المكللة بأحجار الجواهر ، تساق خلف مركوبه نحو خمسين جنيباً ، وكان السلطان إذ ذاك سنه دون الستة عشر ، ووجهه من حسنه كالقمر ، فلم يزل سايراً بالمحجة إلى مسجد أبي الأشهب فعطف عطفته ، ومر على دار ابن الحباب إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد ، فنثر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث ، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج . وفى ذلك اليوم لم يبق بالاسكندرية افرنجياً تاجراً ولا علجاً غلاماً إلا وتحصن بالمراكب خوفاً من السلطان ، ثم أن السلطان شاهد قلاع السور وأبراجه التى تلى البحر مزينة بالعدد من الأسلحة والأتراس والشطفات الحرير الملونة ، والأعلام التى تخفق بالرياح ، تبتهج لرؤيتها الأبصار وترتاح الأرواح . ثم إن السلطان شاهد المكان الذى صعدت منه (١٤٢ ا) العلوج السور والخندق الجديد الذى أنشأه الأمير صلاح الدين ابن عرام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل فى ذلك المكان خندقاً ، بل كان الانسان يأتى ماشياً إلى أن يلتصق بالسور . ثم شاهد السلطان أيضاً الخندق الغربى المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق ، ثم أنه دخل الاسكندرية من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم

---

(١) الأفراس التى كانت رقابها مكسوة بقماش الأطلس الأصفر المزركش بالذهب . وكانت الرقاب توضع على أعناق الأفراس من أذنيها حتى نهاية أعرافها (صبح الأعشى، ج ٤ ص ٨) .

(٢) هى مواضع الركوب منها .

العلامة أبى بكر الطرطوشى ، ثم منه إلى رحبة الجامع الغربى إلى دار السلطان وقد امتلأت الطرقات بالناس يدعون له كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد (١)، وسار به وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطراز ، فترجل ودخلها صاعداً سلمها إلى أن أتى موضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . قال بعضهم حدثنى أحد مماليك السلطان الخاسكية وكان بينى وبينه معرفة من القلعة بالقاهرة ، أن السلطان لما طلع دار الطراز قلع كلوتته (٢) وأقبيته وتخفف حتى صار فى ملوطه(٣)،وتبع نوفره،وجعل يطوف على الأنوال ، يبصرها ، ويدخل رأس تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون،وإلى مكاكيهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد فى أعلا الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طاير وغيره . فلم يزل طايف يتفرج على نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن (١٤٢ ب) ينسج بمنواله ، يموج تارة على يمينه وتارة عن شماله ، برميه لمكوكه فى باطن مسديته ، فيظهر

---

(١) هذا نص صريح يدل على أن السور الأساسى الذى يلى البلد كان به بابان ، أما السور الأمامى فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من الباب الأول والثانى ويسير بين السورين .

(٢) من كلمة Calotte أى الطاقية الصوفية التى يضعها السلطان على رأسه والأقبية جمع قباء أى الثوب الذى يلبس فوق ثيابه الأخرى ويشبه المعطف .

(٣) الملوطة قباء واسع الكمين يلبس فوق الفرجية ، وكان يصنع من الحرير أو الكتان الرفيق (: سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٥٤)

بذلك نسج بديع كزهر الربيع ، فقال السلطان له : العافية يا أبى ، فلم يرفع الشيخ رأسه إليه ولا نظر له بعينيه ، ولا دعا له بالرد عليه ، بل صار مقبلا على نسجه ، ناظراً إلى سير مكوكه ورجعه ، فتعجب السلطان من مكابدته على شيخوخته ، وبديع تفرسه فى صنعته مع سكتته ، وكان ينبغى للشيخ حين كلمة السلطان أن يدعو له ويسأله معروفه ليرتفق به ، فما كان يجيب سؤاله ، لأنه لولا رق له لكبر سنه وجهده فى العمل ما كلمه ، ولا كلمه إلا لخير يصله منه إليه لشفقته عليه ... (١٤٤ أ) ثم ان السلطان المذكور شاهد ما فى دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراكش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثياباً يستصحبها معه ، وترك الباقى إلى حين تكملة نسجه ، ثم إن السلطان رأى زير ماء عليه قادوس فخار أحمر تشرب به صناع دار الطراز من الزير المذكور ، ملأ بيده وشرب منه . حدثنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف البغدادى معلم دار الطراز لما سألته وقلت : بلغنى أن السلطان ملأ بنفسه بقادوس فخار على زير بدار الطراز تشرب به منه صناع القزازة وشرب منه ، فقال نعم ، عاينته شرب من الزير المذكور وان الصناع احتفلوا بذلك القادوس وسموه (١٤٤ ب) قادوس السلطان ، وصاروا يقولوا اسقونا بقادوس السلطان . وصار له بينهم مزية ورفعة قدر وعظم شأن ، فقلت فى ذلك القادوس بيتين مقصورين وهما هذين :

صار للقادوس ذكرا عندنا .·. شرب السلطان منه وارتوى

فحوى فخرا دائما بجميل .·. الذكر ما بين الورى

ثم إن السلطان خرج من دار الطراز وأتى دار الصناعة فرأى ما فيها من الشوانى الغزوانية والمجانيق الشيطانية ، فرموا بها قدامه فاستحسن رميها ، ورجع من بين السورين ، إلى أن دخل الاسكندرية من الباب الأخضر .

وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة ، بقاعات القصر المذكور ، فرسم بأن يعمل له به أيضاً قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم ، فبنيت ، وجعل له فيها من السلاح الحديد شيء كثير ، فكان عمله لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة . وقد قيل فى هذا :

لست أرى للزمان سيئة .·. وهذه من فعاله الحسنة
بل وجهه أبيض يضيء سنا .·. وهذه فوق خده حسنة

وهذا القصر المذكور الحاوى للسلاح المذكور ، حرسه الله تعالى من الفرنج حين ظفرهم بالاسكندرية ، بعد أن أتوا إلى بابه مشاة وخيالة ، ألهمهم الله تعالى بمنه وكرمه أنه جامعاً للمسلمين يصلون به ، ويتعبدون فيه ، فكفوا عن كسر بابه ، ودخولهم إياه ، ولو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا حملوا منه العدد الكثيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله واحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجداً جامعاً لصلاة المسلمين (١٤٥ ا) ومنعهم الله له أيضاً لأنهم لم يتعرضوا لخراب شيء من جوامع الاسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراب المسلمين لكنايسهم التى هى بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم فى أيام دولته بهدم كنايس النصارى ، فهدم منها بمصر والاسكندرية والصعيد والبحيرة والشام كثيراً ، لذلك لما ظفروا بالاسكندرية امتنعوا من خراب مساجدها خوفاً مما تقدم من خراب جل كنايس النصارى فامتنعوا من ذلك خوفاً من خراب بقيتها ...(١٤٧ أ) نعود إلى بقية خبر السلطان الملك الأشرف شعبان دخوله الاسكندرية ، وذلك أنه صلى العصر من يوم الجمعة بمسجد القصر المتقدم ذكره وركب وخرج من باب السدرة

وقصـــــد وطاقه (١) المضروب بالموضع المعروف بالسرية شرقى ظاهر الاسكندرية ،بات به، وأصبح يوم السبت مقيما نهاره ، فكانت الرجال والنساء والعبيد والإماء يتفرجون بوطاقه ، وبإيوانه الخيام المنصوب ، والايوان المذكور من أحسن ما يكون من الخيام الناصع البياض وهو شاهق فى الهواء مزخرف بأنواع التقاصيص الملونة ، وأرضه مفروشة بالبسط ، والسلطان حينئذ فى خيمة منتبذة عنه كبيرة تسمى بالمدورة ... (١٤٧ ب) وكان رحيله من السرية بظاهر الاسكندرية ليلة الأحد المسفر صباحها عن السادس من جمادى الأول سنة سبعين وسبعمائة،وأقامت الاسكندرية بعد رحيله يومين مزينة ، فالله تعالى ينصره على الدوام ...» .

(١) المعسكر الذى ضربت فيه الخيام .

(٦)

ذكر خبر ابراهيم التازى رايس دار الصناعة بالاسكندرية ، وما فعله بالفرنج من المخازى وغير ذلك

(من مخطوطة الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

«(٩٧ب) ولما عزل الأمير الأكز من الاسكندرية فى التاريخ المتقدم ذكره، وارتقت منزلته عند السلطان الملك الأشرف شعبان إلى أن صيره وزيره ، صار يعرض عنده بذكر الرايس ابراهيم التازى ، ويشكره لحسن رياسته وشجاعته ومعرفته بقتال الافرنج حين قاتل بمينة الإسكندرية قراقر البنادقة والجنوية المتقدم ذكرهم ، فوقع من قلب السلطان موقعا . وتشوق لرؤيته، فأمر باحضاره ، فطلب على خيل البزيد فحضر ، فقيل والله أعلم أنه لما أذن له بالدخول قال : أدخل فى حلية لباس المسلمين أو حلية محاربة الإفرنج ، فقيل له : ادخل فى الحلية التى تحارب بها الإفرنج . فدخل فى قمجون وشبرون وكباس وبيدرون ، وشابه وحياصة جلد ، وسيفاً وخنجراً ، وصار بقوة الجنان السليم يفزع منه الشيطان الرجيم ، فلما دخل على السلطان (٩٨ ا) فى تلك الحالة العجيبة تعجب من صفته ، وقال له : من أنت ومن تكون ؟ قال أنا مملوك مولانا السلطان وعبده ابراهم التـــــازى رايس دار صناعة الاسكندرية . قال : ما الملبوس الذى أراه عليك ؟ قال : به أقاتل الفرنج أنا وقيادى (فتيانى) نقاتلهم به ، وشرع يشرح له غزواته فيهم ، وغنائمه التى غنمها منهم ، وتنكيسه لأعلامهم ، وأسره لحريمهم ، فقـــال له السلطان : تقدر تفتح جزيرة قبرس ؟ قال : نعم بسعادة مولانا السلطان . فقال :

تفتحها بكم غراب ؟ قال : بمساية غراب . قال : هى حاضرة ، خذها وسافر بها . وكانت هذه الغربان التى عمرها يلبغا الخاسكى بعد وقعة الإسكندرية قصد يسافر فيها بالجيوش الاسلامية من الديار المصرية والشامية ، فأدركته المنية ، وتأخر سفرها ، وصارت ببحر النيل واقفة . ثم إنه قال : يا مولانا السلطان بل أسافر بغرابين ، لأكشف بها جزرهم ، ولأعرف خبرهم . فقال له السلطان : تمن على . قال : وما الذى عملته حتى بلغت درجة التمنى ؟ لست بمتمن حتى يرى مولانا السلطان فعل المملوك وعمله . فازداد السلطان فيه رغبة ، فرسم له بالسفر من الإسكندرية فى غرابين ، والنفقة فيه وفى رجاله شهرين مستقبلين . ثم إنه خلع عليه ، ورسم له بفرس من خواص خيله ، وانحدر إلى الإسكندرية ، فجهز الغرابين وسافر بها مستصحباً معه فيها خمسماية قايد بأسلحتها ورماتها ، وكان سفره من الإسكندرية يوم الاثنين التاسع والعشرين من رجب سنة تسع وستين وسبع مائة . فلما كان يوم الأربعاء التاسع من شعبان من السنة المذكورة ، ورد إلى مينة الإسكندرية زورق كبير بقلعين ، فيه رجال مسلمون ، فقيل لهم : من أين أتيتم بهذا الزورق ؟ قالوا : من عند الرايس ابراهيم (٩٨ ب) التازى ، أتينا به غنيمة غنمها وأرسلها معنا بعد أن أخذ معه ما كان فيه من الإفرنج جعلهم فى الغرابين أسارى ، وأرسل معنا كتاباً . فقرىء الكتاب ، وإذا فيه : لا تفرغ الغنيمة التى بالزورق إلا بحضرة القضاة والعدول . ففعل له ما ذكر فى الكتاب المذكور . وكانت الغنيمة سكر وقطناً وخشب بقس وغير ذلك ، فحصر وتخزن ، وطولع للسلطان به . ففرح وفرحت المسلمون بسرعة إرساله هذه الغنيمة بعد سفره بأيام قلايل . ثم أخبرت القادمين فى الزورق عنه أنه قال لتاجر الزورق ولرايسه : إنكما قد صرتما معنا أسارى ومن

معكما أيضاً من البحرية وغيرهم ، فأخبرانى بالخبر الصحيح عن صاحب قبرس حتى استوهبكما من السلطان وأطلق سبيلكما . فقال : إن البابا استدعاه لمحاكمة الجنوية بين يديه لما ضيعه من أموالهم ، وقتل رجالهم وتعويق صاحب مصر لتجارهم بسبب ما فعل بالاسكندرية ، وإن مراكبه التى غزا بها طرابلس الشام جالسة فوق البر وليس بمينتها الآن غير ثلاث شياطى تحرسها ، وأن ابراهيم بن الحبازة خرج من قبرس فى غرابين وشيطى يتلصص فى البحر . وقيل بل إن هذا المتلصص بنيتور أخو ابراهيم المذكور. فبينما أهل الإسكندرية منتظرين قدوم الرايس ابراهيم التازى ، وإذ قد ظهر فى يوم السبت ثانى عشر شعبان من السنة المذكورة ثلاث قلاع أرسوا خارج المينة . فتشوشت المسلمون لعدم دخولهم المينة ، وقالوا : لو كانت مراكب الرايس ابراهيم التازى كان دخل المينة ، ولم يبرز فى البحر . فباتت الناس على الساحل فى تشويش بسببهم ، وكان للمغاربة زورق قد تكمل وسقه (٩٩ أ) وهو مرسى بأقصى المينة قاصداً السفر إلى طرابلس الغرب ، فيه ما يساوى على ما قيل بضعة عشر ألف ديناراً ، فخافت المسلمون على الزورق من تلك المراكب المبرزة ، فصعد إليه بعض رماة الاسكندرية والجرخية يحرسونه منهم . فقالت أرباب الأمور لرايس الزورق : ادخل به المينة ، وقربه من الساحل ليمتنع منهم إن كانوا حرامية بحجارة المجانيق ، فامتنع وقال : إذا كانوا حرامية قاتلتهم القتال الشديد ، وأفعل فيهم ما أريد . وقد كان حصل بالزورق المزبور جماعة من المغاربة مع بعض رماة الاسكندرية متأهبين للقتال من يأتيهم فبينما هم متأهبين فى تلك الليلة المقمرة ، وإذا بشيطى دخل على الزورق كشفه ، فرمى من بالزورق عليه بالسهام ، فطار كطيران الحمام ، فأخبر من بالغرابين خبره ، فجدفوا قاصدين الزورق ، فاندفعت عليهم المسلمون

بالسهام والحجار ، فتباعدوا عنه ، ثم عادوا كرة أخرى ، فرمتهم المسلمون أيضاً منه ، فخرجوا عنه أيضاً ، غابوا ، وعادوا إليه مرة ثالثة . فرمتهم المسلمون بالسهـام والحجار إلى أن نفدت سهامهم وحجارهم ، فكسروا ما معهم من أوانى الفخار رموهم بها حتى أنهم رموهم بشقاف الأزيار التى حملوا فيها الماء للسفر ، فعلمت الفرنج أنهم ما رموا بالشقاف إلا لنفاذ سهامهم وحجارهم ، فهجموا عليهم حصلوا معهم بالزورق ، فقتلت المسلمون منهم بسيوفهم وخناجرهم جماعة ، وقويت الفرنج عليهم ، ملكت منهم الزورق ، فمن المسلمين من قتـل ، ومنهم من أسر ، ولا وجد من بالساحل من المسلمين سبيلا إليهم ينصرون من بالزورق لغيبة التازى بالغرابين اللذين فيهما سافر ، وما حمل الإفرنج على الدخول على الزورق وأخذه من المسلمين إلا لعلمهم (٩٩ ب) عند كشفهم المينة بالشيطى ، أنها لم يكن بها أغربة حرب ، تخرج إليهم . ولو كان فى تلك الليلة غربان مجهزة للقتال أو كان الرايس ابراهيم التازى حاضراً بغربانه التى سافر بها ، غازياً وقنع بالزورق الذى أرسله بغنيمته إلى الاسكندرية ، وكان رجع معه ، أخذ الغرابين والشيطى من تلك الحـ امية بسرعة ، ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . ولو كان رايس زورق المغاربة دخل به إلى الساحل ، وسمع من أرباب الأمور ما ذكروه له كان قد سلم ، ولكنه غرر فوقع الضرر . قيل فى منثور الحكم : احذر الغرور فما يعرف الإنسان يحصل له السرور أو يحصل له الشرور . قال الشاعر : ليس المعز بمحمود ولو سلما .

فلما ملكت الإفرنج الزورق خرجوا به إلى واسع البحر ، وأصبح الصباح غطست الغطاسين يرفعون مراسى الزورق التى قطعت الفرنج سرياقاتها بالخناجر ، ومضوا به ، فبينما تحت الماء يرفعونها ، إذا برجل ميت ، فرفعوه

إلى القارب ، وأتوا به إلى الساحل ، وإذا به حسن العسال بالعين المهملة وصدره ووجهه مرشوقان بالسهام ويده اليسرى قابضة على آذان قفه فيها جرخته ، والقفة مرشوق فيها ثلاثة أسهم كان يلقى بها عن نفسه ، وبيده اليمنى خنجر قابض على نصابه ، قد يبست يده على الخنجر ، واليد اليسرى قد يبست على آذان القفه وهو ميت ، وملك الأمراء أسنبغا وجيشه وقوف على الساحل ، وناظر الاسكندرية فخر الدين بن الخازن إلى جانبه ، فنزل حينئذ الناظر المذكور عن فرسه أتى إليه قبل ما بين عينيه هو وغيره من الأكابر ، وقلع بيده الأسهم التى بوجهه وصدره ، وقلع من يده اليسرى القفه ومن يمينه الخنجر ، وقال هذا هو الشهيد الذى قتل مقبلا لا مدبرا ، أما ترون إلى ظهره (١٠٠ أ) ليس به جرح ولا خدش ووجدت عورته مستورة بتباله، فدفن بالمقبرة المجاورة(١) لتربة الشيخ أبى العباس المرسى ،وسمى قبره بقبر الشهيد قال المؤلف : غفر الله له ولوالديه وللأقربين إليه ولجميع المسلمين ، حدثنى الشيخ الصالح عبد الله بن نجم الصرفندى بثغر الاسكندرية المحروس بعد أخذ الفرنج لازورق المزبور بمدة ، قال : ان هذا الملعون ابراهيم بن الخبازة القبرسى الذى قاتل المسلمين وأخذ زورقهم ما أتى إلى الاسكندرية إلا بعد أن أتانا بلد الصرفند بساحل الشام وذلك أن رجلين من أهل الصرفند تخاصما ، فمضى أحدهما يشتكى الآخر من عند والى صيدا ، فلما كان فى الليل ضرب البوق والزمر ، فظنت أهل البلد أن الرجل أتى بالوالى بكبس الصرفند ، فخرجت أهل البلد منه هاربين ، فبينما هم خارجين من البلد وإذا بالناس يصيحوا : ارجعوا إلى بلدكم ، وقاتلوا عدوكم ، فإنما هم افرنج ، فرجعت الناس ، فهربت الفرنج بعد أن قتلوا من المسلمين ثلاثين نفراً ممن أدركوه فى أزقة البلد وأسروا ثلاثة عشر ، منهم ثلاث نسوة وأربع صبيان

(١) يقصد مقبرة كوم وعلة

وأربع بنات وطفلين على أكتاف أمهاتهما . ولم ينالوا من البلد شيئـاً غير المأسورين المذكورين . ثم إنه أخبر عن بعض أسارى المسلمين الذى قدموا من جزيرة قبرس إلى الشام أن ابراهيم بن الحبازة القبرسى، قال لنايب صاحب قبرس فى غيبة صاحب قبرس عند البابا كبير النصارى : اعطنى غرابين وشيطى مكملين العمارة برجالهم وأزوادهم أهجم بها على الصرفند ، فانى لما كنت أدخلها تاجراً أرى فيها الأموال الكثيرة والنساء الحسان ، أنهبها وأرجع إليك بأموالها وحريمها . فلما لم يحصل له فى غزوته تلك غير الأسارى المذكورين قال : كيف أدخل قبرس بغير مال ، وقد نفق نايبها النفقات الكثيرة على الغرابين والشيطى ؟ فقصد الاسكندرية ، صادف زورق المغاربة ، فظفر به ودخل به جزيرة قبرس (١٠٠ ب) بالطبول والأبواق والزمور ، فانقلبت جزيرة قبرس بالفرح لدخوله إلى مينتها به ، لكنهم لمـا تبين لهم قتل جماعة كبيرة من أصحابهم الفرنج بسهام المسلمين وسيوفهم انقلب فرحهم ترحاً ، لما عاينوا من كثرة الجرحى ، فأطلقت النساء والعجائز على المقتولين الجنايز .

وفى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شعبان من السنة المتقـدم ذكرها وهى سنة تسع وستين وسبع مابة قذف البحر على ابن معلا أحد ريساء دار الصناعة بالاسكندرية ، وكان المذكور هو وغيره من المسلمين فى الزورق المزبور ، فمضيت مع الناس لأنظره ، فرأيته على الساحل ملقى على ظهـره متوجها للقبلة ، قد سمر بالمسامير فى يديه ورجليه وقلعها منها ، فصارت طاقات المسامير بأقدامه بينه ظاهرة ، وفخذه الأيسر مهشم من وسطـه ، ويديه معورة بضرب السيوف ، ويده اليمنى مرتفعة إلى جبهة رأسه ، ويده اليسرى بجانبه الأيسر ، ووجهه بضرب السيوف معور غير عينه اليسرى فانها مفتوحه وبياضها ظاهر ، وقد انتفخ . ولم أر له لحية ، فقيل إن الفرنج سلختهـــا

بجلدتها ، ورأيت عورته مستورة بديس البحر ، فذكر لى بعض الحاضرين أنه مقطوع الذكر والأنيثين والأذنين أيضاً ، وهذا القش الذى على عورته سترته المسلمون به . ثم كفن وصلى عليه ودفن بالقرب من الباب الأخضر . ولم تمثل الفرنج به هذه المثلة إلا لعلمهم أنه أحد ريساء الصناعة ، ثم ألقوه فى البحر من غير تثقيل بحجر ليقذفه البحر بعد ثلاث إلى ساحل الاسكندرية ليغيظ المسلمين تمثيلهم له ، ولم تعلم الملاعين الفجرة الكافرين أن الله تعالى قد أنعم عليه بالشهادة ، ورزقه فى الآخرة السعادة ، فإنه من قاتل من المسلمين الكفار وقتل بسيوفهم أمن من النار ، وصار فى الجنة حيا يرزق ، كما جاء فى القرآن وصحيح الأخبار . وأما من تسبب فى قتل نفسه بزعمه أنه يرحم بذلك فالرحمة عنه بعيدة ، والشقاوة به موجودة . حدث بعضهم قال : (١٠١ أ) رأيت قوماً على نهر من أنهار الأغباب التى تجرى إلى البحر الملح ولها جرى عظيم تمد تجزر ، وإذا بعجوزة قاعدة فى وسط النهر على رمل ، وقد هرب الماء بجزره ، فقلت لها : ما أقعدك ها هنا ؟ قالت : انتظر الماء حتى يجىء يمده فيحملنى إلى البحر . فقلت لها : ولم تفعلى بنفسك ذلك ؟ فذكرت أنها عاشت مدة طويلة وأكلت وشربت ، فأرادت أن تقرب نفسها لخالقها ، كما زعمت . فهذه الرحمة عنها بعيدة بتسببها لقتل نفسها ، فما زالت قاعدة فى موضعها حتى جاء الماء حملها وسار بها . وحدث بعض المسافرين أنه رأى بمدينة كنبايت من أرض الهند الواحد يجىء إلى الخور فيغرق نفسه ومن خاف منهم أعطى أجرة لمن يغرقه ، فيقبض عليه ويضع يده فى قفاه ويغطس رأسه فى الطين والماء حتى يتلف ، فان صاح واستعفا وسأله أن لا يفعل ويتركه حيا فلا يقبل منه ذلك ، ولم يزل به حتى يهلكه لأن ذلك عندهم فى إحيسائه بعد إذنه فى إماتته .

انتهى فلنرجع إلى خبر ابراهم التازى من اتيانه إلى الاسكندرية بأسارى النصرانية من الجزاير الرومانية . وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شعبان ستة تسع وستين وسبع مائة قدم الرايس ابراهيم التازى من جزر الفرنج إلى الاسكندرية بأسارى النصارى مخشبين ، وغربانه الاثنين بالغنائم موسوقين ، فكانت مدة غيبته فى غزوته من حين سفره من الاسكندرية إلى حين عودته إليها ثلاثة وعشرين يوماً ، فارتجت الاسكندرية لقدومه ،وماجت بأهلها ساعة وروده ، فخرجت أهلها منها إلى موضع منارتها التى لم يبق من أساسها فى سنة خمس وسبعين وسبع مابة إلا البقعة لا غيرها ، وقد تقدم ذكرها وذكر انتقاضها بمر السنين عليها ، فأغنى عن إعادته . وأما الترك المجردة بالاسكندرية لحراستها فانهم اصطفوا بطول الساحل على ظهور خيولهم ناظرين للغرابين القادمين (١٠١ ب) مرتفعة بهما أعلام السلطان وأعلام النصارى منكسه فى البحر عايمة ، يجزف بروسها فيه يميناً ويساراً ، والمسلمون بالساحل يضجون بالتكبير للعلى الكبير ويصلون على البشير النذير ، ولم تبق مخدرة إلا خرجت من خدرها ، ولا مصونة الا برزت من كنها ، لينظرن إلى النصارى الأسارى وكان وصول التازى إلى المينة ضحي نهار ، فدعوا له الصغار والكبار ، وزرغتت لـه الأحرار والجوار ، فدخل الاسكندرية على فرس عربية ، على طرطور يقال له بلغة الإفرنج كستبر (١) ، وبلغة الروم كباس(٢) ، وبلغة المصريين رأس الغول ، من وبر شبه الصوف المرعز ، وعلى بدنه فشطون(٣) محتزم عليه بحياصة جلد معلق بها خنجر مجوهر ، وهو مهيأ

---

(١) لعلها مشتقة من كستورا Castora الأسبانية بمعنى قبعة ذات رأس مرتفع

(٢) يبدو أنها معربة من الكلمة الفرلسية Cabàs بمعنى قفة أو سلة

(٣) مشتقة من كلمة Veston الفرلسية بمعنى معطف قصير .

معه لذبح العلوج وقت المعمعة فى الدخول والخروج . وكان من خلف فرس الرايس المذكور أسارى الفرنج مقدمهم راهب مكرمش الوجه ، شنع القالب ، مزنر بزناره ، متوشح بصلبانه ، رأسه مكشوف ، ولحيته شبه القطن المندوف ، كبير السن ، جلده ناشف كالشى بعيد عن ديره . من خبره قيل لما قبضت المسلمون عليه بال على ساقيه وقدميه ، وضرب على صدره بيديه ، وصار يضرب الأرض برجليه ، حتى كلمه من يعرف لغته فقال له : ما اسمك ؟ قال حنين . فقال له : كم سنك ياحنين ؟ قال ماية وستين . فقال له : يا خبيث قطعت عمرك فى الكفر والتثليث ، فلما صار ساير خلف فرس ابراهيم التازى بثغر الاسكندرية صار فى كربة وبلية ، يقدم قومه العلوج الأسرى المناحيس ، وهو راكب على حمار وجهه لذنبه بالتجريس ، وهو يقدمهم على ذلك الحمار ، كما يقدم فرعون قومه إلى النار ولسان الحال يقول ياحمار ما نفعك صليبك والزنار ، بل فى قبضة المسلمين الأخيار ، والرهجية تضرب على رأسك بالطبل والطار (١٠٢ أ) ويزمرون عند أذنك بالمزمار ، يا رأس الكافرين الفجار. وكان يمشى خلف الراهب المذكور الفرنج العلوج ، فى أعناقهم الحبال ، وهم حفاة بلا نعال ، وهم فى أسوأ حال ، وشر وبال ، شعورهم منشورة كشعور الخنزيرة ، وبأيديهم الخشب ، منهم التجار والفلاحين ، وهم من سوء حالتهم كالمجانين ، وعدتهم خمسة وثلاثين ، وصحبتهم صبى مراهق ، وبنت بالغ مخطوبة بعض الأسارى المذكورين ، فصار ينظر اليهـا من نار بقلبه عليها . فقيل ، كان أسرهم من جزيرة الغيران وجزيرة الروج وجزيرة الرهبان ، ومن الزورق المغنوم أولا ، ثم ان جماعة الرايس ابراهيم التازى الغزاة المسلمون أراقوا خمورهم بجزايرهم ، ونهبوا دورهم ، وقتلوا خنازيرهم ، التى لحومها حرام بالاجماع

(١٠٢ب). وفى اليوم الذى أتى فيه التازى إلى الاسكندرية بالأعلاج الرومية خلع ملك الأمراء أسنبغا على الرايس ابراهيم التازى خلعة سنية ، وأمره بالسفر إلى حضرة السلطان، الملك الأشرف شعبان، على حالته التى أتى بها ، فسافر فى يومه ذلك ، وسافرت الأسارى عقيبه ...»

(٧)

منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الأشرف برسباى والفونسو الخامس ملك أرغون فى سنة ٨٣٣هـ

(من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية المحفوظة بأرشيف مملكة أرغون ، ص ٣٧٣ — ٣٧٦)

« الفصل الرابع :

أن جميع النظارين للمراكب على اختلاف أجناسها من رعية ملك أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الاسكندرية أو جميع المدن الاسلامية والسواحل لا يلزموا باعطاء ولو شيئاً بسبب من الأسباب ، ولا يغصبوا على ذلك ، ويكونوا متصرفين على أنفسهم وأموالهم ، ولا يلزموهم بالتفرق على العوائد القديمة .

الفصل الخامس :

ان النظارين والتجار فى جميع مراكب رعية ملك أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الإسكندرية وإلى جميع المدن بالسواحل من بلاد مولانا السلطان لا يلزموا بتفريغ بضاعة ولا متجر إلا الذين يختارون التجار لتفريغه ، ولا يلزموا إلا بموجب ما فرغوه وباعوه ، وأن جميع ما يفرغوه يلزموا بموجب ، وان أرادوا شيئاً من البضاعة يمكنوا من ذلك بعد وزن الموجب ولا يلزموا بشىء زائد غير ذلك .

الفصل السادس :

إذا حضر أحد من النظارين أو التجار من رعية ملك أركون إلى ميناء ثغر الاسكندرية وسائر المئن من بلاد مولانا السلطان قبل تحدثهم فى بضائعهم ومتاجرهم وبعد تحدثهم أنه لا يلزموا شيئاً من الموجب السلطانى ولا أحد من المباشرين والرعية بسبب ساير المتاجر والمراكب على اختلاف أجناسها إلا بموجب مولانا السلطان غير ما يباع من البضائع على العوايد القا.بمة .

الفصل الثامن :

إن لا مولانا السلطان ولا أحـــد من الأمراء ولا أحـــد من المباشرين ولا من الرعية لا يأخذوا شيئـــاً من بضاعة رعية ملك أركون ببحـــر الاسكندرية أو عشر دمشق ولا ببيروت ولا فى جميع بلاد مولانا السلطان من بضائعهم بثمن ولا بغيره إلا برضى صاحب البضاعة ومن كل بد إذا أراد مولانا السلطان أو أحد من مباشريه أن يأخذوا شيئاً من البضائع والمتاجر الموجودة يكون ذلك باتفاق التاجر ورضاه إعطاء له الثمن مخلص بغير تعويق ولا تسويف ، ولا يلزمونهم ببيع ولا بشراء لا يجبروا بشراء شىء ولا بوفاء على تجار رعية ملك أركون شيئـــاً من البهار ولازاد ولا جوهر ولا شىء من المتاجر والبضائع بغير رضاهم بسبب من الأسباب ولو كان أحد من غير جنسهم يلزموا بشىء أجناس من جنوسه ولا يلزموا رعية ملك أركون بذلك .

الفصـــل الرابع عشر :

لا يعوق لأحد من رعية ملك أركون ولا من التجار ما يركب بثغر الاسكندرية من الذهب لأحد من رعية مولانا السلطان ولا من التجار ولامن سائر الطوائف إلا أن يكون بأمر مولانا السلطان أو مولانا ملك الأمراء أو أحد من مباشرين الديوان .

الفصل الرابع والعشرين :

إن مولانا السلطان يرسم بعمارة فندق الكتيلان وبنائه من غير أن يكلفوا التجار ولا القنصل بشيء من ذلك .

الفصل الخامس والعشرين :

إن أحد من التجار رعية ملك أركون إذا هلك فى بلاد مولانا السلطان فيكون جميع موجوده تحت يد من يكون أوصى إليه ذلك ، وإن مات من غير وصيته يكون ماله تحت يد القنصل أو تحت يد أحد من تجار الكتيلان الذين يكونوا موجودين فى المكان الذى هلك فيه ، وإذا لم يكون ثم قنصل ولا مولانا السلطان ، فلأحد المباشرين الوصية إليهم فى ذلك ... » .

(٨)

زيارة السلطان الأشرف قايتباى الاولى للاسكندرية في ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٣ ص ١٢٦ — ١٢٨)

« ... وفى ربيع الأول سنة ٨٨٢ نزل من القلعة فى يوم السبت رابع عشرة، وعدى إلى بر الجيزة ولم يشعر به أحد من الناس وقصد التوجه إلى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر وجهز سنيحة من البحر فى مراكب ، وسافر صحبته من الأمراء الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجم الخفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ، وسافر معه ساير المباشرين .... فلما وصل السلطان مدينة الإسكندرية زينت له زينة حافلة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش ، وكذلك قجماس الأسحاقى نايب ثغر الاسكندرية، واصطفت الناس فى شوارع المدينة بسبب الفرجة ، فدخل السلطان فى موكب حافل وجميع من معه من العسكر ملبسين آلة السلاح بالعدد الكاملة والأتابكى أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء وقدامه أعيان المباشرين وأرباب الدولة ، وطلب طلباً حافلا وجرفيه مايتان وخمسون فرسا، منها خمسون فرساً بالسروج الذهب والكنابيش، والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات والجواغين المكفتة بالذهب والفضة والبقية من

المخمل الملون، وفى الطاب كجاورتين زركش وهى التى تعرف الآن بالحوش، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب والأوزان عماله والشبابة السلطانية ، ومشت قدامه الأمراء الرؤوس النوب بالعصى ، فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل وكان له يوم مشهود . ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما شق من مدينة الاسكندرية سقط الطاير الذهب من على القبة فنزل الأمير يشبك الدوادار عن عن فرسه وثبت الطاير على القبة . ثم ركب على فرسه ، ومشى . ثم ان بعض تجار الفرنج نثر على رأسه لما شق المدينة ألف بندق ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر الفرس من شدة ازدحام الناس عليه حتى أدركه الأمير تمراز رأس نوبة النوب وفى يده عصاة فضرب بها الناس حتى خلص السلطان ، ومشى . واستمر فى ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذى هناك فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان العادة القديمة أن السلطان إذا دخل مدينة الاسكندرية تفلك أبواب المدينة وتلقى على الأرض إلى حين يرحل السلطان على المدينة . فلم يوافق السلطان قايتباى على فك أبواب المدينة وأبقى كل شىء على حاله . وهذا من عهد الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون لم يدخل الاسكندرية سلطانا . وقد دخلهـــا مرتين المرة الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة لما طرق الفرنج ثغر الاسكندرية ، فدخلها على جرائد الخيل . وأما فى المرة الثانية فكان سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له خليل بن عرام نايب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشت بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة وتوجه من هناك إلى الاسكندرية

فأقام بها ثلاثة أيام وعاد إلى القلعة . ثم توجه بعده للاسكندرية الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق فى سنة أربعة عشر وثمان مائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث إلى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وعد ذلك من محاسن الناصر فرج (١) . انتهى ذلك . ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف قايتباى . فلما نزل بالخيم مد له هناك قجماس نايب الإسكندرية مدة حافلة ، ثم أخلع على الملك المؤيد ونايب الإسكندرية ، ورجعا إلى دورهما وصحبتهما الأمراء قاطبة فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب بالكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه ، ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة ، ثم أنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا فبنى به برجاً معظماً ، وهو الموجود الآن كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ثم إن السلطان رحل عن الاسكندرية وتوجه إلى نحو إدكو ودمنهور ...».

(١) كرر ابن إياس وصفه لزيارة الناصر فرج بن الظاهر برقوق لثغر الاسكندرية فى ٤٢٦ ج ٤ .

(٩)

زيارة السلطان قايتباى الثانيه للاسكندرية

فى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الثالث ص ١٥٠ ، ١٥١)

« ... وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان إلى ثغر الاسكندرية وهى السفرة الثانية ، فتوجه من البحر فى عدة مراكب كثيرة ، وكان سبب توجه السلطان من البحر لعدم الطريق من كثرة ماء النيل على افتراش الأراضى ، وكان معه من الأمراء الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك من حديد ، والأمير أزبك اليوسفى الخازندار ، أحد الأمراء المقدمين ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجم الغفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية ، وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر ابن مزهر وغيره من أعيان المباشرين، وكان معه الشهابى أحمد بن العينى ، وسيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وغير ذلك من الأعيان ... وكان سبب سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأة هناك ، وقد انتهى العمل منه ، فتوجه إليه ليرى هيئته ، فلما دخل مدينة الإسكندرية لم يوكب بها مثل أول مرة ، ولا حملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالخيم ، مد نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم توجه إلى رشيد ، وكشف على البرج الذى أنشأه بها ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم ،فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة .

وقيل فى صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج ، وقد بنى على أساس المنار القديم الذى كان بالاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعداً مطلا على البحر ، ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهى داخلة إلى المينة . وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا ، وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلا معمرة بالمدافع ليلا ونهاراً بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دايماً ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل عليهم شاداً من خواصه يقال له قانصوه المحمدى، وهو الذى ولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى ، وقيل إن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف ، ثم أن السلطان أقام بثغر الاسكندرية أياما ورحل عنها » .

(١٠)

زيارة السلطان قانصوه الغورى الاولى للاسكندرية في ذى القعدة سنة ٩٢٠ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الرابع ص ٤٢٣—٤٢٥)

« ... وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه إلى ثغر الاسكندرية فإنه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكية فى بولاق ، فتغدى هناك ، ثم عدى إلى برانبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية فأقام به خمسة أيام ، قيل إنه كان منتظراً لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند . فلما ورد عليه كتب العقبة ، اطمأن ، ورحل من المينة وقد قاسى العسكر فى التعدية مالا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة عن المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر ، ثم ان السلطان توجه من المنية إلى المنصورية ، وأقام بها يوم وليلة ، ثم توجه من هناك إلى البحيرة ، فأقام بها يوم وليلة ، واستمر يرحل من مكان إلى مكان إلى أن نزل بالنجيلة فأقام بها يومان وليلتان ، وأحضروا له الصيادون هناك تمساح ، فأمر بتوسيطه بين يديه ، فلما كان يوم السبت ثالث عشرة دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به إلى يوم الأحد ، ثم أوكب من هناك ، ودخل إلى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشرة ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك . ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش

والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفته بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة وعليه كامليه مخمل أحمر بصمور وحمل الأتابكى سودون العجمى القبة والجلالة(١) على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضاً عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من المدينة فى موكب حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة .

فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب ، ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكى سودون بالجلالة على القبة بعض السقائف التى هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت على الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التى كانت عليها ، ثم إن السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل إليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير ذلك ، ثم قدم إليه الخواجا ابن أبو بكر تاجر السلطان تقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غايه الخراب بسبب ظلم النائب وجود القباض ، فانهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشر أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح . وكانت الاسكندرية من أجمل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة

---

(١) الجلالة هى هلال كان يتوج قبة السلطان وجعل مكان الطير .

البناء ، مفروشة بالرخام الملون وفى كل دار منها حمام تختص بها ، وكان بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقولات من بعد العصر إلى العشاء ، وكان بها أربعين ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف إنسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب السروم الكبار وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار الذى هى بهـا الآن . ثم ان السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملية المخمل الأحمر التى كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والخواجا ابن ابى بكر .

وفى ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكية على خدا بردى نائب الاسكندرية وقالوا له أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفى ، كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى إلى الاسكندرية ، فلم يعطيهم شيئاً فكادوا أن يخرقوا به ، وما سلم من القتل إلا بعد جهد كبير . ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام . فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له موادن (١) المدينة وعلقوا على شراريف الصور (٢) كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب (٣) الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ثم توجه إلى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى ،

(١) جمع مئذنة

(٢) يقصد شرفات السور التى بأعلاه

(٣) كانت العادة تجرى وتتشذ على أن يخرج السلطان فى موكب لعب الكرة ويخرج معه الجوكندار أى حامل عصا الكرة .

فطلع فى البرج هو و الأمراء ، وأرموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل و المنجنيق. ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج الذى بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بإمرة الطبلخاناه ، ثم فى ليلة الأربعين سابع عشرة أحرق السلطان فى الوطاق إحراقه نفط حافلة على شاطىء البحر الملح . ثم فى يوم الأربعاء سابع عشرة رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية فكان مدة إقامته بها يومان وليلتان » .

(١١)

رحلة سفير غرناطه الى السلطان الظاهر جقمق

سنة ٨٤٤ هـ (١)

(نص نشره الدكتورعبد العزيز الأهوانى فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : المجلد السادس عشر ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٨ — ١٠٥)

(نص نشره الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة : المجلد السادس عشر ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤ ،ص ٩٨—١٠٥)

« ... ورودس هذه ، جزيرة كبيرة تقابل بر التركية ، وهى منه على نحو ستة عشر ميلا ، وبها مدينة كبيرة على ساحلها ، وهى موضع رباط للنصارى يتناوبون سكناها ، ويأتون إليها من أقاصى بلادهم . ولها ببلاد النصارى على ما حدثنى من أصدقه أوقاف كثيرة يجتمع من فائدها فى كل عام مائة ألف ونيف وأربعون ألفاً من الذهب ، فهى بذلك كثيرة الذخائر والعدة ... وهى فى هذا العهد شديدة الإذاية على المسلمين . وذلك أن نحو ستة عشر جفنا غزوانيا كلها معدة للقرصنة ، لا يفترون عن الإغارة فى غالب أمرهم شتاء ولا صيفاً. وجميع قراصين النصارى— دمرهم الله— ممن يواليها بتلك الجزور والبلاد إنما تزودهم ، وجهاز أمرهم منها . وبها

---

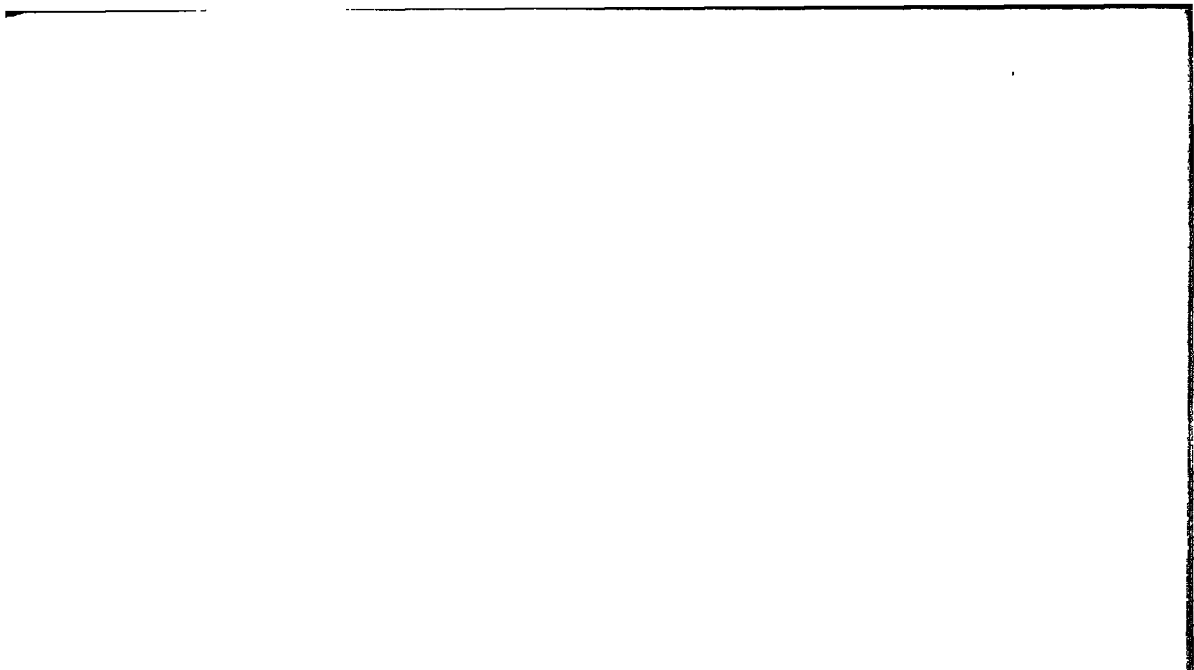
(١) هذا وصف لما شاهده سفير مملكة غرناطة فى طريقه بحرا إلى الاسكندرية ، سجله السفير بقلمه ، والمؤلف يصف جزيرة رودس ويذكر الموقعة البحرية التى حدثت بين الأسطول المصرى وأسطول رودس . ثم يصف لنا اقامته بالاسكندرية فى ضيافة نائبها اسنبغا الطيارى ويصف انتقاله منها إلى القاهرة براً إلى رشيد وعن طريق النهر من رشيد إلى ثغر بولاق ، ويختتم هذا النص بوصف السفير لمقابلته للسلطان وذكر ما قدمه إليه من هدايا الدلسية .

يبيعون أسراهم وما يجلبون من أموال المسلمين من بر الشام وغيره . وكان فيها إذ كنا بها أزيد من مائتى أسير من المسلمين رمنا أن نفدى منهم شيئاً فلم نقدر ، لأن صاحب البلد لما سمع بذلك أمر بمنع الأسارى من الطاوع إلينا لما كان فى غرضه من أن يقدمهم إلى صاحب القاهرة فى هدية لعله يهادنه على ما بلغنا ، فانه منه فى خوف شديد » .

« ... وهذه المدينة من أحصن المدن وأمنعها . وعلى شرفات سورها عدة دواليب من خشب تديرها الريح وتحت كل دولاب منها أرحى تدور بدورانه لطحنهم ، وهى على أحكم صنعه وحسن هندام »

« . . . . فوصلنا مدينة الاسكندرية — حرسها الله — عشية يوم الخميس من شهر رجب المذكور والحمد لله على الوصول فى كنف السلامة . ثم فى صبيحة يوم الجمعة ثانى يوم دخولنا وجهنا من يعرف بنا والى الاسكندرية وكان اسمه صنبغا الطيارى أحد أمراء الترك أنجدهم الله . فوجه إلينا جملة من عتاق الخيل التى لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زى. وذلك أنهم يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب على إحكام صنعه وحسن وشى ، ويضعون مواضع الركوب منها مجالس من الديباج الملون ، ويجللون اكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق الطرف . فقدموا لنا من تلك الخيل ما ركبنا حين نزولنا من البحر ، ودخانا فسلم على الأمير بالاسكندرية المذكورة ، وهم يدعونه بملك الأمراء ، وكذلك كل من يلى المعامل الكبار منهم . فلما دخلنا عليه مرحب بقدومنا حين سلمنا عليه ، وأمر باحضار مشروب على عادتهم يرد مع من يرد عليهم من الضيفان والقصاد ومن يكرم عندهم. فجىء بأوانى زجاج رائق، فيها من مذاب السكر الممزوج بماء الورد مما يحيى النفوس وينعش القلوب، فشربوا وشربنا . ثم

أمر بانزالنا واجراء الضيافة علينا ، فانصرفنا وقد حانت صلاة الجمعة . ثم في يوم السبت أنزلنا جميع ما كان لنا بالطرائد من الحوائج والوسق ، وأراحنا الله تعالى من البحر وأهواله والحمد لله . فأقمنا تحت ايالته ثمانية أيام فى أهنأ عيش وأحسن حال . وكانوا يختلفون إلينا فى الغذاء والعشاء بأنواع من المطاعم التى لم نعهد مثلها وبصنوف من الحلواء والمشروبات ، إلى أن تهيأ السفر إلى القاهرة حرسها الله فاكترينا جمالا حملناها لجميع ما كان عندنا من الحوائج والأثقال ، وأصحبنا الأمير المذكور أحد خدامه ليقوم بمؤنتنا فى الطريق وليعرف بنا . فارتحلنا منها ضحوة يوم الخميس الثالث عشر من رجب المذكور إلى رشيد ، وصلناها عصر يوم الجمعة ثانى يوم ارتحالنا ...»







مراجع الكتاب

أولا — المصادر العربية المخطوطة

ثانياً — المصادر العربية المطبوعة

ثالثاً — المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

رابعاً — رسائل غير مطبوعة

خامساً — المراجع الأوربيـــة



مراجع الكتاب

أولا ـ المصادر العربية المخطوطة

١ ـ ابن الصباغ (أبو على الحسن بن عمر بن أبى إسحاق) :
« فضائل الاسكندرية » ، نسخة مصورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، بجامعة الاسكندرية ، برقم ٧٧٩ م .

٢ ـ العينى (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد) :
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ، نسخة مصورة من مخطوطة أسطنبول ، محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ .

٣ ـ مجهول : « تاريخ الملك الأشرف قايتباى » ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٨٥٥٤ خ .

٤ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :
« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، برقم ٢٠ م .

٥ ـ ـــــ : « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، مخطوطة

مصورة محفـوظة بدار الكتب المصرية . برقم ٤٥٥
تاريخ

٦ — النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) :
«الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية» نسخة مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ . محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، بجامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م ، ونسخة أخرى مصورة من مخطوطة الهند . محفـوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية برقم ٧٣٨ م ، ونسخة ثالثة مصورة من مخطوطة برلين . محفوظة أيضاً بمكتبة كلية آداب الاسكندرية ، برقم ٦٦٧ م .

٧ — النـويرى (شهاب الدين أحمـد) :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

٨ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
« تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين » نسخة مصورة من مخطوطة باريس ، محفوظة بالمكتبة العامة لجامعة الاسكندرية برقم ٦٤ مخطوط .

٩ — ———— : « التاريخ الصالحى » ميكروفيلم مستخرج من النسخة المصورة المحفوظة بمكتبة كلية الآداب . جامعـــة الاسكندرية ، برقم ٣٢ م .

ثانيا ـ المصادر العربية المطبوعة

١٠ ــ ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) :
«كتاب الحلة السيراء» ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس في جزأين ، القاهرة . ١٩٦٣ .

١١ ــ ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) :
« الكامل فى التاريخ » ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ

١٢ ــ الإدريسى (الشريف أبو عبد الله محمد بن العزيز) :
« صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، نشره دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٦٦

١٣ ــ الأصفهانى (عماد الدين أبو عبد الله محمد) :
«كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، تحقيق الأستاذ محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٤ ــ ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) :
« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » الأجزاء الثلاثة :
الثالث والرابع والخامس، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ــ١٩٦٣ ، وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٥١

١٥ — ابن بسـام (أبو الحسن على الشنتريني) :
« الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، الجزء الأول من القسم الأول ، القاهرة ١٩٣٩ — الجـزء الأول من القسم الثانى ، القاهرة ١٩٤٢ — الجزء الرابع من القسم الأول ، القاهرة ١٩٤٥

١٦ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :
«كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، نشره كوديره Codera ، مدريد ، ١٨٨٣

١٧ — ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى) :
« رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفـة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، طبعة دار صادر — دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠

١٨ — البغـدادى (موفق الدين عبد اللطيف) :
«كتاب الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، القاهرة ١٨٧٠

١٩ — البكـرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) :
« كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، نشره البارون دى سلان ، الجزائر ١٩١١

٢٠ — البـلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) :
«كتاب فتوح البلدان » ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، فى ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٧

٢١ — البـــلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى) :
« سيرة أحمد بن طولون » ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ، ١٣٥٨ هـ

٢٢ — التجـــانى (أبو محمد عبد الله بن محمد) :
« رحلة التجانى » ، تحقيق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨

٢٣ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى) :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١٢ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية ، والجزء الثالث من طبعة وليم بوبر ، كاليفورنيا ، ١٩٣٢

٢٤ — ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسى) :
« رحلة ابن جبير » ، تحقيق الأستاذ وليم رايت William Wright العدد الخامس من مجموعات جب التذكارية ، ليدن ، ١٩٠٧

٢٥ — الجزنـاءى (أبو الحسن على) :
« كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » ، نشره الأستاذ ألفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٢٦ — ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) :
« الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، تحقيق الأستاذ محمد سيد جاد الحق ، فى خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦

٢٧ — ابن حزم (أبو محمد على بن سعيد) :
« جمهرة أنساب العرب » ، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢٨ — الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدى) :
« جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢

٢٩ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد المنعم) :
« صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٣٠ — ابن حوقل النصيبى :
« كتاب صورة الأرض » ، تحقيق كرامرز ، ليدن سنة ١٩٣٨ ، وطبعة بيروت (مكتبة الحياة) ، بيروت سنة ١٩٦٢

٣١ — ابن الخطيب (لسان الدين محمد) :
«كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام » ، القسم الأندلسى ، حققه الأستاذ ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ؛ والقسم المغربى ، حققه الدكتور أحمد مختار العبادى والأستاذ ابراهيم الكتانى ، بعنوان « تاريخ المغرب العربى من كتاب أعمال الأعلام » ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

٣٢ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، الجزء الأول (المقدمة) ، طبعة مصر (مطبعة التقدم)، وتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى أربعة أجزاء ، القاهرة١٩٥٧

٣٣ — ———— : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١

٣٤ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) :
« وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » ، طبعة القاهرة ١٢٧٥ ھ

٣٥ — ابن دقماق (ابراهيم بن محمد) :
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، الجزء الخامس ، طبعة بولاق ، ١٣٠٩ ھ

٣٦ — ابن أبى دينار القيروانى (محمد بن أبى القاسم الرعينى) :
« المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس » ، تونس ، ١٢٨٦

٣٧ — الذهبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان) :
« العبر فى خبر من غبر » ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ثلاثة أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠

٣٨ — ———— : تاريخ الإسلام ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ھ

٣٩ — ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) :
« كتاب الأعلاق النفيسة » ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دى غويه ، ليدن ، ١٨٨١— ١٨٨٢ .

٤٠ — ابن الزبـير (القاضى الرشيـد):
« كتاب الذخائر والتحف » ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، ، الكويت ، ١٩٥٩

٤١ — ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) :
« كتاب روض القرطاس » ، ج ١ ، نشره تورنبرج ، Carlos Johannes Tornberg ، أبسال ، ١٨٣٩—١٨٤٣

٤٢ — السبـكى (تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب) :
« طبقات الشافعية » ، ج ٤ ، مطبعة النيل ، مصر ، ١٣٢٤

٤٣ — السخـاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) :
« كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك » ، بولاق ، ١٨٩٦

٤٤ — ــــــ : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، نشره الدكتور صالح أحمد العلى فى ترجمته لكتاب « علم التأريخ عند المسلمين » ، تأليف الأستاذ فرانز روزنثال بغداد ، ١٩٦٣

٤٥ — ــــــ : « الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع » ، القاهرة ، سنة ١٣٥٤

٤٦ — ابن سعيـد (أبو الحسن على الأندلسى) :
« المغرب فى حلى المغرب » ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف ، القاهرة ، ١٩٥٣

٤٧ ــ السـلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :
«الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى»، القاهرة، ١٩١٠

٤٨ ــ السيـوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) :
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ،
طبعة مصر ، ١٣٢١ هـ

٤٩ ــ أبوشامـة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى) :
«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » ، جزآن ،
تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٥٠ ــ ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) :
« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» ، نشره
بول رافيس Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ .

٥١ ــ ابن شـداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع) :
« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٥٢ ــ الشعـرانى : « الطبقات الكبرى » ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٤٣

٥٣ ــ صالح بن يحيى : « تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى
الغرب ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت
سنة ١٨٩٨ .

٥٤ ــ الضـبى (أبو جعفر أحمـد) :
« بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس » ، تحقيق
كوديره ، مدريد ، ١٨٨٥

٥٥ — الطـــبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :
« تاريخ الأمم والملوك » ، طبعة ليدن ، ١٨٨٣

٥٦ — ابن ظافر الأزدى (جمال الدين على) :
« بدائع البدائه » ، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ .

٥٧ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشى) :
« فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ (وطبعة ليدن ، سنة ١٩٢٠) .

٥٨ — ابن عذارى المراكشى : « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠ .

٥٩ — العـــذرى (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى) :
«ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ؛ والبستان فى غرائب البلدان ؛ والمسالك إلى الممالك » ، نشره الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ .

٦٠ — عريب بن سعد : « صلة تاريخ الطبرى » ، تحقيق دى غويه ، ليدن ، ١٨٩٧

٦١ — ابن العماد الحنبلى (عبد الحى) :
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ

٦٢ — أبو الفــداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) :
« المختصر فى أخبار البشر » ، صيدا ، ١٩٥٩ .

٦٣ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :
« تاريخ ابن الفرات » ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، مجلد ٧ ، ٨ ، ٩ ، بيروت ، ١٩٣٨ .

٦٤ — ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد) :
« مختصر كتاب البلدان » ، الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٨٥

٦٥ — ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
«كتاب الإمامة والسياسة » ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٣٧

٦٦ — ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى الفاسى) :
« جزء من كتاب نظم الجمان » ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط ، تطوان .

٦٧ — القلقشندى (أبو العباس أحمد) :
« مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤

٦٨ — ——— : « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ، المطبعة الأميرية القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٥

٦٩ — ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) :
« تاريخ افتتاح الأندلس » ، تحقيق دون خليان ريبيرا مدريد ، ١٩٢٦ .

٧٠ — ابن كثير الدمشقى (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) :
« البداية والنهاية فى التاريخ » ، ج ١٢ ، طبعة مصر ، سنة ١٩٣٢

٧١ — الكنــــدى (أبو عمر محمد بن يوسف) :
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، تحقيق الأستاذ رفن جست ، بيروت ، ١٩٠٨ .

٧٢ — المـــالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله) :
« كتاب رياض النفوس » ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٧٣ — مجهـــول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميـد ، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨ .

٧٤ — ———— : « حوليات دمشقية » تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨

٧٥ — المسعـــودى (أبو الحسن على بن الحسين) :
« مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ » ، طبعة الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨

٧٦ — ———— : « التنبيه والإشراف » ، طبعة بيروت (مكتبة خيـاط) ، ١٩٦٥

٧٧ - المقـــــرى (أحمد بن محمد التلمساني) :
« نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب » ، طبعة الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، عشرة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩

٧٨ - المقـــريزى (تقى الدين أحمد بن على) :
« كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، ٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ .

٧٩ - ———— : « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، جزآن فى ستة أقسام ، حققهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول ، قسم ١ ، ٢ (طبعة ثانية) القاهرة ١٩٥٦ ؛ الجزء الأول قسم ٣ ، القاهرة ١٩٣٩ ؛ الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٤١ ؛ وبقية الكتاب مخطوط .

٨٠ - ———— : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٨١ - ———— : « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، الجزء الأول نشره الدكتور جمال الدين الشيال عن المخطوطة الكاملة بمكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٨٢ - ———— : « البيـــان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب » ، القاهرة ، ١٣٣٤ هـ .

٨٣ — ابن ممـاتى (الأسعـد) :
« كتاب قوانين الدواوين » ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

٨٤ — ابن منجب الصيرفى (أمين الدين أبو القاسم على) :
« الإشارة إلى من نال الوزارة » ، القاهرة ، ١٩٢٤

٨٥ — النـابلسى (عثمان بن ابراهيم) :
« كتاب لمع القوانين » ، تحقيق بيكر وكلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسى بدمشق ، ج ١٦ دمشق ، ١٩٦١

٨٦ — ناصر خسرو علوى : « سفرنامة » ، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥

٨٧ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ثلاثة أجزاء نشرها الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١ .

٨٨ — النعمـــان (القاضى أبو حنيفة بن محمد) :
« قضية اقريطش فى عهد المعز لدين الله » ، تحقيق الأستاذ فرحات الدشراوى ، حوليات الجامعة التونسية العدد الثانى ، تونس ، ١٩٦٥ .

٨٩ — الهـــروى (أبو الحسين على بن أبى بكر) :
« كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات » ، تحقيق جانين سورديل طومين ، دمشق ، ١٩٥٣ .

٩٠ — ابن الوردى (زين الدين عمر) :
« تتمة المختصر فى أخبار البشر » ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ

٩١ — ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى) :
«معجم البلدان» ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٩٢ — اليعقوبى (أحمد أبى يعقوب بن جعفر) :
« كتاب البلدان » ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٩١ .

٩٣ — ———— : « تاريخ اليعقوبى» ، ٣ أجزاء ، طبعة النجف ، ١٣٥٨ هـ

٩٤ — اليونينى (قطب الدين موسى بن محمد) :
« الذيل على مرآة الزمان » ، ج ٢ ، حيدر أباد ، ١٩٥٥

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

٩٥ ـ أحمد (الأستاذ محمود) : تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر ، مقال فى كتاب « فى مصر الإسلامية » ، القاهرة ، ١٩٣١

٩٦ ـ أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ

٩٧ ـ الأهوانى (الدكتور عبد العزيز) : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى ، بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤

٩٨ ـ « : ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ١٩٥٧ .

٩٩ ـ بتلر (الفريد) : فتح العرب لمصر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٠٠ ـ بروفنسال (ليفى) : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٠١ ـ بل (آيدرس) : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين ، والدكتور عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٠٢ـ توفيــــق (الدكتور عمر كمال) : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٠٣ـ جمعــــه (الدكتور ابراهيم) : جامعة الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٤

١٠٤ـ جوانفيــل : مذكرات جوانفيل ، ترجمة الدكتور حسن حبشى القاهرة ، ١٩٦٨

١٠٥ـ حســـن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية فى فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٠٦ـ حســـن (الدكتور زكى محمد) : الفن الإسلامى فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٥

١٠٧ـ « : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١٠٨ـ « : فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨

١٠٩ـ حســـن (الدكتور على ابراهيم) : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١١٠ـ حســـين (الدكتور محمد عواد) : مقدمة لتاريخ الاسكندرية من أقدم العصور ، كتاب محافظة الإسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٩ — ١٢ .

١١١ـ « : تخطيط مدينة الاسكندرية ، مقال فى الكتاب السابق ص ١٣ — ٢١ .

١١٢- حسين (دكتور محمد عواد)، ودكتور داود عبده : الاسكندرية في العصر البيزنطي ، مقال في الكتاب السابق ، ص ٢٠٠ - ٢١٤ .

١١٣- دراج (الدكتور أحمد السيد) : جم سلطان والدبلوماسية الدولية مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ .

١١٤- « : المماليك والفرنج ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١١٥- ديـل (شارل) : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٤٨

١١٦- ريـاض (الدكتور هنرى) وآخرون : دليل آثار الاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٦٥

١١٧- الـزاوى (الأستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣

١١٨- زكـى (الدكتور عبد الرحمن) : عواصم مصر الأسلامية ، فصل من كتاب « في مصر الإسلامية » القاهرة ، ١٩٤٧ .

١١٩- « : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٢٠- سـالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : المساجد والقصور في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٢١- « : الأندلس ، بحث طويل بدائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ ، ٦٤ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٢٢— سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الإسلامية الوسطى ، مقال بمجلة المجلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ .

١٢٣— « : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية مقال بمجلة المجلة ، العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ .

١٢٤— « : الاسكندرية ، مقال فى دائرة معارف الشعب ، العدد ٨٥ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٢٥— « : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الإسلامى مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، أغسطس ١٩٦٣ .

١٢٦— « : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

١٢٧— « : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢

١٢٨— « : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى بيروت ، ١٩٦٣ .

١٢٩— « : المغرب الكبير ، الجزء الثانى : العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

١٣٠— « : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧

١٣١— « : دراسات فى تاريخ العرب ، الجزء الأول : عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٣٢— سالم : المآذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ، ١٩٥٩

١٣٣— « : تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس بيروت ، ١٩٦٨ .

١٣٤— « : الحكم ، بحث بدائرة معارف الشعب ، العدد ، ٦٧ القاهرة ، ١٩٥٩

١٣٥— سامح (الدكتور كمال الدين) : العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٣٦— سرور (الدكتور محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧

١٣٧— « : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٣٨— « : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٣٩— سلام (الدكتور محمد زغلول) : الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، الاسكندرية ، ١٩٥٩

١٤٠— شبيرة (الدكتور محمد عبد الهادى) : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩

١٤١— الشيال (الدكتور جمال الدين) : الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .

١٤٢— الشيـــال : الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٤٩ .

١٤٣— « : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٤٤— « : الفسطاط ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ١٢ ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

١٤٥— « : مصر فى العصر الفاطمى ، مقال فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٤٦— « : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٤٧— « : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٤٨— « : أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ، عدد ٧٤ ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٤٩— شيبـــوب (الأستاذ صديق) : جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب ، فبراير ، ١٩٤٩ .

١٥٠— طرخـــان (الدكتور على) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٥١— طـوسـون (الأمير عمر) : تاريخ خليج الاسكندرية القديم الاسكندرية ، ١٩٤٢ .

١٥٢— عابديـن (الأستاذ عبد الحميد) : دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، ملحقة بكتاب « البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب » ، للمقريزى ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٥٣— عاشـور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) : قبرس والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ .

١٥٤— « : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩

١٥٥— « : الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٥٦— « : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٥٧— العبـادى (الدكتور أحمد مختار) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٥٨— العبـادى (دكتور مصطفى) : الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٥٨ — ٩٩ .

١٥٩— عبد التواب (الأستاذ عبد الرحمن) : منشآتنا المائية عبر التاريخ ، المكتبة الثقافية ، عدد ٩٦ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٦٠— عبد الحكيم (الدكتور محمد صبحى) : مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٦١— عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) : ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، مجلد ٨ ، ديسمبر ١٩٥٤ .

١٦٢— عبد الحميد : (دكتور سعد زغلول) الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، مقال بالكتاب الذى أصدرته محافظة الاسكندرية ، ص ٢١٧ — ٢٨٩ .

١٦٣— عبد الوهاب (الأستاذ حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ، الجزء الأول القاهرة ، ١٩٤٦ .

١٦٤— « : الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مجلة الكتاب ، عدد عدد يناير ١٩٤٧ .

١٦٥— « : قلعة قايتباى أثر إسلامى عظيم فى وسط البحر ، جريدة الأهرام ، الصادرة فى ٢٥ يونيو ١٩٤٩ .

١٦٦— « : العمارة فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، عدد ٧ ، ٨ القاهرة ، ١٩٤٠

١٦٧— عثمان (الأستاذ فتحى) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى ، والاتصال الحضارى ، ثلاثة أجزاء القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٦٨— العدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٥٠ .

١٦٩— « : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٧٠— « : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٧١— العـــدوى : قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٧٢— العـــريـــنى (الدكتور السيد الباز) : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٧٣— عطيـــــة (الدكتور عزيز سوريال) : الاسكندرية المسيحية ، مقال فى كتاب الغرفة التجارية ، الصادر فى ١٩٤٩ .

١٧٤— عكـــوش (الأستاذ محمود) : مصر فى عهد الأسلام ، دار الكتب القاهرة ، ١٩٤١ .

١٧٥— عـــلى (الدكتور زكى) : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ، ١٩٤٤ .

١٧٦— « : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، مقال فى فى الكتاب الذى أصدرته الغرفة التجارية بالاسكندرية ، ١٩٤٩ .

١٧٧— عنـــان (الأستاذ محمد عبد الله) : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ .

١٧٨— الفخـــرانى (الدكتور فوزى) : حمامات الاسكندرية الرومانية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، عدد ١٦ ، ١٩٦٣ .

١٧٩— فـــرج (الأستاذ فؤاد) : الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

١٨٠– الفلكى (محمود باشا) : الاسكندرية القديمة ، ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ، ومراجعة الدكتور محمد عواد حسين ، الاسكندرية ، ١٨٦٧ .

١٨١– فييت (الأستاذ جاستون) : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، مقال ترجمة الأستاذ محمد وهبى ، فى كتاب « فى مصر الاسلامية » ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

١٨٢– القبانى (الأستاذ عبد العليم) : شعراء الاسكندرية فى العصور الاسلامية ، مجموعة كتب « مذاهب وشخصيات » ، عدد ١٠١ .

١٨٣– كاشف (دكتورة سيده اسماعيل) : مصر فى عصر الولاة منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٨٣– « : والدكتور حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٨٥– لبيب (دكتور صبحى) : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ .

١٨٦– لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٨٧– ماجد (الدكتور عبد المنعم) : الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ، ١٩٦١

١٨٨— ماجد : نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٨٩— ماركيلنيوس (أميانوس) : مصر فى القرن الرابع ، ترجمة الدكتور وهيب كامل .

١٩٠— مؤنس (الدكتور حسين) : أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

١٩١— مبـــــارك (على باشا) : الخطط الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها ، بولاق ، ج ٧ ، ١٣٠٥ هـ .

١٩٢— مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز) : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ .

١٩٣— « : صنـــاعة النسيج فى الاسكندرية فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٢

١٩٤— مرقس (الأستاذ سليم أنطون) : الكشوف الأثرية تحت مياه البحر الأبيض المتوسط ، مقال فى كتاب دراسات أثرية وتاريخية من مطبوعات العيد الماسى لجمعية الآثار بالاسكندرية ، الإسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٩٥— مكى (الدكتور محمود على) : التشيع فى الأندلس ، مقال بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤ .

١٩٦— مــــكى (الأستاذ الطاهر أحمـد) : معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، مجلة المجلة ، عدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ .

١٩٧— مـــويـــر ((وليم) : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة الأستاذ محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة ، ١٩٢٤.

١٩٨— النجـــــار (الأستاذ أحمـد) : الإنتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٩٩— نسيم (الدكتور جوزيف) : لويس التاسع فى الشرق الأوسط القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٠٠— نصـــحى (الدكتور ابراهيم) : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج١ القاهرة ، ١٩٤٦ .

٢٠١— « : مصر فى عصر البطالمة والرومان ، مقال فى المجمل فى التاريخ المصرى .

٢٠٢— يحـــيى (الدكتور لطفى عبد الوهاب) : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، دراسة فى حضارة البحر الأبيض ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٢٠٣— « : دراسات فى تاريخ مصر ، الجزء الأول : عصر البطالمة ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢٠٤— يـــنى (جورجى) : تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨٦ م

رابعا ـ رسائل غير مطبوعة

٢٠٥ـ ابـــراهيم (الأستاذ أحمد طه) : « تونس من سقوط الدولة الصنهاجية حتى قيام الدولة الحفصية » رسالة مقدمة لدرجة الماجستير بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية نوقشت فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٨ .

٢٠٦ـ بلبع (الدكتور محمد توفيق) : « آثار السلطان قايتباى فى الاسكندرية (قلعة قايتباى) : رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بكلية الآداب جامعة الاسكندرية فى مايو سنة ١٩٥٥ .

خامسا ـ المراجع الاوربية

207 — Abbadi (Moustapha) : Alexandria citizenship, The Journal of Egyptian Archaeology, vol. 48, 1962, (pp. 106 - 123).

208 — Alarcon (Max.) & Linares (R. Garcia de) : Los Documentos arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.

209 — » » : Lampara de los Principes, Madrid, 1930.

210 — Atiya (Aziz Surial) : The Crusade in the later Middle ages, London, 1938.

211 — Blachère : Extraits de principaux geographes arabes du Moyen âge, Paris-Beyrouth, 1932.

212 — Breccia : Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922.

213 — de las Cagigas (Isidro) : Andaluces en Africa, Boletin de la Real Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles artes de Cordoba, ano VIII, 1929, No. 25.

214 — Cahen (Claude) : La Chronique abregée d'Al-Azimi, dans Journal Asiathique, Juillet-Septembre, 1938.

215 — » » : La Chronique des Ayyubides d'Al-Makin b. al-Amid, 1957.

216 — Cheira (M.A.H.) : La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

217— Combe (Etien) : Alexandrie musulmane, Notes de topographie et d'histoire de la ville, depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours, dans : Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. XV, 1933.

218 — » : Le fort Quat-Bay à Rosette, dans Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, (S.R.A.A.) No. 33, 1939.

219 — » : Notes sur les forts d'Alexandrie, et de ses environs, dans B.S.R.A.A., No 34, 1940 - 1941.

220 — » : Notes de Topographie Alexandrine, B.S.R.A.A. No. 34, 1944.

221 — » : Les Sultans mamloûks Ashraf Sha'bân et Ghauri à Alexandrie, B.S.R.A.A. No. 30 - 31, 1937.

222 — » : Notes de topographie et d'histoire Alexandrine. B.S.R.A.A., No. 36.

223 — » : Nouveaux sabres europeens à inscriptions arabes da l'Arsenal d'Alexandrie, B.S.R.A.A. vol. X

224 — Combe : & de Cosson : European swords with arabic inscriptions from the Armoury of Alexandria, B.S.R.A.A. vol. IX

225 — » : Le texte d'Al-Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie, Bulletin of the Faculty of Arts, Univesity of Alexandria, vol. III, 1946.

226 — » : Les Levés de Gravier d'Ortières à Alexandrie, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Alexandria, vol. I, May, 1943.

227 — » : Pierre Martyr d'Anghiera et le drogman du Sultan Ghauri, Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, vol. II, 1944.

228 — de Cosson : Notes of the Forts of Alexandria and environs, in B.S.R.A.A. No. 33, 1939

229 — Creswell : Some researches in the citadel of Cairo, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. 23.

230 — » : Works of Sultan Bibars, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. XXVI, 1926

231 — Diehl (Ch.) : Histoire du Moyen âge, t. III, le Monde Oriental, Paris, 1936.

232 — Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols. ed. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.

233 — Fahmy (Aly Mah.) : Muslim sea - power in the eastern Mediterranean, Cairo 1966.

234 — Guest (R.) : Encyclopédie de l'Islam, article "Alexandrie"

235 — Heyd : Histoire du Commerce du Levant, au moyen-âge, t. I, Leipsig, 1923.

236 — Jondet (G.) : Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, Mémoire de l'Institut d'Egypte, vol. IX, le Caire, 1916.

237 — » : Les ports antiques de Pharos, B.S.R.A.A. No. 14, 1912.

238 — Kahle (Paul): Die Katastrophe des Mittelaterlichen Alex. dans Mélanges Maspéro, t. III, L'Orient Islamique, le Caire, 1940.

239 — Lane (Arthur) : Early Islamic Pottery , London.

240 — Lane-Poole (S.): A history of Egypt in the middle ages, London, 1936.

241 — Lévi-Provençal (E.) : Une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie, Mélanges Maspero, III, le Caire, 1940.

242 — Lovillo (J. Guerrero) : La Puerta de Cordoba en la cerca de Sevilla, al-Andalus, Madrid, 1953.

243 — Makhairas (Léontios) : Recital concerning the sweet Land of Cyprus entitled « Chronicle », ed. by Dawkins, vol. I, Oxford, 1932.

244 — Marques de Lozoya : Historia del arte Hispànico, t. I, Barcelona, 1913.

245 — Marzouk (M.A.) : Alexandria as a textile centre, B.I.S.A.C., t. XIII.

246 — » » : Three signed specimens of Mamluk pottery from Alexandria, Ars Orientalis, t. II, 1957.

247 — Oman : The dark ages, London, 1958.

248 — Pauty (Edmond) : Les Hammams du Caire, Le Caire, 1933.

249 — Pedro Martir : Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, traduccion espanola por Luis Garcia, Valladolid, 1947.

250 — Pons Boigues (F.) : Ensayo Bio - bibliogràfico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles, Madrid, 1898.

251 — Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t.7 - 12, le Caire, 1936.

252 — Sadique (Syedah Fatima) : Baybars I of Egypt, Pakistan, 1956

253 — Tousoun (Omar) : Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XIIe siécle, B.S.R.A.A. fasc. 30, 1930.

254 — Vasiliev : Byzance et les Arabes, t. I, La dynastie d'Amorium, Bruxelles, 1935.

255 — Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918.

256 — Ziada (M. Mustafa) : The mamluk conquest of Cyprus, Bulletin of the Faculty of arts, University of Egypt, vol. I, part. I, May, 1933.

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

القسم الأول

التاريخ

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

الفصل الثانى

الاسكندرية بعد الفتح العربى

صفحة

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة

الفصل الرابع

الاسكندرية فى العصر الأموى

الفصل الخامس

أحداث الاسكندرية فى العصر العباسى

صفحة

الفصل السادس

الاسكندرية فى ظل الطولونيين والعباسيين

الفصل السابع

الاسكندرية فى العصر الفـــاطمى

الفصل الثامن

الاسكندرية فى العصر الأيوبى

الفصل التاسع

الاسكندرية فى أزهى عصورها الاسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

صفحة

الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

صفحة

صفحة

الفصل الحادى عشر

الازدهار الأخير وبداية عصر الاضمحلال

(الاسكندرية فى عصر دولـة المماليـك الشراكسة)

القسم الثانى

الحضارة

الفصل الثانى عشر

التوسع العمرانى والمنشآت — صفحة

صفحة

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

فهرس ملاحق الكتاب

فهرس الصور والخرائط

استدراك

أولا — ذكرت فى صفحة ٢٢ ، ٢٦ من هذا الكتاب أنه تبقى من أسوار الاسكندرية القديمة آثار برج نصف دائرى بحدائق الشلالات ، والحقيقة أن هذا البرج وما يليه من آثار السور والبرج المستطيل الشكل هى جميعاً من بقايا السور الاسلامى ، وقد أوضحت ذلك فى الفصل الذى خصصته لأسوار الاسكندرية (ص ٤٣٥ — ٤٦٩) ، أما البرج الرومانى الذى أشرت إليه فكنت أعنى به البرج الذى كان قائماً فى أيام الحملة الفرنسية وما بعد ذلك بقليل بالقرب من مسلتى معبد كليوباترة .

ثانياً — عندما تحدثت فى ص ٤٨٣ عن القصور فاتنى أن أضع موضوع القصور والدور وغيرها من المؤسسات المدنية تحت عنوان « العمارة المدنية » ، وقد تداركت ذلك فى فهرس موضوعات الكتاب .

(تم الكتاب بعون الله)

